تاريخ الدولة العثمانية
في العصور الوسطى

تأليف
دكتور محمود محمد الحويرى
أستاذ تاريخ العصور الوسطى

الطبعة الأولى
٢٠٠٢م

الكتاب: تاريخ الدولة العثمانية فى العصور الوسطى

تأليف: دكتور/ محمود محمد الحويرى

رقـــم الإيداع ٢٠٠٢/١٧٥٨
الترقيم الدولي: ISBN
977--5841-57-7

تاريخ النشر: ٢٠٠١

الناشر: المكتب المصرى لتوزيع المطبوعات (طباعة ـ نشر ـ تصدير كتب)

الإدارة: ٥ ش مصطفى طموم ـــ المنيل ـــ القاهرة
تليفاكس: ٣٦٥٥٤٨٧

مقدمة

الترك أحد الشعوب الرعوية التى عاشت فى أواسط قارة آسيا، ولعبوا دوراً بارزاً فى التاريخ، وأول ما نسمعه عنهم هو أنهم أقاموا لأنفسهم فى القرن السادس الميلادى دولة امتدت من حدود الصين شرقا إلى حدود الدولتين الفارسية والبيزنطية غربا. وقد عرفت الدولة البيزنطية فى فترة سابقة عدداً من القبائل التى تنتمى إلى الجنس التركى كالخزر والقفجاق والبلغار والماجيار وغيرهم.

وفى النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى، ظهرت على مسرح الأحداث السياسية قوة الأتراك السلاجقة. وكانت الدولة البيزنطية الضحية الأولى التى وقعت فى طريقهم. وبعد الإحياء الملحوظ الذى شهدته تلك الدولة فى القرن العاشر الميلادى، سارت أوضاعها السياسية فى طريق التدهور والانحطاط، ويبدو ذلك واضحاً منذ وفاة الإمبراطور البيزنطى باسيل الثانى سفاح البلغار سنة ١٠٢٥م، فقد انهارت قواها الدفاعية، وانتابتها أزمات اقتصادية حادة منذ نهاية النصف الأول من القرن الحادى عشر، أدت إلى سيطرة التجار الأتراك السلاجقة على تجارة آسيا الصغرى، الأمر الذى حرم الدولة البيزنطية من أغنى ولاياتها ومصدرها الرئيسى للدخل من الضرائب.

على أنه حدث فى يناير سنة ١٠٦٧م أن اعتلى عرش الدولة البيزنطية إمبراطور نشيط قدير هو رومانوس الرابع، فخرج فى عام ١٠٧١م ليضع حداً لتقدم السلاجقة فى أراضيه، وعسكر بجيشه فى مانزكرت (ملازكرد) شمالى بحيرة ڤان، فى انتظار اللقاء بخصمه السلطان السلجوقى ألب أرسلان. وفى هذا الموقع حلت الهزيمة ساحقة بالبيزنطيين، وتمزق جيشهم، ووقع الإمبراطور نفسه أسيراً.

وقد جاءت معركة مانزكرت دليلا دامغا على ضعف الدولة البيزنطية، ونهاية دورها فى الدفاع عن المسيحية ضد الإسلام، وترتب عليها ضياع الأجزاء الشرقية من الدولة البيزنطية، وساعدت على القضاء على الدولة نفسها على يد الأتراك العثمانيين فيما بعد سنة ١٤٥٣م.

على أن دولة السلاجقة سرعان ما أخذت تسير فى طريق التداعى والانهيار بعد وفاة السلطان ملكشاه سنة ١٠٩٢م، فقد ترتب على وفاته نشوب النزاع بين أبنائه، ثم بينهم

وبين أعمامهم، فأدى ذلك إلى تفتيت الدولة إلى دويلات صغيرة، وانتشار الفوضى، وفساد الإدارة، واغتصاب الحكم، وحاول كل أمير سلجوقى أن يضم إلى صفه حلفاء يمنحهم الأموال والإقطاعات، الأمر الذى أضعف نفوذه وقوته.

ويمثل القرن الثالث عشر الميلادى حقبة هامة فى تاريخ الشرق الأدنى، وخاصة فى آسيا الصغرى، إذ شهد أفول وتفسخ سلطنة سلاجقة الروم، وتوغل المغول فى أملاكها. وما أن حلت أوائل القرن الرابع عشر، حتى كانت تلك السلطنة قد فقدت غربى الأناضول الذى توزع على عدد من إمارات الغزاة الأتراك، وأهمها إمارة عثمان.

وتقول الرواية التاريخية أن أرطغرل (١٢٣١ ـ ١٢٨١) أبو عثمان الذى نسبت إليه الدولة العثمانية كان يقود جماعة صغيرة، وحدث أن ساعد علاء الدين سلطان سلاجقة الروم فى حروبه، فرد السلطان على هذه المساعدة بمنح العثمانيين هبة سخية من الأراضى فى آسيا الصغرى فى المنطقة الواقعة على الحدود البيزنطية.

ولما توفى أرطغرل انتقلت زعامة العثمانيين إلى أكبر أبنائه عثمان (١٢٨١ ـ ١٣٢٦)، الذى انحصرت اهتماماته فى تأسيس قواعد الدولة العثمانية وبداية توسعها بالتدريج على حساب البيزنطيين، مستغلا الفوضى التى سيطرت على الأراضى البيزنطية بالأناضول، ومتجنباً الدخول فى نزاع مع جيرانه التركمان على الأقوى منه، حتى يأتى الوقت الذى تقوى فيه دولته بصورة كافية تمكنه من مواجهتهم.

وأخذ العثمانيون يتوسعون فى سرعة تسترعى الانتباه، فاستولوا سنة ١٣٢٦ على بروسة، واتخذوها عاصمة لدولتهم، ودفن بها عثمان مؤسس الدولة التى نسبت إليه. والواقع أن استيلاء العثمانيين على بروسة كان خطوة هامة دفعتهم إلى الأمام، فقد تحولت ممتلكاتهم من إمارة حدود يسكنها رعاة إلى دولة حقيقية ذات عاصمة وحدود وشعب مستقر.

وفى سنة ١٣٥٤م استولت جيوش السلطان العثمانى أورخان على مدينة غاليبولى، لتكون أول قاعدة عثمانية ثابتة فى أوروبا، راحت تنطلق منها الحملات العثمانية لغزو أوروبا ومنطقة البلقان فى السنوات التالية. ويرجع الفضل إلى أورخان فى أنه أرسى دعائم حضارة عثمانية، استمدت عناصرها من التراث السلجوقى وحضارة السلاجقة.

وعندما توفى أورخان، واستقرت الأمور لخليفته السلطان مراد الأول (١٣٦٢ ـ ١٣٨٩)، وجه جهوده إلى الجانب الأوروبى، حتى استولى على مدينة أدرنة (أدريانوبل) عاصمة تراقيا البيزنطية، واتخذها العثمانيون عاصمة لهم حتى سقوط القسطنطينية فى أيديهم فى القرن التالى. ونتيجة لذلك أصبحت القسطنطينية معزولة عن باقى أجزاء الدولة البيزنطية، قابعة خلف أسوارها، وباتت تنتظر الضربة الكبرى الأخيرة، التى كان لامفر من وقوعها.

وفى تلك الأثناء لم يجد الإمبراطور البيزنطى يوحنا الخامس باليولوجوس وسيلة لحماية دولته سوى الاستنجاد بالغرب الأوربى. ولهذا الغرض رأى أن يسافر إلى أوربا ليستعطف المساعدة من ملوكها وحكامها ضد العثمانيين. فتوجه إلى روما سنة ١٣٦٩م، حيث قابل البابا وأعلن اعتناقه للعقيدة الكاثوليكية كما كتب له اعترافا بقبول وجهة نظر الكنيسة الغربية فى جميع نواحى الخلاف بينها وبين الكنيسة الشرقية. وبديهى أن اعتناق يوحنا الخامس للكاثوليكية قد أثار ضجة عنيفة بين رعاياه الأرثوذكس، فى الوقت الذى لم تقدم له البابوية شيئا، إذ كانت عند منتصف القرن الرابع عشر الميلادى أضعف من أن تحيى الحماسة الصليبية بعد أن خمدت أنفاسها.

وفى سنة ١٣٨٧م، تكون حلفا صليبيا من صربيا والبوسنة ووالاشيا وكرواتيا وبلغاريا والمجر، ضد العثمانيين. غير أن السلطان مراد الأول استطاع أن ينزل هزيمة فادحة بجيوش هذا الحلف فى كوسوفا سنة ١٣٨٩م، ولقى ملك الصرب مصرعه فى هذه المعركة، وقتل مراد نفسه بيد أحد نبلاء الصرب.

وعقب مقتل السلطان مراد كان من بين أبنائه الموجودين على قيد الحياة بايزيد ويعقوب، وكان الأخير الإبن الأكبر. غير أن بايزيد استطاع الوصول إلى العرش بعد أن قام بقتل أخيه يعقوب خشية أن ينازعه الملك. وباعتلاء بايزيد العرش، بدأ التقليد الدموى العثمانى القاضى بقتل الإخوة إتقاء لمنازعتهم، وهو التقليد الذى برره الفقهاء، وما لبث أن أصبح بمثابة قانون فى عهد السلطان محمد الفاتح (١٤٥١ ـ ١٤٨١). ورغم أن هذا التقليد ينم عن القسوة الشديدة، فإنه حقق الهدف المرجو منه، بدليل أن الدولة العثمانية لم تتأثر بالصراعات الأسرية لمدة خمسة قرون.

وفى عهد بايزيد الأول (١٣٨٩ ـ ١٤٠٢) جاء التهديد المباشر للعثمانيين فى أوربا من قبل دولة المجر. فقد طلب ملكها سيجسموند المعونة من الغرب الأوربى عام ١٣٩٥ للوقوف فى وجه العثمانيين. وكان رد الفعل سريعا، فقد أتى الحلفاء والألمان والإنجليز وبعض الأمراء الفرنسيين ومقدم منظمة التيوتون ومقدم منظمة فرسان القديس يوحنا برودس، وجماعات أخرى. ولكن بايزيد الأول استطاع أن ينزل بهم هزيمة ساحقة فى موقعة نيقوبوليس سنة ١٣٩٦ . ونتيجة لذلك استولى العثمانيون على شبه جزيرة البلقان، باستثناء القسطنطينية وما حولها.

وبعد الانتصار الرائع الذى حققه بايزيد الأول على قوى الحلف الصليبى فى نيقوبوليس، قام بفرض الحصار على مدينة القسطنطينية. ولكن حدث ما لم يكن فى الحسبان، فقد اجتاح تيمور لنك على رأس جموع ضخمة من المغول الجزء الأكبر من آسيا الصغرى، الأمر الذى اضطر بايزيد إلى رفع الحصار عن القسطنطينية والعودة سريعا إلى آسيا الصغرى للدفاع عنها، حيث أنزل به تيمور لنك هزيمة منكرة فى موقعة أنقرة سنة ١٤٠٢م، ومات بايزيد الأول فى الأسر فى العام التالى.

وعلى الرغم من أن تيمور لنك قد قضى على القوة العسكرية للدولة العثمانية، إلا أنه لم يستطع التغلب على القوة الحيوية الكامنة فيها. فما لبثت هذه الدولة أن نهضت من كبوتها، واستعادت قواها، واستأنفت سيرها إلى الأمام فى ثبات وقوة كعهدها من قبل.

ففى خلال فترة الشغور ـ أو الحرب الأهلية بين أبناء بايزيد الثانى ـ ظلت حدود الدولة العثمانية على ما هى عليه تقريبا، فيما عدا الأراضى التى استولى عليها تيمور لنك. ويرجع السبب فى ذلك إلى أن أعداء العثمانيين فى أوربا وآسيا الصغرى، لم يحاولوا إنتهاز فرصة تمزق البيت العثمانى، والقيام بأى مجهود للقضاء على وجوده.

وعلى أية حال، استطاع محمد أصغر أبناء بايزيد الأول أن يتغلب على إخوته الواحد بعد الآخر، ويصبح السلطان الوحيد للدولة العثمانية، واشتهر فى التاريخ باسم السلطان محمد جلبى الغازى (١٤١٣ ـ ١٤٢١) . وعندما توفى محمد الأول خلفه إبنه مراد الثانى (١٤٢١ ـ ١٤٥١)، الذى يعتبر واحد من أعظم السلاطين العثمانيين. فهو صاحب الفضل فى تأسيس القوة العثمانية فى أوروبا وآسيا. ففى أوربا انصرفت معظم

جهوده ضد الصرب والبلغار ووالاشيا والبوسنة وألبانيا، وخاصة المجر التى استطاعت فى أول الأمر الثبات أمام الجيوش العثمانية وأحرزت بعض النجاح عليها فى سنة ١٤٤٣م. ولكن السلطان مراد الثانى لم يلبث أن أنزل هزيمة قاسية بالجيش المجرى عند ڤارنا سنة ١٤٤٤. وتعتبر تلك الهزيمة علامة هامة فى تاريخ العلاقات التركية الأوربية، فقد حطمت اعتقاد المسيحيين فى أنهم قادرون على طرد العثمانيين إلى آسيا، وهى آخر محاولة يقوم بها الغرب الأوربى لإنقاذ الدولة البيزنطية، وهو المصير الذى سيتحدد بعد تسع سنوات.

ويسجل عهد السلطان مراد الثانى نهاية الثقافة العثمانية القديمة، فقد واصلت الحياة الدينية فى عهده دورانها فى فلك الصوفية التى فرضت طابعها على الحياة الفكرية. وفتح أبواب بلاطه للعلماء والشعراء والموسقيين، وأخذت اللغة التركية تحل محل لغتى الأدب الرفيع: العربية والفارسية. واهتم مراد الثانى اهتماما بالغا بالبناء والتشييد، وسارع على نهج أبيه فى كونه محباً للعدالة، وراعيا نشيطا للفنون، ومحباً للحياة.

بعد وفاة السلطان مراد الثانى ورث إبنه محمد الثانى أو الفاتح إمبراطورية واسعة. ومن أجل الاحتفاظ بتلك الإمبراطورية من الناحيتين السياسية والاستراتيجية، كان لابد من الاستيلاء على مدينة القسطنطينية باعتبارها قلعة مسيحية وسط أراضى السلطان، ومصدر تهديد لأمن السلطنة فى الداخل والخارج.

ومما يجدر ذكره أن الغزاة والفاتحين قد أدركوا منذ وقت بعيد أهمية مدينة القسطنطينية وخطورة موقعها، فحاصروها مرات كثيرة، وحاولوا الاستيلاء عليها، غير أن المدينة استطاعت بفضل موقعها وقوة حصونها ومناعة أسوارها أن تبعد عنها معظم الغزاة والفاتحين.

وفى عهد محمد الثانى أو الفاتح كانت الظروف مهيئة تماما لفتح القسطنطينية، فقد صارت حطاما متهالكة، ويتمثل ذلك فى قول المؤرخ ديل Diehl «أصبحت القسطنطينية جسماً مريضاً برأس ضخمة، وتحيط بها دولاً إما مستقلة أو عدائية، حتى أطلق على الإمبراطورية البيزنطية رجل العصور الوسطى المريض».

وفى تلك الأثناء أحس الإمبراطور البيزنطى قنسطنطين الحادى عشر (١٤٤٩ – ١٤٥٣) بخطر الاستعدادات الحربية التى قام بها العثمانيون للاستيلاء على مدينته. فحاول

أن يستجدى معونة الغرب الأوربى، ولكن دون جدوى. وفى ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ دخل العثمانيون بقيادة محمدة الفاتح مدينة القسطنطينية كالسيل الجارف، وحلوا محل الأباطرة البيزنطيين. وكان فتحها حادثا جللا اهتزت له أوربا المسيحية من أقصاها إلى أقصاها. وفى الشرق الإسلامى عم الفرح والابتهاج فى أرجاء آسيا وأفريقية، وأصبحت القسطنطينية عاصمة للإمبرطورية العثمانية، وأطلق عليها إسم إستانبول أو إسلامبول أو الآستانة، وإستانبول كلمة تركية معناها دار الإسلام.

وكان فتح القسطنطينية بداية لسلسلة من الانتصارات العثمانية الرائعة أحرزها العثمانيون فى البر والبحر، فلم تأت أواسط القرن السادس عشر حتى استطاع العثمانيون أن يسطوا نفوذهم على مناطق شاسعة فى أوربا الوسطى مثل المجر ورومانيا وجنوبى بولونيا وأجزاء من شرق النمسا. وزحف العثمانيون على مدينة فيينا وحاصروها لأول مرة فى سنة ١٥٢٩، ثم حاصروها للمرة الثانية فى سنة ١٦٨٣. وبالرغم من فشل العثمانيين فى هذين الحصارين الشهيرين، فإن مجرد وصول فتوحاتهم إلى قلب أوربا المسيحية على هذا النحو أثار الرعب والفزع فى أرجائها.

وهنا نلاحظ أن السلطان سليم الأول المشهور بلقب «ياوز» (١٥١٢ ـ ١٥٢٠)، قد خرج عن السياسة الأوربية التى سار عليها أسلافه من السلاطين العثمانيين، فتوقف عن الزحف غربا والتوسع فى أوربا على حساب دول القوى المسيحية المجاورة، واتجه بغزواته ناحية الشرق على حساب الدول الإسلامية المجاورة. وقد اختلف المؤرخون فى تفسير هذه الظاهرة، فيرى البعض أن الدولة العثمانية قد بلغت مرحلة التشبع فى فتوحاتها الغربية بنهاية القرن الخامس عشر الميلادى، وأنه كان عليها فى أوائل القرن التالى البحث عن ميادين جديدة للتوسع، فى حين يرى البعض الآخر أن الأحداث التى دارت داخل الشرق الإسلامى أو حوله فى أوائل القرن السادس عشر هى التى جذبت الدولة العثمانية إلى الشرق الإسلامى لحماية آسيا الصغرى بصفة خاصة والعالم السنى بصفة عامة، والمقصود هنا بأحداث الشرق الإسلامى هو الزحف البرتغالى على حدود الشرق العربى ومنافذه البحرية، وأن خروج العثمانيين إلى هذه المناطق كان هدفه حماية الشرق الأدنى الإسلامى من الخطر البرتغالى. وبعبارة أخرى، فقد أعلن العثمانيون أن هدفهم من التحرك صوب الدولة المملوكية، هو حماية الحرمين الشريفين والمدن الإسلامية المقدسة والعالم الإسلامى من هجمات البرتغال الصليبية، الأمر الذى عجز عن تحقيقه سلاطين المماليك، وبذلك يكون

تحرك العثمانيين ناحية الشرق بهدف الجهاد لحماية العالم الإسلامى.

وفى ٢٠ مايو سنة ١٤٩٨ ، بعد رحلة استغرقت أكثر من عشرة شهور، تمكن ڤاسكو دى جاما من الطواف حول أفريقية عن طريق رأس الرجاء الصالح، والوصول إلى أهم موانى ساحل ملبار الهندى. وبذلك حقق البرتغاليون تحولا بارزاً فى تاريخ التجارة الشرقية، إذ كانت حاصلات الشرق تصل إلى أوروبا حتى ذلك الوقت بواسطة التجار فى مصر المملوكية، الذين كانوا يبيعونها بدورهم إلى البنادقة، بأسعار مرتفعة، وقد عادت تلك التجارة فى تلك الحاصلات على مصر والبندقية بأرباح طائلة. وهكذا ذهبت حصيلة الضرائب التى كان سلاطين المماليك يحصلون عليها، وأدت إلى ثرائهم وقوتهم.

وعبثا حاولت دولة المماليك الجراكسة إيقاف البرتغاليين عن التعرض بسوء للتجار المسلمين فى الهند، فدخلت فى حرب معهم كان نصيبهم فيها الهزيمة الساحقة، وتحطيم أسطولها فى معركة ديو البحرية فى ٣ فبراير سنة ١٥٠٩ ، فلم تقم للتجارة المملوكية فى الهند بعد ذلك قائمة، ولم تعد سوقا عالميا للتجار بين الشرق والغرب. ولم تمض على تلك المعركة سوى سنوات قليلة، حتى سقطت الدولة المملوكية فريسة هينة فى أيدى العثمانيين سنة ١٥١٧ .

وخلال القرن السادس عشر الميلادى (العاشر الهجرى) كانت الدولة العثمانية قد وصلت إلى ذروة قوتها وأوج ازدهارها. فمدت جناحيها شرقا وغربا وشمالا وجنوبا، ودقت أبواب ڤيينا، وبسطت نفوذها على ما يعرف اليوم بدول أوربا الشرقية واليونان وجزر البحر المتوسط وأجزاء من إيطاليا والنمسا. كما خضعت لسيطرتها الأرض الممتدة من القوقاز شمالا حتى الصحراء الإفريقية جنوبا وحدود المغرب الأقصى غربا. كما أنها مدت جناحها الشرقى حتى بلاد فارس وجبال كردستان، فكانت أقوى دولة فى العالم شهدتها العصور الوسطى.

وبوفاة السلطان سليمان القانونى عام ١٥١٦ ينتهى العصر الأول من تاريخ الدولة العثمانية وهو عصرها الذهبى، بلغت فيه الأوج من النفوذ الدولى والقوة الحربية والتوسع الإقليمى المطرد كما سبق أن ذكرنا. ويبدأ العصر الثانى، وقد تولى الحكم فيه عدد من السلاطين الضعاف انصرفوا عن مباشرة اختصاصاتهم، وانغمسوا فى حياة المجون والترف،

وأخذت الدولة تفقد رويداً رويداً ممتلكاتها فى القارات الثلاث آسيا وأوربا وأفريقية.

ولاشك أن الدولة العثمانية تركت بصماتها واضحة فى تاريخ العصور الوسطى. ففى خلال فتوحاتها لم تسع إلى تحويل رعاياها المسيحيين واليهود إلى اعتناق الإسلام، ولم تنتهج سياسة شاملة تتجه نحو التتريك. وبسبب سياسة التسامح الدينى التى سارت عليها الدولة العثمانية، نجحت الحضارة العثمانية فى فرض نفسها، وفى تشكيل بعض جوانب الحياة فى البلقان، بحيث يمكن القول بإن الأتراك هم الذين أرسوا اللبنات الأولى لحضارة مدنية حديثة. فقد وضعت سيطرة العثمانيين حداً للفوضى التى كانت سائدة فى الأناضول والبلقان، ووفرت عامل الاستقرار السياسى، وأمنت النشاط الاقتصادى.

ومن المعروف أنه قبل فتح القسطنطينية على أيدى السلطان محمد الفاتح سنة ١٤٥٣ كان الإقطاع منتشراً فى أوربا، وبفضل هذا السلطان تداعى النظام الإقطاعى أمام قذائف مدافع العثمانيين، وبذلك ساهمت الدولة العثمانية فى تشكيل أوربا الحديثة.

وهذا الكتاب ليس دراسة مفصلة شاملة لأحداث الدولة العثمانية السياسية والحضارية فى العصور الوسطى، وإنما هو دراسة موجزة متواضعة لأحوال تلك الدولة فى تلك العصور، توخيت انتفاع أبنائى الطلاب وقراء العربية الكرام بها. وفى الحديث الشريف: «من اجتهد وأصاب له أجران، ومن اجتهد وأخطأ له أجر».

ثكنات المعادى ـ يناير ٢٠٠١م　　　　　　المؤلف

شوال ١٤٢١هـ

الفصل الأول

ظهور الأتراك العثمانيين وقيام دولتهم

- الأتراك.
- الأتراك السلاجقة.
- السلاجقة والبيزنطيون.
- ضعف نفوذ السلاجقة.
- أصل الأتراك العثمانيين.
- قيام الدولة العثمانية.

الأتراك:

تحتل دراسة تاريخ الترك وضعاً خاصاً، وذلك أن المصادر الأولى لهذا التاريخ لم تكتب بلغة الترك، وإذا أردنا أن نعرف تاريخ الترك زمن بداوتهم ـ أى زمان جهلهم الكتابة ـ فنحن مضطرون إلى أن نقرأ حكايات جيرانهم، أما إذا أردنا دراسة تاريخهم بعد أن فتحوا الممالك المتحضرة، وبعد أن تحولوا هم أنفسهم من البداوة إلى الحضارة، إذا أردنا هذا واجهتنا صعوبة أخرى وهى أن الترك فى هذا الدور من تاريخهم تأثروا حضاريا بالعناصر المغلوبة لهم، وتأثروا أيضاً باللغات الأدبية لهذه العناصر. يمكن القول أن أحوال الترك المقيمين فى شرق آسيا وخاصة فى منغوليا إنما تعرف من المصادر الصينية، أما الترك الذين هاجروا إلى الجزء الغربى من آسيا الوسطى وتأثروا بالحضارة الإسلامية، فإن أحوالهم إنما تعرف من المصادر العربية، ومن المصادر الفارسية بوجه خاص[١]. ومن أهم المصادر التى تهم صاحب الدراسات التركية آثار أورخون التى اكتشفت فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر، وتحوى هذه الآثار كتابات عن الأصول الأولى للغة الترك، فضلا عن بعض جوانب من تاريخهم الذى يشير إلى أنهم ظهروا فى القرن السادس الميلادى. وتؤيد الكتابات الصينية والبيزنطية ما جاء فى نقوش أورخون، فقد وردت فى المصادر الصينية كلمة Tu -Küe (تو ـ كه ـ ئه) بمعنى «الترك»، وفى المصادر البيزنطية وردت كلمة توركوا Turkoi، التى قبلت على أنها بمعنى الترك بلا خلاف. والواقع أنه ليس بين الدول التركية جميعها ما يمكن أن تستمد تاريخه من مصادر محررة بالتركية إلا الدولة العثمانية، ولكن لغة المؤرخين العثمانيين تحوى من الكلمات العربية والفارسية أكثر مما تتضمن من الكلمات التركية، وهى لذلك غير مفهومة لكثير من الأتراك[٢].

ولاشك أن الترك الذين يتكلمون ما نسميه اليوم اللغة التركية كانوا موجودين منذ أقدم العصور، ولكن من العبث أن نفرض أن كلمة ترك كانت موجودة قبل القرن السادس الميلادى، وقد لاحظ العرب أن أقواماً كثيرة ممن حاربوها فى القرنين السابع والثامن

(١) بارتولد (و): تاريخ الأتراك فى آسيا الوسطى، ترجمة د. أحمد السعيد سليمان (القاهرة ١٩٩٦)، ص ١٥ ـ ١٦.

(٢) المرجع السابق، ص ١٦ ـ ١٧.

للميلاد كانت تتكلم نفس اللغة التى يتكلمها الأتراك، فأطلقوا عليهم كلمة ترك. ويرى الباحث الدانمركى طومسن Thomsen أن كلمة «ترك» إسم لقبيلة مستقلة أو على الأرجح إسم لأسرة حاكمة، ويحتمل أن يكون المعنى الأول للكلمة «ترك» هو البأس والقوة والإحكام[١].

وقد أطلق على بلاد الترك إسم «تركستان»، وهى كلمة فارسية تعنى «بلاد الترك». وأول ما نسمعه فى التاريخ عن الترك هو أنهم أقاموا لأنفسهم فى القرن السادس الميلادى دولة امتدت من حدود الصين شرقا إلى حدود الدولتين الفارسية والبيزنطية غربا. وقد انقسم الوطن التركى عندئذ إلى قسمين: قسم يقع شرقى إقليم ما وراء النهر ـ وهو الإقليم الواقع بين نهرى جيحون وسيحون ـ ويمتد حتى حدود الصين شرقا، وسهوب روسيا شمالا، وقد ينبسط ليشمل بلاد القوقاز وحوض نهر الفولجا، وقسم غربى يشمل المناطق الزراعية الخصبة بين نهرى جيجون وسيحون، أى يشمل بلاد ما وراء النهر[٢].

وتحوى كتابات الجغرافيين العرب التى ترجع إلى القرن العاشر الميلادى وصفا مفصلا للعالم الإسلامى، وفيها كذلك معلومات قليلة عن الأماكن الآهلة بالترك والواقعة على الطريق الذى يربط العالم الإسلامى بالصين. ويوجد طبقا لما تتصوره هذه المؤلفات ثلاثة أقوام من الترك فى الأرض الممتدة من بحر الخزر إلى حدود الصين، وهؤلاء هم[٣].

١ ـ الغز وينتشرون فى الأراضى الممتدة فى بحر الخزر إلى أواسط مجرى نهر سيرداريا (سيحون).

٢ ـ القارلوق وينتشرون فى الأراضى التى تمتد إلى مسيرة عشرين يوما شرق فرغانة.

٣ ـ التغزغز أوطوقوز ـ أوغوز ويسكنون الأراضى التى تبدأ من حدود أراضى القارلوق وتمتد حتى الصين.

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٤ ـ ٤٦.

(٢) سعيد عاشور: «العلاقات العربية التركية من منظور عربى»، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية (القاهرة ١٩٩١)، جـ ١ ص ٢٤.

(٣) بارتولد: تاريخ الترك فى آسيا الوسطى، ص ٦٦ ـ ٦٧.

وفى القرن السادس الميلادى نجح خانات الترك فى توحيد آسيا الوسطى بأجمعها تحت سيطرتهم، وصار الأمل يحدوهم فى القضاء على القوة التى اعترضت سبيل توسعهم غربا، وهى دولة الساسانيين (٢٢٦ ـ ٦٣٧م)، ولذلك سعوا للدخول فى حلف مع البيزنطيين ضد العدو المشترك ممثلا فى الدولة الساسانية، ولكن ضعف الدولة البيزنطية عندئذ حال دون تنفيذ هذا المخطط[١].

وكانت الديانة الغالبة على الترك حتى ذلك الوقت هى الديانة البوذية السائدة فى شرق القارة الآسيوية، ولكن احتكاكهم بالفرس أدى إلى تأثرهم بجوانب من الحضارة الفارسية، فتسربت إليها العقيدة الزرادشتية[٢]، وإن ظلت هذه العقيدة محدودة الانتشار بين الترك لعدم اهتمام أهلها بأمر الدعوة لها[٣] هذا بالإضافة إلى بعض الديانات الأخرى التى وجدت منفذاً لنفسها بين الترك، ومن هذه الديانات المسيحية والمانوية[٤]، وقد استهدفت الديانة

---

(١) سعيد عاشور: المرجع السابق، ص ٢٥.

(٢) تنسب الزرادشتية إلى مؤسسها زرادشت، وتاريخ ظهوره غير معروف بالضبط، فيعتقد علماء الزرادشتية أنه عاش حوالى عام ١٠٠٠ق.م، وإن كان بعض رجال الغرب يحددون ذلك فى تاريخ متأخر هو القرن السابع قبل الميلاد. وتقوم تعاليم الزرادشتية على فكرة «الله»، والإسم الذى يطلق عليه فيها وهو «أهورامزدا»، الذى يوصف بأنه الكامل والأبدى وخالق الحياة وإله الخير. والشرور المنتشرة فى حياة البشر من أشد ما يشغل زرادشت، فهو يحرض الناس على إشعال حرب لاتنتهى على تلك الشرور. وتشير الزرادشتية إلى الشر بأنه العدو أو الفرد الشرير أهريمان. وقد أدى استخدام الزرادشتية لإسم علم يطلقونه على الشر وهو أهريمان إلى نشوب الكثير من الجدل فيما إذا كانت الزرادشتية تؤمن بثنائية مطلقة، تجمع بين أهورامزدا المتصف بالحكمة وبين أهريمان متصف بالشر، أنظر ويدجرى (البان . ج): التاريخ وكيف يفسرونه (القاهرة ١٩٩٦)، جـ١ ص ١٣٧ ـ ١٤١.

(٣) سعيد عاشور: «العلاقات العربية التركية»، ص ٢٥.

(٤) تنسب المانوية إلى صاحبها مانى (٢١٦ ـ ٢٧٧م)، ولد فى ماردين بالقرب من بابل، وأعلن عقيدته فى سن الخامسة والأربعين خلال عهد الملك الساسانى سابور الأول (٢٤١ ـ ٢٧٢م). والعالم عند المانوية قائم على أصلين هما الخير والشر أو النور والظلمة. ويرى مانى أن الخير والشر ممتزجان معاً فى الإنسان، وأن المرأة هى السبب فى إيقاع الرجل فى الذنوب، فإذا امتنع عنها، وعاش عيشة الزهد، وصام عن الطعام بعض الوقت، فإن ما فيه من عناص الخير يتغلب على الدوافع الشيطانية ويهديه إلى النجاة. وقد رفض مانى التوراة تماماً وقبل الإنجيل فقط، ويرى أنه رسول الحق وخليفة بوذا ووزرادشت والمسيح. ويتضح من ديانة مانى أنها ديانة مركبة، أى اقتبس معتقداته من ديانات أخرى وألف بينها، وظل مانى ينشر دعوته حتى صلب سنة ٢٧٢م، وحشى جلده بالقش.=

المانوية التوفيق بين الزرادشتية والمسيحية والبوذية، مما جعلها تصادف قبولا واسع الانتشار بين الترك فى تلك المرحلة السابقة على وصول الإسلام إليهم، وقد شجع ذلك بعض المانويين على الفرار بعقيدتهم من فارس إلى بلاد ما وراء النهر، حيث توافر لهم قدر من حرية العبادة، فعاشوا جنبا إلى جنب مع البوذيين والمسيحيين النساطرة، هذا وإن ظلت الزرادشتية ديانة الطبقة الحاكمة فى تلك الأصقاع حتى وصول الإسلام إليها(١).

وكان أن ظهر الإسلام فى شبه الجزيرة العربية فى القرن السابع الميلادى، واستطاع الرسول ﷺ أن يضع نواة الدولة العربية الإسلامية، ويوحد القبائل العربية بعد أن كانت متفرقة متنازعة، ويجعل من العرب قوة هائلة. وبعد وفاة الرسول الكريم خرج العرب المسلمون من شبه جزيرتهم لنشر الإسلام فى أنحاء العالم المعروف وقتذاك، وضربوا أروع الأمثلة فى الفضائل والقدوة الحسنة، وحملوا راية التوحيد شعارها «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، ومعهم دستور إلهى محكم وهو القرآن الكريم. ولاشك أن نجاح حركة الفتوح الإسلامية العربية على حساب القوى الكبرى المعاصرة وبخاصة دولتى الفرس والروم (البيزنطيين)، وانتشار القبائل العربية تبعا لذلك شرقا وغربا، وما ترتب على ذلك من نتائج سياسية وحضارية، كل ذلك كان له أثره فى تغيير خريطة العالم.

وعلى أية حال، بدأت الفتوحات العربية فى عهد الخليفة أبى بكر الصديق، باندفاع العرب إلى أراضى الدولة البيزنطية والدولة الفارسية فى وقت واحد. ويهمنا هنا أن العرب ما كادوا يوطدون نفوذهم فى فارس حتى اتخذوا من خراسان فى عام ٢٢هـ (٦٤٣م) ثغراً إسلاميا يناوش الأتراك ويحاربهم ويشيع الفرقة بينهم، لايعطى الإمارات التركية المتنازعة فرصة التجمع فى جبهة تركية موحدة(٢). والواقع أن الأتراك كانوا على العكس من الفرس، فقد ثبتوا ولم تستطع قوات العرب المسلمين أن تفتح بلادهم، وقد كان العرب

= وقد انتشرت المانوية أول الأمر فى بابل، ثم انتقلت بعد ذلك إلى سوريا وفلسطين ومصر، ومنها انتقلت إلى طرابلس وقرطاجنة، فى الوقت الذى انتشرت فيه فى الغال (فرنسا) وبريطانيا. انظر حسن بيرنيا: تاريخ إيران القديم من البداية حتى نهاية العهد الساسانى (القاهرة ١٩٧٩)، ص ٦٣ ـ ٦٤.

(١) سعيد عاشور: المرجع السابق ص ٢٥ ـ ٢٦، حسن أحمد محمود: الإسلام والحضارة العربية فى آسيا الوسطى بين الفتحين العربى والتركى (القاهرة ١٩٦٨)، ص ١١٤.

(٢) حسن محمود: المرجع السابق، ص ١١٥.

يلتزمون سياسة الدفاع طوال القرن الثامن، وذلك بعد أن تم لهم فتح الأماكن المتحضرة فى أحواض جيحون وزرفشان وسيحون، واتبع العرب أيضا سياسة من سبقهم، فبنوا الأسوار وحفروا الخنادق، ليحافظوا على البلاد المتحضرة[1].

ويتخذ بعض الباحثين من سنة ٨٦هـ (٧٠٥م) بداية الفتح الحقيقى لبلاد الترك. وكانت الدولة الأموية عندئذ قد خلصت من مشاكلها الداخلية ـ وأهمها ثورة عبد الله الزبير ـ مما جعل الدولة تستأنف حركة الفتوح على مقياس واسع، شرقا وغربا. ويقترن فتح تركستان عادة باسم قتيبة بن مسلم الذى ولاه الحجاج بن يوسف الثقفى خراسان سنة ٨٦هـ، فنجح فى استعادة طخارستان، كما استولى على الطالقان وبلخ فى نفس العام، ثم اجتاح إقليم بخارى، وسقطت بخارى ثم سمرقند فى أيدى العرب سنة ٩٣هـ (٧١٢م). وجاءت هذه الحركة التوسعية مصحوبة بانتشار الإسلام، إذ يذكر المؤرخون أن المسلمين عندما دخلوا سمرقند أحرقوا ما بها من أصنام وبنوا فيها مسجداً أقيمت فيه الصلاة والخطبة[2].

أخذ الإسلام ينتشر بين الترك حين بسطت الدولة السامانية الفارسية (٨٧٤ ـ ٩٩٩م) نفوذها فى أواسط آسيا، ففى القرنين التاسع والعاشر (من ٨٢٠ إلى ١٠٠٠ تقريبا) كانت المناطق المتحضرة بتركستان الروسية الحالية فى قبضتهم، وتسمى الولايات الواقعة بالجانب الآخر من نهر أموداريا (جيحون) بلاد ما وراء النهر، وكان سكانها يسمون أحيانا فى أثناء الفتوحات الإسلامية بالأتراك[3].

وتدل الوثائق على أن المدارس التى كانت بخراسان وبما وراء النهر فى القرن العاشر الميلادى، لعبت الدور الأهم فى نشر الإسلام، وكانت هذه المدارس مستقلة عن تدبير الحكومات وسياساتها. وفى ذلك القرن كانت الدعوة للإسلام خارج حدود الخلافة العباسية أكثر نجاحاً فى آسيا الوسطى منها فى أى مكان آخر، وذلك بفضل هذه المدارس[4].

---

(١) بارتولد: تاريخ الترك فى آسيا الوسطى، ص ٥٠.
(٢) سعيد عاشور: المرجع السابق، ص ٢٨ ـ ٢٩.
(٣) بارتولد: تاريخ الترك فى آسيا الوسطى، ص ٧٤.
(٤) المرجع السابق، ص ٧٥ ـ ٧٦.

وهنا نلاحظ أن السامانيين عدلوا عن خطة الدفاع التى كان يتبعها أمراء خراسان وما وراء النهر المعينون من قبل الخليفة، ونفضوا أيديهم من بناء الأسوار التى كانت تقام لحماية الأقاليم المتحضرة من غارات قبائل البدو الرحل، وبدأ السامانيون يغيرون على مناطق الرعى فيما وراء الحدود، وكانت غزواتهم تنتهى أحيانا بفتح بعض المدن، ففى سنة ٢٨٠هـ (٨٩٣) فتحوا مدينة طراز أوطالاس، وحولوا الكنيسة الكبيرة بالمدينة إلى مسجد، مما يدل على أن المسيحية كانت قد سبقت الإسلام إلى هناك(١).

وقد صحب هذا التوسع فى انتشار الإسلام بين الترك نشاط تيار كبير هو النشاط التجارى لحرص المسلمين فى تلك المستوطنات التى أقاموها فى بلاد الترك على مباشرة التجارة بين غرب القارة الآسيوية وشرقها عبر طرق التجارة المألوفة بين الشرق والغرب. ومن المعروف أن قوافل التجار فى تلك العصور كانت تحمل الأفكار والأخبار والتيارات الفكرية والعقائدية والروحية، إلى جانب البضائع، بمعنى أن نشاط المسلمين التجارى فى بلاد الترك، حمل بين ثناياه تيار الإسلام وأركانه ومبادئه(٢).

الأتراك السلاجقة:

وفى خلال القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) أخذ فرع آخر من الترك، وهم السلاجقة، يتحركون صوب الأقاليم الإسلامية(٣). والأتراك السلاجقة هم مجموعة من قبائل الأتراك الذين عرفوا بالأوغوزOghuz أو الغز Ghuzz، وعرفهم المؤرخون البيزنطيون باسم أوزوى Ouzoi، ويشير الجغرافى الفارسى مؤلف كتاب «حدود العالم» فى القرن العاشر الميلادى إلى أن قبائل الأوغوز أو الغز كانوا يعيشون مع قبائل القرغيز التركية فى منطقة السهوب الواقعة شمالى بحيرة بلكاش(٤)، وهى المنطقة المعروفة باسم منطقة

---

(١) المرجع السابق، ص ٧٦.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٧ ـ ٣٨.

(٣) للوقوف على مزيد من التفصيلات، أنظر للباحث: بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها فى التصدى للصليبيين (القاهرة ١٩٩٢)، ص ١٦ ـ ٢٦.

(4) Grousset (R.), L'Empire des Steppes (Paris, 1948), p. 203, The Empire of of Steppes. Trans -- From the Franch by Naomi Walford (new Jersey, 1970) p. 148.

التركستان. وفى النصف الأول من القرن الحادى عشر، نرى الغز مجموعة من القبائل لايربطها إلا رباط مفكك تماما، وتحارب بعضها بعضا، وفى الربع الثانى من هذا القرن هاجرت قبائل الغز إلى الغرب بحثا عن أماكن أفضل، فاتجهت جماعات منها إلى روسيا الجنوبية وإيران، ويشير المؤرخون الروس إليهم لأول مرة حوالى سنة ١٠٥٤م، ذلك أن قبائل رعوية تركية أخرى دفعتهم إلى التحرك، فانتشروا بعيداً حتى الدانوب الأدنى وعبروه، واجتاحو البلقان، حيث لقوا فى النهاية هزيمة ساحقة على أيدى القوات البيزنطية فى سنة ١٠٦٥م، أما الجماعات الأخرى أو الفرع الآخر من الغز وهم السلاجقة، فقد اتجهوا اتجاها آخر، وكان حظهم وافراً، فقد غزوا فارس وآسيا الصغرى(١). ومن العجيب أن هؤلاء الغز الذين لم يستطيعوا فى أى وقت الوصول إلى الوحدة، قد نجحوا فى تأسيس أقوى الدول التركية وأطولها عمراً، ومن بينها تركيا الحالية(٢).

وينسب السلاجقة إلى جدهم سلجوق (ومعناها القوس الحديدى) بن دقاق، وهو الذى مع قبيلة القنق الغزية Kinik tribe of the Oghiez تحت زعامته، وكان لايعرف لها إسم خاص قبل توليه زعامتها، فنسبت إليه وخضعت لحكمه، وقبل سنة ٩٨٥م كان سلجوق قد انفصل مع جماعته من قبائل الغز الضخمة، وعسكر على الضفة اليمنى لنهر سيرداريا الأدنى (سيحون) فى مدينة جند بالقرب من بيرويسك الحالية Perowask ، بذلك أصبح السلاجقة يجاورون أملاك السامانيين، وأدى ذلك إلى تخليهم عن البوذية واعتناقهم الإسلام(٣) على المذهب السنى. وقد أثرت بداوة السلاجقة فى تعصبهم الشديد للإسلام بعد اعتناقهم له على المذهب السنى، وتحمسوا له حماسة الحديث العهد بالدين، مما أثر فى تصرفات السلاجقة، فجعلهم يحترمون أئمة الدين احتراماً شديداً، ويميلون إلى المتصوفة، فانتشر التصوف فى عصرهم، وظفرت طوائف الصوفية باحترام الناس والحكام(٤).

---

(1) Grousset, L'Empire des Stppes, p. 203, English translation, p. 148.

(٢) بارتولد: تاريخ الترك فى آسيا الوسطى، ص ١١٩.

(3) Grousset, L'Empire des Steppes, p. 204; Cahen, "The Turkish Invation: The-Selchukids", in Hist. of the Crusades. Vol. I (Philadelfia, 1955), pp. 139-140.

(٤) عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراض، ص ٢١، دولة السلاجقة ص ٢١.

والواقع أنه كان لاعتناق السلاجقة الإسلام وتمسكهم بتعاليمه بالغ الأثر فى اكتساب ود السامانيين الذين كانوا يقيمون فى إقليم ما وراء النهر، ويدافعون بصلابة عن أراضيهم من غارات الترك القرخانيين، فوقف السلاجقة إلى جانب السامانيين، كما أعانوهم فى صد غارات الترك الوثنيين[1]، فأخذت قواتهم تتزايد، فى الوقت الذى أخذوا هم يشنون الغارات من حين لآخر على الترك الوثنيين، الأمر الذى أكسبهم احترام الحكام المسلمين المجاورين لهم[2].

وبعد انهيار الدولة السامانية فى عام ٣٨٩هـ (٩٩٩) تنازع القرخانيون والغزنويون على أرضها، فاستولى القرخانيون على إقليم ما وراء النهر، واستولى الغزنويون على خراسان، وهنا عمل السلاجقة على الاستفادة من الفوضى التى صاحبت الوضع الجديد، فاستقروا فى قلب بلاد ما وراء النهر، فى الجزء الشمالى الشرقى من بخارى. ولما توفى سلجوق خلفه فى زعامة السلاجقة إبنه الأكبر إسرائيل، الذى دخل فى خدمة ملك القرخانيين على تكن فى عام ١٠٢٥م، وتحالف معه ضد السلطان محمود الغزنوى مؤسس الدولة الغزنوية، فما كان من الأخير إلا أن عوّل على القضاء على إسرائيل، ولتحقيق ذلك لجأ إلى استمالته بالحيلة، ثم قبض عليه وألقى به سجيناً فى أحد قلاعه بالهند، حتى أدركته الوفاة سنة ١٠٣٠م[3].

ولاشك أن هذا التصرف الغادر قد أغضب السلاجقة، وجعلهم يعقدون العزم على الأخذ بالثأر لإسرائيل، فاختاروا أخاه ميكائيل بن سلجوق لقيادتهم، فما لبث أن فكر فى الانتقال بهم إلى خراسان، بهدف تثبيت أقدام قومه فى هذا الإقليم، ثم الانقضاض على الغزنويين والأخذ بالثأر منهم، كما أنه استهدف تكوين دولة قوية تحل محل الغزنويين فى خراسان وما وراء النهر. وكان أن كتب السلاجقة إلى السلطان محمود الغزنوى يطلبون منه أن يأذن لهم بعبور دياره والإقامة بين «نسا» و«بارود»، فوافق محمود ظنا أن القضاء على إسرائيل زعيمهم السابق قد كسر شوكتهم. على أنه لم يكد يستقر السلاجقة فى خراسان،

---

(1) Grousset, op. cit., p. 204.

(٢) محمد محمود إدريس: تاريخ العراق والمشرق الإسلامى خلال العصر السلجوقى الأول (القاهرة ١٩٨٢)، ص ٦٣ ـ ٦٤.

(3) Grousset, op. cit., p. 204.

حتى أخذوا يدعمون قواتهم، وينتشرون فى الأرجاء المجاورة لهم، ويتحينون الفرص للقضاد على الدولة الغزنوية، واقتلاع جذورها من خراسان وما ورا ءالنهر(١).

لما توفى السلطان محمود الغزنوى فى عام ١٠٣٠م، وخلفه إبنه مسعود فى حكم الغزنويين، رأى السلاجقة أن الوقت قد حان للقضاء على الغزنويين، فوحدوا قيادتهم فى يد طغرليك (١٠٣٧ ـ ١٠٦٣)، الذى أسرع إلى نيسابور حاضرة خراسان واحتلها فى عام ١٠٣٧، ثم جلس على عرش مسعود في نيسابور، فأصبح بذلك أول سلطان للسلاجقة والمؤسس الحقيقى لدولتهم(٢). على أن السلطان مسعود الغزنوى قرر الانتقام لنفسه من طغرلبك، فدارت بين السلاجقة والغزنويين معركة عنيفة عند دندانقان بالقرب من مرو عام ١٠٣٩م، إنتهت بهزيمة الغزنويين هزيمة ساحقة أنزلت بهم أفدح كارثة قضت على نفوذهم فى فارس وما وراء النهر، وصارت خراسان كلها للسلاجقة(٣). وفى العام التالى (١٠٤٠) كتب طغرلبك إلى الخليفة العباسى القائم بأمر الله، طالبا منه أن يعترف بسلطنة السلاجقة وشرعية حكمه، ومع أن الخلافة العباسية كانت آنذاك فى غاية الضعف، إلا أن الحصول على اعترافها يعطى الدولة السلجوقية صفة شرعية يرضى عنها الناس، وقد اهتم الخليفة العباسى بطغرلبك، واعترف بسلطنته(٤).

واصل السلطان طغرلبك توسيع رقعة دولته، فاستولى على خوارزم عام ١٠٤٢م، والرى وقزوين وأبهر وزنجان عام ١٠٤٥م، وفى عام ١٠٥٠م حاصر طغرلبك مدينة

(١) عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق، ص ٢٦، دولة السلاجقة ص ٢٤ ـ ٢٦، محمد إدريس: المرجع السابق، ص ٧٠ ـ ٧١، أحمد كمال الدين حلمى: السلاجقة فى التاريخ والحضارة (الكويت ١٩٧٥)، ص ٢٣ ـ ٢٥.

(٢) عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق، ص ٢٨؛ أحمد كمال الدين: المرجع السابق، ص٢٥.

(٣) الفارقى: تاريخه، تحقيق د. بدوى عبد اللطيف عوض (بيروت ١٩٧٤)، ص ٥، تامارا تالبوت رايس: السلاجقة تاريخهم وحضارتهم، ترجمة لطفى الخورى وإبراهيم الدسوقى، مراجعة عبد الحميد العلوجى (بغداد ١٩٦٨)، ص ٢٥.
Grousset, op. cit., pp. 204-205; Cahen, op. cit., pp. 141-142.

(٤) عبد النعيم حسنين: المرجع السابق، ص ٢٩ ـ ٣٥؛ دولة السلاجقة، ص ٢٢٨، أحمد كمال الدين: المرجع السابق، ص ٢٦.

أصفهان فسقطت فى يده بعد صعوبات جمة، فى الوقت الذى استطاع السيطرة على بلاد فارس والقضاء على دولة البويهيين قضاء تاما، وفى عام ١٠٥٤م توجه طغرلبك إلى إقليم آذربيجان، واستطاع أن يبسط نفوذه على جميع أنحائه، وفى العام التالى (٤٤٧ ـ ١٠٥٥م) دخل بغداد بناءً على دعوة الخليفة العباسى ليحل محل البويهيين الشيعة فى الهيمنة على العراق(١).

السلاجقة والبيزنطيون:

وكانت الدولة البيزنطية الضحية الأولى لقوة السلاجقة. فبعد الإحياء الملحوظ الذى شهدته تلك الدولة فى القرن العاشر الميلادى، سارت أوضاعها السياسية فى طريق التدهور والانحطاط. فمنذ وفاة الإمبراطور باسيل الثانى سفاح البلغار سنة ١٠٢٥م، انهارت قواها الدفاعية، وانتابتها أزمات اقتصادية حادة منذ نهاية النصف الأول من القرن الحادى عشر، أدت إلى سيطرة التجار الإيطاليين على تجارة الإمبراطورية، وجاء الخطر الداهم فى اجتياح الأتراك السلاجقة أراضى آسيا الصغرى، الأمر الذى حرم الإمبراطورية من أغنى ولاياتها ومصدرها الرئيسى للدخل من الضرائب(٢).

والواقع أن الغزو السلجوقى لأراضى الإمبراطورية البيزنطية لم تشتد وطأته إلا منذ عهد الإمبراطور قنسطنطين التاسع مونوماخوس (١٠٤٢ ـ ١٠٥٥). ففى سنة ١٠٤٨م إندفع إبراهيم إينال ـ أخو طغرلبك من أمه ـ فى إغارات ناجحة على الأراضى البيزنطية، وانتصر على البيزنطيين فى إقليم أيبريا (الأبخاز) وطرابيزون وأرضروم القريبة من أعالى الفرات والتى أحرقها وسواها بالأرض وقتل معظم سكانها(٣). وفى عام ١٠٥٤م قاد السلطان طغرلبك بنفسه السلاجقة إلى الأراضى البيزنطية، فغزا أرمينية، ودمر ما صادفه من قرى ومزارع فيما

(1) Grousset, op. cit., pp. 205-206.

أحمد كمال الدين: المرجع السابق، ص ٢٧ ـ ٢٨.

(2) Stavrianos, The Balkans since 1453 (Nw York 158), pp. 29-31.

(٣) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ـ ٨ ص ٤٨، رايس: السلاجقة، ص ١٢٧،

Charanis (P-), "The Byzantine Empire in the Eleventh Century", pp. 189-190; Cahen, op. cit., p. 144.

بين بحيرة فان وأرضروم، وفرض الحصار على مانزكرت (ملازكرد)، ولكن الجيوش البيزنطية لم تمكنه من الاستيلاء عليها، فانسحب إلى الرى[1].

وهنا نلاحظ أن الغارات التى وجهها السلاجقة إلى جميع أنحاء إرمينية، لم تنجح فى احتلال مركز قوى يثبتون فيه. على أن الموقف قد تغير عندما اشتدت غارات السلاجقة على أراضى الإمبراطورية البيزنطية بين سنتى ١٠٥٧ و١٠٨١م، فاجتاحوا قبادوقيا ونهبوا ملطيـة سنة ١٠٥٧، وفى سنة ١٠٥٩ أوغل السلاجقة لأول مرة إلى جوف أملاك الإمبراطورية شرقى آسيا الصغرى، حتى بلغوا سيواس، فاقتحموها وأجروا بها مذبحة مريعة، ثم بعد أن أشعلوا فيها النيران، عادوا محملين بالأسلاب والغنائم[2]. ويمكن القول بإن غارات السلاجقة حتى وفاة طغرلبك سنة ٤٥٥هـ (١٠٦٣) استهدفت غالبا النهب والسلب، دون أن يحاولوا الاستقرار وإقامة دولة لهم داخل الإمبراطورية البيزنطية.

ولما تولى ألب أرسلان الحكم بعد وفاة عمه طغرلبك، نهج السلاجقة نهجاً جديداً تجاه الإمبراطورية البيزنطية، إذ استهدفوا الاستيلاء على أراضى تلك الإمبراطورية وامتلاكها، بدلا من القيام بغارات محدودة للسلب والنهب. ففى سنة ١٠٦٥ إستولى ألب أرسلان على آنى حاضرة إقليم أرمينية وهى مدينة حصينة ذات موقع استراتيجى هام، وباستيلاء السلاجقة على هذه المدينة أضحوا يسيطرون على هضبة أرمينية التى كانت بمثابة الدرع الواقى للإمبراطورية البيزنطية من الشرق لأهمية موقعها وصعوبة مسالكها[3]، وبات الطريق مفتوحاً أمام السلاجقة للتوغل فى داخل الأناضول. حدث ذلك دون أن يحاول الإمبراطور البيزنطى قسطنطين العاشر دوكاس (١٠٥٩ ـ ١٠٦٧) التحرك لإنقاذ الإمبراطورية من الوضع الخطير الذى تردت فيه. والواقع أن هذا الإمبراطور أثبت فشله فى الحكم، إذ كان لايهتم بشىء أكثر من اهتمامه بشئون المال، فأهمل جميع إدارات الحكومة الأخرى لكى

---

(١) إبن الأثير: الكامل، جـ ٨، ص ٦٧،

Charanis, op. cit, p. 190; Cahen, op. cit., p. 144.

(2) Runciman (S.), A Hist. of the Crusades (Cambridge, 1951), Vol. I. p. 60.

(٣) الكامل، جـ ٨ ص ٩٨ ـ ١٠٠،

Ortrogorsky (G.), Hist. of the Byzantine State (New Jersey, 1968), p. 303; Cahen, op. cit., p. 148.

يحاول تدعيم خزانة الإمبراطورية ثانية، بعد أن استنزفت مواردها، ولكى يقتصد فى الأموال سرح جزءاً ضخما من الجيش وأنقص مرتبات الباقين، وكان هذا عملا جنونيا أدى إلى عدم كفاءة القوات المحاربة بصورة خاصة، فى الوقت الذى كان يهدد فيه الإمبراطورية أفظع خطر حربى شوهد منذ أربعة قرون، وهو خطر الأتراك السلاجقة(١).

على أنه حدث فى يناير سنة ١٠٦٧ أن اعتلى عرش الإمبراطورية البيزنطية جندى نشيط هو رومانوس الرابع ديوجينس Romanus IV Diognes. فأعاد تنظيم الجيش وإن كان معظمه تألف من المرتزقة النورمان والخزر والروس والفرنسيين والبلغاريين واليونانيين والصقالبة والترك. وبهذا الجيش الذى يفتقر إلى روح التجانس ويتألف من قوميات مختلفة خرج رومانوس فى عام ١٠٧١م ليسترد أرمينية ويضع حداً لتقدم السلاجقة. وعسكر بجيشه الذى قدرته المراجع بحوالى مائتى ألف مقاتل فى مانزكرت (ملازكرد) شمالى بحيرة فان بالقرب من مدينة خلاط فى انتظار اللقاء بخصمه السلطان ألب أرسلان. وأحس السلطان أنه أمام خطر داهم، فأسرع بالهجوم على مقدمة الجيش البيزنطى فى سرعة خاطفة وشجاعة نادرة واستطاع أن يحرز نصراً، ولكنه لم يلبث أن أدرك أنه من الصعب على جيشه أن يواجه جيشاً ضخما كجيش البيزنطيين، ورأى أن الحكمة تقتضيه أن يسعى فى طلب الصلح إلى أن يستعد الاستعداد المناسب لملاقاة خصمه فى معركة حاسمة، غير أن الإمبراطور رفض الصلح فى غطرسة وكبرياء، ورد على ألب أرسلان بأن الصلح بينهما لن يتم إلا فى الرى عاصمة السلاجقة(٢). وعندئذ لم ير السلطان بداً من خوض المعركة، فدعا جنده إلى الاستماتة فى القتال دفاعاً عن الإسلام، واختار يوم الجمعة وهو وقت الدعاء على جميع المنابر لجيوش المسلمين موعداً للاشتباك مع البيزنطيين، فصلى بجنده وبكى خشوعاً وتأثرا وبكى الناس معه، ثم امتطى فرسه ولبس البياض وتحنط إستعداداً للموت، وأعلن أنه إن هزم فإن ساحة الحرب تغدو قبره. والتقى فى ٢٠ ذى القعدة ٤٦٣هـ (١٩ أغسطس ١٠٧١ فى معركة عنيفة اشتدت فيها حماسة

---

(١) أومان (تشارلز): الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة د. مصطفى طه بدر (القاهرة ١٩٥٣)، ص ٩٦، رايس: السلاجقة، ص ٣٤ ـ ٣٥.

(٢) الكامل، جـ ٨، ص ١٠٩، رايس: السلاجقة، ص ٣٧ ـ ٣٨، محمد عبد الله عنان: مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام (القاهرة ١٩٦٢)، ص ١٠٩، عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران، ص٥٧.

السلاجقة، واستماتوا فى القتال، ولم يستطع الجيش البيزنطى الوقوف أمام الفرسان السلاجقة الذين انقضوا على البيزنطيين بحركاتهم السريعة المفاجئة، وقتلوا منهم جموعاً عظيمة، وقع الإمبراطور نفسه أسيراً فى أيدى ألب أرسلان(١)، الأمر الذى لم يحدث يوماً قبل ذلك في تاريخ بيزنطة. ومن العوامل التى أسهمت فى إلحاق الهزيمة بالجيش البيزنطى، أنه لما احتدمت المعركة استجاب المرتزقة الأتراك فى جيش رومانوس لرابطة الدم والعصبية التى تربطهم بالأتراك السلاجقة. ومن أسباب الهزيمة أيضاً أن أحد فرسان النورمان انسحب من المعركة دون أن يمد يد المساعدة إلى رومانوس؛ كما أن القائد أندرونيقوس دوكاس وهو أحد الطامعين فى العرش البيزنطى، وضع مصالحه الخاصة فوق مصالح وطنه فانسحب بقواته إلى القسطنطينية(٢)، مما أدى إلى حدوث اضطراب فى الجيش البيزنطى كله.

ولاجدال فى أن موقعة ملازكرد كانت هزة عنيفة أصابت كيان الإمبراطورية البيزنطية إصابة لم تستطع النهوض منها، وكان من الممكن أن تؤدى إلى نتائج أسوأ مما أدت إليه لو أن ألب أرسلان اكتفى منها بانتصاره الساحق، ولم يتابع ما هيأته له الظروف من إمكان السيطرة التامة على مقاليد الإمبراطورية أو على الأقل إضعافها أكثر مما حدث(٣). وعلى أية حال، فإن تلك المعركة جاءت دليلا على ضعف الإمبراطورية البيزنطية ونهاية دورها فى الدفاع عن المسيحية ضد الإسلام، بل إنها ساعدت على القضاء على الإمبراطورية نفسها على يد الأتراك العثمانيين فيما بعد سنة ١٤٥٣م.

بعد كارثة ملازكرد المروعة، واصل الأتراك السلاجقة تقدمهم على حساب البيزنطيين بعد أن انفتح الطريق أمامهم فى آسيا الصغرى، واجتاحوا معظمها، وبات من العسير على

---

(١) إبن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق، تحقيق د. سهيل زكار (سوريا ١٩٨٣) ص ١٦٧ ـ ١٦٨، الكامل، جـ ٨ ص ١٠٩ ـ ١١٠، الفارقى: تاريخه، ص ١٨٩ ـ ١٩٠؛

Levtchenko (M.V.), Byzance des Origines à 1453. (Paris, 1949), p. 220; Grousset, L'Empsire des Steppes, p. 207, Wittek (Paul), The Rise of th Ottoman Empire (Nw York, 1971), p. 16.

(2) Charanis, op. cit., pp. 192--193;

حسن حبشى: الحرب الصليبية الأولى (القاهرة ١٩٥٨، ص ٣٣، عبد القادر اليوسف: الإمبراطورية البيزنطية (بيروت ١٩٦٦)، ص ١٤٢ ـ ١٤٣.

(٣) حسن حبشى: المرجع السابق، ص ٣٥.

الإمبراطورية البيزنطية استرداد الأقاليم التى فقدتها هناك، الأمر الذى أدى إلى فقدان بيزنطة مركزاً حربيا ممتازا، ومصدراً هاما للحبوب والغلال، ومورداً رئيسيا لتزويدها بالجند، واستلزم الحال زيادة الاعتماد يوماً بعد يوم على الجند المرتزقة الأجانب[1]. وقد حدث ذلك دون أن تلقى الجموع السلوقية مقاومة تقريبا، إذ لم يعد ثمة من يحل محل الإمبراطور رومانوس الرابع، فى الوقت الذى كانت السنوات العشرة التالية فى داخل الإمبراطورية فترة فوضى وكوارث، لم يستخدم حطام الجيش البيزنطى فى خلالها لمقاومة السلاجقة وإيقاف توغلهم غربا، بل فى القيام بسلسلة يائسة من الحروب الأهلية[2]. يضاف إلى ذلك ازدياد حدة النزاع بين الطبقة الأرستقراطية المدنية وطبقة القادة العسكريين فى الولايات بصفة خاصة فى آسيا الصغرى، وما وقع من مكائد وثورات وفتن لاتنتهى، قد أصاب الحياة السياسية البيزنطية بالشلل التام، ودمر القوات البيزنطية فى آسيا الصغرى، وجعل بيزنطة تستعين بالترك كقوات مرتزقة، كل ذلك هيأ للأتراك السلاجقة فرصة التوغل فى آسيا الصغرى .

ومما يجدر ذكره أن الإمبراطورية البيزنطية بعد أربعة قرون من الغزوات العربية الإسلامية عبر جبال طوروس، قد اتخذت استراتيجية فعالة للدفاع عن حدودها، وكانت قادرة على مقاومة الغزوات فى داخل أراضيها، تلك الغزوات التى كانت فى بعض الفترات تتكرر سنويا (الصوائف والشواتى). ولكن الغزو التركى يقدم لنا صورة مختلفة تماماً، فالغزوات العربية الإسلامية كانت تقوم من المراكز العربية المتقدمة فى قيليقية شمال الشام، وقامت بها جماعات من الفرسان كانت مستعدة للانسحاب بعد كل حملة موسمية، على حين

---

(١) ستيفن رنسيمان: الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، مراجعة زكى على (القاهرة ١٩٦١)، ص ٥٢، جوزيف نسيم يوسف: العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى (القاهرة ١٩٦٧)، ص ١٤٦.

(٢) أومان: المرجع السابق، ص ١٩٩؛

Brice (W.C.), "The Colnization of Anatolia", in Bulletin of the John Rylands library, Vol. 38 (1955-1956), p. 18.

(3) Vryonis (Speros), The Decline of Medieval Hellenism in Asia Minor and the Process of Islamization from the eleventh through the fifteenth Century (London, 1971), p. 103.

أن الأتراك السلاجقة جاءوا للاستقرار، وأحضروا صحبة جيوشهم كل قبائلهم وعائلاتهم ومواشيهم، بحثا عن مراعى ومناطق جديدة(١).

وقد أبرز لنا المؤرخ كلود كاهن المراحل الرئيسية للغزو السلجوقى فى الأناضول، فيرى أن هزيمة مانزكرت كانت أوضح حلقة فى عملية التسلل الطويلة التى قام بها السلاجقة فى آسيا الصغرى. فقبل سنة ١٠٧١م كانت القبائل أو الجماعات التركمانية تتحرك غربا قادمة من فارس، وكان الأتراك يجرى تجنيدهم ـ من خلال زعمائهم ـ كقوات مرتزقة فى الجيوش المسيحية والإسلامية، وفيما بين سنتى ١٠٧١ و١٠٨٧ إنهارت مقاومة الإمبراطورية البيزنطية، وقامت إمارات تركمانية صغيرة مستقلة تحت حكم زعامات محلية فى أنحاء كثيرة من الأناضول والشام، وضعفت هذه الإمارات بسبب المنافسات والحروب التى نشبت بينها، وأخيراً أصبح الأتراك فى آسيا الصغرى متحدين تحت سيطرة دولة سلجوقية عاصمتها قونية(٢).

وبزوال النفوذ البيزنطى من الأناضول، كان على المجتمع المسيحى أن يكيف نفسه مع الأتراك السلاجقة المسلمين وحضارتهم الإسلامية، وقد تسببت الظروف التاريخية المختلفة فى العالم الإسلامى فى هجرة مستمرة قام بها العلماء المسلمون والدراويش للاستقرار فى الأناضول، ولذلك صادر السلاطين السلاجقة معظم أراضى المسيحيين والمبانى والإيرادات ومنحوها لأتباعهم العلمانيين والدينيين من المسلمين، ونتيجة لذلك انتشرت المساجد والمدارس والتكايا والمستشفيات عبر الأناضول(٣). وإذا كان الغزو التركى للأناضول قد أنزل بالإمبراطورية البيزنطية كارثة لم تفق منها، فيمكن القول إن تلك الكارثة قد أصابت الكنيسة اليونانية، فقد فقدت تلك الكنيسة جزءاً من رعاياها الذين اعتنقوا الديانة الإسلامية، وشاهدت تلك الكنيسة تقلص مؤسساتها وأسقفياتها، واختفت المراكز الديرية العظيمة، وصارت الكنيسة فقيرة إلى حد كبير، بعد أن فقدت معظم إيراداتها وأملاكها على أيدى الأتراك(٤).

---

(1) Brice, op. cit., p. 20.

(2) Brice, op. cit., pp. 20-21.

(3) Vryonis, The Decline of Medival Hellenism in Asia Minor. p. 402.

(4) Ibid., p. 406.

ومهما يكن من أمر، فقد ركز الغزاة الأتراك السلاجقة جهودهم فى آسيا الصغرى، وثبتوا فتوحاتهم، ثم بعد ذلك طردوا النفوذ الإغريقى من المناطق الساحلية. وفى نفس الوقت تزايدت أعداد الأتراك باطراد فى آسيا الصغرى، وتجولوا فى أنحائها حتى استقروا على الحدود. وقد ازداد عدد السكان المسلمين بهجرات العرب والفرس والأتراك القادمين من الشرق الأوسط، مما أدى إلى تصاعد التيار الإسلامى وقيام الكثير باعتناق الإسلام. والحقيقة أنه بعد أن فقدت الإمبراطورية أقاليمها الغنية فى آسيا الصغرى، هبطت قوتها إلى درجة متدنية، وانتزع الأتراك السلاجقة المنابع الرئيسية لقوتها البشرية، وفى عهد الإمبراطور نقفور الثالث (١٠٧٨ ـ ١٠٨١) حرمت القسطنطينية من الضرائب التى كانت تدرها الولايات الأناضولية الغنية(١).

ومن المعروف أن السلاجقة كانوا رعاة فى عاداتهم وتنظيماتهم مثل معظم القبائل التركية فى آسيا الوسطى. ولكن البناء الاجتماعى للوافدين الجدد منهم إلى آسيا الصغرى، تميز باستقرار جماعات ضخمة منهم فى شتى أنحائها، ومنذ وقت بعيد كان سكان القرى الزراعية فى هضبة الأناضول جيرانا لجماعات رعوية، وكانت القرى الزراعية تقع فى منحدرات السفوح أو فى الأراضى وافرة الخصوبة والوديان النهرية. وقد أتاحت الظروف السكانية الخاصة بآسيا الصغرى لأعداد ضخمة من الأتراك أن يتسللوا إليها منذ عقود بعيدة، وأحضروا معهم عنف ونشاط البدو، فضلا عن رغبتهم فى الخضوع للنظام. وبالتدريج خضع الأتراك للحياة الزراعية، وعاشوا فى قرى جنبا إلى جنب مع السكان الأصليين، وحدث اندماج بين الفريقين، وشيئا فشيئا أصبحت المدن خاضعة للإسلام. ونتيجة لذلك اختفت اللغة اليونانية والثقافة اليونانية من داخل آسيا الصغرى، تحولت بلادها إلى العقيدة والحضارة الإسلامية(٢).

وقد أشار الجغرافى الإدريسى إلى أن بلاد اسيا الصغرى فى سنة ١١١٧م كانت لاتزال تستخدم الأسماء الجديدة، على حين أن الرحالة ابن بطوطة الذى عبر بلاد آسيا الصغرى

---

(1) Ibid., p.405.

(2)Langer (W.L.) and Blake (R.P.),"The Rise of the Ottoman Turks and its Historical Background", in American Historical Review, 37 (1931-1932)pp. 479-481.

سنة ١٣٣٠ يرى أن تلك البلاد بما فيها من مدن وقرى تحمل أسماء تركية صرفة، الأمر الذى يعطينا صورة مذهلة عن التحول الذى حدث، ونعنى بذلك «التتريك الفعال» لآسيا الصغرى ودخولها فى الإسلام(١). ويذكر المؤرخون أنه بمجرد أن تخضع الأرض للأتراك السلاجقة أو العثمانيين، سرعان ما تستقر الأمور بها، ولذلك شهدت آسيا الصغرى هدوءاً فى عهد الأتراك السلاجقة الذين غلب عليهم التسامح الدينى، ولم يعرفوا الاضطهاد الدينى وأمنوا للأهالى الحرية الدينية، ويدل على ذلك أن الأهالى اعتنقوا العقيدة الجديدة الممثلة فى الإسلام من تلقاء أنفسهم(٢).

ضعف نفوذ السلاجقة:

بلغت الدولة السلجوقية أوج اتساعها وعظمتها فى عهد السلطان ملكشاه (١٠٧٢ ـ ١٠٩٢م) الذى خلف أباه ألب أرسلان، وصارت تمتد من بحيرة خوارزم شمالا إلى حدود اليمن جنوبا، ومن حدود الصين شرقا إلى سواحل البحر المتوسط غربا(٣). ومع ذلك فإنه من الخطأ الاعتقاد فى أن امتداد دولة السلاجقة غربا على عهد ملكشاه إنما جاء ثمرة جهوده الشخصية، إذ الحقيقة أن هذا السلطان لم تطأ قدمه أرض الأناضول، وإنما قام بمواصلة الحرب ضد البيزنطيين أحد أقارب ملكشاه وهو سليمان بن قتلمش الذى تمكن من بسط نفوذ السلاجقة على ثلاثة أرباع آسيا الصغرى تقريبا(٤). وقد اختار سليمان بن قتلمش السلجوقى مدينة نيقية لتكون مركزاً له، وهى المدينة التى أصبحت أول عاصمة لسلطنة سلاجقة الروم فى الأناضول حتى حلت محلها قونية فيما بعد (١٠٨١ ـ ١٣٠٢)(٥).

---

(1) I bid., p. 485.

أنظر مهذب رحلة ابن بطوطة (القاهرة ١٩٣٤)، جـ ١ ص ٢٢٣ ـ ٢٤٨، حسين مؤنس: ابن بطوطة ورحلاته (القاهرة ١٩٨٠)، ص ١١٥ ـ ١٣٥.

(2) Langer and Blake, op. cit., pp. 482-483.

(٣) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر (بيروت ١٩٦٨)، المجلد الخامس، القسم الأول، ص ٢٧، عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران، ص ٩.

(٤) سعيد عاشور: الحركة الصليبية (القاهرة ١٩٧٨) جـ١ ص ٨٧.

(٥) المرجع السابق، ص ٨٩ ـ ٩٠.

على أن دولة السلاجقة سرعان ما أخذت تسير فى طريق التداعى والانهيار بعد وفاة ملكشاه سنة ١٠٩٢م، وترتب على وفاته نشوب النزاع بين أبنائه، ثم بينهم وبين أعمامهم، فأدى ذلك إلى تفتيت الدولة إلى دويلات صغيرة، وانتشار الفوضى وفساد الإدارة، واغتصاب الحكم، وحاول كل أمير سلجوقى أن يضم إلى صفه حلفاء يمنحهم الأموال والإقطاعات، الأمر الذى أدى إلى إضعاف نفوذه وقوته[١].

ولعل أكبر مظهر لانحلال نفوذ الأتراك السلاجقة منذ بداية القرن الثانى عشر الميلادى أنهم انقسموا إلى خمسة بيوت هى:

١ ـ بيت طغرلبك، وتسمى دولته دولة السلاجقة الكبرى، وقد ملكوا خراسان والرى والعراق والجزيرة وفارس والأهواز. واستمرت دولتهم من سنة ١٠٣٨ حتى سنة ١١٢٨ عندما سقطت فى أيدى الخوارزمية.

٢ ـ بيت سلاجقة كرمان، وهم عشيرة قاروت بك بن داود بن ميكائيل بن سلجوق ـ وهو أخو ألب أرسلان ـ واستمرت دولتهم من سنة ١٠٤١ حتى سقطت على أيدى الغز التركمان سنة ١١٨٣.

٣ ـ سلاجقة عراق العجم وكردستان، وقد استمرت دولتهم من سنة ١١١٧ حتى سقطت على أيدى الخوارزمية سنة ١١٩٤م.

٤ ـ سلاجقة الشام، وهم بيت تتش بن ألب أرسلان، وقد بدأت سنة ١٠٩٤، استمرت حتى سنة ١١١٧م.

٥ ـ سلاجقة الروم بآسيا الصغرى، وكانوا من بيت قتلمش بن إسرائيل ابن سلجوق، وقد بدأت دولتهم سنة ١٠٧٧، ولم تسقط إلا على أيدى الأتراك العثمانيين سنة ١٣٠١، وبذلك كانت أطول دول السلاجقة عمراً[٢].

وبعد وفاة ملكشاه، كان سلطان السلاجقة بآسيا الصغرى قلج أرسلان بن سليمان، وعلى الرغم من أن نفوذه قد امتد على الطريق الممتد من نيقية إلى قونية، وعلى الممرات

---

(١) السيد الباز العرينى: الشرق الأوسط والحروب الصليبية (القاهرة ١٩٦٣)، ص ٩.

(٢) سعيد عاشور: «العلاقات العربية التركية من منظور عربى»، ص ٧١.

الواقعة بشمال سلسلة جبال طوروس، فإنه لم يسيطر على كل آسيا الصغرى، ففى أرمينية استقرت جماعة من التركمان، وفى أرزنجان استقرت طائفة أخرى، وفى أقصى الغرب خضعت سيواس وأماسيه وقيصرية وأنقرة لرجل من زعماء التركمان، اتخذ لقب دانشمند الأمر الذى يدل على ما كان له من نفوذ روحى. وعلى هذا النحو قامت بآسيا الصغرى قوة من التركمان، دأبت على الإغارة فى آسيا الصغرى، تقابل قوة الأمراء السلاجقة التى ترتكن إلى العناصر التركية فى داخل البلاد(١).

ويمثل القرن الثالث عشر حقبة هامة فى تاريخ الشرق الأدنى، وخاصة فى آسيا، إذ شهد أفول وتفسخ سلطنة سلاجقة الروم، وتوغل المغول فى أملاكها.

وقد ظل المغول حتى القرن الثانى عشر بمنأى عن أحداث التاريخ العام باعتبارهم قوما رحلا أملت الظروف القاسية عليهم أن يعيشوا عيشة رعوية، وأن يتنقلوا فى هضبة منغوليا الواسعة من مكان إلى آخر، سعيا وراء العشب والكلأ. وما أن وافت نهاية هذا القرن حتى أصبح المغول شعبا مقاتلا من نوع فريد يفتقر إلى القائد الذى يستطيع أن يقوده، فكان ذلك القائد هو تيموجين الذى عرف فيما بعد باسم جنكيزخان (ت ١٢٢٧م)، وقدر له أن يضع أساس أكبر إمبراطورية عرفها تاريخ البشرية(٢).

ثم كان أن بدأ جنكيزخان يوجه أنظاره إلى المناطق الخارجة عن نطاق المغول، وذلك بالتوسع فى الجنوب على حساب الصين. وفى ربيع عام ١٢١٤ هاجم جنكيزخان إمبراطورية الصين من عدة نقاط، والتحم مع الصينيين فى معركة حاسمة سقطت على إثرها مدينة بكين عاصمة كين الصينية فى سنة ١٢١٥(٣). ولاشك أن سقوط عاصمة الصين فى أيدى المغول أحدث دويا هائلا، جاء إنذاراً للدول الإسلامية المجاورة، فى وقت كانت تعانى من الضعف والتخاذل والانقسام.

---

(١) الباز العرينى: المرجع السابق، ص ١٠ ـ ١١.

(٢) للوقوف على مزيد من التفضيلات، انظر للباحث كتاب: «العلاقات المبكرة بين أوربا والمغول» (القاهرة ١٩٨٦).

(3) Ratchnevsky (Paul) Genghis Khan, His Life and Legacy, trans. and edited by Thomas Bivison Haining (U.S.A.,1992),pp. 113-114.

كان الغزو المغولى للعالم الإسلامى عنيفا شديد الوطأة، فقد ضرب المغول الأقاليم الإسلامية، وسالت الدماء على طول الطريق الذى سلكته جحافلهم إليها، وقاسى المسلمون شتى أنواع العذاب والتنكيل، وتجمع الروايات على أن غزوات المغول كانت مصحوبة بالمجازر البشرية، وتركت أبشع الأثار فى النفوس. ومن المؤرخين المعاصرين الذين صوروا ما قاساه العالم الإسلامى وتحسر على ما أصاب الإسلام وكبار مدنه على يد المغول المؤرخ إبن الأثير، فقد قال فى حوادث سنة ٦١٧هـ (١٢٢٠م) تحت عنوان «ذكر خروج التتر (المغول) إلى بلاد الإسلام: «لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة، استعظاما لها، كارها لذكرها، فأنا أقدم رجلا وأؤخر أخرى، فمن الذى يسهل عليه أن يكتب نعى الإسلام والمسلمين، ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك، فياليت أمى لم تلدنى. وياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا، إلا أنى حثنى جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف، ثم رأيت أن ترك ذلك لايجدى نفعا، فنقول هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التى عفت الأيام والليالى عن مثلها عمت الخلائق وخصت المسلمين، فلو قال إن العالم من خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها.. وهؤلاء (المغول) لم يبقوا على أحد، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال، وشقوا بطون الحوامل، وقتلوا الأجنة، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، لهذه الحادثة التى استطار شررها، وعم ضررها، وسارت فى البلاد كالسحاب «استدبرته الريح».

وبهذه الصورة المفزعة زحفت جيوش المغول على الجانب الشرقى من العالم الإسلامى، فى وقت وصل فيه هذا العالم ــ كما ذكرنا ــ إلى درجة بالغة من التفكك والضعف، جعلته يعجز عن صد السيل المغولى الجارف تحت قيادة جنكيزخان. وكان أن اختص جنكيزخان نفسه بالهجوم على البلاد الواقعة بين نهرى سيحون وجيحون، على حين عهد إلى قواده وأبنائه مهمة الاستيلاء على أقاليم الدولة الخوارزمية، وكان جنكيزخان مثلا لوحشية الغزو البربرى، ويبدو ذلك واضحا عندما استولى على مدينة بخارى فى فبراير سنة ١٢٢٠[1]، وسمرقند فى مارس من نفس العالم. وأثبت تولوى ولد جنكيزخان أنه لايقل وحشية عن أبيه، فقد أجهز على سكان مدينة خراسان عندما سقطت المدينة فى يده

(1) I bid., pp.131-132.

فى فبراير سنة١٢٢١، ثم انطلق تولوى إلى مرو عاصمة خراسان، فسقطت فى يده فى أبريل من نفس العام، وبعد أن أتى عليها تلقى أمراً من أبيه جنكيزخان الذى قرر العودة إلى منغوليا، ليلحق به عند مدينة الطاالقان فى أعلى نهر جيحون.

وأخيراً وصل جنكيزخان إلى عاصمته قراقورم فى سنة ١٢٢٥م بعد غياب دام ست سنوات، وشرع فى مقابلة أعدائه القدامى من القبائل المغولية والتركية، كما أعلن الحرب على إمبراطورية سونغ الصينية، واشترك فى هذه الحرب بنفسه رغم تقدمه فى السن، ولكنه مات فى ٢٥ أغسطس سنة ١٢٢٧ عن اثنين وسبعين عاما(١)، تاركا خلفه إمبراطورية واسعة، تمتد من أقصى حدود الصين على شاطىء المحيط الهادى شرقا، إلى قلب أوربا وإلى عواصم المسلمين غربا.

ومما يذكر أن الحركة التوسعية للمغول قد توقفت قليلا عقب وفاة جنكيزخان، وانشغل المغول عن كل شيء بأحوالهم الداخلية. وباعتلاء أوكتاى عرش الإمبراطورية المغولية سنة ١٢٢٩، توسعت الممتلكات المغولية بشكل لافت على حساب القوى الإسلامية والمسيحية.

ويهمنا هنا أن المغول استغلوا فرصة النزاع الدائر بين سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى من جهة وبين المماليك حكام مصر والشام من جهة أخرى. فسار القائد المغولى بيجو فى عام ١٢٤٢ على رأس جيش بلغ تعداده ٣٠٠٠٠ جندى، مجهزين بآلات القتال، قاصدين أرضروم، حيث التحموا بقوات غياث الدين كيخسرو بن علاء الدين كيقباذ سلطان سلاجقة الروم، فلم يقو على الصمود أمام المغول، وسقطت المدينة فى أيديهم(٢). وفى السنة التالية استعد غياث الدين كيخسرو للقاء المغول، فكون جيشا ضخما من المسلمين والأرمن والكرج واليونانيين والفرنج، وساروا عن طريق البر، كما سار البعض عن طريق البحر، متجهين إلى أرمينية لمحاربة المغول، فالتقى الفريقان بموضع يسمى كوسة طاغ (الجبل الأقرع) بالقرب من أرزنجان، حيث دارت معركة عنيفة فى ٢٦ يونيو سنة ١٤٣٢، أسفرت عن انتصار المغول، ودحر هذا الجيش غير المتجانس، وهرب غياث الدين إلى الحدود

---

(1) Ibid., pp. 140-142.

(٢) فؤاد عبد المعطى الصياد: المغول فى التاريخ، ص ١٨٢، الباز العرينى: المغول، ص ١٧٨ ــ ١٧٩.

البيزنطية، ثم استولى المغول على سيواس وقيصرية وخربوهما، وفرضوا عليهما فى كل سنة أربعمائة ألف دينار(١).

والواقع أنه كان لهذه المعركة أثر حاسم فى مصير الدولة السلجوقية، إذ وقع الأناضول بعدها فى قبضة المغول، وعندما رأى السلطان غياث الدين أنه لن يقوى على مواجهة المغول، أرسل لهم رسولا يعلن خضوعه، ويتعهد بدفع جزية سنوية لخان المغول. وبهذا قضى على استقلال دولة سلاجقة الروم، وصارت تابعة للمغول. وكان أمراء السلاجقة يتولون الحكم بمراسيم من قبل المغول(٢).

وعلى الرغم من أن دولة السلاجقة فى آسيا الصغرى ظلت باقية حتى سنة ١٣٠٢م فإنها لم تفق على وجه الإطلاق من الضربة الشديدة التى وجهها لها المغول فى كوسه طاغ، كما أن الغزو المغولى لم يحدث أى تغييرات عميقة فى الأناضول، وكل ما فعله أنه ساهم فى هجرة العديد من أتراك آسيا الوسطى إلى شبه جزيرة الأناضول فراراً من المغول أو سيراً فى ركابهم، ولم يحدث إلا تغييراً طفيفا فى الحياة الاجتماعية أو الثقافية(٣).

وقد أدى ضعف دولة سلاجقة الروم إلى نقل السلطة إلى أطرافها، حيث أخذت إمارات تركية صغيرة تعمل فى استقلال عن سلطة السلاجقة، ونعنى بذلك مهاجمتها لمناطق الثغور البيزنطية، وعجز السلاجقة عن الحيلولة دون مهاجمتها لتلك المناطق. ولعب الغزاة(٤) (المجاهدون) دوراً أساسياً فى شن هذه الهجمات الجديدة، فى نفس الوقت الذى كان فيه الأولياء من المشايخ والدراويش - يقومون بدور هام فى التحريض على الجهاد ضد الدولة البيزنطية التى كانت قد وصلت إلى مرحلة بالغة الضعف. وما حلت أوائل القرن

---

(١) محمد فؤاد كوبريلى: قيام الدولة العثمانية، ترجمة د. أحمد السعيد سليمان (القاهرة ١٩٩٣)، ص ٦٨، فؤاد الصياد: المرجع السابق، ص ١٨٢ - ١٨٣، الباز العرينى: المرجع السابق، ص ١٧٩.

(٢) فؤاد العرينى: المرجع السابق، ص ص١٨٣.

(3) Langer & Blake, "The Rise of the Ottoman Turks and its Historical Back-ground", pp. 486-487.

(٤) الغازى هو المدافع عن العقيدة الإسلامية، والمحارب فى سبيلها، والغازى سيف الله، وحامى المؤمنين وملاذهم. ولو حدث أن استشهد الغازى فى سبيل الله، فإنه حى لا يموت، كما جاء فى الآية الكريمة: ﴿ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا، بل أحياء عند ربهم يرزقون، فرحين بما أتاهم الله من فضله.

الرابع غشر الميلادى، حتى كانت دولة سلاجقة الروم قد فقدت غربى الأناصول الذى توزع على عدد من إمارات الغزاة الأتراك، الذين قيض لإحدى دولهم وهى الدولة العثمانية أن تسعى إلى إقامة إمبراطورية عالمية(١).

أصل الأتراك العثمانيين:

ينحدر الأتراك العثمانيون من حشود البدو الذين تجولوا فى منطقة جبال ألطاى، شرق الاستبس الأوراسية وجنوب نهر ينسى وبحيرة بايكال، وذلك فى الأراضى التى تمثل حاليا جزءاً من منغوليا الخارجية Outer Mongolia . وهؤلاء البدو الألطائيون كانت لديهم حضارة بدائية قائمة على الحياة الجبلية والعادات، دون أن يكون هناك شكل للحكومة والقوانين التى تميز المجتمعات المتقدمة، وقامت حياة هؤلاء البدو واعتنقوا الشامانية(٢) .

وفى القرن الثانى قبل الميلاد، أدت التغيرات السياسية والحربية والأحوال المناخية فى المناطق الألطائية، إلى حدوث موجات بدوية متتابعة ضد الحضارات المستقرة الواقعة على حدود الاستبس، وقد عرفت القبائل التى تحركت إلى الجنوب والغرب إلى شرق أوربا، والشرق الأوسط، وآسيا الوسطى، باسم الأوغوز Oguz فيما بينهم، وعرفوا بالتركمان أو الترك عند الشعوب التى تعرضت لهجماتهم. وقد اجتاح الترك فى طريقهم بحثا عن مأوى لهم ولقطعان ماشيتهم الشعوب المستقرة ودمروا المدن والحقول، وعندما استقر الترك سمحوا للشعوب المستقرة التى بقيت حية أن تستعيد أوطانها وأنشطتها السابقة، ولهذا فإن الغزوات التى قام بها الترك، لم تترك أية تغيرات دائمة فى الأنماط العرقية والاقتصادية(٣).

ويحيط الغموض بأصل العثمانيين، وهى مشكلة شغلت أذهان الباحثين، وذلك لغياب المصادر المعاصرة والروايات المختلفة عن أحداثهم. فلم تكن للعثمانيين سجلات مكتوبة عن الفترة السابقة على فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣، على حين أن البيزنطيين لايشيرون بما يستحق الذكر إلى أصل العثمانيين، خاصة وأنهم لم تتوفر لديهم وسائل الحصول على

---

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى: فى أصول التاريخ العثمانى، ص ٢٣ ــ ٢٤.

(2) Shaw (Stanford J.), Hist. of the Ottoman Empire and Modern Turkey (Cambridge, 1977), Vol. I, p. 9.

(3) Ibid., p. 2.

معلومات لها قيمتها. أما الكتاب الأوروبيون الأول فليست لمعلوماتهم أية قيمة من حيث اعتبارها انعكاساً لفكرة أوربا عن العثمانيين حين أصبحوا خطراً يتهددها، هذا إلى أن المصادر العثمانية التقليدية لم تشر إلا قليلا إلى العثمانيين قبل استقرارهم فى الأناضول، كما أنها تتجاهل تاريخ الأتراك بوجه عام قبل اعتناقهم الإسلام(١).

ومن الآراء التقليدية السائدة عند المؤرخين عن أصل الأتراك العثمانيين، أن زعيم قبيلة قايى وهى قبيلة تركمانية حكمت منطقة ماهان الصغيرة فى الجزء الشمالى الغربى من إيران فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى. ويقال إن سليمان شاه زعيم تلك القبيلة هرب من الزحف المغولى بقيادة جنكيزخان ومعه آلاف من الأتراك الآخرين، حتى لايواجه الموت أو العبودية فى أيدى الغزاة الجدد القادمين من آسيا الوسطى، واستقر فى أخلاط الواقعة فى شرقى تركيا الحالية قريبا من بحيرة وان فى هضبة أرمينية. ولكن إقامته لم تدم طويلا، فقد أراد سليمان شاه العودة إلى بلاده، فسار إلى قلعة جعبر، وأثناء عبوره مع عشيرته نهر الفرات سقط فى النهر وغرق فى سنة ٦٢٩هـ (١٢٣١) قبل أن يبلغ غايته. وعندئذ انقسم قومه بين أبنائه الأربعة، فقاد إثنان منهم معظم قومه عائدين إلى خراسان للدخول فى خدمة المغول، بينما تابع الأخوان الباقيان المسير غربا إلى الأناضول، وتولى أرطغرل زعامة هذا الجزء من القبيلة. ويعنى إسم أرطغرل «الرجل ذو القلب الأيمن» The Right - Hearted man(٢).

وتقول الرواية التاريخية أن أرطغرل أبو عثمان الذى نسبت إليه الدولة العثمانية قاد جماعة صغيرة مؤلفة من حوالى أربعمائة فارس وعائلاتهم، وفى أثناء سير أرطغرل (١٢٣١ ـ ١٢٨١) وعلى غير المتوقع، شاهد معركة دائرة بين فريقين لايعرفهما، وكان أحد

---

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق، ص ١٧.

(2) Creasy (Sir Edword),Turkey, revised and ed. by Archibald cary coolidge and Harold clafin (U.S.A, 1928), p. 9. Shaw, Hist. of the Ottoman Empaire. Vol. I. p. 13, Langer and Blake, The Rise of the Ottoman Empsire., p. 489,
فؤاد كوبريلى: قيام الدولة العثمانية، ص ١٢١، أحمد عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق، ص ١٧ ـ ١٨.

الفريقين قد ضغط على الآخر بضراوة، فحث عثمان أتباعه على مساعدة الفريق الخاسر، وتم النصر لهذا الفريق. وتبين فيما بعد أن الجيش الذى جرى إنقاذه من الهزيمة المؤكدة كان بقيادة سلطان دولة الروم السلاجقة الأول علاء الدين كيقباذ (١٢١٩ ـ ١٢٣٧)، فما كان من السلطان إلا أن كافأ أرطغرل بمنحه وقبيلته أرضا كإقطاع على الحدود البيزنطية(١)، فى أقصى الحافة الشمالية الغربية للأراضى السلجوقية، على بعد أقل من خمسين ميلا من بحر مرمرة، وأقل من مائة ميل من القسطنطينية نفسها. وعلى الرغم من أن تلك الرواية تحمل طابع الأسطورة، إلا أنها لم تكن دون فائدة، إذ أنها توضح لنا مدى الفوضى والظروف السياسية والاجتماعية الصعبة التى كانت تعانيها آسيا الصغرى فى القرن الثالث عشر، وكيف أن القبائل التركية الرعوية كانت تشق طريقها وتؤسس لنفسها فى آسيا الصغرى، الأمر الذى يجعلنا نؤكد تماما أن السلطان السلجوقى رحب بأرطغرل وبقية الزعماء الأتراك الآخرين كحلفاء له لمقاومة ضغط البيزنطيين فى الغرب والمغول فى الشرق(٢).

ومن الروايات الأسطورية التى وضعها المؤرخون لتعليل أصل العثمانيين وظهورهم واعتناقهم الإسلام، زواج عثمان أكبر أولاده أرطغرل بينت رجل صالح كان قد رآها مصادفة وعلق بها، ولكن أبى والدها أن يزوجها له، فحزن عثمان لذلك، وأظهر الصبر والجلد، ولم يرغب الإقتران بغيرها، حتى قبل أبوها بعد أن قص عليه عثمان مناما رآه ذات ليلة فى بيت هذا الصالح، وهو أنه رأى القمر قد صعد من صدر هذا الشيخ، وبعد أن صار بدراً نزل فى صدره أى صدر عثمان، ثم خرجت من صلبه شجرة نمت فى الحال، حتى غطت الأكوان بظلها، ورأى أكبر الجبال تحتها، وخرج النيل ودجلة والدانوب من جذعها،

---

(1) Stavrianos, The Balkans since 1453, p. 35, Schevill (Ferdinand), The Hist. of Balkan Peninsula. From the earliest times to the Present day (New York, 1933) p. 176.

محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ٤٣٩،

Langer & Blake, op. cit., p. 490.

(2)Ibid., p. 13.

ورأى ورق هذه الشجرة كالسيوف يحولها الريح نحو مدينة القسطنطينية، فتفاءل الشيخ من هذا المنام وبشره بأن أسرة عثمان ستحكم العالم، وزوجه ابنته[1].

وعلى أية حال، فإن الأحداث التاريخية تثبت أن قسماً صغيراً من الغز المعروفين بقايي والذين وفدوا على الأناضول أيام الفتوحات السلجوقية، فأسكنوا فى أماكن مختلفة منه، كان يعيش فى أواخر القرن الثالث عشر فى شمال غرب الأناضول على الحدود التركية البيزنطية، وكان يحارب جيرانه من البيزنطيين[2]. ويرى البعض أن صلات العثمانيين بدولة الأتراك السلاجقة فى الأناضول ـ وهى دولة إسلامية ـ كانت عاملا هاما ساعد على اعتناقهم الدين الإسلامى فى سرعة وسهولة. وعلى ذلك فقد تحدد الإسلام عقيدة دينية رسمية للأتراك العثمانيين من عهد الأمير عثمان[3].

قيام الدولة العثمانية:

ولما توفى أرطغرل فى سنة ١٢٨١ انتقلت زعامة القبيلة إلى أكبر أبنائه عثمان (١٢٨١ ـ ١٣٢٤)، الذى انحصرت اهتماماته فى تأسيس قواعد الدولة العثمانية وبداية توسعها بالتدريج على حساب البيزنطيين، مستغلا الفوضى والإهمال المسيطرين على الأراضى البيزنطية بالأناضول، وتجنب الدخول فى نزاع مع جيرانه التركمان الأقوى منه، حتى يأتى الوقت الذى تقوى فيه دولته ويشتد ساعدها بصورة كافية تمكنه من مواجهتهم، وقد بدأ عثمان فتوحاته، فتقدم خلال الممرات من مناطق الحدود شمالى فريجيا بالقرب من دوريلايوم (إسكى شهر ومعناها المدينة القديمة) إلى سهول بيثينيا الخصبة، وضد المسيحيين الإقطاعيين إلى الشمال[4]. وفى حوالى سنة ١٣٠٠م مكنه الانهيار النهائى لدولة الأتراك السلاجقة ووفاة علاء الدين الثالث آخر السلاطين السلاجقة بقونية، من الاستيلاء على

---

(١) القرمانى: أخبار الدول وآثار الأول ص ٢٩٧ ـ ٢٩٧.

محمد فريد: تاريخ الدولة العلية الثعمانية، ص ٤٠، عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية، جـ ١ ص ٣٦ ـ ٣٧.

(٢) فؤاد كوبريلى: قيام الدولة العثمانية، جـ١ ص ٣٥.

(٣) عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية، جـ١ ص ٣٨.

(4)Shaw, Hist, of the Ottnoan Empire, Vol. I, pp/ 13-14.

محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ٤٠ ـ ٤١.

القلاع الحصينة لإسكي شهر وقره جه حصار التى تتحكم فى الممرات المؤدية من هضبة الأناضول الوسطى إلى سهول بيثنيا وجعلها قاعدة له. وما لبث أن استولى عثمان على أول مدينة عامة فى منطقته، وهى مدينة ينى شهر (ومعناها المدينة الجديدة)، وقد أصبحت العاصمة العثمانية ومقر ملكه وبداية عملية نقل أتباعه من الوضع البدوى إلى وضع أكثر تحضراً، ولقب نفسه «باد شاه آل عثمان» أى سلطان العثمانيين. ثم اجتاح عثمان ومحاربيه السهول الممتدة من إينجول إلى الضفة الشرقية من نهر سقاريا Sakarya، وبذلك لم يعد البيزنطيون قادرون على الاتصال بالقسطنطينية إلا بحراً فحسب عن طرق ميناء مودانيا Mudanya والموانى الأخرى الواقعة بحذاء ساحل بحر مرمرة[١].

ومن موقعه الحصين فى ينى شهر، قضى عثمان بقية عهده فى التوسع فى اتجاهين: شمال نهر سقاريا ناحية البحر الأسود، والجنوب الغربى تجاه بحر مرمرة، وقد أنجز هدفه فى فى المنطقيتين حوالى سنة ١٣٠٨م، وبذلك عزل آخر مدينة بيزنطية هامة وهى مدينة بروسة التى تقع جنوبى بحر مرمرة عند سفح جبل أولوداج، بعد أن سقطت الأقاليم والحصون والقلاع الواقعة حولها، وأخيراً فى ٦ أبريل سنة ١٣٢٦ سقطت بروسة على أيدى جيش قاده إبنه أورخان، الذى كان آنذاك النائب الرئيسى لوالده فى الدولة وقيادة الجيش[٢]. ومن الثابت أن بروسة لم تشهد قتالا خارج أسوارها، فقائدها اليونانى لم يتلق أية مساعدة من الأباطرة البيزنطيين، فسلم المدينة، وبلغ من استيائه لموقف الأباطرة أن اعتنق الإسلام وسلم ثروته للعثمانيين. ونتيجة لذلك منح أورخان قائد المدينة اليونانى أفرينوس لقب بك، وصار من مشاهير القواد العثمانيين، ولم يتعرض أورخان لأهل المدينة بسوء. وأسرع أورخان إلى سوكود لينقل الخبر إلى والده الذى كان يجود بآخر أنفاسه، فسر على تتويج حياته بالنجاح الذى أحرزه ولده، ودفن فى بروسة العاصمة الجديدة للدولة الناشئة[٣].

والواقع أن استيلاء العثمانيين على بروسة كان خطوة هامة إلى الأمام بالنسبة لهم، فقد تحولت ممتلكاتهم من إمارة حدود يسكنها رعاة إلى دولة حقيقية ذات عاصمة وحدود

---

(1)Creasy, Turkey, P. 15. Shaw, op. cit., Vol. I. p. 14.

(2) Ostrogorsky, op. cit., pp. 501-502, Shaw, p. 14.

(3) Chevill, op. cit., p. 198.

محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ٣٧، القرمانى: أخبار الدول وآثار الأول، ص ٢٩٧.

وشعب مستقر، ووسائل تطوير جيش نظامى يدافع عن الدولة ويوسع رقعتها، وإدارة تشرف على مهام الحكم. حدث هذا فى القوت الذى انغمس فيه البيزنطيون فى الفتن والحروب الأهلية، ونشبت المنازعات السياسية بين أفراد الأسرة البينزنطية الحاكمة، وبدأت تلك الأسرة تتجه نحو العثمانيين طلبا للمساعدة، وأصبح القادة الحربيون العثمانيون مساندين للأباطرة البيزنطيين المتنافسين وكبار رجال الدولة، وأرسلوا بانتظام قوات كمرتزقة إلى القسطنطينية وتراقيا، حيث وقعت عيونهم على مدى ضعف بيزنطة من ناحية، واغتنام فرص الغزو على حساب البينزنطيين من ناحية أخرى(١).

ومهما يكن من أمر، فقد كان لدى العثمانيين من الأسباب الوجيهة ما يدعوهم إلى اعتبار عثمان سلطانهم الأول. صحيح أن أرطغرل قادة عشيرته فى الأناضول، إلا أنه لم يحرز الاستقلال ولم يتعد كونه أميراً متواضعاً، أما عثمان فهو أول من راوده حلم إرساء قواعد دولة مترامية الأطراف، وبدأ السير فى طريق النصر الذى قيض لأسلافه أن يرتادوه. ورغم بساطة مظهر عثمان، فقد كانت طلعته توحي بالهيبة، وكان يطلق عليه إسم عثمان الأسود، وذلك على أساس أن اللون الأسود له احترامه فى الشرق باعتباره رمزاً لقوة الشخصية والحيوية الجسمانية. وقد انتقلت صفات عثمان «الأسود» الجسمانية إلى بضعة أجيال من أسلافه، فطيلة ما يقل عن ثلاثة قرون لم يجلس على عرش العثمانيين سلطان لم يتحل بالشجاعة التى كانت من أبرز صفات الأتراك(٢).

(1)Shaw, op. cit. Vol. I. p. 14.

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق، ص ٣٨.

الفصل الثانى

إتساع الدولة العثمانية

- أورخان (١٣٢٤ ـ ١٣٦٢).
- مراد الأول(١٣٦٢ ـ ١٣٨٩).
- متاعب العثمانيين فى الأناضول.
- معركة كوسوفا (قوصوه).

أورخان (١٣٢٤ ـ ١٣٦٢):

توفى عثمان فى بروسة بعد أن أوصى بالملك من بعده لأورخان ثانى أولاده لما يتصف به من علو الهمة والشجاعة والإقدام، ولم يوص به لأكبر أولاده علاء الدين لميله إلى الورع والعزلة[١]. ويعتبر أورخان أول أمير عثمانى يحمل لقب سلطان، فهو «السلطان ابن سلطان الغزاة، والغازى ابن الغزاة، وحاكم الآفاق، وسيد العالم، وشجاع الدين، واختيار الدين، وسيف الدين»[٢].

وبعد ارتقاء أورخان العرش بوقت قصير تحرك تجاه بحر مرمرة، فأسرع الإمبراطور البيزنطى أندرونيق الثالث باليولوجوس (١٣٢٨ ـ ١٣٤١)، وقاد حملة ضخمة لصد الخطر العثمانى، ولكن أورخان ألقى به هزيمة فادحة سنة ١٣٢٨، جعلت الإمبراطور يفر راجعا إلى القسطنطينية، وبعد ذلك تخلت الإمبراطورية البيزنطية عن بذل أية جهود لتنظيم المقاومة العسكرية فى الأناضول أو تعزيز المدن البنزنطية الباقية لها هناك. ونتيجة لذلك استولى أورخان على معظم شبه جزيرة نيقية وسواحل خليج نيقوميديا حتى يالوفا Yolava فى الجنوب، وعزل مدينة نيقية، ثم استولى عليها فى ٢ مارس سنة ١٣٣١ دون قتال[٣]، ولعل هذا عو السبب فى أن الرحالة المراكشى ابن بطوطة الذى زار نيقية بعد خمس أو ست سنوات يصف أسوار نيقية بأنها سليمة لم تمتد إليها يد التلف. وباستيلاء أورخان على نيقية ثانية المدن البيزنطية بعد القسطنطينية انتهى نفوذ الإمبراطورية البيزنطية فى آسيا الصغرى.

وخلال الستة سنوات التالية استولى أورخان على معظم الأراضى البيزنطية الباقية فى الشمال الغربى من الأناضول بعد معاناة قليلة، وتوج جهوده بالاستيلاء على نيقوميديا (إزمت) فى سنة ١٣٣٧ بعد حصار دام ست سنوات، وفى السنة التالية استولى على أسكودار (سكوتارى)، الأمر الذى جعل الدولة العثمانية من أقوى الإمارات التركية فى المنطقة، وازداد مركزها قوة باعتبارها زعيمة الجهاد ضد العدو (المسيحيين). وهنا نلاحظ أن

---

(١) محمد فريد: تاريخ الدولة العثمانية، جـ١ ص ٩٤.

(٢) يلماز أوزتوفا: تاريخ الدولة العثمانية. ترجمة عدنان محمود سلمان، مراجعة د. محمود الأنصارى، جـ١ (استانبول ١٩٨٨)، جـ١ ص ٩٤، بول كولز: العثمانيون فى أوربا، ص ٢٩.

(3) Shaw, op, cit. Vol. I. p. 15, Schevill, op. cit., pp. 179-180.

طرابيزون الواقعة فى الشمال الشرقى من الأناضول ظلت بيزنطية على الرغم أنها كانت مستقلة عن القسطنطينية منذ الحملة الصليبية الرابعة (١٢٠٤م)، وقد احتفظت بيزنطة بسيطرة مباشرة على الشريط الساحلى لغرب الأناضول من سايل Sile على البحر الأسود إلى سكوتارى، ومدينة أماستريس Amastris فى بافلاجونيا، ولكن تلك المدن كانت معزولة إلى حد بعيد، ومبعثرة بصورة تجعلها عاجزة عن تقديم أية مقاومة فعالة ضد العثمانيين[1].

وعزز أورخان مركزه أيضا بالتوسع فى ساحل بحر مرمرة، وذلك على حساب إمارتى عمرخان وقره سى، الأمر الذى جعل العثمانيين على مرمى البصر من جناق قلعة عبر الدردنيل فى شبه جزيرة غاليبولى. وقد استفاد أورخان من المنازعات الداخلية فى هاتين الإمارتين، وذلك بتحالفه مع أحد الأمراء، ثم التحول عنه إلى غيره، وفى نظير ذلك يأخذ أيضا من كل إمارة مكافأة له على الخدمات التى قدمها[2].

وفى حوالى منتصف عمره الطويل، وبعد أن أصبح سيداً على آسيا الصغرى، تحلقت أفكاره عبر المضايق إلى أوروبا، أى نقل فتوحاته إلى أوربا، وتصور أفكاره عقلية فذة، وتنم عن نشاط رائع لرجل لم يقم بأى مجهود للتوسع شرقا فى آسيا الصغرى، لوجود أمراء مسلمين بعضهم أكثر قوة منه، بل أسرع إلى حدود الإمبراطورية البيزنطية التى انتزع أورخان آخر ممتلكاتها فى آسيا الصغرى، وصارت أحوالها تدل على نهايتها القريبة: فالزراعة والتجارة غرقا فى كساد تام، وقلت الموارد، واختفت التقاليد المتبعة فى الجيش والإدارة، وفى العاصمة ازداد التنافس بين النبلاء حول مناصب الدولة، فى الوقت الذى أثبت الأباطرة ضعفهم الشديد. ولم يكن أورخان يتطلع وحده إلى الانقضاض على ممتلكات الإمبراطورية، بل ظهر فى تلال مقدونيا ستيفن دوشان Stephen Dushan زعيم الصرب الذى أخذ يمعن النظر بدقة فى الفوضى التى ألمت بالإمبراطورية، وأخذ يفكر فى الاستيلاء عليها[3].

(1) Shaw, op. cit., p. 15.

(2) Shaw, pp. 15-16.

(3)Schevill, The Hist. of the Balkan Peninsula, pp. 182-183.

وعلى أية حال، ففى حوالى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى، وفى نفس الوقت بالضبط، ضغطت قوتان نشيطتان من الشرق والغرب على الإمبراطورية البيزنطية الضعيفة. وقد تصادف آنذاك أن دخلت الإمبراطورية فى حرب أهلية(1). ذلك أنه لما مات الإمبراطور أندرونيق الثالث باليولوجوس فى سنة ١٣٤١م، وخلفه فى الحكم إبنه يوحنا الخامس باليولوجوس تحت وصاية أمه آن صاحبة سافوى Anne of Savoy، اندلعت الحروب مرة أخرى فى الإمبراطورية، وكانت أهمها تلك التى شبت فى مدينة أدرنة (أدريانوبل) وخاصة فى سالونيكا. وتراكمت أسباب الفتن والحروب الداخلية، فبالإضافة إلى التنافس على العرش البيزنطى، شب النزاع بين العامة والنبلاء، وازدادت الأحوال الاقتصادية سوءاً مع قسوة جامعى الضرائب، فضلا عن الفقر والبؤس الذى عانى منهما البيزنطيون كثيراً(2).

وكان يوحنا الخامس باليولوجوس فى الحادية عشرة من عمره وتحت وصاية أمه عندما ورث عرش أبيه سنة ١٣٤١م. ونشبت حرب أهلية طويلة للفوز بعرش الدولة البيزنطية لعب فيها يوحنا السادس كانتاكوزين John VI Cantacuzene دوراً هاماً، إذ أعلن نفسه إمبراطوراً فى إحدى مدن تراقيا، وأصبح هناك إمبراطوران فى الدولة البيزنطية(3). وقد استخدم كانتا كوزين المرتزقة من الصرب والأتراك من إمارة آيدين Aydin ـ بصفة خاصة ـ لمساعدته، وفى مقابل ذلك سمح لعمر بك صاحب آيدين بنهب مقدونيا والحصول على غنائم وفيرة، وبعد وفاة عمر بك إنهارت إمارته سريعا، فتحول كانتاكوزين إلى أورخان طلبا للمساعدة ضد يوحنا الخامس، فوافق أورخان، خاصة أن كانتا كوزين وعده بتزويجه ابنته الجميلة تيودورا برغم اختلاف العقيدة والسن، إذ كان فى سن الستين وهى لاتزال قاصرا، واتفق على أن يتم الاحتفال بالزواج فى حفل باذخ فى سليمبريا فى شهر يونيو سنة ١٣٤٦. وفى هذا العام قاد أورخان جيشا بلغ عدده حوالى ٥٥٠٠ جندى إلى تراقيا، وغزا

---

(1) Ibid., p. 183.

(2) Lodge, The Close of the Middle Ages., p. 500,

حسنين محمد ربيع: دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية (القاهرة ١٩٨٦)، ص ٢٩٨ ـ ٢٩٩.

(3) Lodge, op. cit, pp. 500-501, Vasiliev (A.A.), Hist. of the Byzantine. Empire, (U.S.A.,1964). Vol. II, p. 584,

حسنين ربيع: المرجع السابق، ص ٢٩٩ ـ ٣٠٠.

الإقليم الساحلي للبحر الأسود شمال استانبول الحالية، أو انتزعه من آن صاحبة سافوى أم يوحنا الخامس والوصية عليه، ومكن كانتاكوزين من الحصول على العرش البيزنطى، حيث جرى تتويجه فى أدرنه فى ٢١ مايو سنة ١٣٤٧. وعندئذ أرسل كانتاكوزين ابنته ومعها المهر والهدايا لأورخان، وسمح لرجال الأخير بالإغارة على غاليبولى وتراقيا ونهبها دون معارضة[١]. وقد قام كانتاكوزين بنقل الكثير من البيزنطيين، وأخذ العديد أسرى، ودمر جميع ضواحى مدينة القسطنطينية، حتى وصل إلى بواباتها ودخلها بمساعدة بعض أعوانه فى ٣ فبراير سنة ١٣٤٧. وقد رفضت الإمبراطورة الوصية آن أن تستسلم، فأغلقت على نفسها القصر ومعها إبنها وقلة من الجنود، وعندما اقتحم كانتاكوزين القصر وجد الإمبراطورة جالسة مع ولدها غير وجلة ولامنزعجة، فحياهما «كإمبراطور وإمبراطورة الرومان»، ثم صرف الأتراك الذين كانوا برفقته ومعهم الهدايا العديدة[٢].

على أن محالفة كانتاكوزين للعثمانيين كلفته الثمن غاليا، فبعد الزفاف بقليل استغل الصربيون[٣] فرصة ضعف الدولة البيزنطية للتوسع على حسابها. فقد أضفى ستيفن دوشان ملك الصرب (١٣٣١ ـ ١٣٥٥) انطباعاً أخاذاً على مواطنيه بقدرته وحضوره الفعال، ويعتبر الصربيون عصره على مدى تاريخهم أعظم حقبة شهدها تاريخهم. فقد كون دولة

---

(1) Shaw, op. cit. Vol. I, p. 16.,Ostrogorsky, op. cit., pp. 519-522;Halil Inalcik, The Ottoman Empire, p. 9; Doukas, Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks, pp. 70-74, Vasiliev, op. cit. Vol II., p. 622.

(2) Doukas, op. cit., pp. 74-75.

(٣) كانت مملكة الصرب القديمة مجرد دولة صغيرة تابعة لبيزنطة، وكانت تشغل موقعا وسطا بين بيزنطة التى كانت حدودها تضم مقدونيا الحديثة، والمجر التى كانت فى ذلك الوقت ما يعرف الآن بالبوسنة وكرواتيا والشاطىء الشمالى للدانوب، وبلغاريا التى كانت تضم وقتها نيس وأراض تابعة لها غربا. على أن تدهور بيزنطة فى القرن الثالث عشر سمح بإعادة تكوين صربيا بسرعة تحت حكم ستيفن دوشان الفعال، الذى اتخذ لنفسه لقب قيصر الصرب والإغريق، وألحق بحكمه كلا من مقدونيا وتراقيا وأبيروس وتساليا، وجعل من بلغاريا كيانا تابعاً، وصل بحدود ممتلكاته إلى سواحل البحر المتوسط المواجه لكورفو، وإلى بحر إيجه عند سالونيكا. وقد أرسى دوشان دعائم نظام سياسى ودينى على النسق البيزنطى، وأعاد تنظيم الكنيسة الصربية، وتوج صرحه الإمبراطورى بإعلان مجموعة قوانينه الشهرية التى عرفت بتشريعات دوشان فى سنة ١٣٤٩. أنظر كولز: العثمانيون فى أوربا، ص ٢٠ ـ ٣١.

قوية في الداخل، وبدأ في تنفيذ سياسة خارجية شجاعة. وكان هدفه الرئيسى من تلك السياسة هو الاستيلاء على القسطنطينية[1]. وفي حوالى سنة ١٣٤٥ استطاع دوشان بمساعدة المرتزقة الاستيلاء على مقدونيا كلها، وإن كانت سالونيكا قد نجحت في التخلص من الوقوع في قبضته، ولكن قلعة أوهريد الكبيرة ومدن ڤالونا وبيرات (بلغراد) Berat وسيريز Seres وقعت في أيديه. وتقليداً للإمبراطورية البيزنطية خلع دوشان على نفسه ألقابا عالية مثل قيصر، وفي عيد الفصح في سنة ١٣٤٦ توج دوشان في احتفال عظيم في سكوپلى «إمبراطور الصرب والإغريق» وسرعان ما تضخم هذا اللقب إلى «إمبراطور وأتوقراط الصرب والإغريق»[2]. وفي سنة ١٣٤٩ إنتزع دوشان سالونيكا من البيزنطيين، وعندئذ طلب كانتاكوزين المساعدة من السلطان العثمانى أورخان، فأرسل الأخير إبنه سليمان على رأس جيش بلغ تعداده عشرين ألف رجلا، وبمساعدة الأسطول البيزنطى أجبر سليمان الصرب على الارتداد، وأعاد سالونيكا للبيزنطيين[3].

وفي الصراع الذى تجدد بين يوحنا الخامس باليولوجوس وكانتاكوزين في سنة ١٣٥٢ اعتمد باليولوجوس على الصرب وبلغاريا، فلم يكن أمام كانتاكوزين مفر من طلب النجدة من أورخان، فأرسل الأخير إبنه سليمان إلى الشاطىء الأوروبى على رأس عشرة آلاف جندى وبفضل مساندة سليمان استطاع كانتاكوزين أن يتغلب على خصمه. وفي نظير ذلك أعطى كانتاكوزين العثمانيين قلعة تزيمب الواقعة على مضيق الدردنيل لاتخاذها قاعدة ينطلقون منها عند ما يحتاج إليهم كانتاكوزين. ولكن سليمان خرج في سنة ١٣٥٤ من تزيمب واتجه شمالا، واستولى على مدينة غاليبولى، التى أصبحت أول قاعدة عثمانية في أوربا. وعندئذ احتج كانتاكوزين بشدة على ما قام به سليمان من فتوحات في أوربا، فأجابه أورخان أنه لايستطيع أن يتنازل عن غاليبولى أو الأراضى التى تم فتحها في

---

(1) Darby (H.C.), Seton - Watson (R.W.), Auty (Py yllis), laffan (R.G.D) and clissold (Stephen) Ed. by clissold (Cambridge, 1966) pp. 96-97.

(2) Stavrianos, The Balkans since 1453, p. 41; Clissold, ed. op. cit. pp. 97-99, Shaw, op. cit., Vol. I., p. 16.

(3) Shaw, op. cit., Vol. I, Stavrianos, op. cit., p. 41.

تراقيا، على أساس أن الشريعة الإسلامية لاتجيز تسليم الأراضى التى جرى الاستيلاء عليها من العدو(١). وتذكر الروايات العثمانية أن القلاع البيزنطية فى غاليبولى بما فيها تزيمب، قد أصابها زلزال مروع فى ٢ مارس ١٣٥٤، وهجرها أهلها، وولوا عنها هاربين، الأمر الذى سهل على العثمانيين دخولها بغير حرب ولاقتال، وأصلحوا قلاعها، وعندما احتج الامبراطور البيزنطى، رد عليه أورخان بأنه لايستطيع أن يغادرها، لأن الله أراد بهم خيراً فمهد السبيل للاستيلاء عليها، ولايستطيع أن يسلم ما منحه الله له. على أية حال، أصبحت غاليبولى أول قاعدة عثمانية ثابتة فى أوربا، راحت تنطلق منها الحملات العثمانية لغزو كانتاكوزين لتعاونه فى السنوات التالية(٢). وإذا كان المؤرخون قد انتقدوا كانتاكوزين لتعاونه مع الأتراك، وأخذوا عليه أن دعواته هى التى أسرعت بمجيء العثمانيين إلى أوربا، فقد نسى هؤلاء المؤرخون أن العثمانيين كانوا سيتوجهون إلى أوربا بمحض إرادتهم ودون أن يدعوهم إليها أحد(٣).

قام سليمان بعدة غزوات فى تراقيا، ووصل إلى مدن تشورلو Corlu، لوليبورجاز Lu-lelrigas وملاقرا Malkara، وتيكرداج Tekirdag وقام بنهبها، وبذلك شيد قواعد متقدمة ينطلق منها للتوسع والقيام بغزوات أخرى أكثر عمقا. وسرعان ما أحس كانتاكوزين بالخطر الذى يتهدد دولته من دعوة العثمانيين إلى أوربا. فحاول الحصول على مساعدة من الصرب والبلغاز ضد حلفائه العثمانيين لتحولهم عنه وانصرافهم إلى تحقيق مكاسب جديدة على حسابه، ولكن قيامه بإحضار العثمانيين إلى أوربا، جعل الأهالى فى القسطنطينية يرون أن سياسته هى التى بدأت بتسليم أرض مسيحية إلى المسلمين العثمانيين، وزاد فى حرج كانتاكوزين أن بطريرك القسطنطينية أثار مسألة بيع الإمبراطور أملاك الكنائس لإرضاء أورخان. ونتيجة لذلك تمكن منافسيه فى القسطنطينية من عزله عن العرش فى أواخر سنة ١٣٥٥، ودخوله أحد الأديرة قضى منه بقية حياته، وتفرد يوحنا الخامس باليولوجوس بحكم الإمبراطورية البيزنطية فى سنة ١٣٥٨م(٤).

(1) Shaw, op. cit., Vol I. p. 16, Ostrogorsky, op. cit., pp. 529-531.

(2) Shaw, op. cit., pp. 16-17, Lodge, op. cit., 502, Halil Inalcik. The Ottoman Empire., pp. 9-10.

(3) Stavrianos. The Balkans since 1453, p. 43.

(4)Shaw, op. cit., Vol. I. p. 17.

ومما يجدر ذكره أن كانتاكوزين كانت له علاقات بالبابوية، وخاصة مع البابا كليمنت السادس (١٣٤٢ ـ ١٣٥٢)، وكان كانتاكوزين يأمل أن يسمح البابا بانضمام البيزنطيين إلى تحالف القوى الأوربية، حتى ولو كان هدفها في النهاية هو استعادة الأراضي المقدسة، وليس حماية القسطنطينية من الخطر العثماني. ولكن الإمبراطور البيزنطي فشل في محاولته، إذ أصر البابا على أن الإغريق ينبغي أن يعود إلى قبضة روما، وأن ينكروا الشقاق الديني، ويتوبون عن آثامهم. ولكن كانتاكوزين كان مرتبطا بالتقاليد والعادات البيزنطية، ولم يقدم أية تنازلات، وأعلن أنه سوف لايتوسل للبابا مثلما فعل الإمبراطور ميخائيل الثامن (١٢٥٩ ـ ١٢٨٢)(١).

وفي نفس الوقت كانت القوة العظمى الوحيدة في شرق أوربا القادرة على رد الأتراك العثمانيين إلى آسيا الصغرى هي إمبراطورية صربيا، التي صار زعيمها ستيفن دوشان أقرب ما يكون إلى تحقيق حلمه الرامي إلى السيطرة على القسطنطينية. لكنه مات فجأة في سنة ١٣٥٦، ولم تلبث أن تفسخت إمبراطوريته الواسعة بعد وفاته مباشرة وصارت ولايات متنازعة، مثلما حدث لإمبراطورية الإسكندر الأكبر بعد وفاته سنة ٣٢٣ ق.م. وعندئذ رأى الإمبراطور البيزنطي يوحنا الخامس باليولوجوس أن الأمل الوحيد في إنقاذ إمبراطوريته من الخطر العثماني يكمن في استصراخ ضمير المسيحيين في الغرب الأوربي. وقد ساعده على ذلك أمه آن أميرة سافوى، حيث اتصل من خلالها بعائلات عديدة في الغرب الأوربي.ولكن البابا هو الذى وجه الدعوة للغرب الأوربي للقيام بحملة صليبية ضد الأتراك العثمانيين. ففى ١٥ ديسمبر سنة ١٣٥٦، أى فى نفس الأسبوع الذى مات فيه دوشان، كتب الإمبراطور الشاب إلى البابا إنوسنت السادس (١٣٥٢ ـ ١٣٦٢) يطلب منه إرسال أسطول وجيش إلى القسطنطينية. وفي المقابل وعد الإمبراطور بتحويل البيزنطيين إلى المذهب الكاثيوليكى، وإرسال إبنه مانويل رهينة إلى البلاط البابوى فى أفينون Avignon (حيث كان يوجد البابا آنذاك تحت سيادة الملك الفرنسي)، ولكن البابا لم يأخذ تلك الوعود مأخذ الجد، وأصدر تعليماته إلى نائبه بيتر توماس الذى كان موجوداً آنذاك فى صربيا، بالتوجه إلى القسطنطينية لمقابلة الإمبراطور والتفاوض معه. والحقيقة أن تحالف

(1) Nicol (D.M.), The End of the Byzantine Empire (London, 1979), p. 58.

القوى المسيحية قد أعيد تشكيله فى سميرنا Smyrna، ولكنه أغفل البيزنطيين للمرة الثانية(1). ولهذا اضطر يوحنا الخامس باليولوجوس إلى الاعتراف بكل فتوحات أورخان فى أوربا فى مقابل أن يسمح أورخان بتسهيل وصول المؤن إلى القسطنطينية، فوافق أورخان وبدأ فى إرسال أعداد ضخمة من الرعاة التركمان فى الأناضول إلى تراقيا «لتتريكها»، ومنع تكوين أى مجهود مسيحى لطرد العثمانيين من أوربا(2).

وهنا تكرر القول إن عبور العثمانيين للدردنيل واستيطانهم أراضى أوربية كان أمراً حاسما فى تحول الدولة العثمانية من إمارة حدود صغيرة وغير هامة، إلى إمبراطورية تضم البلقان واسيا الصغرى. ويعود الفضل إلى سليمان إبن ثانى السلاطين العثمانيين أورخان فى إقامة أول مستوطنة عثمانية فى أوربا(3). وكان أورخان يرى فى إبنه سليمان شخصية عظيمة تخلفه فى حكم الدولة العثمانية تحقق الأمجاد للبيت العثمانى، ولكن سليمان مات قبل أبيه سنة ١٣٥٨، إذ سقط من ظهر جواده أثناء قيامه برحلة صيد وعمره واحد وأربعون عاما، فحزن أورخان لذلك أشد الحزن(4). ولايعرف تاريخ موته على وجه الدقة، فبعض الروايات تقول إنه مات فى سنة ١٣٥٩، والبعض يميل إلى أنه توفى سنة ١٣٦٢، ودفن فى بروسة.

مراد الأول (١٣٦٢ ـ ١٣٨٩):

توفى أورخان وخلفه إبنه مراد، الذى اتخذ نفس سياسة أبيه فى غاليبولى الرامية لغزو تراقيا ومقدونيا وبلغاريا وصربيا، ولذلك؛ يعتبر المؤسس الحقيقى لأول إمبراطورية عثمانية فى أوربا. وكان الوضع فى أوربا مناسباً تماما لحث الدولة العثمانية على مزيد من التوسع والفتوحات فى أوربا. فبلغاريا وبيزنطة كانتا فى مراحل متقدمة من التأخر والضعف،

(1) Ibid., pp. 58-59, Eliot (Sir Charles), Turkey in Europe.

(2) Shaw, op cit., Vol. I. p. 17.

(3) خليل إينالجك: «الدولة والرعايا» ترجمة عبد اللطيف الحارس، مجلة الإجتهاد، السنة الحادية عشرة، عدد ٤١، ٤٢ سنة ١٩٩٩، ص ٨١.

(4) Creasy, Turkey., p. 28.

والإمبراطورية الصربية التي بناها ستيفن دوشان(١) تمزقت بعد موته في سنة ١٣٥٥ كما ذكرنا، كما أضعفت الانقسامات الداخلية الإمارات اللاتينية في اليونان والمورة، أما الجزر الإيجية فقد كانت تحكمها الأسر الإغريقية والبنادقة والجنوية وفرسان القديس يوحنا في رودس، الذين وجدوا أنفسهم غير قادرين على التعاون ضد العثمانيين(٢).

ويلاحظ أن مراد الأول وحلفاءه تحاشوا القيام بأعمال حربية ضد القسطنطينية كما فعل أورخان، وأبقوا عليها سليمة تحت الحكم البيزنطي لمدة قرن تقريبا، وذلك لأن العثمانيين كانوا مشغولين بمد نفوذهم في أوروبا. حدث هذا على الرغم من ضعف البيزنطيين وضعف جيشهم ودفاعاتهم، ولكن أرضهم الوعرة وأسوار البحر، جعلت من الصعب على العثمانيين التغلب عليهم. وينبغي ألا ننسى أيضا أن الجيش العثماني كان يضم بعض المشاة، ولكن قاعدته كانت تقوم على قوة الفرنسان التركمان، الذين لم يكونوا جاهزين آنذاك لاجتياح مدينة حصينة منيعة مثل القسطنطينية(٣).

وعلى أية حال، بدأ مراد الأول في توسيع دائرة نفوذه في أوروبا على حساب البيزنطيين، وكانت أدرنه (أدريانوبل) الهدف الأول الذى وضعه نصب عينيه للوصول إليه. وقد سبق لمراد التحرك في راقيا عندما خلف أخيه سليمان في قيادة القوات العثمانية في أوروبا خلال السنات الأخيرة من حكم أبيه أورخان. ولكن مراد لم يلبث أن اضطر للذهاب إلى الأناضول لاعتلاء عرش الدولة العثمانية من ناحية، وللاستيلاء مرة أخرى على قونية

---

(١) خلف ستيفن دوشان إبنه الوحيد ستيفن أروش الخامس Stephen Uroo V الذى عاش حتى سنة ١٣٧١. وفي عهده تمزقت الإمبراطورية الصربية إلى شذرات، واستقلت المناطق المختلفة للإمبراطورية عن السلطة المركزية، فتساليا أصبحت مستقلة تحت حكم سيميون أروش عم الإمبراطور الجديد، ودخلت إبيروس في منازعات وتقسمتها عائلات مختلفة تحت حكم زعماء محليين، كان أعظمهم أهمية فوكاشين حاكم بريليب Prilep ، وفي الغرب في زتيا أصبح بيت بالشا Balsa مستقلا وأسس ولاية مونتنجرو، وأخيراً حكم الجزء الشمالي نبيلا يدعى لازار هربليانوفتش، وقد اختفت السلطة المركزية في عهد ستيفن أروش الخامس. أنظر:

Clissold (Editor), A Short Hist. of Yugoslavia., p. 99.

(2) Shaw, Hist of the Ottoman Empire. Vl. I, P. 17.

(3) Ibid., p. 17.

عاصمة إمارة قرمان[1]، من ناحية أخرى. وفى تلك الأثناء انتهز البيزنطيون فرصة غياب مراد عن أوربا، واستعادوا معظم المدن التراقية التى استولى عليها أورخان، كما بذلوا بعض الجهد لتوحيد المسيحيين الموجودين فى المنطقة ضد العثمانيين[2]. على أنه بعد أن استقرت الأمور لمراد فى الأناضول عاد مسرعاً إلى أوربا، واستولى على أدرنه عاصمة تراقيا البيزنطية فى سنة ١٣٦١م، واتخذها العثمانيون عاصمة لهم حتى سقوط القسطنطينية. وتعتبر تلك المدينة أهم مدينة للإمبراطورية البيزنطية بعد القسطنطينية، فهى أقوى حصن بين القسطنطينية والدانوب، وتسيطر على الطريق المؤدى من العاصمة البيزنطية إلى جبال البلقان، وكانت مركز الجيش البيزنطى والأنظمة الإدارية فى البلقان، وقد استخدمها العثمانيون قاعدة للإنطلاق، ومقاومة أى جهد مسيحى لدفع العثمانيين خارج أوربا[3]. ونتيجة لذلك أصبحت القسطنطينية معزولة عن باقى أجزاء الدولة البيزنطية، قابعة خلف أسوارها، وباتت تنتظر الضربة الكبرى الأخيرة التى كان لامفر من وقوعها[4].

وقد تبعت الغزوات فى تراقيا نفس النهج الذى سارت عليه فى الأناضول. ففى مواجهة غزوات المجاهدين (الغزاة) المستمرة، هرب الإغريق المحليون إلى القلاع. أما سكان المدن الذين خضعوا طواعية للعثمانيين، فقد تركوا دون أذى، ولو حدث أن عارض بعض

---

(١) بينما كانت دولة سلاجقة الروم آخذة فى الاضمحلال، كانت قوى تركية جديدة آخذة فى التبلور فى المناطق الملائمة بالأناضول، وأقدم هذه القوى وأشدها بأسا هى دولة أبناء قرمان التى قامت فى غربى قيليقيه واتخذت إرمناك عاصمة لها، وقد فتح بلادها علاء الدين كيقباذ الأول. وفى سنة ١٢٦١ زحفت هذ الإمارة على قونية بحجة الدفاع عن عز الدين كيكاوس، ولكنها انهزمت أمام القوات السلجوقية والمغولية. وفى سنة ١٢٧٧ إستغل القرمانيون الاضطراب السائد فى البلاد، واستولوا على قونية، ولكنهم هزموا أيضا على يد السلاجقة والمغول، وعلى الرغم من هذه الهزائم المتوالية، فإن القرمانيين الذين لم ينقطع عنهم عون المماليك فى مصر كانوا يزدادون قوة ونفوذاً، وقد زعموا بعد سيطرتهم على قونية أنهم ورثة الإمبراطورية السلجوقية. وقد عظم شأن هذه الإمارة التى كانت قونية قد صارت عاصمة لها، وأصبحت دولة قوية. أنظر فؤاد كوبريلى: قيام الدولة العثمانية، ص ٧١ - ٧٢.

(2) Shaw, Hist. of the Ottoman Empire, Vol. I, PP. 17-18, Halil Inalcik, The Ottoman Empire, p. 10.

(3) Ostrogorsky, Hist of the Byzantine State, p. 536, Shaw, op, cit., Vol. I p. 18.

(4) Diehl (Charles), Hist of the Byzatione Empire., p.163.

السكان، فقد كانوا مضطرين لترك المدينة للإتراك. وشجعت الحكومة العثمانية الأتراك من الأناضول على الهجرة، وفى بعض الأحيان فرضت عليهم الترحيب الجبرى، وذلك للاستقرار فى الأراضى الجديدة التى قام العثمانيون بفتحها حديثا. كذلك أسس الدراويش الزوايا، التى صارت فيما بعد نواة لقرى جديدة. وقد تبع الاستيطان التركى الفتوحات فى تراقيا، خالقا قاعدة قوية لانتشار العثمانيين فى أوربا[١].

وعلى أية حال، فمن موقعه الاستراتيجى الجديد، استولى السلطان مراد الأول على فيلبوبوليس فى سنة ١٣٦٣، الأمر الذى مكنه من السيطرة على وادى نهر ماريتزا Maritsa بالقرب من أدرنة، الذى يمد القسطنطينية بكثير من القمح والأرز، فضلا عن الضرائب الهائلة التى ترد إلى خزانة الدولة. وقد استطاع مراد بفضل موقعه الجديد أيضا عزل البلغاريين عن الإغريق الذين كانوا يقاومون قواته بحذاء الساحل الإيجى[٢]. ومن ثم اضطرت بيزنطة إلى الاعتراف بنوع من التبعية للسلطان، ووقعت معاهدة فى سنة ١٣٦٣م، أكدت فيها كل الفتوحات العثمانية فى أوربا، كما أقرت بعدم الوقوع فى أية مؤامرة مع أمراء البلقان ضد السلطان. وفى مقابل ذلك حصلت بيزنطة على تأكيد من مراد بعدم شن هجوم على القسطنطينية، وتزويدها بما تحتاجه من مؤن وطعام، وبذلك صار مراد قادراً على التحرك دون أن يساوره أى قلق على مؤخرته[٣].

ومما يجدر ذكره أن استيلاء العثمانيين على أدرنة شجع صربيا والمجر (هنغاريا) على عقد تحالف بينهما ضد السلطان العثمانى مراد الأول. وفى عام ١٣٦٤م زحفت جيوشهما تجاه نهر ماريتزا، لدفع الأتراك خارج أوربا، قبل أن يتأخر الوقت وتضيع الفرصة نهائيا. بيد أن مراد نصب كمينا للجيوش المتحالفة على ضفاف هذا النهر بالقرب من أدرنة، حيث دارت معركة معروفة فى تاريخ الأتراك العثمانيين باسم «هزيمة الصرب الساحقة». Rout of the Serbs، غرق فيها كثير من الجند والأمراء أثناء محاولتهم عبور النهر سباحة لإنقاذ أنفسهم، وقد استطاع لويس الكبير ملك المجر الهروب بصعوبة بالغة[٤]. ولذلك عند عودته

(1) Halil Inalcik, op. cit., p. 10.

(2) Shaw, Hist of the Ottoman Empire. Vol. I. p. 18.

(3) Ibid., p. 18.

(4) Ibid., pp. 18-19, Stavrianos, op. cit., 43, Creasy, Turkey, p. 29.

إلى بلاده شيد كنيسة لمرضاة السيدة مريم، إظهاراً لشكره على نجاته[1]. ولاشك أن الانتصار الذى حققه مراد على أعدائه، شجعه على التقدم فى أراضيهم.

وفى نفس العام (١٣٦٤) سمع الإمبراطور البيزنطى يوحنا الخامس باليولوجوس أن البابا أوربان الخامس (١٣٦٢ ـ ١٣٧٠) يدعو إلى حملة صليبية جديدة. ومن الذين حملوا الصليب إبن عمه أماديوس السادس كونت سافوى Amadeo of Savoy ولويس الكبير ملك المجر[2]. وفى تلك الأثناء انتهز بطرس الأول لوزجنان (١٣٥٠ ـ ١٣٦٩) ملك قبرس، الذى امتاز بحماسه الشديد للأعمال الصليبية، فرصة ضعف دولة المماليك الجراكسة، وخلو الإسكندرية من وسائل الدفاع والحماية، فقاد حملة فى أكتوبر سنة ١٣٦٥ إلى الإسكندرية وهاجمها فور وصوله، وأعمل القتل فى أهلها أسبوعاً كاملا دون تمييز بين مسلم ومسيحى، ونهبها، وضرب رجاله المساجد والزوايا وحرقوها، واعتدوا على النساء والفتيات. ثم عاد محملاً بالأسرى والغنائم[3]. قبل أن يدركه الجيش المملوكى. وقد عاب المؤرخ النويرى الإسكندرانى[4] على بطرس لوزجنان أنه أتى إلى الإسكندرية «على حين غفلة من حماتها»، فدخلها وسرقها كاللص، وهرب منها خوفا من وصول جيش السلطان لو أدركه بها.

وعلى الرغم من أن تلك الحملة الصليبية كان هدفها مصر وأرضت الغرب الأوربى، إلا أن الآمال التى وضعها الإمبراطور البيزنطى يوحنا الخامس باليولوجوس فى تلك الحملة قد تحطمت، وذلك لانحراف مسارها الرئيسى المتمثل فى طرد العثمانيين من أوربا، ولكنه كان مليئا بالنشاط، فحول أنظاره إلى المجر أقرب جارة كاثوليكية لبيزنطة، ووضع أمله فى ملكها لويس الكبير، باعتباره صليبى ملتزم، وباستطاعته التحرك لمساعدته ضد العثمانيين[5]. ولذلك أبحر الإمبراطور البيزنطى ومعه إثنان من أبنائه إلى المجر فى شتاء سنة ١٣٦٦، وللمرة

---

(١) يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، جـ ١ ص ٩٨.

(2) Ostrogorsky, op. cit. p. 537. Nicol, The End of the Byzantine Empire., p. 59

(٣) النويرى الإسكندرانى: كتاب الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية فى وقعة الإسكندرية، جـ ٣، ص ٦٤ ـ ٦٥، بدائع الزهور: جـ ١ القسم الثانى، ص ٢٢ ـ ٢٣.

(٤) كتاب الإلمام بالإعلام، جـ ٣ ص ٦٥ ـ ٦٨.

(5) Ostrogorsky, op. cit., p. 537,Nicol, pp. cit., p. 59.

الأولى يدخل إمبراطور بيزنطى بلد أجنبى، ليس كقائد على رأس جيشه، بل متوسلا يبحث عن المساعدة، ولكن طلبه لم يلق قبولا، إذ طلب منه ملك المجر أن يغير عقيدته إلى الكاثوليكية، وأن يعيد تعميد نفسه طبقا للطقوس الكاثوليكية(١). ومما يجدر ذكره أنه لم يحدث من قبل أن إمبراطورا بيزنطيا قد أهان كبرياءه وعظمته من أجل التودد لملك أجنبى، إذ كان من المعتاد أن يأتى الملوك والأمراء إلى إمبراطور القسطنطينية، ومن هنا لم يحافظ يوحنا الخامس على هيبته وكرامته، ووضعت رحلته إلى المجر سابقة سار عليها من جاء بعده من الأباطرة. وعلى أية حال، كانت المهمة التى قام بها الإمبراطور إلى المجر متواضعة إلى حد كبير، ولم تسفر عن شىء، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل جرى احتجاز الإمبراطور فى بلغاريا فى منطقة الحدود الواقعة بينها وبين المجر، ولم يسمح له البلغاريون بالسفر خلال أراضيهم، وهكذا وقع الإمبراطور أسيراً فى أيدى جيرانه المسيحيين(٢).

ولم تلبث أن قامت أوربا بجهود واسعة لتنظيم المقاومة ضد الأتراك العثمانيين. فقد أدت نتائج حادث الإسكندرية سنة ١٣٦٥ إلى ضرورة قيام حرب صليبية أخرى، وسرعان ما انتشرت أخبار ذلك النصر الوقتى الذى حققه ذلك الحادث من فى الغرب الأوربى كما حدث فى المعارك الصليبية التى قامت فى الشرق من قبل. وعندئذ أمر البابا أوربان الخامس جميع المخلصين للصليب بالقيام بمثل حملة الإسكندرية حتى يصلوا إلى نصر محقق فى نهاية الأمر. وكان أكثر الجميع تجاوبا بهمة وجد أماديوس السادس كونت سافوى الذى تناول الصليب من قبل من يد البابا نفسه(٣).

وكان أماديوس كونت سافوى قد وطد العزم على المضى إلى الأراضى المقدسة، غير أنه كان إبن عم شقيق للإمبراطور يوحنا الخامس، وكان يود أن يساعده، فغير مسار حملته الصليبية وحشد نخبة ممتازة من جيشه الإقطاعى، وخرج فى يونيو عام ١٣٦٦، ولحق به

(1) Ostrogorsky, pp. 537-538.

(2) Nicol, The End of the Byzantine Empire., p. 59.

(٣) عزيز سوريال عطية: العلاقات بين الشرق والغرب (القاهرة ١٩٧٢)، ص ٩١ ـ ٩٢، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣ ص ٧٥٩ ـ ٧٦٠، زبيدة عطا: بلاد الترك فى العصور الوسطى (القاهرة بدون تاريخ)، ص ١٦٦ ـ ١٦٧،

Pears (Edwin), The Destruction of the Greek Empire and the Story of the Capture of Constantinople by the Turks. (New York).pp. 90-91.

جيش من الجنود المرتزقة من إيطاليا وألمانيا وفرنسا وإنجلترا، والتقوا به فى كورن فى شبه جزيرة المورة، حيث أبحرت خمس عشرة سفينة حربية إلى غاليبولى التى كانت فى حوزة العثمانيين منذ حكم السلطان أورخان، وقد اتخذتها هدفها الأول، وهى عظيمة القدر باعتبارها ميناء ينزل فيه الجنود، وقاعة لعمليات التوسع فى شبه جزيرة البلقان. وقد فاجأ الصليبيون حاميتها، فسقطت فى أيديهم فى ٢٣ أغسطس من نفس العام، وكان استردادها لطمة قاسية للأتراك(١).

على أن أماديوس واصل السير بحراً إلى القسطنطينية بدلا من الهبوط فى تراقيا لتطهير الإقليم من الأتراك، وهناك تبين له أن ابن عمه الإمبراطور البيزنطى يوحنا الخامس قد وقع غدراً فى أسر ملك بلغاريا شيشمان الثالث، ولذا وجه أماديوس كل جهده لإنقاذ ابن عمه، ولم يتحقق تخليصه إلا بعد أن هاجم أماديوس ميناء فارنا البلغارى. ولما تم إنقاذ الإمبراطور اكتشف أماديوس أنه أنفق كل ما لديه من المال، بما فى ذلك المال الذى ابتزه من السكان المحليين، فكان لزاما عليه أن يعود إلى وطنه، وفعلا عاد إلى وطنه فى سنة ١٣٦٧ . وتكاد تكون حملته الصليبية عديمة القيمة، إذ أن الأتراك استولوا من جديد على غاليبولى عقب رحيله(٢). غير أن المؤرخ نيقول Nicol(٣) يذكر أن استعادة غاليبولى كانت أعظم خدمة قدمها أماديوس، فقد ظلت فترة تحت سيطرة البيزنطيين، توقف الأتراك خلالها عن إرسال تعزيزات أخرى عبر المضيق إلى أوربا، وكان من الممكن أن يحدث تعاون بين المسيحيين فى الغرب الأوربى، من شأنه أن يحول اتجاه المد العثمانى إلى أوربا، ولكن هذا التعاون لم يحدث أبداً.

ومهما يكن من أمر، فإن العثمانيين آنذاك كانوا يعملون على تثبيت نفوذهم فى تراقيا وتأمين وضعهم فيها. ولذلك قام السلطان مراد بترحيل عدد ضخم من التركمان إلى الأقاليم البلقانية التى تم فتحها حديثا، ليضمن سيطرته عليها من جهة، والحصول على خدماتهم كقوات جاهزة فى الأقاليم التى كانت المقاومة المحلية قوية بها من جهة أخرى.

---

(١) هايد: تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى، جـ٢، ص ١٧٦ ـ ١٧٧، عزيز سوريال: المرجع السابق، ص٩٢.

(٢) هايد: المرجع السابق، جـ٢، ص ١٧٧، رنسيمان: المرجع السابق، جـ٣، ص ٧٦٠.

(3) The End of the Byzantine Empire.,p. 61.

وعلاوة على ذلك بدأ مراد تنفيذ سياسة نقل كثير من الفلاحين المسيحيين من البلقان وتوطينهم فى الأناضول وضواحى أدرنة لكى يضمن طاعتهم[1]. وقدتتبع العثمانيون سياسة التسامح الدينى التام الذى يستند إلى الشريعة الإسلامية تجاه أهل الذمة اليهود والمسيحيين، وأعفوهم من الخدمة العسكرية فى مقابل دفع الجزية التى كانت تنفق على القوات المسلحة، وبسبب ذلك تحول بعض المسيحيين إلى الإسلام حتى ترفع عنهم الجزية[2].

ومن الملامح الرئيسية لسياسة السلطان مراد الأول فى أوربا، أنه كان مثل سلفيه عثمان وأورخان، قد قام بتنظيم مناطق الحدود المواجهة للعدو فى الولايات المتاخمة، فقسمها، وسيطر على ساحل البحر الأسود التراقى، الذى استولى عليه الأمير البلغارى حنا الإسكندر (١٣٥٥ ـ ١٣٦٥) بعد وفاة ستيفن دوشان، وبذلك انقطع البيزنطيون عن آخر الأراضى التى تصلهم بأوربا، ولم يعد أمامهم إلا الاتصال بالبحر فحسب، سواء كان ذلك من خلال البحر الأسود إلى الإمارات البيزنطية أو من خلال مضيق الدردنيل، وحتى هاتين الوسيلتين كانتا معرضتين أحيانا لضغط العثمانيين وسيطرتهم(٣). وإزاء هذا الموقف اليائس الذى ترددت فيه الإمبراطورية البيزنطية، رأى يوحنا الخامس باليولوجوس أن يسافر إلى أوربا بنفسه ليستعطف المساعدة ضد الأتراك. فترك إبنه الأكبر أندرونيق نيابة عنه فى القسطنطينية، وإبنه الثانى مانويل فى سالونيكا، وتوجه إلى روما فى أكتوبر سنة ١٣٦٩م، ولم يصحبه أحد من الأساقفة، وهناك أعلن للبابا أوربان الخامس اعتناقه للعقيدة الكاثوليكية، ومارس طقوس المذهب الكاثوليكى. وفى احتفال مهيب، وعلى درجات كنيسة القديس بطرس فى روما، استقبل البابا وحوله الكرادلة «إمبراطور الإغريق» المتواضع الذى ارتد عن كنيسته، واعتنق بمحض إرادته وحريته عقيدة الكنيسة الرومانية المقدسة (الكنيسة الكاثوليكية). والواقع أن اعتناق يوحنا الخامس المذهب الكاثوليكى كان مسألة شخصية، بدليل أن البابا لم يعلن عن اتحاد الكنيستين، وكل ما فعله أنه أدى الصلاة، ودعا أن يكون الإمبراطور قدوة لرعاياه الإغريق[4]. ولايشك أن اعتناق يوحنا الخامس للكاثوليكية قد أثار ضجة عنيفة بين رعاياه

---

(1) Shaw, Hist of the Ottoman Empire, Vol. I. p. 19.

(2) Ibid.

(3) Ibid.

(4) Ibid., p. 19, Nicol, op. cit., p. 61.

الأرثوذكس. ومن الجدير بالذكر أن الإمبراطور من أجل تغطية نفقات رحلته إلى الغرب الأوربى اضطر إلى الاستدانة من بعض المرابين فى البندقية، فلما آن أجل الدفع عجز الإمبراطور عن قضاء دينه، فقبض عليه دائنوه وزجوا به فى السجن، ولبث فيه حتى وفى عنه دينه إبنه مانويل[1].

أما الجبهة الغربية أو الجناح الأيسر للحدود، الى يقع بحذاء الساحل الإيجى، فقد تأسس بغرض الاستيلاء على مقدونيا وعاصمتها سالونيكا، وكان قائد تلك الجبهة إيفرينوس بك، وهو فى الأصل أمير إقطاعى فى الأناضول، ودخل فى خدمة العثمانيين بعد استيلائهم على بروسة وتحول إلى الإسلام، وأصبح قائداً عسكريا فى عهدى السلطانين أورخان ومراد. وكان البلغار أعداؤه الألداء فى تلك الجبهة قد قاوموه بشدة، إلى أن تمزقت مملكة البلغار بعد وفاة الكسندر، بسبب المنازعات التى قامت بين أبنائه فى سنة ١٣٧١ حول العرش[2]. فأسرع إيفرينوس بك، وهزم الصرب فى شرمن Tchermen فى الجزء الجنوبى من نهر الماريتزا (بين فيلبوبوليس وأدرنة) فى ٢٦ سبتمبر سنة ١٣٧١. وتعتبر معركة ماريتزا أعظم نصر أحرزه الأتراك العثمانيون فى أوربا، قبل أن يوجهوا ضربتهم القاضية للقسطنطينية سنة ١٤٥٣. فقد فتحت الأبواب للعثمانيين فى صربيا ومقدونيا وشمال اليونان، ولقى فيها أميران من ورثة ستيفن دوشان مصرعهما، أما الأمراء الصربيون الآخرون، فقد أجبروا على دفع الجزية، وأن يحاربوا إلى جانب سادتهم الأتراك عندما يطلبون منهم ذلك، الأمر الذى جعلهم نموذجا للتبعية المسيحية للمسلمين، وسرعان ما أجبر البلغاريون على اتباع نفس النموذج[3]. فبعد أن استولى إيفرينوس بك على كوموتينى Komotini الواقعة على البحر الأدرياتى فى سنة ١٣٧١، توجه إلى تراقيا الغربية والأراضى المقدونية المنخفضة (١٣٧١ ـ ١٣٧٥)، وأرسل الغزاة إلى ألبانيا سنة ١٣٧٥، وفصل الصرب عن البلغار، واستولى على قولة ودراما وسيريز وسالونيكا، وساعد بعض النبلاء

(1) Vasiliev, Hist of the Byzantine Empire. Vol. 11, p. 588.

سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ٣٠، زبيدة عطا: المرجع السابق، ص ١٦٧.

(2) Shaw, op, cot., pp. 19-20, Clissold, Ashort Hist. of Yugoslavia., pp. 99-100.

(3) Nicol, op. cit., p. 62, Stavrianos, op. cit., p. 44, Ostrogorsky, pp. 540-541.

المحليين ضد منافسيهم، وكذلك ضد البوسنيين(١) والبنادقة، الذين كانوا يحاولون الاستيلاء على الموانى الساحلية(٢). ثم غزا السلطان مراد الأول بلغاريا الوسطى، واستولى على صوفيا، وأجبر شيشمان ملك بلغاريا على قبول السيادة العثمانية فى عام ١٣٧٦م، وعزز ذلك زواجه من تامارا Tamara إبنة شيشمان(٣).

وفى تلك الأثناء، ثار أندرونيق ضد والده الإمبراطور يوحنا الخامس باليولوجوس، وكان أندرونيق قد توجه إلى بلاط السلطان العثمانى فى أدرنة، وهناك عقد صداقة مع صاووجى أحد أبناء مراد الأول. وتذمر الإثنان من والديهما، لأنهما لم يكونا الولدين المفضلين. ولهذا شرع الأميران البيزنطى والعثمانى فى التخطيط للإطاحة بأبويهما. وقد جرى اكتشاف مؤامرتهما، فلم تأخذ مراد الأول الشفقة بإبنه، بل قبض عليه فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٣٧٣، وحرمه من نعمة البصر، ولم يلبث أن مات من آلامه. وفى نفس الوقت أمر مراد الأول الإمبراطور البيزنطى بسمل عينى إبنه أندرونيق وهدم التحصينات التى بناها خلف البوابة الذهبية للقسطنطينية. ولم يجرؤ الإمبراطور البيزنطى على عصيان أمر السلطان، فقبض الإمبراطور على إبنه أندونيق، وسجنه فى برج أنيماس Anemas Tower، ولكنه حرمه من نعمة البصر لعين واحدة فقط،وسحب منه اللقب الإمبراطورى، وعين إبنه مانويل شريكا فى الحكم، وبذلك أكد الإمبراطور يوحنا الخامس مركزه المتواضع كتابع للسلطان االعثمانى(١).

---

(١) يطلق إسم البوسنة على مساحات مختلفة فى أوقات مختلفة، وهو إسم مشتق من نهر البوسنة River Bosna الذى يتفرع من Vrelo Bosne بالقرب من فرهبوسنا Vrhbosna (حاليا سرايفو). وقد أصبح هذا الإسم يستخدم علما على القبائل السلافية التى دخلت الإقليم خلال القرن السابع الميلادى. وإلى الشمال والغرب كان الكراوتيون، وإلى الجنوب والشرق كان الصرب. ويقر المؤرخون الماجيار أن أرض البوسنة كانت قلب كرواتيا الأصلية. ومن الواضح أن السيادة على المنطقة قد تغيرت كثيرا، فالكراتيون والصرب والأباطرة البيزنطيون استولوا على أجزاء منها فى أوقات مختلفة.

Fine (John V.A.), The Bosnian Church, A new inrerpretation. A study of the Bosnian Church and Society from the 13th to the 15 Centuries (New York, 1975), p. 17., Clissold, op. cit, p. 58.

(2) Shaw op. cit., p. 20, Stavrionas, op. cit., p. 44.

(3) Shaw, op. cit., p. 20.

(4) Nicol, op. cit., p. 62, Hearsey, (John E.N.), City of Constantinople, 324-1453 (Philadelphia, 1966), pp. 229-230, Ostrogorsky, op. cit., p. 543.

وعلى أية حال، هرب أندرونيق من السجن في سنة ١٣٧٦م بمساعدة أصدقائه الجنوية إلى جالاتا Galata، ومن هناك اتصل بالسلطان العثماني مراد الأول، وتعهد له بالعديد من التنازلات مقابل إعادته إلى عرشه. وبفضل المساعدة الفعالة التي قدمها الجنوية والأتراك قبض أندرونيق على أبيه وإخوته،وزج بهم في السجون. ومهما كانت دوافع أندرونيق، فقد وضع الإمبراطورية تحت عبء ثقيل، فالأتراك العثمانيون لم يطلبوا زيادة الجزية المقررة على الدولة البيزنطية فحسب، ولكنهم طلبوا أيضا عودة غاليبولي التي كان قد استردها أماديوس السادس كونت سافوى في أقل من عقدين من قبل، فسلمها أندرونيق لهم، وفضلا عن ذلك تعهد بتقديم المساعدة الحربية للسلطان. وبذلك أصبحت الأقاليم العثمانية في أوربا ترتبط مرة أخرى إرتباطا وثيقا بمثيلتها في آسيا الصغرى عبر مضيق الدردنيل(١).

والواقع أن الانتصارات التي حققها العثمانيون في بلغاريا وسهول مقدونيا، قد فتحت الطريق للقائد العثماني قره تيمورتاش للقيام بحملة خلال وادى ڤردار Vardar Valley إلى سلسلة جبال البلقان في الشمال والغرب، فيما بين سنتي ١٣٨٥ و١٣٨٩م، واستولى تيمورتاش على القلاع الرئيسية في مونستير وبريليب ف بلغاريا الغربية، وأطاح بجيش صربي بلغاري في شيرمين على ضفاف نهر مارتيتزا، ثم تقدم بعد ذلك في صربيا الجنوبية، واستولى على نيش في عام ١٣٨٦ ، وأجبر الأمير الصربي لازار على عقد سلام مهين، حيث وعد بمقتضاه بدفع جزية سنوية، وتقديم مساعدات حربية، والاعتراف بالتبعية للعثمانيين، وقام تيمورتاش بغارات ناجحة فيما بين سنتي ١٣٨٦ و١٣٨٨(٢).

ولاشك أن كل تقدم أحرزه العثمانيون في البلقان جعلهم بعيدين عن مركز قوتهم، وأكثر قربا من أعدائهم. ويتضح ذلك في أنه بعد أن قبل الأمير الصربي سيادة العثمانيين،

---

(1) Nicol, op. cit., pp 62-63; Hearsey, op. cit., p. 230, Castellan (george). His of the Balkans., (New York, 1992), p. 52, Castellan, op. cit., p.52, Charanis (Peter), "The Strife, among the Palaeologi and the Ottoman Turks, 1370-1402", pp, 295-296, Byzantion (1942-1943).

(2) Schville, op. cit., pp. 186-187; Shaw, op. cit., p. 20, Greasy, op. cit., p. 29, Spinka (Matthew), AHist of Christianity in the Balkans. A study in the spread of Byzantine Culture among the Slavs (london, 1968), p. 151.

انزعج من الانتصارات المتواصلة التى حققها تيمورتاش، وخاف أن يعزله العثمانيون من منصبه. ولهذا تحالف مع ورثة الملك دوشان فى صربيا ومع ملك البوسنة، وانتهز الحلفاء فرصة انشغال العثمانيين بإمارة قرمان أقوى الدول فى الأناضول، وألحقوا هزيمة ساحقة بالقائد العثمانى تيمورتاش فى بلوشنك Plosnik على ضفاف نهر الموراڤا فى عام ١٣٨٨، وأجبروه على مغادرة صربيا الجنوبية والرجوع إلى نيش. وقد أتاح هذا الوضع للأمير الصربى لازار فرصة تكوين حلف بلقانى من الصرب والبلغار والبوسنويين والوالاشيين وبعض الألبان، وكان الكثير منهم قد قبل السيادة العثمانية من قبل(١). ولكن السلطان مراد استطاع سحق البلغار، وأجبر ملكهم شيشمان على الاعتراف بسيادته ودفع الجزية مرة أخرى فى سنة ١٣٨٨، وبذلك عزل أضخم فرقة عسكرية بلقانية عن جيش لازار. وعلى الرغم من ذلك، فقد جهز لازار جيشا آخر من البوسنة والمجر وبولندة لمحاربة مراد وطرد العثمانيين من أوربا. وفى الوقت الذى كان يستعد فيه السلطان مراد لمواجهة التحالف البلقانى الجديد، اضطرته الأحداث إلى إرسال معظم جيشه إلى الأناضول لمواجهة عدد من المنافسين الخطرين المتزايدين(٢).

متاعب العثمانيين فى الأناضول:

والواقع أن الموقف فى الأناضول كان معقداً إلى حد كبير، فمن بين أعداء السلطان مراد إمارة سيواس فى الهضبة الوسطى، التى أسسها القاضى برهان الدين، وقد حدث أن استغل منصبه لإمارة إريتنا التركمانية Eretna، واستولى عليها لنفسه. وإلى الجنوب الشرقى كانت الدولة التى أسسها تركمان «الشاة البيضاء»(٣) الذين كانوا يمدون نفوذهم من

---

(1) Shaw, op. cit,m Vol. I.,p. 20.

(2) Ostrogorsky, op. cit., p. 546,Shaw, op. cit., p. 20.

(٣) الشاة البيضاء أو آق قويونلى أى قبيلة القطيع الأبيض أو أصحاب القطيع الأبيض، وهو حلف من القبائل التركمانية قام فى إقليم دياربكر بعد أيام المغول (فى القرن الرابع عشر الميلادى) واستمر حتى عام ٩٠٨هـ (١٥٠٢م)، وحارب أمراؤها القره قويونلى (الشاة السوداء) والكرد والأيوبيين والكرج والعثمانيين. والمؤسس الحقيقى لجماعة الشاة البيضاء، هو بهاء الدين قره عثمان ولقبه قره يولوك (ت ١٤٣٥م)، الذى ما إن استولى على أملاك القاضى برهان الدين صاحب سيواس حتى أقامه تيمور على دياربكر. ومن خلفائه أوزون حسن (١٤٦٣ ـ ١٤٧٧) وهو الذى نقل عاصمته إلى تبريز سنه ١٤٧١م. وثمة بعض الشك حول أصل إسم الآق قويونلى، وهل هو يشير إلى تربية الأغنام، أو إلى ضرب من طوطم، وكثيرا ما كانت الحجارة عند التركمان على هيئة الكباش، ولكن هذا الرمز يخلو منه راية أوزون حسن (دائرة المعارف الإسلامية).

إرزنجان ودياربكر فى الأناضول الشرقية، إلى آذربيجان فى شمال غربى إيران(١). وإلى الجنوب كانت قرمان أقوى إمارة تركمانية فى الأناضول الوسطى، التى نشأت فى لارندة Larende فى طوروس، وتغلغلت فى قيليقية، وهزمت المماليك، ونقلت عاصمتها إلى قونية مركز إمبراطورية سلاجقة الروم القديمة فى سنة ١٢٧٧م(٢).

ووسط الظروف الصعبة التى أحاطت بالدولة العثمانية فى الجانب الآسيوى، لم يجد مراد بدأ من السير على سياسة أبيه الرامية إلى التقدم فى الأناضول باتخاذ الوسائل السلمية، فزوج إبنه بايزيد من ابنة أميركرميان(٣)، وطلب بائنتها (هدية عرس لإبنه) ـ كما هى عادة الأوربيين حاليا ـ كل نصف الإمارة القريب من قرمان، بما فيه مدينة كوتاهية الشهيرة، وهى ذات موقع استراتيجى فريد. ثم حث السلطان مراد الأول حاكم إمارة حميد على أن يبيع له معظم أقاليم إمارته المتاخمة فى سنة ١٣٧٧م(٤).

وقد أدت المكاسب التى حصل عليها العثمانيون إلى وصولهم إلى جبال طوروس، الأمر الذى أزعج إمارة قرمان، وخاصة منذ تقدم فاتح جديد من آسيا الوسطى فى إيران، وهو تيمور لنك، الذى اجتاح الأناضول ترافقه موجة ضخمة من التركمان الرعاة، انضم معظمهم إلى جيش مراد الأول بهدف الحصول على الغنائم فى أوربا(٥).

والجدير بالذكر أن البندقية وصربيا وألبانيا، قد شجعت إمارة قرمان على مهاجمة العثمانيين، بغرض إبعاد السلطان مراد الأول عن التحالف البلقانى، فوافقت قرمان على ذلك، وقامت بالاستيلاء على معظم الأراضى التى اشتراها من إمارة حميد. وقد خشى مراد

---

(1) Shaw, Hist of the Ottoman Empire, Vol. I. pp. 20-21.

(2) Ibid., p. 21.

(٣) من القوى التى ظهرت فى التخوم الغربية للأناضول فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر إمارة أولاد كرميان، وقد ظهرت بتأثير عوامل كثيرة، وتنص كل مصادر القرن الرابع عشر التاريخية على أن إمارة كرميان كانت ذات بأس وخطورة أذعنت لها كثير من إمارات الأناضول وخافتها، بل تنص على أن بيزنطة كانت تدفع لها جزية سنوية. أنظر محمد فؤاد كوبريلى: قيام الدولة العثمانية، ص ٧٢ ـ ٧٣.

(4) Shaw, op. cit., p. 21.

محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ٤٦؛ القرمانى: أخبار الدول، ص ٢٩٩.

(5) Shaw, op. cit., Vol. I. p. 21.

من التركمان الموجودين فى جيشه والذين يشكلون معظمه، إذ من الممكن ألا يساندوه فى حربه ضد إمارة تركمانية من جنسهم وهى قرمان. ولتفادى ذلك أحضر مراد قوة أخرى تتألف بصفة خاصة من قوات أرسلها أمراء البلغار التابعين له، وبذلك استخدم قوات مسيحية لمحاربة إمارة تركمانية مسلمة. وبهذه الطريقة، انتصر مراد على إمارة قرمان، واستعاد ما فقده فى إمارة حميد، وفرض نفوذه على كثير من أراضى الأناضول. ويقال إن العثمانيين استخدموا المدافع والبنادق فى حروبهم ضد قرمان، وقد استخدمها مراد بنجاح جعله ينقلها إلى أوربا، حيث أظهرت كفاءة عالية ضد جيوش الأمير الصربى لازار المسيحية(1). وفى أثناء عودة مراد إلى الغرب الأوربى، استولى على أودية كوبروسو ومانجات شاى Mangat Cay من إمارة تكة Teke ف ليكيا، وبذلك ربط مراد ممتلكاته الجديدة بالبحر الأبيض المتوسط، ونال حرية الوصول إليها عن طريق هذا البحر(2).

معركة كوسوڤا (قُوصُوَه):

وبعد أن أقر السلطان مراد الأول أموره فى الأناضول، عاد إلى أوربا لمواجهة التحالف البلقانى. ودارت المعركة الفاصلة فى كوسوفا فى ١٥ يونيو سنة ١٣٨٩ غرب بريشتينا، وبين متروفتش وسكوبلى الواقعة على جانبى نهر ڤردار فى جنوب صربيا. ومن بين الأمراء البلقانيين الذين رافقوا أمير صربيا لازار أعظم الأمراء الصربيين لمواجهة الأتراك العثمانيين: ملك البوسنة تفرتكو الأول Tvrtko 1 (١٣٥٣ ـ ١٣٩١)، وڤوك برانكوفتش زوج إبنة لازار، وأمير والاشيا مركيا الكبير، وجورج كاستريوتا المسمى إسكندر بك أحد أمراء ألبانيا، كما اشترك فى تلك المعركة الكرواتيون والبلغار والمجريين. ولم يشترك الإمبراطور البيزنطى يوحنا الخامس، ليس بسبب خضوعه الإسمى للسلطان مراد، ولكن من جراء عجزه عن الوصول إلى مكان المعركة، حتى لو كان يمتلك جيشا قويا(3).

وفى معسكر التحالف البلقانى دارت المناقشات الطويلة بين الأمراء، فنصح البعض منهم بتوجيه هجوم ضد الأتراك فى الليل، للانتقام من كارثة ماريتزا التى حدثت منذ ست وعشرين سنة، ولكن البعض الآخر عارض هذه الخطة لما فيها من مخاطرة، فى الوقت الذى

---

(1) Shaw, Hist. of the Ottoman Empire, Vol. I, p.21.

(2) Ibid., P. 21.

(3)Ibid., p. 21. Clissold, A short Hist of Yugoslavia, p. 100.

يتمكن الأتراك من الهرب تحت جنح الظلام. وقد استمرت المناقشات حتى ظهور الفجر، وعندئذ سقط مطر ثقيل رفع التراب وجعل الجو صافيا أفاد منه الأتراك، ورأوا فى ذلك علامة من الله على الوقوف بجانبهم[1].

وعلى أية حال، قاد مراد وإنكشاريته الجيش العثمانى بنفسه، وقاد الميمنة إبنه بايزيد، وقاد الميسرة إبنه يعقوب. وكان برفقة مراد الأمير قنسطنطين البلغارى حاكم قوستندل Kostendil، وعدد من الأمراء الصربيين المنافسين للأمير لازار، وعدة أمراء تركمان من الأناضول وأتباعهم، وخاصة أمراء صاروخان وآيدين ومنتشا وحميد وتكة[2]، ولم يكن هذا سوى مظهراً لتبعية كافة أمراء الأناضول للسلطان العثمانى بصفته قائداً للغزاة (المجاهدين) جميعا.

وقد اختلفت المصادر إختلافاً بينا حول عدد الجيوش التى اشتركت فى المعركة، ويبدو أن التحالف البلقانى كان يضم حوالى مائة ألف رجل، فى حين كان جيش مراد لايزيد عن ستين ألف على أفضل الأحوال[3]. وفى البداية أحرز لازار وحلفاؤه النصر، وفى أثناء احتدام المعركة، لقى مراد حتفه بالخدعة، وذلك أن نبيلا صربيا صغيراً فاق فى شجاعته أى رجل آخر يدعى ميلوش كوبيلتش Milosh Kobilich، انفصل عن الجيش المسيحى، كما لو أنه قد هجره، ووقع فى وسط الجيش التركى، وعندما قبض عليه الأتراك طلب مقابلة السلطان قائلاً: «أرغب فى أن أرى السلطان لأخبره بسر أحتفظ به يمكنه من إحراز النصرفى هذه المعركة، ولهذا السبب هجرت الجيش». وعندما قدمه الأتراك إلى السلطان مراد، أشار مراد بيده للنبيل الشاب للاقتراب منه، فاندفع النبيل، وعندما أصبح قريبا من السلطان بدرجة كافية، استل خنجره، وطعنه طعنة مميتة، فقبض عليه حراس مراد وحملة فؤوسه ومزقوه إربا. وتولى قيادة الجيش العثمانى بعد موت مراد إبنه الأمير بايزيد الأول الذى أحرز نصراً باهراً، وجرح لازار، ووقع أسيراً فى أيدى العثمانيين فقتلوه و ومعظم نبلائه[4].

---

(1) Creasy, Turkey, P. 35.

(2) Shaw, op. cit., p, 21.

(3) القرمانى: أخبار الدول وآثار الأول، ص ٣٠١،

Doukas, Decline and Fall of Byzantiun to the Ottoman Turks, pp. 60-62; Ostrogorsky, op. Cit., pp. 546-547, Spinka, op. cit., p. 151, Creasy, Turkey, p. 36.

وتعتبر معركة كوسوفا التي عرفت باسم «حقل الطيور السوداء» Field of the Black-birds أول نجاح أحرزه العثمانيون ضد الجيوش الأوربية المتحالفة، وبعبارة أخرى دمر العثمانيون آخر مقاومة منظمة في البلقان، فتحت شمال الصرب للغزو العثماني، وأصبحت صربيا مثل بلغاريا خاضعة للدولة العثمانية(١).

وعلى آية حال، انتصر الأتراك وسقط في المعركة زهرة الأرستقراطية الصربية، وأصبحت الإمبراطورية الصربية حطاما، ولم تستعد نفسها بعد ذلك، وتركت الكارثة انطباعا عظيما في الأجيال التالية، وأوحت الهزيمة بأعظم القصائد الشعرية في أوربا، ولازال يجرى الاحتفال بذكرى هذه المعركة في صربيا(٢). ويقول المؤرخ شفيل(٣) Schevill: «ظهرت مئات الأغاني في السنوات المتأخرة، وأخذ كل منشد جديد يفخر بالإسهام في تفصيلات جديدة، تزيد ثراء عما قاله أسلافه، فأصبحنا نسمع عن البطولة والخيانات والقتلة يصنعون ملاحم وطنية احتفظ بها الصرب حية في نفوسهم لقرون». ودارت حول معركة كوسوفا الأساطير التي استطاعت أن تحول الهزيمة إلى انتصار معنوي، فتقول تلك الأساطير أن أعداد القتلى من الصرب بلغ سبع وسبعين ألف. وأنه عندما وصلت أنباء مراد إل الغرب الأوربي، أدى الناس صلاة الشكر في الكنائس في فرنسا وإيطاليا، احتفالا بأنتصار الصليب على الكافرين، على حين أن النتيجة الحقيقية لمعركة كوسوفا تعني أن صربيا فقدت استقلالها، وصارت ولاية تابعة للإمبراطورية العثمانية، التي سمحت لستيفن لازار يفتش (١٣٨٩ ـ ١٤٢٧) إبن لازار أن يحكم صربيا الضعيفة، شريطة أن تكون خاضعة خضوعاً تاما للعثمانيين(٤). وقد ظلت إمارة صربيا خاضعة للعثمانيين لمدة سبعين عاما، وتدفع الجزية لهم. ونصل إلى القول إنه بعد أن عبر أورخان إلى أوربا، جاء مراد وأكد حكم العثمانيين في أنحاء الجنوب الشرقي من أوربا، فيما عدا إمارات البوسنة وألبانيا وجزء من اليونان(٥).

---

(1) Shaw, op. cit., pp, 21-22.

(2)Clissold, op. cit., p. 100.

(3) The Hist. of the Balcan Peninsula, pp. 187-188.

(4) Nicol, op. cit., pp. 65-66, Clissold, op. cit., p. 100, Ostrogorsky, op. cit., p. 547, Castellan, op. cit., p. 56.

(5) Shaw, op. cit., p. 22.

كـان حكم السلطان مـراد الأول (١٣٦٠ ـ ١٣٨٩) هو البـداية الحـقـيـقـيـة لنشـأة الأسطول العثماني، فإلى جانب سياسته في التوسع الإقليمي في البلقان، ونقله عاصمة الدولة إلى أدرنه في أوربا، بنى هذا السلطان عـددا من السـفن، ونظم قـوة عـسكرية من البحارة وأقام دارا للصناعات البحرية في كل من أزمير وكميليك، وأنشأ ثكنات عسكرية للبحارة في غاليبولي(١).

ولاشك أن مراد قد وجه مصائر العثمانيين لمدة ثلاثين سنة تقريباً بحكمة سياسية لايضاهيه فيها أحد من ساسة عصره، وفي تلك الفترة خاض بنفسه ٣٧ حربا انتصر فيهاجميعا. وحتى الآن لم يتبوأ مراد مكانته الحقة باعتباره من أبرز ساسة آل عثمان وقادتهم العسكريين. فحين نقارن الصعاب التي واجهها والمشكلات التي تغلب عليها بالأعمال التي أنجزها خلفاؤها نجده نداً لهم إن لم يتفوق عليهم. فقد قيض لفتوحاته أن تؤمن مستقبل الدولة العثمانية طيلة خمسة قرون، ولم يخمد نشاطه وحماسته للحرب، وحتى في شيخوخته لم يفقد شيئا من قدرته ودهائه، وحصل على ثقة الجميع سواء من الأعداء أو الأصدقاء. حقيقة إن عثمان قد أوجد جنسا، وأن أورخان بنى دولة، إلا أن مراد هو الذي أرسى قواعد الإمبراطورية العثمانية(٢).

(١) عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية، جـ٢، ص ٨٨١ ـ ٨٨٢.

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني، ص ٥٠، يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، جـ١، ص ١٠٢.

الفصل الثالث

الإمبراطورية العثمانية فى عهد بايزيد الأول
(١٣٨٩ ـ ١٤٠٢)

ـ تيمور لنك.
ـ حملة نيقوبوليس الصليبية.
ـ نشاط بايزيد بعد موقعة نيقوبوليس.
ـ معركة أنقرة.

عقب وفاة السلطان مراد كان من بين أبنائه الموجودين على قيد الحياة بايزيد ويعقوب، وكان الأخير الإبن الأكبر، يمثل كبار الشخصيات التركمانية فى البلاط العثمانى، وهى صاحبة القوة والنفوذ، أما بايزيد فهو ابن سيدة يونانية، وكان يمثل العناصر المسيحية التى اعتنقت الإسلام حديثًا، وهى العناصر التى ولاها مراد مراكز رفيعة. وقد استطاع بايزيد الوصول إلى العرش بعد أن قام بقتل أخيه يعقوب خشية أن ينازعه الملك، ولم يكن ذلك بسبب قوة أنصاره، ولكنه كان على مسرح الإحداث فى كوسوفا، فى الوقت الذى كان أخوه يعقوب يقوم بتجنيد التركمان فى الأناضول(١). وبوصول بايزيد إلى العرش، بدأ التقليد الدموى العثمانى القاضى بقتل الإخوة إتقاء لمنازعتهم، وهو التقليد الذى برره الفقهاء، وما لبث أن أصبح بمثابة قانون فى عهد السلطان محمد الفاتح. ورغم أن هذا التقليد ينم عن القسوة الشديدة، فإنه حقق الهدف المرجو منه، إذ لم تتأثر الدولة العثمانية بالصراعات الأسرية لمدة خمسة قرون(٢). وبعبارة أخرى، فقد أصبح قتل الإخوة قاعدة منتظمة عند السلاطين العثمانيين بعد الجلوس على العرش، طبقا للمبدأ القاتل بأن التمرد على الحكومة يؤدى إلى التمزق، إلى حد أنه يجدر التخلص فى أول فرصة ممكنة ممن يحتمل أن يطالبوا بالعرش(٣).

وفى أثناء انشغال بايزيد فى أوربا، إتحدت الإمارات التركمانية الموجودة فى جنوب غربى الأناضول، مع إمارة قرمان والقاضى برهان الدين ـ وتضم إمارته قيصرية وسيواس ـ الذى استولى على مساحات ضخمة من وسط الأناضول، وتمتع بنفوذ قوى بين الرعاة التركمان فى الشرق، فى تحالف ضد العثمانيين. وقد استطاع هذا التحالف استعادة مساحات كبيرة من الأراضى التى استولى عليها مراد. ونتيجة لذلك التهديد، وبتأثير من العناصر المسيحية الموجودة فى بلاط بايزيد حول بايزيد انتباهه إلى الشرق طيلة حكمه، وتخلى بصورة كبيرة عن تقاليد «الغزاة المجاهدين» التى اتبعها أسلافه(٤)، خاصة أن تلك

(1) Shaw, op. cit., p. 23.

(٢) عبد الرحيم مصطفى: فى أصول التاريخ العثمانى، ص ٥٠ ـ ٥١.

(٣) ول ديورانت: قصة الحضارة، الجزء الخامس من المجلد السادس، ترجمة محمد على أبو درة، مراجعة على أدهم (القاهرة ١٩٧٢)، ص٥٦.

(4) Shaw, op. cit., pp. 28-29.

الإمارات قد أعلنت أنها لن تسمح بحدوث أى تغيير فى الموازين الحالية بين الإمارات الأناضولية، ولن تسمح بتحقيق الوحدة التركية[١].

والسؤال الذى يتبادر إلى الذهن، وهو كيف يحصل السلطان بايزيد على القوة التى تمكنه من التغلب على الأمراء الأناضوليين الأقوياء؟ لقد تجنبهم أسلافه بسبب تقليد «الجهاد» الذى قاموا به من ناحية، ولأنهم كانوا أكثر قوة من ناحية أخرى. ولكن بايزيد لم يتبع هذه السياسة التى سار عليها أسلافه، بل قرر مهاجمة هؤلاء الأمراء وتدميرهم والقضاء عليهم بدلا من مهادنتهم. ولكى ينجز بايزيد هذه السياسة، رأى أن يوجه انتباهه إلى أوربا أولا، ثم يلتفت بعد ذلك إلى الأناضول، وكان فى نيته أن يستغل النصر الذى أحرزه فى كوسوفا وانتزاعها من ستيفن لازار يفتش، ولكنه بدلا من ذلك سمح لستيفن بالبقاء فى السلطة، وعقد معه اتفاقية تعهد ستيفن بموجبها بدفع جزية سنوية، وتقديم مساعدة حربية للسلطان فى الأناضول. وقد ختمت الاتفاقية بزواج بايزيد من ماريادسبينا Maria Despi-na أخت ستيفن، الأمر الذى أدى إلى تدفق جديد من المستشارين المسيحيين فى البلاط العثمانى، وزيادة النفوذ البيزنطى والمسيحى فى السنوات القليلة القادمة[٢]. وحتى يضمن بايزيد عدم قيام الأمراء والحكام الأوربيين بانتهاز فرصة قيامه بحملة فى الأناضول، أرسل قواده الموجودين على الحدود فى غزوات واسعة النطاق ضد البوسنة، التى كانت قد دخلت فى منازعات إقطاعية، وأصابها الضعف بعد وفاة ملكها تفرتكو الأول. وهناك وصف للبوسنة آنذاك كتبه الفرنسى جيل لوبوفييه Gille le Bouvier وجمع فيه آراء رحالة آخرين، وهو يعطى صورة تعسة للبوسنة: «إنهم يعيشون على التهام الحيوانات الضارية، وعلى التقاط السمك من الأنهار، وعلى التين وعسل النحل الذى لديهم منه مقادير كافية، وهذا هو كل طعامهم، كما أنهم ينطلقون فى عصابات من غابة إلى أخرى لقطع الطريق[٣]»، وما لبث بايزيد أن اكتسح والاشيا (الأفلاج)، وبذلك صارت البوسنة ووالاشيا تابعتين ـ لأول مرة ـ للعثمانيين فى سنة ١٣٩١م.

---

(١) يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، جـ١، ص ١٠٣.

(2) Shaw, op, cit., p. 29, Spinka, A Hist of Christianity in Balkans, p. 152,Greasy, Turkey, p.37.

(٣) مالكولم: البوسنة، ص ٥٢.

وواصل بايزيد غزواته فى مناطق مقدونيا الجبلية، فاستولى على سكوبجى، واستجلب آلاف التركمان وأسكنهم وادى ڤردار، وذلك لتكوين قاعدة أمامية جديدة ينطلق منها للغزو فى الغرب والشمال، فضلا عن عرقلة أى مجهود حربى يقوم به الأمير الصربى ستيفن لازار يفتش أو الأمراء المسيحيون التابعون الآخرون أثناء انشغال الصرب، فقد اعترف بايزيد بالأمير الصربى ڤوك برانكوفتش المنافس لستيفن حاكما لبرشتينا، كما سمح لابن برانكوفتش وخليفته جورج برانكوفتش (١٤٢٧ ـ ١٤٥٦) بمناهضة ستيفن حول حق السيطرة على كل صربيا(١).

وفى تلك الأثناء، استولى التركمان ـ وهم من صاروخان ـ على سكوبجى، وقادهم زعيمهم إلى ألبانيا، واستولى على سكوتارى، وديلكنجو Dulcigno، وكرويا (آق حصار) Kroya وذلك بين سنتى ١٣٩٣ و١٣٩٥م. حدث هذا فى الوقت الذى استولت فيه البندقية على اليسيو، ودورازو ودريڤاستو، من عائلة بالسا Balsa Family ، مقابل مساعدتها ضد العثمانيين، ومن ثم بدأت المنافسة بين العثمايين والبندقية فى ألبانيا ومنطقة البحر الأدرياتى. على أن بايزيد لم يقف ساكنا، إذ قام بغزو ألبانيا، وفى المناطق التى استولى عليها جعل حكامها المحليين أتباعا له، واشترط عليهم تقديم المساعدة الحربية له ضد البنادقة وفى الأناضول(٢).

وفى تراقيا بدأ يزيد عملية «تتريك» أدرنه، وذلك ببناء المساجد والمدارس والبيوت، وتوطين التركمان فى ضواحيها، وإنشاء إدارة منظمة. كما أحاط بايزيد القسطنطينية بسلسلة من القلاع والحصون، وأنهى كل حكم بيزنطى خارج أسوار المدينة. وآخر عمل قام به بايزيد قبل أن يتوجه إلى الأناضول، أن استقبل ممثلين عن راجوزه وجنوه، وقبل اعترافهم بالتبعية له ودفع جزية سنوية، فى مقابل السماح لهم بالاستمرار بمزاولة التجارة فى ممتلكاته(٣).

وكان على السلطان بايزيد أن يواجه إمارة قرمان فى الأناضول، فقد استغلت فرصة انشغاله فى البلقان، واستولت على قونية وبعض أملاك العثمانيين فى الأناضول، واعتبرت

(1) Shaw, Hist of the Ottoman Empire, Vol. I, p. 29.

(2) Ibid., p. 29.

(3) Ibid., p. 29.

نفسها الوريثة الشرعية لدولة سلاجقة الروم، وصاحبة السلطة على الإمارات التركية الأخرى. فأسرع بايزيد إلى اسيا الصغرى لمحاربة علاء الدين صاحب قرمان بجيش يتألف أساساً من القوات التابعة من المسيحيين الصربيين والبيزنطيين وغيرهم، إذ خشى من التركمان المسلمين الموجودين فى صفوف جيشه أن يستاؤا من مهاجمة إخوة لهم فى الدين. وفى البداية تغلب بايزيد على الإمارات الصغيرة المتحالفة مع قرمان: صاروخان وآيدين ومنتشا، وضمها إليه فى خلال صيف سنة ١٣٩٠. فردت قرمان عليه بالتحالف مع القاضى برهان الدين أمير سيواس والإمارات التركمانية الباقية. وعلى الرغم من المقاومة التى أبداها هذا التحالف ضد بايزيد، إلا أنه استطاع الاندفاع فى وسط الأناضول فى خريف وشتاء عام ١٣٩٠، وأخضع معظم الإمارات الباقية، بما فيها حميد، وتكه، وكرميان، واستولى على اسكشيهير Acsehir، ونجدة Nigde، كما استولى على قونيةمن قرمان، الأمر الذى جعل قرمان فى سنة ١٣٩١ تتقدم إلى بايزيد بمقترحات تدعو إلى عقد السلام بينهما، فقبلها بايزيد خشية أن يتحالف أتباعه التركمان مع القاضى برهان الدين[١] صاحب سيواس.

وعلى الرغم من سقوط قرمان فى يد العثمانيين، لم يكن معناه أن قرمان قد خضعت خضوعاً للعثمانيين، ومما يؤكد ذلك أن الأسرة الحاكمة فى قرمان عادت إلى الحكم بعد دخول تيمور لنك فى آسيا الصغرى. ومع أن هذه العودة لم تكسب إمارة قرمان القوة التى تميزت بها قبل دخول العثمانيين، فضلا عن أنها لم تعد عاملا سياسيا فعالا فى آسيا الصغرى، إلا أنها استمرت على الرغم من هذا حتى بعد سقوط القسطنطينية سنة ١٤٥٣ تقاوم سيطرة العثمانيين الكاملة على آسيا الصغرى[٢]، وتظل المنافس الحقيقى لهم.

عاد بايزيد إلى أوربا فى شتاء سنة ١٣٩١، بعد أن علم أن الإمبراطور البيزنطى يوحنا الخامس باليولوجوس قد استغل فترة غيابه فى الأناضول، وقام بإصلاح أسوار وأبراج مدينة القسطنطينية، وأضاف إليها بعض التحصينات. فما كان من بايزيد إلا أن هدده بسمل عينى إبنه ما نويل الموجود فى معسكر العثمانيين وإعادته إليه أعمى، فخاف الإمبراطور على ولده،

---

(1) Ibid., pp. 29-30.

(٢) محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربى، ص ٣٨ ـ ٣٩.

وانصاع لما طلبه منه بايزيد. ومات الإمبراطور حزنا بعد ذلك فى فبراير سنة ١٣٩١ ، ولم يبلغ سن الستين[١]. واستطاع مانويل الهروب سراً إلى القسطنطينية، واعتلى العرش البيزنطى (١٣٩١ ـ ١٤٢٥)، ثم بدأ فى مقاومة السيادة العثمانية، فرفض طلبا لبايزيد يتضمن رفع قيمة الجزية وتأسيس حى إسلامى فى القسطنطينية. وعندئذ شدد بايزيد حصاره على القسطنطينية، الأمر الذى اضطر مانويل الثانى إلى الانصياع لما طلبه بايزيد، فوافق على هدم عدة مئات من البيوت لتأسيس حى تركى فى عاصمته، وإنشاء محكمة إسلامية، ومسجد فى قطاع من المدينة صار يعرف بإسم سركيسى Sirkeci، كما سمح ببقاء حامية عثمانية قوامها ستة آلاف تركى فى حى جالاتا بحذاء الشواطىء الشمالية للقرن الذهبى، وهو الحى الذى كانت تشغله الجنوية من قبل، وزيدت الجزية التى كانت تدفعها الإمبراطورية للسلطان، بما فى ذلك ضريبة العشر لدخل الإمبراطور من بساتينه خارج المدينة[٢].

وقد اضطر الإمبراطور البيزنطى مانويل باليولوجوس إلى قضاء معظم السنة الأولى من حكمه فى خدمة بايزيد أثناء زحفه فى آسيا الصغرى، وظل فى معسكر السلطان إلى أن سمح له بالرجوع إلى القسطنطينية،ولكنه حذره قائلاً: «إذا أردت أن تنفذ أوامرى، إغلق عليك أبواب مدينتك، واحكم داخلها، فكل ما وراء الأسوار ملك لى»[٣]. والحقيقة أنه لم يبق من الأماكن الهامة خارج السيطرة العثمانية سوى القسطنطينية وسالونيكا والمورة، ولم يتمكن العثمانيون آنذاك من مهاجمة القسطنطينية لعدم امتلاكهم قوة بحرية قوية تمكنهم من قطعها عن الإمدادات الخارجية[٤].

(1) Doukas, Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks, pp. 81-22, Shaw, op. cit., p.31, Nicol, op, cit, p.66, Vasiliev Hist of the Byzantine Empiree, Vol. II, p.625.

(2) Doukas, op. cit., pp. 82-83, Shaw, op. cit., p. 31, Lodge, The close of Middle Ages, p. 504, Hearsey, op. cit., p. 230.

(3) Stavrianos, The Balkans since 1453, p. 477, Nicol, op. cit., p. 66 Derekson, The Crescent and the Crose, p. 118.

(4) Nicol, op. cit, p. 68.

وقد مهد غزو مقدونيا الطريق للعثمانيين للاندفاع فى سهول تساليا التى استولى عليها القائد العثمانى إيڤرينوس بك فى بداية سنة ١٣٩٣ ، وسقطت لاريسا وتحولت إلى عاصمة إقليمية لينى شهر. ثم ضغط إيڤرينوس على الدول اللاتينية فى أثينا وآخيا وسالونا ومستعمرة البندقية فى مودون وكورون فى المورة. كذلك قام إيڤرينوس بغزوات واسعة المدى فى الشمال فى البوسنة والمجر، للحصول على الغنائم(١).

وقد سبق القول إن بيزنطة وبلغاريا اعترفتا بالسيادة العثمانية، ولكن أقوى دولة أوربية مستقلة كانت قادرة على إيقاف تقدم العثمانيين، كانت فى الحقيقة مملكة المجر، التى امتد حكمها المباشر جنوبا إلى دلماشيا وبلغراد، وفرضت نفوذها على أميرى والاشيا ومولداڤيا. وقد بذل الملك سيجسموند (١٣٨٧ ـ ١٤٣٧) جهوداً كبيرة لتحريك المسيحية ضد العثمانيين، ولكن ملوك وحكام الغرب الأوربى كانوا مشغولين بمشاكهلم الخاصة. وعلى الرغم من أن المجر آنذاك قد مزقتها الانقسامات الداخلية بين النبلاء الإقطاعيين والحكومة المركزية من جهة، وبين الفلاحين الأرثوذكس والنبلاء والحكام الكاثوليك من جهة أخرى، فقد بذل ملكها سيجسموند ما بوسعه للوقوف ضد العثمانيين، بدليل أنه استولى على نيقوبوليس ثم تحرك إلى بلغاريا، الأمر الذى جعل بايزيد يعود من حملته الأناضولية لمواجهة الموقف. وقد استرد بايزيد نيقوبوليس فى عام ١٣٩٢ ، وعزل تابعه شيشمان الذى كان قد وافق حديثا على الانضمام إلى المجريين، وسقطت العاصمة البلغارية ترنوڤو Trnovo فى ١٧ يوليو سنة ١٣٩٣ ، واستولى على معظم بلغاريا فيما عدا دوبروچه (دوبروتشا Dobruca ، وودين Vidin و اللتان بقيتا تحت سيادة أميرين بلغارين صغيرين(٢). وعلى هذا فإن الحكم العثمانى المباشر فى بلغاريا جعل العثمانيين على اتصال مباشر مع المجر. ومما يجدر ذكره أن بايزيد بدأ وقتئذ فى تنفيذ سياسة جديدة تقوم على تخليه عن النظام العثمانى القديم الذى يتمثل فى مباشرة حكم البلاد المفتوحة من خلال أمراء تابعين، واستبدله بنظام جديد يقوم على الحكم المباشر والخضوع للسلطة المركزية(٣).

(1) Shaw, Hist. of the Ottoan Empire, p. 31.

(2) Ibid., pp. 31-32.(4) Nicol, op. cit, p. 68.

(3) Shaw, op. cit., p. 32.

أدت التهديدات المستمرة ضد ممتلكات السلطان بايزيد إلى أن يتحرك جيئة وذهابا بين الأناضول وأوربا، ولذلك أطلق عليه لقب «يلدروم» أى الصاعقة (Thunderbolt) Yildi-rim بسبب سرعة حركته وزحفه. ففى عام ١٣٩٣ ـ ١٣٩٤، توجه بايزيد إلى الأناضول، بسبب ازدياد نفوذ القاضى برهان صاحب سيواس، وخوفا من الغازى المغولى تيمور لنك (أى تيمور الأعرج) الذى بات يهدد أملاك العثمانيين فى الشرق(١). والحقيقة أنه بعد أن عاد بايزيد إلى أوربا، خرج الأمراء التركمان فى الأناضول على طاعته، وجهزوا حركة مقاومة جديدة ضده، وطلبوا المساعدة من تيمور لنك. ولهذا عاد بايزيد إلى بروسة ليكتل قواته ضد هؤلاء الأمراء، خاصة أن القاضى برهان الدين قد ازداد نفوذه، بعد أن استولى على أماسيا ونجدة وقيصرية، ثم وصل إلى ساحل البحر الأسود فى عام ١٣٩٣. وعندئذ رأى بايزيد أن يوقف برهان الدين عند حده حفاظا على هيبته ونفوذه، فتقدم ناحية أماسيا، فتقهقر برهان الدين إلى سيواس، بعد أن أدرك أنه لاقبل له بهزيمة العثمانيين فى معركة مفتوحة، كما أن معظم التركمان الذين انضموا إليه تخلوا عنه، وعادوا لطاعة العثمانيين(٢).

تيمور لنك:

ومن حسن حظ البيزنطيين والقوى المسيحية الأوربية وقتذاك أن تعرضت الدولة العثمانية لخطر داهم من الشرق، وهذا الخطر هو تيمور لنك أعظم حاكم مغولى قوة منذ من حنكيزخان، وواحد من أهم الغزاة فى تاريخ العالم. وقد ولد تيمور فى أبريل سنة ١٣٣٦ فى كيش (شهرى سيز الحالية) التى تبعد خمسين ميلا جنوب سمرقند فى بلا ما وراء النهر وهو ينتمى إلى عائلة نبيلة فى المنطقة التى كان يسيطر عليها جنكيزخان، وإن كان إبن عربشاه يعتقد أن تيمور ينتمى إلى أصول متواضعة. وقد بدأ نجم تيمور فى الصعود ابتداء من عام ١٣٦٠، وأصيب فى أثناء حروبه بجرح سبب له العرج طيلة حياته، مما جعلهم يطلقون عليه اللقب الفارسى (لانج) أى الأعرج، وبذلك كان شديد الميل

(1) Ibid., p. 32, Chevill, op. cit., p. 188, Pears, Destruction of the Greek Empire, p. 132.

(2) Shaw, Hist. of the Ottoman Empire, p. 32.

لإلحاق الأذى بالآخرين[1]. وقد أجمع المؤرخون على أن حملاته العسكرية قد صاحبها الاغتصاب والنهب والوحشية والسلوك القاسى، وأينما توجه رجاله أحالوا البلاد إلى صحراء جرداء عارية، «فلا يسمع نباح كلب، ولا سقسقة طائر، ولا صراخ طفل»[2].

وفى سنة ١٣٦٩ أضحى تيمور لنك سيداً على جميع البلاد التى كان يحكمها فرع جغتاى من المغول، ثم أخذ يمد ممتلكاته بما شنه من حروب لا تعرف الرحمة أو الشفقة[3]. ويذكر المؤرخ أرنولد توينبى أن تيمور لنك وقع فى أفدح الأخطاء فى حياته، فبدلا من تكريس جهوده لإعادة إنشاء الإمبراطورية الأوربية الآسيوية التى أقامها جنكيزخان، والعمل الشاق المتعلق بفرض السلام على القبائل الرحل المختلفة، والتى عاشت على الترحل فى هذا الإقليم الشاسع، فإنه وزع جهوده، بل كل إهتماماته إلى الغرب والجنوب، وروسيا، والقوقاز، وإيران، والهند، بل سوريا حتى أضاع وقته فى الحملات الحربية المدمرة والمثيرة للذعر، وضم الأراضى، وهو الأمر الذى ذهب أدراج الرياح فى لحظة وفاته تقريبا[4].

وقد ظهر خطر تيمور لنك فى الشرق الأوسط فى سنة ١٣٨٣، فاستولى فى سرعة مدهشة على بلاد ما وراء النهر، وجعل سمرقند عاصمة لبلاده، وما لبث أن احتل خراسان وهرات وطبرستان وجرجان. ثم زحف إلى مدينة تبريز واستولى عليها سنة ١٣٨٦ وطرد حاكمها قرا محمد التركمانى، وحينما ترك تيمور لنك تبريز أواخر سنة ١٣٨٨، أسرع قرا محمد التركمانى واستعاد بلاده[5].

وفى سنة ١٣٩٣ هاجم تيمور لنك بغداد، فبعد أن اكتسح فارس وقتل حاكمها شاه منصور فى مايو من نفس العام، لم يشعر السلطان أحمد بن أويس الجلائرى حاكم بغداد

(1) Ibid., p. 32.

برتولد شبولر: العالم الإسلامى فى العصر المغولى، ترجمة خالد أسعد عيسى، ومراجعة د. سهيل زكار (دمشق ١٩٨٢)، ص ١٢١، جوزيف داهموس: سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى، ترجمة د. محمد فتحى الشاعر (القاهرة ١٩٨٧)، ص ١٨١.

(2) Ostrogorsky, Hist of Byzantine State, p. 556.

(٣) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٧٧٢ ـ ٧٧٣.

(٤) جوزيف داهموس: سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى، ص ١٨٣.

(٥) حكيم أمين عبد السيد: قيام دولة المماليك الثانية (القاهرة ١٩٦٧)، ص ١٢١ ـ ١٢٢.

(١٣٨٢ ـ ١٤١٠) إلا وتيمور يقترب من بغداد ومن غربيها، فأسرع السلطان أحمد بالرحيل من بغداد بأمواله وأولاده، واتجه غرباً لائذاً بالسلطان المملوكي برقوق طلبا للحماية دون أن يبدى مقاومة لتيمور، ودخل تيمور بغداد وقتل أكثر سكانهاوخرب أسوارها وجوامعها وأسواقها(١).

ومن بغداد أرسل تيمور لنك إلى القاضي برهان الدين صاحب قيصرية وسيواس في سنة ١٣٩٣ رسالة سبه فيها، وهدده إن لم يعلن طاعته له. غير أن برهان الدين قطع رءوس كبار رسل تيمور وعلقها في أعناق باقي الرسل، ثم أرسل نصف الرسل إلى السلطان برقوق والباقين إلى السلطان العثماني بايزيد، فرد كل منهما باستعداده لتقديم كل عون لبرهان الدين لمقاومة تيمور لنك(٢).

وفي إكتوبر من نفس العام (١٣٩٣) أرسل تيمور لنك من بغداد سفارة إلى السلطان المملوكي برقوق طالبت بطرد أحمد الجلائرى، وأبلغته أن حدود بلاد تيمور لنك أصبحت تمتد من سمرقند إلى حدود العراق العربي الملاصقة لحدود بلاد دولة المماليك الثانية، وأن أهالي هذه المنطقة يتمتعون بحمايته، وعلى السلطان المملوكي أن يرعى حدود الجوار. وبرغم أن السلطان المملوكي خالف القواعد المرعية بين الدول وقتذاك، فأمر بقتل رسل تيمور لنك، فإنه كان على حق في مسلكه مع هذا الداهية الذى لم يكن يؤمن جانبه مطلقا(٣).

بيد أن تيمور لنك وجد أن بقاءه في بغداد يعرض قواته لخسارة كبيرة بسبب قلة المئونة بها. ولذا عبر نهر دجلة واتجه نحو الشمال الغربي ليهاجم أعداءه المماليك في بلاد الشام وكذلك العثمانيين. فاستولى على ماردن بعد حصار صعب في مارس ١٣٩٤، ثم اكتسح أرمينية الكبرى، ثم عرج على بلاد قرايوسف التركماني(٤) زعيم قبيلة قرا قويونلو

(١) أرمينيوس فامبرى: تاريخ بخارى، ترجمة د. أحمد محمود الساداتي، مراجعة د. يحيى الخشاب (القاهرة ١٩٦٥)، ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩، جوزيف داهموس: المرجع السابق، ص ١٨٥، حكيم أمين: المرجع السابق، ص ١٢٢ ـ ١٢٣.

(٢) حكيم أمين: المرجع السابق، ص ١٢٤ ـ ١٢٥.

(٣) حكيم أمين: المرجع السابق، ص ١٢٥ ـ ١٢٦.

(٤) ظهر التجمع القراقيونلي أو «الشاة السوداء» من العناصر التركمانية التى اضطرتها الغزوات المغولية إلى التحرك صوب الشرق. وبسطوا سلطتهم شيئا فشيئا على أذربيجان والأطراف الشرقية لشبه جزيرة الأناضول. كان قرا محمد يعمل في خدمة السلطان أويس الجلائرى، غير أن ابنه قرا يوسف قام=

«الشاة السوداء»، واكتسح بعدها بلاد الجراكسة فى شمال شرق البحر الأسود. وحين وصلت هذه الأخبار إلى القاهرة أسرع السلطان برقوق بإعداد جيش ضخم لمحاربة تيمور لنك، وسار على رأس هذا الجيش، وصحب معه أحمد بن أويس وأتباعه. ويبدو أن تيمور وجد أن الظروف غير ملائمة للدخول فى معركة مكشوفة مع برقوق، فزحف شرقا نحو الهند تاركا بغداد تحت حكم ابنه ميران شاه(١).

وعلى الرغم من رحيل تيمور لنك، فقد استمر السلطان برقوق يتقدم بالجيش حتى وصل إلى دمشق فى مايو سنة ١٣٩٤ لمواجهة أى هجوم مفاجىء قد يقوم به تيمور لنك ضد حدوده، فى الوقت الذى أرسل السلطان العثمانى بايزيد رسله بعرض رغبته فى محالفة السلطان برقوق فى حربه مع تيمور. وكتب برقوق لأحمد بن أويس تقليداً بنيابة السلطنة ببغداد، وزوده بالسلاح والمماليك، فتمكن ابن أويس بفضل الجيش المملوكى من هزيمة ميران شاه واستعادة بغداد(٢).

حملة نيقوبوليس الصليبية:

ثم عاد السلطان العثمانى بايزيد إلى أوربا لمواجهة الأخطار الجديدة التى تهدده، ففى سنة ١٣٩٣ عقدت البندقية والمجر اتفاقية جديدة ضد الأتراك، وطلب الإمبراطور البيزنطى مانويل الثانى باليولوجوس المساعدة من أوربا ضد العثمانيين. وعندئذ ساند بايزيد يوحنا السابع ضد مانويل، كما بدأ فى الحصار الثانى لمدينة القسطنطينية فى عام ١٣٩٥م(٣).

وكان التهديد المباشر للعثمانيين فى أوربا يأتى من دولة المجر، فقد طلب ملك المجر سيجسموند Sigismund المعونة من الغرب الأوربى عام ١٣٩٥ للوقوف فى وجه

= بالإستيلاء على تبريز، التى أضحت عاصمة القراقيونليين، وأعلن نفسه حاكما مستقلا.وقد أقدم قرايوسف على مواجهة تيمور ولكنه فر أمامه لائذاً بمصر المملوكية، ولم يسترد تبريز إلا فى عام ١٤٠٦.

أنظر بوزورث: الأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى، ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥.

(١) حكيم أمين: المرجع السابق، ص ١٢٦ ـ ١٢٧.

(٢) إبن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور، جـ٢، ص ٣٠٢، حكيم أمين: المرجع السابق، ص ١٢٨ ـ ١٢٩.

(3) Doukas, Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks, pp. 83-84, Shaw, op. cit., p. 33.

العثمانيين، فى الوقت الذى دعا بابا روما بونيفاس التاسع (١٣٨٩ ـ ١٤٠٣) لحرب صليبية جديدة ضد العثمانيين، ومنح غفرانه لجميع المسيحيين الذين سيتوجهون لإنقاذ المجر والدفاع عن الممالك المسيحية المجاورة لها.وكان رد الفعل سريعا، فقد أتى الحلفاء والألمان والإنجليز، وتطوع الكثيرون من المرتزقة من أسبانيا وإيطاليا، وأبدى كثير من شباب فرنسا وبورجندى حماسا منقطع النظير للاشتراك فى الحملة الصليبية، وتقرر أن يشترك فى تلك الحملة يوحنا كونت نيفير Count de Nevers إبن دوق بورجندى، وكان تحت قيادته كونت دى لامانش، وثلاثة من أبناء عمومة ملك فرنسا، وجيمس دى بوربون، وهنرى وفيليب دى بار. وزحف الفرنسيون فى جماعات من فرنسا حوالى منتصف مارس سنة ١٣٩٦ ، وفى أثناء عبورهم ألمانيا التحق بهم فردريك كونت هو هنزلرن، ومقدم منظمة التيوتون، ومقدم منظمة فرسان القديس يوحنا برودس فيلابرت دى نايلاك Philibert de Naillac الذى أتى بأسطول بندقى جنوى مشترك. وجاءت جماعات أخرى من النمسا وسكوتلنده وبوهيميا وبولنده وسويسرا، وبصفة خاصة من والاشيا (فى جنوب شرق أوربا وتقع الآن فى رومانيا) . ومنذ قيام الحملة الصليبية الأولى فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى لم تجتمع مثل هذه القوات الضخمة(١). ووصف المؤرخون هذه القوات بالشجاعة، وقالوا فى رجالها: لو سقطت السماء، فسوف يرفعونها بأطراف حرابهم»(٢). وقد قدرت الجموع الصليبية بحوالى مائة ألف احتشدت فى بودا Buda، حيث عقد مجلس الحرب العام لأول مرة فى صيف عام ١٣٩٦ لرسم الخطط وتكتيكات المعركة(٣) .

وتقابل الباحث مشكلة فى تحديد حجم الجيش التركى فى موقعة نيقوبوليس كما هو الحال بالنسبة للجيش المسيحى. إذ قدمت المصادر المسيحية المعاصرة للقارىء أعداداً مبالغا

---

(1) Creasy, Turkey, pp. 38-39, Shaw, op. cit., p. 33, Nicol, op. cit, pp. 69-70, Atiya (Aziz S.), The crusade in the later Middle Ages (New York, 1970), pp. 435-436.

عزيز سوريال عطية: العلاقات بين الشرق والغرب (القاهرة ١٩٧٢) ص ٩٣ ـ ٩٥ ، ونسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٣١، ص ٧٦٣.

(2) Creasy, op. cit., p. 39.

(٣) عزيز سوريال: المرجع السابق، ص ٩٥، رنسيمان: المرجع السابق، جـ٣، ص٧٦٣ ـ ٧٦٤،

Atuya, op. cit., p. 441.

فيها. ولاشك أنها حاولت تبرير الهزيمة المنكرة التى منى بها الجيش الصليبى بطريقة منطقية. وبالنظر إلى الاستراتيجية التى اتبعها الصليبيون، أو بالأصح نقاط الضعف فيها، فلا يبقى ضرورة إلى ذكر التفوق العددى للأتراك لتفسير انتصارهم. فالواقع إن الأشارة إلى أن عدد الجيش التركى كان حوالى أربعمائة ألف مقاتل، كما ذكر أحد كتاب العصور الوسطى أمر غير مقبول تماماً، وكذلك أيضا أنه كان مائة ألف مقاتل هو أمر غير واقعى وهو الذى افترضه العديد من العلماء المحدثين. ويميل المؤرخ الحديث ديلبروك Delbruk إلى أن يكون حكما حذراً فى استخدامه الإحصاءات التى قدمها المؤرخون فى العصور الوسطى قام بتخفيض أرقامهم عن الجيش التركى إلى ما بين أحد عشر ألفا، وإثنى عشر ألفا، ويتيح هذا الرقم ميزة بارزة فى القوى البشرية، بالإضافة إلى الموقع الدفاعى الذى سيطر عليها وزاد من قوة تفوق السلطان بايزيد(١).

ولم يكن السلطان العثمانى بايزيد غافلا عما يدور حوله، فحينما بلغته الأنباء بأن الحملة الصليبية احتشدت فى بلاد المجر، كان يحاصر القسطنطينية. فبادر على الفور إلى استدعاء كل من فى متناول يده من العساكر، وتوجه بهم صوب الشمال إلى نهر الدانوب، وجرى تقدير عدد جيشه بما يزيد على مائة ألف رجل(٢).

على أن فرسان الغرب الأوربى لم يتعلموا شيئا من تجربة الحروب الصليبية، فحينما جرت مناقشة خطة الحملة فى بودا، نصح الملك المجرى سيجسموند باتخاذ خطة الدفاع،إذ كان يعلم ما عليه خصمه من قوة، فاعتقد أنه من الأجدى أن يستدرجوا الأتراك إلى داخل بلاد المجر، ثم يهاجمونهم من مواقع سبق إعدادها وتجهيزها. ولم يختلف الملك سيجسموند عن الأباطرة البيزنطيين أثناء الحملات الصليبية المتقدمة، إذ اعتقد أن سلامة العالم المسيحى تتوقف على المحافظة على مملكته، غير أن حلفاءه كانوا كالمحاربين الصليبيين الأوائل يرون اتخاذ خطة هجوم كبير، فسوف يجرى التغلب على الأتراك وتتقدم الجيوش المسيحية منتصرة فى الأناضول، إلى بلاد الشام وإلى المدينة المقدسة ذاتها(٣). ويبدو هذا واضحا مما قاله المؤرخ المعاصر للحملة فروازار Froissart: «لقد جاءوا ليقهروا كل تركيا وليواصلوا سيرهم إلى إمبراطورية الفرس.. وإلى مملكة سوريا، والأرض المقدسة». وعلى أية حال، لم

---

(١) داهموس: سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى، ص ١٩٧ ـ ١٩٨.

(٢) رنسيمان: المرجع السابق،، جـ٣، ص ٧٦٤.

(٣) رنسيمان: المرجع السابق، جـ٣، ص ٧٦٤، عزيز سوريال: المرجع السابق، ص ٩٥.

يعمل القادة الغربيون بنصيحة ملك المجر سيجسموند، ولم يأخذوا محاولتهم هذه مأخذ الجد، وكانت خبرتهم بجغرافية الشرق مهوشة ومضللة(١).

سارت القوات الصليبية المتحدة على محاذاة نهر الدانوب حتى أورسوفا، حيث عبروا النهر عند البوابة الحديدية المشهورة التى تؤدى إلى بلغاريا، وكانت فى نطاق العثمانيين. ثم توجه الصليبيون إلى مدينة ويدين التى كان يحكمها أميراً بلغاريا إسمه يوحنا سراخيمير، وهو من أتباع السلطان بابزيد، ولم يكن بالمدينة إلا حامية تركية صغيرة. فلما وصل الصليبيون إلى المدينة انحاز إليهم يوحنا سراخيمير وفتح لهم الأبواب،ودارت مذبحة فى الأتراك. أما المدينة التالية الواقعة على النهر فكانت راهوفا، وهى معقل منيع يحيط به خندق وسوران، وينزل بها حامية تركية ضخمة. فاندفع على الفور لمهاجمتها الفرسان الفرنسيون المعروفون بشدة عنفهم وتهورهم، بقيادة فيليب أرنوا كونت إيه، ويوحنا لى مينجر المعروف باسم المارشال بوسيكوه Baucicout. وكاد الفرنسيون يتعرضون لخطر الإبادة لو لم يبادر سيجسوند بجلب العساكر المجرية. ولم يكن بوسع الحامية التركية أن تظل على مقاومتها زمنا طويلا أمام الجيش الصليبى بأكمله، وانتهى الأمر باقتحامها، وتعرض للقتل بالسيف جميع سكانها، ومنهم عدد كبير من المسيحيين البلغاريين، ولم يبق الصليبيون إلا على ألف رجل من كبار الأغنياء، احتفظوا بهم للحصول على فدية(٢).

وزحف الجيش الصليبى من راهوفا إلى نيقوبوليس التى تعتبر أهم معقل للأتراك على نهر الدانوب، وتقع فى الموضع الذى يصل فيه الطريق القادم من وسط بلغاريا إلى النهر.ولم يجلب الصليبيون معهم أدوات الحصار، إذ لم يدركوا الحاجة إليها، ولم يستعد ملك المجر سيجسموند إلا لاتخاذ خطة الدفاع. وبعد أن ثبت أنه لا فائدة للسلالم التى نصبها الفرنسيون فى عجلة، ولا للنقوب التى حفرها المهندسون المجريون، ترقب الجيش الصليبى استسلام المدينة حتى لاتهلك جوعاً، وساند الصليبيون فى الحصار قدوم أسطول لفرسان القديس يوحنا رسى بالدانوب قبالة أسوار المدينة فى ١٠ سبتمبر سنة ١٣٩٦ ، غير أن المؤن

---

(١) عزيز سوريال: المرجع السابق، ص ٩٥ ، .Atya, op. cit., pp. 441-443

(2) Creasy, Turkey, pp. 39-40, Atiya, op. cit., pp. 443-444.

رنسيمان: المرجع السابق، جـ ٣، ص ٧٦٥.

كانت وفيرة في نيقوبوليس[١]. أما حاكم المدينة التركى دوغان بك، الذى علم بمصير مواطنيه فى ودين وراهوڤا، فلم تكن عنده النية لتسليمها، وأبدى شجاعة فائقة عنيدة فى مقاومة الصليبيين[٢].

على أن الانتظار والتمهل أدى إلى هبوط الروح المعنوية للجيش الصليبى، ذلك أن فرسان الغرب الأوربى صاروا يلهون أنفسهم بلعب القمار وشرب الخمر والعربدة، وكل مظاهر الفجور والفسق. وإذا حدث أن تجرأ بعض الجنود على الإشارة إلى أن الأتراك أعداء أشداء، أمر المارشال يوسيكوه بقطع آذانهم، عقابا لهم على روح الإنهزامية. ووقعت المشاجرات بين مختلف فصائل الجيش الصليبى، بينما أخذ أتباع سيجسموند االترانسلڤانيون، وحلفاؤه الوالاشيون يتحدثون عن التخلى عن الجيش[٣].

وبعد أن أمضت الحملة الصليبية أسبوعين أمام نيقوبوليس، جاءت الأنباء بأن الأتراك أخذوا يقتربون من المدينة، فقد تحرك جيش السلطان على عجل من تراقيا، كان خفيف التسليح، فاق فرسانه خيالة الصليبيين فى سرعة الحركة، واشتهر رماته بروعة التدريب، واكتمال النظام، والطاعة التامة لقيادة السلطان[٤]. وكان هناك نوع من الفرسان غير المنتظمين الذين يتقدمون الجيش الرئيسى، لكى يوقعوا الفوضى فى جيش العدو، والعمل على إعاقة تقدمه، أو يقومون بشن الغارات المتكررة على جناحى جيش العدو، وأحيانا يقوم هؤلاء الفرسان خفيفى العدة، بالعمل كأدوات لجذب العدو للمعركة ويتظاهرون بالهروب بعد أول لقاء مع هذا العدو، عند ذلك يندفع العدوإلى الأمام، على أمل إحراز نصر سهل، دون أن يتوقع أنه قد وقع بالفعل فى فخ نصبه الطرف الآخر[٥].

وقبل حدوث المعركة بين الجيش الصليبى والجيش العثمانى فى نيقوبوليس ظهرت للعيان نقطة الضعف الرئيسية فى الجيش الصليبى الذى كان يفتقر إلى وجود قيادة موحدة،

---

(١) رنسيمان: تاريخ الحوب الصليبية، جـ٣، ص ٧٦٥ ـ ٧٦٦.

(2) Creasy, Turkey, p. 40.

(٣) رنسيمان: المرجع السابق، جـ ٣، ص ٧٦٦ .Atiya, op. cit., p.445

(٤) المرجع السابق، ص ٧٦٦.

(٥) داهموس: سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى، ص ١٩٨.

لقد كان سيجسموند ملك المجر القائد العام بصفة رسمية. فإذا لم يكن قد وافق على السماح للفرنسيين ليكونوا أول المهاجمين للعدو على سبيل المثال، لقام الفرنسيون رغم أنف الجمع، بتنفيذ رغبتهم[1]. وبعبارة أخرى كان سيجسموند يريد الانتظار حتى يقوم بايزيد بالهجوم، وأن يتصدى المجريون لهجوم المشاة، أما الفرسان فيكونون خط الدفاع الثانى، ولكن الفرسان ظنوا أن سيجسموند يرمى من وراء هذا إلى الانفراد بشرف هزيمة بايزيد، فخالفوه فى رأيه، وانتهى أمرهم بأن تقدموا وحدهم إلى الموقعة التى هزموا فيها هزيمة منكرة[2]. كما لم يكن سيجسموند متأكداً على الإطلاق من أن الوالاشيين والترنسڤاليين الذين كانوا ضمن رعاياه،أنهم سيحترمون أوامره. وباختصار كان جيشه به نقطة الضعف الرئيسية فى الجيش الإقطاعى التقليدى[3].

وفى يوم الإثنين ٢٥ سبمبر سنة ١٣٩٦ (٧٩٨هـ) أضحت مقدمة الجيش العثمانى ظاهرة للعيان، فعسكرت فى التلال على مسافة ثلاثة أميال من الصليبيين. وفى صبيحة اليوم التالى وقبل شروق الشمس، قام سيجسموند بزيارة زملائه من القادة، وتوسل إليم أن يبقوا على التزام خطة الدفاع. ومع أنه لم يخطرهم صراحة أنه لايثق فى عساكره من الترانسڤاليين والوالاشيين، فإنه لم يلق التأييد إلا من سيدكورسى The Sire de Courcy ويوحنا سيد ڤيينا، بينما عزم القادة الآخرون على المبادرة على الفور إلى أن ينشبوا المعركة، ولم يسع سيجسموند إلا أن يذعن فى ضعف. فجعل جيشه فى ثلاثة أقسام: احتل عساكره المجريون قلب الجيش لداريتهم بطرق الأتراك الحربية، بينم اتخذ الوالاشيون مواقعهم فى الميسرة، وكان الترانسلڤانيون فى الميمنة[4]، على أن تبقى القوات الفرنسية الأجنبية من أجل الضربة الحاسمة، ولكن الفرنسيين الأقوياء أبوا فى ثقة زائدة وغطرسة تنفيذ هذا الرجاء الذى طلبه سيجسموند، واتهموه بأنه يحاول أن يسلبهم حق الفخر بيوم عظيم مشهور[5]،

(1) Stavrianos, op. cit., p. 48.

داهموس:: المرجع اسابق، ص ١٩٩.

(٢) محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربى، ص ٤٤ ـ ص٤٥.

(٣) داهموس: المرجع السابق، ص ١٩٩.

(4) Creasy, Turkey, p. 40.

رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٧٦٧.

(5) Creasy, op. cit., p.40.

عزيز سوريال: العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٩٦.

ومن ثم تألفت مقدمة الجيش من جميع القادمين من الغرب الأوربى بقيادة يوحنا كونت نيفر، وهو أكبر أبناء دوق بورجندى وولى عهدها،وهو شاب نشيط فى الرابعة والعشرين من عمره.

ولما طلع النهار، لم يتراءى من الجيش التركى سوى الخيالة الخفيفة الذين لم يكونوا نظاميين، على منحدر التل، ومن ورائهم اتخذ الرجالة الترك مواقعهم، وفصيلة من الرماة، يحميهم حاجز مصنوع من أعمدة مدببة من الخشب. أما القوة الرئيسية من الخيالة السباهية، التى يقودها السلطان بايزيد نفسه، فإنها كانت مختفية فى قمة التل. وكان على ميسرة السلطان فرقة من الخيالة الصربيين بقيادة الأمير ستيفن لازاروفيتش الذى يعتبر من أتباع السلطان المخلصين[1].

دلت المعركة، وفقا للخطة الحربية السابقة، على أن الصليبيين لم يتعلموا شيئا فى كل الأزمنة. فلم ينتظر فرسان الغرب بالمقدمة كيما يخطروا سيجسموند بخططهم. فقد دفعهم الحماس الصادق بالغ الارتفاع على أن يهاجموا التل، فشتتوا أمامهم فرسان الترك. وبينما كان الأتراك يجمعون شملهم من جديد وراء الرجالة، أعاق فرسان الغرب عن الحركة أعمدة الحاجز المدببة، فبادروا إلى الترجل عن أفراسهم، وواصلوا الهجوم على أقدامهم، فنزعوا الأعمدة من الأرض كلما تقدموا. كان ذلك حافزاً لهم على الهجوم، حتى تشتت أيضا شمل الرجالة الترك. ومع أن بعض الترك استطاعوا أن ينسحبوا إلى ما وراء الخيالة الذين اجتمعوا من جديد، فإن عدداً كبيراً منهم تعرضوا للقتل أو جرى قذفهم إلى السهل. على أنه حينما أسرع الصليبيون فى نشوة انتصارهم وبرغم ما عانوه من تعب وإرهاق بالمسير، وبلغوا قمة التل، أضحوا وجها لوجه مع فرسان بايزيد السباهية والصربيين. ففاجأتهم هذه القوات الجديدة النشطة. ولما كانوا مترجلين، وحل بهم التعب، واشتد ظمأهم، وأرهقهم ما يحملون من أسلحة ثقيلة، لم يلبث نظامهم أن اضطرب، وتحول انتصارهم إلى هزيمة، وغرق الكثير من القواد أثناء محاولتهم عبور الدانوب. ولم ينج من القتل إلا عدد قليل من الفرسان، ولم ينج يوحنا كونت نيفير إلا لأن خدامه هتفا باسمه

---

(١) رنسيمان: المرجع السابق، جـ ٣ ص ٧٦٧،عزيز سوريال: المرجع السابق، ص ٩٧،
Atiya, The Crusade in the Later Middle Ages, p. 446.

وأقنعوه بالإذعان، وممن وقع معه فى الأسر الماريشال بوسيكو(1). وكان ملك المجر سيجسموند من بين القلةالتى لاذت بالفرار ومعه رئيس فرسان القديس يوحنا برودس إلى بيزنطة، وقد اضطر سيجسموند إلى ترك ميدان المعركة والهروب مستخدماً سفينة فى نهر الدانوب(٢).

وعلى الرغم من أن معركة نيقوبوليس إنتهت بالقضاء على الجيش الصليبى، فإن القتال الذى خاضه العثمانيون كان شرساً، وقد انزعج السلطان بايزيد لما أصابه من خسائر قدرت بثلاثين ألف مقاتل، ولذلك أظهر سخطه فى اليوم التالى بإعدام ثلاثة آلاف من أسرى الحرب، ولم يبق إلا على حياة عدد قليل يمكن الحصول على فدية ضخمة منهم(٣).

وبعد الكارثة التى حلت بالفرسان الصليبيين فى تلك المعركة، لم يبق لدى دول الغرب الأوربى أى استعداد للدخول فى مغامرات خطيرة لهزيمة قوة الإسلام أو لوضع نهاية لسيطرة الأتراك العثمانيين. وبدأت تخمد ثورة الدعاية الهائلة التى ظهرت فى أوائل القرن، بالرغم من وجود بعض الكتاب الذين كانوا ينادون باستئناف الحروب الصليبية(٤).

تعتبر حملة نيقوبوليس الصليبية آخر الحملات الصليبية الكبيرة. إذ أن طابع تاريخها المثير للأسى، احتذى فى دقة مؤلمة نهج الحملات الصليبية التى تعرضت فى الماضى لكوارث فاجعة، وكل ما بينها من اختلاف أن ساحة المعركة أضحت فى أوروبا، لا فى آسيا. وما وقع فيها من أخطاء وحماقات كانت واحدة، كل ما تعلمه الغرب من هذا الفشل الذريع الأخير، هو أنه لم يعد للحرب المقدسة وجود من الناحية العملية(٥).

---

(1) Creasy, op. cit.,pp. 41-42, Doukas, Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks, pp. 84-85,

رنسيمان: المرجع السابق، جـ٣وص ٧٦٨.

(٢) داهموس: المرجع السابق، ص ٢٠٠،

Schevill, op. cit., p. 188, Ostrogorsky, op. cit. p. 552, Castellan, Hist of the Balkans, pp. 58-59.

(3) Atiya, op. cit., pp. 455-456

عزيز سوريال: المرجع السابق ص ٩٧، رنسيمان: المرجع السابق، جـ٣ص، ص ٧٦٨ ــ ٧٧٠.

(٤) عزيز سوريال: المرجع السابق، ص ٩٧ ــ ٩٨.

(٥) رنسيمان: المرجع السابق، جـ٣، ص ٧٧.

وعلى الرغم من أنه لن تقوم حملات صليبية أخرى، غير أن السلطان بايزيد ظل يهددجوف العالم المسيحى، إذ بلغ نهر الدانوب، وشواطىء البحر الأدرياتى. ومع أن القسطنطينية لازالت بأيدى المسيحيين، فإنها أضحت معزولة، ولم يبق عليها إلا أنه لم يتوفر للسلطان من المدفعية القوية ما يكفى لدك أسوارها الضخمة، كما لم يكن لديه من السفن ما يكفى لقطع طرق مواصلاتها بحراً(١).

وتعتبر كارثة نيقوبوليس من أهم أحداث أواخر العصور الوسطى ليس فقط بسبب الأهمية التاريخية لمن اشتركوا فيها، بل أيضا لأنها كانت آخر مشروع دولى هام نفذه فرسان الإقطاع. وقد أثبت الصربيون ولاءهم للدولة العثمانية فى ساحة نيقوبوليس التى تم فيها إحراز النصر بمساعدة مسيحيى البلقان. ووصل السلطان بايزيد قمة مجده، فأرسل من ميدان القتال إلى قاضى بروسة يبلغه بأنباء النصر الذى أسكرته نشوته، فأعلن فى نشوة النصر أنه سيحتل إيطاليا وأن حصانه سيتناول طعامه على مذبح كنيسة القديس بطرس بروما. كما بعث من أدرنه برسائل إلى كبار حكام الشرق الإسلامى يزف إليهم بشرى انتصاره فى نيقوبوليس، واصطحب الرسل معهم إلى بلاطات عواهل المسلمين مجموعة منتقاة من الأسرى الصليبيين باعتبارهم هدايا من المنتصر ودليلا ماديا على انتصاره. واتخذ بايزيد لقب «سلطان الروم» كدليل على وراثته لدولة السلاجقة وسيطرته على كل شبه جزيرة الأناضول. كما أرسل إلى الخليفة العباسى المقيم فى دولة المماليك بالقاهرة يطلب منه أن يقر هذا اللقب، حتى يتسنى له بذلك أن يسبغ على السطة التى مارسها هو وأجداده من قبل طابعا شرعيا رسميا، فتزداد هيبته فى العالم الإسلامى، ولم يكن السلطان المملوكى يجد مبرراً لعدم الاستجابة لطلب بايزيد، إذ كان يرى فى العالم العثمانى حليفه الأوحد ضد قوات تيمور لنك التى كانت تهدد كلا الطرفين(٢).

ولاشك أن الانتصار الذى أحرزه العثمانيون على الحملة الصليبية فى نيقوبوليس قد زاد من مخاوف الأوربيين، فى الوقت الذى أضاف للعثمانيين رصيداً ضخما من النفوذ فى جميع أنحاء العالم الإسلامى، وأوجد إمبراطورية مركزية تمتد من الدانوب إلى الفرات.

---

(١) المرجع السابق، جـ٣، ص ٧٧١.

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى: فى أصول التاريخ العثمانى، ص ٥٤ ـ ٥٥،
Creasy, Turkey, p. 45.

ونتيجة لذلك تدفق آلاف المسلمين على الأناضول، ودخلوا فى خدمة بايزيد، ولم يشتملوا فقط على الرعاة التركمان، بل أيضاً على الكثير من الذين شكلوا العمود الفقرى للحياة الإدارية والاقتصادية في إيران والعراق وما وراء النهر، بالإضافة إلى الفارين من الفوضى التى أعقبت انهيار حكم الإيلخانيين(١)، ورحف تيمور لنك على أواسط آسيا الصغرى(٢).

ونصل إلى القول إن الحملة الصليبية فى نيقوبوليس، كانت كارثة للفروسية الأوروبية، أنهت مصير القسطنطينية، وثبتت أقدام العثمانيين فى البلقان، ومهدت الطريق لتقدم العثمانيين إلى بودا وفيينا(٣).

نشاط بايزيد بعد موقعة نيقوبوليس:

وبعد موقعة نيقوبوليس رجع السلطان بايزيد إلى أدرنة، وكانت قواته قد أغارت على والاشيا والمجر والبوسنة وبلاد الشام، واستولت على آخر إمارة بلغارية مستقلة فى ودين، حيث شكلت الأخيرة مع سلستريا ونيقوبوليس قاعدة أمامية جديدة تنطلق منها الجيوش العثمانية الموجهة ضد المجر ووالاشيا فى سنة ١٣٩٦. وعرت القوات العثمانية أيضا ألبانيا، وشيد بايزيد قلعة أناضولو حصارى ـ أى قلعة الأناضول ـ على أضيق نقطة من البوسفور للسيطرة على وصول البيزنطيين للبحر الأسود. وأعد بايزيد نفسه لحصار القسطنطينية عقابا لموقف إمبراطورها المؤيد للحملة الصليبية، وبدأ الحصار الثالث لها فى سبتمبر سنة ١٣٩٦م، ولكن الحصار لم يأت بنتيجة، ربما لأن أدوات الحصار كانت تنقصها الكفاءة، ويزيد الاحتمال

(١) إيلخان كلمة تركيبية مركبة من لفظين هما: (إين وخان)، الأولى بمعنى تابع والثانية بمعنى حاكم وملك ورئيس عشيرة.وبذلك يكون معنى إيلخان هو الملك التابع، إلى الحاكم لاحدى الولايات فى الدولة ويتبع الخاقان الأعظم الذى يحكم الدولة كلها، وقد أطلق هذا اللقب على بيت هولاكو حفيدى جنكيزخان مؤسس الإمبراطورية المغولية ابتداء من أباقا (١٢٦٥ ـ ١٢٨٢)، ثم أطلق على حكام المغول فى إيران بعد استقلالهم عن الدولة المغولية الأم، وصارت دولتهم تعرف بالدولة الإيلخانية، واستمرت هذه الدولة تحكم خراسان وبلاد الجبل وفارس وكرمان وما بين النهرين والعراق وآسيا الصغرى وجزء من بلاد الشام إلى فترة محدودة، واستمرت هذه الدولة قرنا من الزمان إلى أن انقرضت فى سنة ٧٥٦ هـ (١٣٥٦). أنظر دائرة المعارف الإسلامية، محمد أحمد محمد: إسلام الإيلخانيين (القاهرة ١٩٨٩)، ص ١٠٧.

(2) Shaw, op. cit., p. 33.

(3) Stavrianos, The Balkans since 1453, p. 48.

فى أن المستشارين المسيحيين الموجودين فى بلاط بايزيد، قد أوعزوا إليه أن حصار القسطنطينية سوف يغرى الأوربيين على القيام بجهود صليبية ضده. وأخيراً قرر السلطان أن يفك الحصار فى مقابل زيادة الجزية المفروضة على الإمبراطورية البيزنطية، وفى اتفاقية عقدها بايزيد مع الإمبراطور ما نويل الثانى (١٣٩١ ـ ١٤٢٥م) وافق الأخير على أن خلفاءه ينبغى أن يقرهم السلطان فى العرش(١).

وفى هذه الأثناء وجد الإمبراطور البيزنطى مانويل الثانى نفسه مهدداً من منافس له على العرش يسانده السلطان العثمانى بايزيد، ولم يكن هذا المنافس سوى يوحنا ابن أخيه. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل نزلت الإمبراطورية إلى وضع بالغ الصعوبة، جعل مانويل الثانى يتوقع اللحظة التى يجبر فيها على الخروج من القسطنطينية، وتحسبا لذلك عقد العزم على تسليم العاصمة إلى جمهورية البندقية، وعرض أن يمنحها أيضا جزر إمبروس ولمنوس. ورفضت البندقية هذه العروض، وشجعت الإمبراطور على الثبات، وزودته فى الوقت نفسه بقاعدة للمقاومة بأن جهزت سفنا حربية لحماية المستعمرة البندقية، وحذت جنوه حذوها بالنسبة إلى مستعمراتها(٢). ومن جهة أخرى، وجه مانويل الثانى نداءً جديداً إلى الغرب، وقد توسل المساعدة، ليس فقط من روسيا، ولكن أيضا من البابا، ودوج البندقية، وملوك فرنسا وإنجلترا وأراجون Aragon، وراحت شخصيات موثوق بها تطوف أوربا نيابة عنه. فاستجاب شارل السادس ملك فرنسا وأرسل قوة من ١٢٠٠ رجلا بقيادة المارشال بوسيكو من إيج مورت Aigues Mortes، وانضمت إليه فى الطريق تعزيزات جاءت من جنوه والبندقية ورودس ولسبوس. وهاجم بوسيكو الأتراك بشجاعة كبرة، وطهر النواحى المجاورة للقسطنطينية من العصابات التركية التى تغير عليها، ولكن كما هومتوقع، فإن قوته الصغيرة، مهما أوتيت من حظ، لم تستطع أن تخلص الإمبرطورية من الخطر العثمانى، وبعبارة أخرى لم يقدر بوسيكو على مواصلة قتال العثمانيين، فقرر الرجوع إلى فرنسا سنة ١٣٩٩، وأشار على الإمبراطور مانويل الثانى بالسفر معه إلى أوربا ليشد أزره فى طلب المعونة من حكام أوربا(٣).

---

(1) Shaw, op. cit., p. 33.

(٢) هايد: تاريخ التجارة فى العصور الوسطى، جـ٣، ص ١٢٢ ـ ١٢٣،
Hearsey, City of Constantine, pp. 230-231, Ostragorsky, op. cit., pp 554-555.

(٣) هايد: تاريخ التجارة، جـ٣، ص ١٢٢ ـ ١٢٣،
Ostrogorsky, Hist. of the Byzantine State, p. 555.

وقد غادر الإمبراطور القسطنطينية فى ١٠ ديسمبر سنة ١٣٩٩، يحدوه الأمل فى الحصول على مساعدة من الغرب الأوربى، وعهد بأمور الدولة إلى ابن أخيه يوحنا. وانزعج الإيطاليون عندما شاهدوا كيف أضحى وريث القياصرة فقيراً، فبذل له دوق ميلان الهدايا الرائعة الملائمة لمكانته، ولقى الإمبراطور ترحيبا بالغافى كل مكان، خاصة فى باريس ولندن، غير أنه لم يتلق مساعدة مادية، وحصل على وعود غامضة لم تنفذ. أما البابوية فلم تحفل بالإمبراطور، إذ أن مانويل كان من الأمانة مايمنعه من الوعد بأن تخضع كنيسته لروما، لعلمه أن قومه لن يقبلوا ذلك، ولم يعد مانويل إلى عاصمته إلا فى سنة ١٤٠٢م، وقد أطربته الأنباء التى تنذر بسقوط الإمبراطورية العثمانية[١]، وهى ظهور تيمور لنك.

وفى أثناء انشغال بايزيد فى أوربا، قام علاء الدين على بك أمير قرمان بمحاولة لاستعادة مافقده على أيدى العثمانيين، فاستولى على أنقرة عاصمتهم فى الأناضول، ثم تقدم من خلال كرميان نحو بروسة عاصمة العثمانيين القديمة. وعندئذ قرر بايزيد مواجهته من جديد، فجمع جيوشه الروميلية (الأوربية) والأناضولية فى بروسة، وتحرك على رأس جيش ضخم تجاه قونية، وهناك أحس علاء الدين أنه لايستطيع مواجهة بايزيد، فأعاد إليه كل الأسرى والغنائم التى استولى عليها، واقترح على بايزيد عقد السلام بينهما.ولكن بايزيد رفض هذا العرض، ودخل فى معركة مع علاء الدين فى سهل أكشاى Akcay، فى عام ١٣٩٧، انتصر فيها بايزيد، وأمر بإعدامه بعد وقت قصير من المعركة[٢]. وفى العام التالى تقدم بايزيد بحذاء ساحل البحر الأسود، ووصل نفوذه إلى حدود طرابيزون البيزنطية، فيما عدا مستعمرة جنوية فى أميسوس Amisus شرق سمسون، ظلت بعيدة عن سيطرته. وقد جعلت تلك الغزوات بايزيد يسيطر على كل أراضى الشمال والغرب جنوب غربى دولة القاضى برهان الدين فى وسط الأناضول. وعندما مات القاضى برهان الدين فى عام ١٣٩٨، أجبرت الانقسامات الداخلية أمراء دولته على قبول سيادة بايزيد، مقابل المساعدة

(١) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٧٧٢.
Ostrogorsky, op. cit., p. 555, Barker (John W.), Manuel II Palaeologus (1391-1425): AStudy in Late Byzantine Statesmanship. (New Jersey, 1969), p. 215, Vasiliev, op. cit., Vol. II,p. 633.

(2) Shaw, Hist,of the Ottoman Empire, Vol. I, p. 34.

ضد الهجمات المتصاعدة التي يقوم بهاتركمان «الشاة البيضاء» في الشرق. وبذلك صار العثمانيون على اتصال مباشر مع الإقليم المملوكي الممتد من ملطية إلى قيليقية[١].

وفي يونيو عام ١٣٩٩ توفي السلطان المملوكي برقوق، وتولى من بعده إبنه السلطان فرج، وهو شاب عديم الخبرة. ووصلت الأخبار إلى بايزيد أن تيمور لنك قد انشغل بغزواته في الهند، فاستأنف بايزيد غزواته في الشرق، وكان هدفه المباشر إمارة دلغادر التابعة لسلطنة المماليك، فانتهز فرصة قيام الفوضى التي أعقبت موت برقوق، وضم تلك الإمارة إلى ممتلكاته في أغسطس ١٣٩٩. ثم بعد ذلك استولى بايزيد على معظم قيليقية من المماليك، ثم تحرك إلى شرق الفرات، وأعاد وحدة الأناضول التركية[٢].

معركة أنقرة:

وفي ربيع سنة ١٤٠٠ استعاد تيمور لنك حكمه في آذربيجان وشرق العراق، وأجبر ملك جورجيا المسيحي على الاعتراف بنفوذه. حدث هذا في الوقت الذي قام فيه السلطان العثماني بايزيد بالاستيلاء على أرزنجان وكماخ Kemah من مطهر الدين بك الذي كان من أتباع تيمور لنك ويتمتع بحمايته، وبذلك أصبح الصدام بين تيمور لنك وبايزيد لامفر منه. وعندما وصل تيمور إلى باسنلر Pasinler بالقرب من أرضروم، انضم إليه عدد من الأمراء التركمان الذين طردهم العثمانيون من أراضيهم واستولوا عليها، وطالبوه بمساعدتهم في إعادة تلك الأراضي لحوزتهم[٣]. فأرسل تيمور لنك سفراء من قبله، أخبروه أن الخان الأعظم تيمور لنك لايسمح لبايزيد أن يستولي على أقاليم لاتخضع ويضمها إلى نفوذه كما يجعل من نفسه حاكما عظيما يهدد نفوذه، وطلب منه السفراء أن يعيد الأراضي التي استولى عليها بالقوة لأصحابها، ولكن بايزيد رفض وأمر بقص لحى السفراء وأعادهم في صورة مهينة لتيمور لنك[٤].

---

(1)Ibid.,p.34.

(2)Ibid.,p. 34-35.

(3) Ibid., P.35.

(4)Doukas, Decline and Fall of Byzantium., p. 38.

ولاشك أن ظهور تيمور لنك فى جنوب غربى آسيا واحتمال اصطدامه بالعثمانيين شجع العالم المسيحى الأوربى على الاقتراب من تيمور، فوجدت الأفكار التى سادت أيضا أوربا إبان غزوات المغول الأولى فى القرن الرابع عشر، وهى محاولة استغلال هذه القوى العسكرية بتحويلها إلى المسيحية، والانتفاع منها فى تجنب خطرها وفى تحطيم القوى الإسلامية المجاورة لهذا العالم المسيحى(١). وشعرت القسطنطينية بالارتياح وتنفست الصعداء عند اقتراب الصراع بين بايزيد وتيمور، وبدأ يوحنا الوصى على عرش القسطنطينية المفاوضات مع تيمور، وفعل نفس الشىء شارل السادس ملك فرنسا، بل حتى إمارة طرابيزون الصغيرة أرسلت إليه ما يعبر عن تقديرها له، معلنة استعدادها للسماح له باستخدام مينائها الوحيد، وكذلك وعده أهالى جنوه الذين يديرون منطقة بيرا Pera فى الجزء الذى يقع عند القرن الذهبى من القسطنطينية بإرسال سفنهم، ومنع أى إمدادات عسكرية تركية تحاول العبور من أوربا إلى آسيا الصغرى(٢). ولكن كل هذه التعهدات باءت بالفشل، لأن تيمور لم يتحول عن الإسلام، ولأنه كان يدرك أن الممالك المسيحية لا يعنيها شىء سوى أن يقضى بايزيد وتيمور على بعضهما البعض(٣).

ولما أدرك تيمور أن بايزيد لم يستجب لطلباته، بدأ بالزحف نحو سيواس العاصمة القديمة للقاضى برهان الدين، والتى استولى عليها بايزيد قبل ذلك بوقت قصير، وأسند حكمها لابنه سليمان. ولم يلبث تيمور أن استولى عليها فى ٢٧ أغسطس سنة ١٤٠٠م، وأعمل القتل فى المسلمين والمسيحيين على حد سواء(٤). ثم بعد ذلك تحرك تيمور جنوباً لتقوية موقفه منتهزاً حالة الضعف التى باتت فيها دولة المماليك الجراكسة، وتقدم فى بلاد الشمال المملوكية، واستولى على ملطية وعينتاب وحلب فى أكتوبر عام ١٤٠٠م، وفى الأخيرة لجأ تيمور لنك إلى إشتعال النار بالمدينة حتى هرب سائر نساء البلد والأطفال إلى مساجد حلب، فهجم أصحاب تيمور عليهن وربطوهن بالحبال وأعملوا فيهن السيف. ثم «صارت الأبكار تفتض من غير تستر والمخدرات يفسق فيهن من غير احتشام(٥)»، كما

---

(١) محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربى، ص ٤٧.
(٢) دهموس: سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى، ص ٢٠١.
(٣) نفس المرجع والصفحة.
(٤) حكيم أمين عبد السيد: قيام دولة المماليك الثانية، ص ١٣١.
(٥) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ ١٢، ص ٢٢٣، حكيم أمين: المرجع السابق، ص ١٣٤ ـ ١٣٥.

استولى تيمور على دمشق فى ديسمبر من نفس العام، وقد سحق الجيش المملوكى عدة مرات، وذبح الآلاف أثناء زحفه(١). وانتهى الأمر على هذا النحو، وغادر تيمور بلاد الشام بعد أن دك معالم حضارته دون أن يدخل مصر.

وبينما كان تيمور فى الجنوب، تحرك بايزيد فى مؤخرته فى الأناضول الشرقية، واستعاد سيواس وأرزنجان، بهدف الحصول على ميزة استراتيجية قبل أن يعود تيمور. وفى ربيع عام ١٤٠٢م تناور جيشا بايزيد وتيمور، وجمع الأخير جيشا ضخما جديداً فى جورجيا، ثم دخل الأناضول عن طريق أرضروم وكماخ، وتقدم إلى قيصرية، وفرض الحصار على أنقرة ليغرى بايزيد على الدخول معه فى معركة، فى الوقت الذى حصل تيمور على مساندة معظم التركمان، الذين أعاد إلى أمرائهم أراضيهم وممتلكاتهم، بعد أن أخذها من العثمانيين(٢). ويبدو أن تيمور قد حصل على ميزة استراتيجية، وذلك بالتقدم من سيواس إلى أنقرة خلال الطريق الشمالى الذى تتوفر فيه المياه، على حين أن رجال بايزيد كانوا فى منطقة أقل مياه، وكان الوقت صيفا شديد القيظ، وبذلك أجبر بايزيد على البحث عن المياه والمؤن، والقتال من أجل الحصول عليها(٣).

وقد أسند بايزيد قيادة ميمنة جيشه إلى صهره لازاريفتش ملك صربيا، وأمده ببعض الفرسان الأتراك لمساندة فرسانه ثقيلى العدة، وأسند الميسرة إلى ولده سليمان، وتكونت الميسرة من قوات من مقدونيا ومن آسيا الصغرى، أما قلب الجيش فقد تكون من الإنكشارية والسباهية، وتحت قيادة بايزيد نفسه(٤). أما المؤخرة فكانت بقيادة إبنه محمد.

ويميل كثير من الكتاب المعاصرين والمحدثين إلى الإفراط فى تحديد أعداد الرجال فى كل من الجيشين المغولى والعثمانى. ويذكر المؤرخ جروسيه Grusset أن حوالى مليون مقاتل اشتركوا فى المعركة التى دارت بينهما. وكتب الفارس شيلتبرج البافارى Bavarian Schiltberger الذى عاصر هزيمة الصليبيين فى نيقوبوليس وانتقل إلى خدمة الأتراك فى

(1) Shaw, op. cit., p. 35, Doukas, op. cit., pp. 80-90.

(2) Shaw, op, cit., p. 35.

(3) Shaw, op. cit., p. 35.

(٤) داهموس: المرجع السابق، ص ٢٠٢.

مذاكراته أن عدد جيش بايزيد بلغ مليونا وأربعمائة ألف مقاتل، وأن جيش تيمور لنك زاد عن ذلك الرقم بحوالى مائتى ألف مقاتل. وأكثر الأرقام اعتدالا كان حوالى عشرين ألف مقاتل تقريبا لكل من الجانبين[١]. وإن كانت المصادر قد اتفقت كلها على أن جيش تيمور كان أضخم[٢].

وأخيراً حدثت المعركة الفاصلة فى سهل جوبوق آباد Cubuk بالقرب من مدينة أنقرة فى ٢٧ يوليو عام ١٤٠٢، وقد استمرت المعركة حوالى أربع عشرة ساعة، ويبدو أن بايزيد قد أحرز انتصاراً فى أول الأمر، ولكن خيانة بعض فرقه التركمانية التى نزعت إلى إلقاء السلاح والفرار،وكذلك ـ طبقاً لما يذكره البعض ـ خيانة قواته الصربية التابعة له، قد غيرت الموقف، وتم سحق الجيش العثمانى، وبعد أن تأكد بايزيد من هزيمته حاول الهرب، بيد أن جواده تعرض لإصابة قاتلة، ووقع أسيراً فى أيدى تيمور لنك[٣]. ويقال إن تيمور عامل بايزيد بكل إجلال واحترام، وأمر تيمور بفك أغلال السلطان وأجلسه إلى جانبه، وأكد له أنه سيبقى على حياته، وأصدر تعليماته بأن تنصب ثلاث خيام فخمة لحاشيته، ولكن عندما حاول بايزيد الهرب، احتجز فى غرفة ذات نوافذ مسدودة بالحواجز، وقد بالغت الأساطير فقالت إنها قفص من حديد. ومرض بايزيد، فدعا تيمور أحسن الأطباء لمعالجته، ومات بايزيد بعد عام من هزيمته[٤] كمداً فى الأسر فى ٩ مارس سنة ١٤٠٣، ودفن فى بروسة فى مقبرة أجداده. ولم يمهل القدر تيمور لنك طويلا بعد ذلك، إذ لم يكد يصل إلى سمرقند حتى بدأ استعداداته الفورية لإرسال حملة إلى الصين، وغادر المدينة فى أواخر ديسمبر سنة ١٤٠٤، بيد أنه شعر بالمرصد بعد وقت قصير، ومات ودفن فى سمرقند[٥].

كانت حروب تيمور لنك ضد الدولة العثمانية ناجحة، وذلك لأن تلك الدولة كانت تحمل فى أواخر القرن الرابع عشر الميلادى بذور عدم الاستقرار، وخاصة نظام الأفصال

---

(١) داهموس: المرجع السابق، ص ٢٠٤.

(2) Shaw, op. cit., p. 35.

(3) Shaw, op.cit., 34, Pears, The Destruction of the Greek Empire pp. 143-144.

(٤) ديورانت: قصة الحضارة، جـ ٥مج ٦، ص ٥٧ ـ ٥٨، داهموس: المرجع السابق، ص ٢٠٦،
Schevill, op. cit., p. 130,Creasy, Turkey, pp. 50-51.

(٥) القرمانى: أخبار الدول وآثار الأول، ص ٢٩١، داهموس: المرجع السابق، ص ٢٠٦.

(الأتباع) Vassal System ، الذى ترك الأمراء المسيحيين يباشرون مهام حكمهم فى إماراتهم، وبذلك كانوا عندما يصيب السلطة المركزية فى الدولة العثمانية الضعف والإنهاك، فيوضع يؤكدون فيه استقلالهم. وقد انهار جيش بايزيد بسهولة فى موقعة أنقرة، لأنه تخلى عن تقليد «الغزاة» ـ وهم الذين يحاربون الكفار ـ الذى عاد بالنجاح على أسلافه، فأبعد الضباط والجنود الذين قادوا الفتوحات السابقة[1].

كان الإمبراطور البيزنطى مانويل الثانى يأمل فى أن ما حل بالسطان العثمانى بايزيد من كارثة، قد ينهى التهديد العثمانى، غير أنه لم يكن من القوة ما يكفى لأن يتخذ إجراء بدون قاعدة أوربية. فقد التزمت الجمهوريات الإيطالية جانب الحذر، إذ بادر الجنويون إلى عقد معاهدة مع تيمور للمحافظة على تجارتهم الآسيوية. على أن تخوفهم على تجارتهم بالبلقان، وقلقهم على المستقبل، حملهم على أن يساعدوا فى الحفاظ على القوة العثمانية، بأن نقلوا على سفنهم بقايا جيش بايزيد إلى أوربا. أما البنادقة فالتزموا الاعتزال، وكان لحذرهم ما يبرره[2].

والواقع أن غزوات تيمور منعت السلطان بايزيد من شن هجوم مباشر على القسطنطينية، وأبقت على بيزنطة لمدة نصف قرن آخر[3]. فلو أن كل أوربا بادرت إلى التدخل، لاستطاعت أن تقضى على الإمبراطورية العثمانية. غير أن الأتراك كانوا من التماسك العنصرى فى الأناضول، والاستقرار السياسى فى البلقان مايجعل من العسير طردهم، كما أنه لم يكن لتيمور مالجنكيزخان من العبقرية، إذ أن إمبراطوريته أخذت تتجزأ عقب وفاته مباشرة سنة ١٤٠٥ . فعجل المماليك باسترداد بلاد الشام، وظهرت فى أذربيجان أسرة «الشاة السوداء» وأقامت ملكا إمتد من شرقى الأناضول حتى بغداد، وظهرت الأسرة الصفوية فى فارس. وظلت سلالة تيمور تحكم إقليم ما وراء النهر نحو قرن من الزمن، على أنهم أقاموا فى الهند وحدها إمبراطورية فى دلهى استمرت أمدص طويلا[4].

---

(1) Shaw, op. cit., p. 35.

(٢) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٧٧٤.

(3) Ostrogorsky, op. cit., pp. 556-557.

(٤) رنسيمان: المرجع السابق، جـ٣، ص ٧٧٤.

إن النتيجة النهائة لغزو تيمور بلاد الأناضول أنه أدخل بها سيلا جديداً من الترك والتركمان، وبذا ازدادت جذور الدولة العثمانية رسوخا. فحينما مات تيمور تسلم أبناء بايزيد إرث أبيهم. وما نشب من الحروب الداخلية هيأ للقوى المسيحية فرصة جديدة توقف النمو العثمانى المتزايد للدولة العثمانية، غير أن هذ الفرصة لم يجر اغتنامها. فلما انفرد محمد الأول بالسلطنة سنة ١٤١٣ كانت الإمبراطورية العثمانية متماسكة[١]. وبعبارة أخرى، لقد قضى تيمور على القوة العسكرية للدولة العثمانية، ولكنه لم يستطع التغلب على القوة الحيوية الكامنة فيها، فما لبثت هذه الدولة أن انبعثت من بين الأنقاض، وانعشت وسرى فى عروقها ماء الحياة، واستأنفت سيرها إلى الأمام فى ثبات وقوة كعهدها من قبل[٢].

وبوفاة بايزيد تنتهى فترة على جانب كبر من الأهمية من تاريخ الدولة العثمانية، شاهدت بدء تكوين العثمانيين كأمة ودولة. فإذا كان عثمان وأورخان قد خلقا من الجماعات العثمانية أمة ودولة، فلاشك أن مراد وبايزيد جعلا من هذه الدولة نواة لإمبراطورية مترامية الأطراف[٣]. وفى عهد بايزيد ظهرت الدولة العثمانية كقوة فعالة فى السياسة الدولية لأول مرة، حيث كانت إحدى المحاور الأساسية للسياسة العالمية فى هذا العصر، فى منطقة امتدت من غربى أوربا، وحتى وسط آسيا، ومن مصر حتى شمالى البحر الأحمر[٤].

---

(١) رنسيمان: المرجع السابق، جـ٣، ص ٧٧٥.

(٢) سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ١٢.

(٣) محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربى، ص ٥٢.

(٤) خليك إينالجك: العثمانيون، النشأة والازدهار، ص ٥٦.

الفصل الرابع

إعادة بناء الإمبراطورية العثمانية

- الحرب الأهلية بين أبناء بايزيد (١٤٠٢ ـ ١٤١٣).
- السلطان محمد الأول (١٤١٣ ـ ١٤٢١).
- مراد الثانى (١٤٢١ ـ ١٤٥١).
- الحرب الأولى بين العثمانيين والبنادقة واشتراك صربيا ووالاشيا والمجر فيها.
- الحملة الصليبية على ڤارنا سنة ١٤٤٤م.

الحرب الأهلية بين أبناء بايزيد (١٤٠٢ - ١٤١٣):

وفى أعقاب معركة أنقرة ظل تيمور لنك فى الأناضول حوالى ثمانية شهور من يوليو ١٤٠٢ إلى مارس ١٤٠٣، وذلك لتثبيت سلطته وإعادة الاستقلال للإمارات التركمانية القديمة، فى الوقت الذى كان ينهب الأراضى العثمانية من أجل الغنائم، ونتيجة لذلك قتل الآلاف، ودمر المساجد والمدارس، وأحرق المدن والحقول، وأوقع الآلاف فى العبودية، وما لبث تيمور لنك أن غادر آسيا الصغرى، ومات فى أوترار فى ١٨ فبراير عام ١٤٠٥، وهوفى طريقه إلى غزو الصين(١).

والواقع أن تيمور لنك ترك الأحوال السياسية للأناضول فى حالة مشابهة إلى حد كبير لما كانت عليه فى عهد السلطان مراد الأول (١٣٦٠ - ١٣٨٩). فقد وضع تيمور الأمير القرمانى محمد على رأس دولة ضخمة تشمل ثلث الأناضول، وتحتوى على الأجزاء الشرقية لإمارة حميد، وكرميان، ومدن مثل قيصرية، وأنضاليا وعلايا Alaiye، فضلا عن الممتلكات القرمانية السابقة. ومن الواضح أن تيمور لنك فعل ذلك، لكى يعطى إمارة قرمان القوة التى تمكنها من مقاومة أى محاولة يقوم بها العثمانيون لاستعادة نفوذهم فى المنطقة. ولم يكتف تيمور بذلك، بل استعاد الإمارات التى غزاها بايزيد فيما وراء إمارة قرمان، وإن كان ذلك قد حدث بصعوبة(٢).

وكان الإمبراطور مانويل الثانى فى باريس عندما بلغته كارثة أنقرة، ولكنه رجع بعد انقضاء عام تقريبا إلى القسطنطينية، إذ توقف فى طريقه فى جنوة والبندقية. وقبل أن يصل مانويل إلى عاصمته كان ابن أخيه يوحنا السابع قد نظم أموره للتعامل مع الموقف المتغير. فبعد ثمانى سنوات أصبحت القسطنطينية طليقة من الحصار الذى فرض عليها، واختفى بايزيد الذى طالما نشر الرعب والفزع فى قلوب المسيحيين من على مسرح الأحداث السياسية. ولكن أبناؤه الأربعة تنازعوا حول الوصول إلى العرش، وحملوا السيوف ضد بعضهم البعض. وكان أكبرهم سناً سليمان، الذى سبق إخوته بالتوجه إلى غاليبولى فى أغسطس سنة ١٤٠٢ لكى يسيطر على الولايات الأوربية للإمبراطورية العثمانية المحطمة.

---

(1) Shaw, The Hist of the Ottoman Empire, Vol. I., p.3 6.

(2) Ibid., p. 36.

وفى أوائل سنة ١٤٠٣ عقد مؤتمر قمة من يوحنا السابع وسليمان وجنوية خيوس، ودوق جاكوبو الأول كريسب صاحب: ناكسوس Naxos، وفرسان القديس يوحنا (الاسبتار) برودس، وستيفن لازار يفتش أمير صربيا. وفى حوالى ٢٠ من فبراير سنة ١٤٠٣، قبل وصول مانويل الثانى إلى البدنقية عقد اتفاقية كانت فى صالح بيزنطة بصورة تبعث على الدهشة(١). وفى هذه الاتفاقية منح البنادقة امتيازات تجارية واسعة، وحصل البيزنطيون على تنازلات هامة، فقد أقسم سليمان على السلام والصداقة مع يوحنا السابع والإغريق، وأعاد سالونيكا بضواحيها وقلاعها، وأيضا خالسيدس Chalcidice وجزر سكوبيلوس وسكياثوس Skyathos وسيكروس، فضلا عن مساحة واسعة تشمل الساحل التراقى من مسمبريا إلى بانيدوس، أى شريط طويل من ساحل البحر الأسود، وكل منطقة مرمرة الساحلية، وفى هذه الاتفاقية لم يعد البيزنطيون يدفعون جزية للأتراك، وأمر سليمان بإطلاق سراح الأسرى الإغريق والمسيحيين الموجودين فى السجون العثمانية، ووعد بتقديم المساعدة الحربية للقسطنطينية فى حالة قيام تيمور لنك بشن أى هجوم عليها، كما وافق على ألا تدخل سفنه المضايق دون إذن من الإمبراطور البيزنطى(٢). وفى مقابل ذلك جرى الاعتراف بسليمان سلطانا على المناطق العثمانية فى الروميللى - أو أوربا - من عاصمته أدرنة. ولا ريب أن الأرباح التى حصل عليها البيزنطيون كانت أفضل من التى حصل عليها سليمان، فبعد أن كان البيزنطيون مجرد رعايا بؤساء تابعين للأتراك العثمانيين، أصبحوا وقتئذ سادتهم. ولم يعد باقيا إلا أن يوافق مانويل الثانى على الاتفاقية، وقد وافق عليها فى يونيو سنة ١٤٠٣ بعد رجوعه من أوربا بوقت قصير(٣).

ومن بين إخوة سليمان الثلاثة عيسى - وهو أصغر وأقدر الإخوة - الذى نصب نفسه حاكما فى بالكسير Balikesir وبروسة، ومحمد فى أماسيا ، وكلاهما اعترفا بسيادة تيمور لنك. وبذلك احتفظ العثمانيون بالسيطرة على كل أقاليم الدولة العثمانية التى

---

(1) Parker, Manuel II Palaeologus, p. 224.

(2)Ibid., pp. 224-225, Nicol,op. cit.,p. 73, Ostrogorsky, op. cit, 557, Halil Inalcik, The Ottoman Empire. p. 17.

(3) Nicol, op. cit., p. 73.

كانت موجودة قبل بايزيد. والحقيقة أن الإمبراطورية التي شيدها العثمانيون قد تفككت وانهارت، ولم يعد واضحا إذا كان لديها القدرة على البقاء[1].

وهنا نكرر القول إن بعض الأوربيين قد ظنوا أنهم لو اتحدوا ونجحوا في تكوين قوة صليبية جديدة، لأمكنهم طرد العثمانيين من أوربا. ولكن الموقف لم يكن سهلا، فالجيش العثماني الإقطاعي، وجيش «الغزاة» - بقيا - إلى حد كبير - تحت قيادة سليمان. على حين لم تكن أوربا في حالة تمكنها من استغلال سوء الوضع العثماني لصالحها، فصربيا ظلت معتمدة على سليمان، وانشغل سيجسموند ملك المجر بتقدمه في وسط أوربا، وأدى غيابه إلى تقوية نفوذ النبلاء الإقطاعيين المجريين، وكان أي هجوم صليبي محتمل دون مساندة مجرية، سيلقى نفس المصير الذي لقيه الصليبيون في نيقوبوليس[2].

وهنا نلاحظ أن الوضع الداخلي للعثمانيين خلال فترة الشغور كان معقداً للغاية، فمعظمهم أرادوا عودة تقليد «الغزاة» لمحاربة الكفار وصبغ الدولة بالمؤسسات الإسلامية العالية التي أوجدها السلاجقة. أما المستشارون المسيحيون - أو الحزب المسيحي - في البلاط العثماني، فقد اقترحوا سياسة مناقضة لسياسة الغالبية العثمانية، وذلك للاحتفاظ بوضعهم الجديد[3]. وتقوم هذه السياسة على توجيه السلطان نحو الشرق. ومن ناحية أخرى، فإن المشكلة في فترة الشغور لم تكن كامنة في إعادة بناء الاستحكامات ضد أي هجوم أوربي مضاد، بل في إعادة الزعامة الموحدة، وتأكيد الحكم العثماني في الأناضول، وفوق ذلك تنظيم الدولة على أسس أقوى من تلك التي جعلت إمبراطورية بايزيد في الأناضول وجيشه يتفتتان بسهولة في مواجهة تيمور لنك[4].

وفي خلال فترة الشغور - أو الحرب الأهلية بين أبناء بايزيد - ظلت الحدود العثمانية على ما هي عليه تقريبا، فيما عدا الأراضي التي استولى عليها تيمور لنك، وتلك التي تنازل عنها سليمان في مقابل حصوله على التأييد المسيحي، إذ لم يحاول أعداء العثمانيين

---

(1) Creasy, Turkey, p. 52, Shaw, op. cit., p 36

(2)Shaw, Hist of the Ottoman Empire, Vol. I.P 36.

(3) Ibid., pp. 35-37.

(4) Ibid., p. 37.

فى أوربا وآسيا الصغرى انتهاز فرصة التمزق العثمانى، والقيام بأى مجهود للقضاء على الوجود العثمانى(١).

ومهما يكن من أمر، ففى أثناء وجود تيمور لنك على مسرح الأحداث، ظهر النزاع على العرش العثمانى بين أبناء بايزيد فى شتاء عام ١٤٠٣م. فادعى محمد فى بروسة سيادته على الأسرة العثمانية، ولكنه لم يلبث أن أن رجع عن ادعائه بسبب مساندة تيمور لنك لأخيه موسى. غير أن محمداً قبل دعوة عدد من كبار الشخصيات من سنجقية أماسيا، التى أرادت قيادته لطرد أحد قواد تيمور لنك من تلك السنجقية، فوافق محمد، واستطاع الاستيلاء على أماسيا فى عام ١٤٠٣ ، وسرعان ما مد محمد نفوذه إلى المدن المجاورة سيواس وتوقات ونكسار (قيسارية الجديدة) Niksar، وهى المدن التى سبق أن نهبها وخربها تيمور لنك. وبعد أن أحرز محمد عدة انتصارات، تمكن من أن يجتذب إليه أعداداً كبيرة من أنصار ومؤيدى والده السابقين، وبعد مرور سنة على هزيمة أنقرة كان لديه جيش تركمانى ضخم قادر على التصدى للأعداء(٢).

وكان موسى الإبن الوحيد من أبناء بايزيد الذى بقى مع أبيه فى الأسر عقب معركة أنقرة، وبعد موت بايزيد فى ٩ مارس نسة ١٤٠٣ ، سمح له أن يرافق جثة والده لدفنه فى بروسة(٣). أما عيسى فقداستقر فى بالكسير، وفى الحروب التى دارت بين الأخوين، انتصر عيسى على أخيه موسى، واستولى على أراضيه، ففر موسى لاجئا إلى ولاية كرميان(٤).

أما سليمان الإبن الأكبر لبايزيد فقد ضمن الأمان والاستقرار بفضل مساعدة العناصر المسيحية، وخاصة الإمبراطورية البيزنطية، فقد كانت مصلحتهم فى الوقوف إلى جانب سليمان خلال صراعه مع إخوته من أجل توحيد الأجزاء الآسيوية والأوروبية للإمبراطورية العثمانية، وذلك لأنه سلك معهم سلوكا طيبا. على أن سليمان استغل العناصر المسيحية لصالحه، ويتضح ذلك فى أن ستيفن بن لازار (١٣٨٩ ـ ١٤٢٧) ملك صربيا، قد نافسه

---

(1) Ibid., p.37.

(2) Ibid., p. 37.

(3) Barker, Manuel II Palaologus, PP. 247-248.

(4) Nicol, op. cit., pp. 73-74.

الأمير جورج برانكوفتش، الذى أخذ يمد نفوذه في جنوب صربيا. وكان سليمان سعيداً لأن يرى الأميرين الصربيين يقاتل أحدهما الآخر، واستغل الموقف لزيادة نفوذه على حسابهما، فى الوقت الذى كان سليمان يتطلع لإعادة ممتلكات أبيه فى الأناضول، وإعادة الإمبراطورية العثمانية إلى ما كانت عليه، بعد أن ينجح فى الإطاحة بإخوته(١).

وكما رأينا، فقد تنازل سليمان عن عدد من المناطق، بما فى ذلك سالونيكا، ومساحات كبيرة من جنوب مقدونيا، والمورة، وجزء من تراقيا الساحلية، والمدن القريبة من القسطنطينية بحذاء بحرمرمرة والبحر الأسود، كما رفع الجزية عن بيزنطة. ولاشك أن تلك التنازلات كانت ثمنا غاليا دفعه من أجل الحصول على مساعدة المسيحيين ضد إخوته. كما عقد سليمان اتفاقيات مشابهة مع ستيفن ملك الصرب، ومع الجمهوريات الإيطالية فى ٣ يونيو ١٤٠٣، فقد تنازل لهم عن امتيازات تجارية فى مقابل مساعدته. ونتيجة لذلك، قبل الأبناء محمد وموسى وعيسى - إخوة سليمان - سيادة تيمور لنك، ووعدوه بدفع الجزية، وتقديم المساعدة الحربية ضد أخيهم سليمان الذين أطلقوا عليه إسم «عميل الأعداء» Agent of infindels فى أدرنة(٢).

ومنذ بداية الصراع بين أبناء بايزيد حول الوصول إلى عرش الدولة العثمانية ظهرت طموحات محمد واضحة، ففى الأناضول أحرز مركزاً هاما، واستولى على الهضبة الوسطى من التركمان، ودخل فى حروب مع أخيه عيسى، انتصر فيها محمد انتصاراً ساحقا، وأضاف بروسة وبالكسير إلى دولته التى أخذت تتوسع سريعا، ثم اجتاز صاروخان، وأعلن محمد نفسه سلطاناً بتأييد الزعماء الدينيين المحليين، وبدأ فى سك عملته بإسمه، وأعلن خضوعه لتيمور لنك. أما أخوه عيسى فقد هرب من بروسة إلى القسطنطينية، وهناك رحب به يوحنا السابع، ثم غادرها إلى أخيه بحثا عن الأمان. وقد حاول عيسى أن يسترجع نفوذه فى الأناضول، ولكن محمداً هزمه مرة أخرى، فهرب عيسى إلى الشرق، ولم نعد نسمع عنه شيئا. وبذلك حكم محمد الأجزاء الأناضولية من الدولة العثمانية مع وجود أخيه

(1) Ibid., p. 75.

(2) Shaw, Hist. of the Ottoman Empire, pp. 37-38.

موسى تحت جناحه، على حين حكم سليمان الأجزاء الأوربية من الدولة. حدث ذلك فى سنة ١٤٠٥، وبات واضحاً أن هذا التقسيم من الممكن أن يستمر طويلاً[١].

وعلى أية حال، كان سليمان ـ الإبن الأكبر ـ يمتلأ رغبة عارمة فى الأنفراد بحكم الإمبراطورية العثمانية. ولهذا قاد جيشه إلى الأناضول ضد أخيه محمد، فاستولى على أنقرة، وأصبح أقرب ما يكون إلى إحراز النصر ضد أخيه. وعلاوة على ذلك تحالف زعماء التركمان فى ربيع عام ١٤٠٦ خشية أن ينتصر سليمان ويقضى على استقلالهم، غير أن هذا التحالف لم يلبث أن انفض لعجزهم عن القضاء على طموحاتهم الشخصية ومصالحهم الخاصة، وأصبح سليمان فى وضع يمكنه من إلحاق الهزيمة بمنافسيه فى وقت واحد[٢].

وفى عام ١٤٠٦ حاول محمد أن يستولى على بروسة لمفاجئة أخيه سليمان من الخلف، بيد أنه لقى هزيمة فى ينى شهر، أجبرته على العودة إلى أماسيا. وفى عام ١٤٠٩ وضع محمد خطة جديدة، فقد أرسل أخوه موسى إلى أوربا فى محاولة للسيطرة على ممتلكات سليمان أثناء غيابه. ومن أجل ذلك أراد محمد الحصول على مساندة مركيا حاكم والاشيا، وستيفن لازاريفتش ملك صربيا الذى خشى أن يصبح سليمان فى وضع بالغ القوة يهدد استقلاله. وفى والاشيا تزوج موسى من ابنة أميرها، ثم جهز جيشا من الترك والوالاشيين والصرب والبلغار، وتحرك به ناحية أدرنة، الأمر الذى جعل سليمان يعود مسرعاً إلى أوربا لإنقاذ ممتلكاته، تاركا الفرصة لمحمد لإعادة الاستيلاء على بقية غرب الأناضول. وهنا حدث ما لم يكن فى الحسبان، فقد خاف قادة «الغزاة» من سليمان الذى سوف يعوق تقدمهم فى أوربا، والتقوا به خلال سيره إلى القسطنطينية وخاضوا معه معركة بالقرب من صوفيا إنتهت بهزيمته وقتله فى ١٧ فبراير عام ١٤١١[٣]. وبذلك أصبح موسى سيد أوربا دون منازع.

(1) Ibid., p. 38, Barker, Manuel II Palaeologus, pp. 248-249.

(2) Shaw, op. Cit., p.38.

(3) Ostrogorsky, op. cit., pp 558-558, Doukas, Decline and Fall of Byzantium, pp. 106-107, Shaw, op. cit., p. 38.

وإذا كانت إمبراطورية سليمان قد أصبحت في أيدى أخيه موسى، الذى عرف بنشاطه ومقدرته، فوجه الأهمية هنا أن موسى ألقى بتحالفه مع أخيه محمد عرض الحائط، ورفض الاعتراف بتبعيته، وأعلن نفسه سلطانا، وسك العملة بإسمه. ولكى يرضى موسى قادة الغزاة (الحدود) الذين وقفوا إلى جانبه، عاقب صربيا وبيزنطة لمساندتهم سليمان، وقد أدان موسى أخاه سليمان على تسليمه الأراضى التى كانت فى حوزة المسلمين من قبل، وتحرك لإعادتها باسم الإسلام، فاستولى على مساحات ضخمة من جنوب صربيا، بما فى ذلك مركز نوڤو بردو Novo Brdo المشهور بتعدين الفضة، فضلا عن قلاع براڤادى وكوبرو Kopru، وفى نفس الوقت غزا أتباعه أجزاء من مقدونيا. وعندما رفض الإمبراطور البيزنطى مانويل الثانى تسليم الأراضى، إنقلب عليه موسى وأجبره على دفع الجزية، ثم بدأ حصاره للقسطنطينية، وهو الحصار الخامس الذى قام به العثمانيون (١٤١١ ـ ١٤١٢)، واستطاع موسى أن يستعيد كل الأراضى التى سلمها سليمان للبيزنطيين، فيما عدا سالونيكا[١].

أدرك مانويل الثانى ما عليه موسى من قسوة وكراهية للمسيحيين، فبعث برسالة إلى محمد الذى كان آنذاك فى بروسة، يدعوه أن يأتى إلى سكوتارى، ووعد بنقله فى سفنه إلى القسطنطينية، وذلك لقتال موسى. فاستمع محمد للإمبراطور وقاد جيشه إلى سكوتارى، ثم توجه إلى العاصمة. ودخل محمد مع موسى فى معركة، ولكنه منى بهزيمة اضطرته إلى الفرار على سفن بيزنطية. وعاد إلى الأناضول، وأخذ يتآمر ضد موسى، بأن وعد صربيا وبيزنطة بإعادة الأقاليم التى انتزعت منهما. وكان أن نزل محمد على ساحل البحر الأسود شمالى القسنطيطينية، وتقدم تجاه أدرنه، وسحق جيشا بقيادة موسى فى ڤيزا Viza، فهرب موسى، ولكنه لم يلبث أن وقع أسيراً، وجرى قتله فى ساماكوف جنوب شرق صوفيا فى ١٠ يوليو عام ١٤١٣م[٢].

وهكذا انتهى الانشقاق الكبير فى البيت العثمانى، واستطاع محمد أصغر أبناء بايزيد أن يتغلب على إخوته الواحد بعد الآخر، ويصبح السلطان الوحيد للدولة العثمانية، واشتهر فى التاريخ باسم السلطان محمد جلبى الغازى. ولاشك أنه بفضل كبار الشخصيات التركية

---

(1) Shaw, op. cit., pp 38-39.

(2) Shaw, op. cit., p. 39, Doukas, op. cit., pp. 109-110.

والعناصر البيزنطية فى المجتمع العثمانى، وجيرانه المباشرين، استطاع محمد أن يوحد ممتلكات أبيه[1].

وينبغى ألا نبالغ فى تقدير أهمية فترة الركود التى شهدتها الدولة العثمانية بين سنتى ١٤٠٢ و١٤١٣. فمن حيث حروب تيمور نلاحظ أنها انحصرت فى الأملاك العثمانية فى آسيا الصغرى، حقيقة أنها أرجعت الإمارات التركمانية مرة أخرى إلى الوجود، ولكن يجب ألا نغفل أن الحكم العثمانى فى هذه المناطق لم يكن مستقراً، ولم يكن السلاطين العثمانيون قد صبغوا هذه المناطق بالصبغة العثمانية، ثم يجب ألا ننسى أنها لم تكن فى ذلك تكون جزءاً هاما من الدولة العثمانية، بل بقى قلب الدولة العثمانية سليما لم تمتد إليه يد التلف أو الثورة سواء من ناحية تيمور أو العناصر المسيحية فى البلقان. الأمر الوحيد الذى تركته هذه النكسة هو تأجيل الفتوحات العثمانية عامة وسقوط القسطنطينية بالذات لفترة من الزمان[2]. ومن حسن حظ العثمانيين أن زاد عدد الأتراك الهاربين أمام جيوش المغول، فامتلأت بهم آسيا الصغرى وأملاك الدولة العثمانية فى أوربا، فازدادت قوة الدولة العثمانية من الناحية الحربية.

عندما صار محمد الأول سلطانا غيرمنازع للدولة العثمانية فى عام ١٤١٣ كان مانويل الثانى مازال يحكم فى القسطنطينية، كما كان الأمير مركيا يحكم والاشيا، وستيفن لازاريفتش يحكم الصرب. أما البوسنة فكانت ما تزال مستقلة، والبانيا فى طريقها لأن تكون دولة موحدة، على حين إن المجر التى لم تكن بينها وبين العثمانيين حدود مشتركة، بل كانت دولة قوية يحكمها سيجسموند ولها طموحات فى البلقان. أما البندقية فكانت تمتلك أراضى حول شواطىء شبه جزيرة البلقان. وعلى هذا كان تحديد سيد البلقان من بين تلك القوى. أمر فى غاية الأهمية ولابد من تقريره فى النهاية[3].

---

(1) Shaw, op. cit, p. 39.

(٢) محمد أنيس: المرجع السابق، ص ٥٤.

(٣) بيتر شوجر: أوربا العثمانية، ١٣٥٤ ـ ١٨٠٤، ترجمة د. عاصم الدسوقى (القاهرة ١٩٩٨)، ص٤٣.

السلطان محمد الأول (١٤١٣ ـ ١٤٢١):

بعد أن صار محمد سلطانا وحيدا على العثمانيين، اتبع سياسة سلمية مع جيرانه، حتى تسترجع دولته قوتها. فعقد اتفاقية سلام مع الإمبراطور البيزنطى مانويل الثانى، أعاد إليه بموجبها جميع الأقاليم البيزنطية الواقعة حول القسطنطينية وسالونيكا، التى أخذها أخوه موسى من الإمبراطورية، وقد فعل محمد ذلك على الرغم من معارضة زعماء التركمان وغيرهم. كما عقد محمد معاهدات سلام مع الحكومات البلقانية المسيحية، والبندقية وجنوه، حتى لايظهر بمظهر الذى يريد أن يفرض سيطرته مثلما فعل أسلافه[١]، وإن كان فى الحقيقة كان يعمل على كسب الوقت لإعاة النفوذ العثمانى إلى ما كان عليه. ومما يدل على ذلك، أن محمداً حرص على إبعاد التأثيرات البيزنطية والمسيحية فى بلاطه، التى جعلت أبيه بايزيد يتخلى عن دور «الغزاة»، فقام بطرد النساء البيزنطيات والمستشارين البيزنطيين من القصر[٢].

ولكى يقوى محمد مركزه فى الأناضول، قام بسلسلة سريعة من الحملات العسكرية فى بداية حكمه. ففى سنة ١٤١٤ أجبر إمارة منتشا على الاعتراف بسيادته، واستعاد أزمير بمساعدة ضئيلة قدمتها الأساطيل الجنوية الراسية فى مياه الجزر الإيجية. وأتبع ذلك بحملتين سريعتين ضد إمارة قرمان فى سنتى ١٤١٤ و١٤١٥، وأوقع الهزيمة بأميرها، وبذلك استعاد المناطق التى أخذت من أبيه بايزيد قبل عام ١٤٠٢م[٣].

وبعد ذلك انشغل محمد بوضع حد لمشاكله فى أوربا. فقد انتهز زعماء الألبان فرصة شغور العرش العثمانى. وما ترتب عليه من نشوب الصراع بين أبناء بايزيد، وأقاموا مذبحة فى الحاميات العثمانية التى تركت فى ألبانيا. واستطاع محمد أن يستعيد نفوذه وذلك بالإستيلاء على كرويا (قره حصار) فى الجبال الوسطى، وڤالونا على الساحل. كما أخضع محمد لطاعته أمير والاشيا مركيا (١٣٨٦ ـ ١٤١٨)، الذى وقف إلى جانب أخيه موسى خلال الصراع الدائر بينهما حول التسابق إلى العرش العثمانى. ثم قام محمد بسلسلة من

---

(1) Shaw, Hist of the Ottoman Empire, Vol. I., p. 41.

(2) Ibid.,p. 41.

(3) Ibid.,p. 41.

الغزوات فى ترانسلڤانيا والمجر، حيث كان ملك المجر سيجسموند (١٣٨٦ ـ ١٤٣٧) يغذى أطماعه فى المنطقة، وأتم محمد غزو دوبرچا. وأدت الغارات المنظمة التى قام بها محمد فى البوسنة إلى أن الملك البوسنوى ڤرتكو الثانى (١٤٢٠ ـ ١٤٤٣) وكثيرا من النبلاء الإقطاعيين قد اعترفوا بطاعة العثمانيين[1]. وأصبح واضحا منذ ذلك الوقت فصاعداً أن الإمبرطورية العثمانية سيكون لها نفوذ على شئون البوسنة ينافس نفوذ المجر، الأمر الذى اضطر الحكام والنبلاء البوسنيين إلى التعاون مع الأتراك العثمانيين، وهو أمر أثار حفيظة بعض المؤرخين المعاصرين، ولاسيما الصربيون منهم، ولكن طريقة هؤلاء الحكام آنذاك لم تكن تختلف كثيراً عن تصرفات أمثالهم الذين التمسوا المعونة فى الماضى من المجر، ولكن الفارق الرئيسى بين الاستعانة بالمجر والأتراك فى ظنهم أن الأتراك قوة أبعد ووجودهم مرهون بلحظة معينة، ولايرجح أن يفرضوا أى لون من ألوان الحكم المباشر عليهم كما سيفعل المجريون[2].

وأخيراً خاض محمد حرباً بحرية مع البندقية وقراصنتها المتمركزين فى الجزر الإيجية، الذين استمروا فى أسر السفن التركية، ونهب السواحل التركية. وعلى الرغم من أنه كان قد بدأ فى بناء أسطول، إلا أن الأسطول البندقى أوقع هزيمة فادحة بالأسطول التركى بالقرب من غاليبولى فى ٢٩ مايوم عام ١٤١٦م. وفى النهاية عقد السلام بين البندقية والدولة العثمانية، وقد توسط فى هذا السلام الإمبراطور البيزنطى مانويل الثانى، الذى استطاع التأثير فى البندقية لتكبح جماع قراصنتها، مقابل حصولها على امتيازات إضافية فى أنحاء الإمبراطورية العثمانية[3].

ويرجع الفضل إلى السلطان العثمانى محمد الأول فى أنه قضى على الحركات الداخلية التى هددت كيان الدولة العثمانية، ولاسيما حركة الشيخ بدر الدين. وقد ولد هذا الشيخ فى قلعة سيماونه إحدى قرى أدرنة زمن السلطان مراد الأول. وحفظ القرآن الكريم، وتعلم الصرف والنحو، ثم ارتحل إلى مصر، وتتلمذ على يده السلطان فرج بن السلطان برقوق[4].

---

(1) Ibid., p. 42.

(٢) مالكولم: البوسنة، ص ٥٣.

(3) Ibid., p. 42., Creasy, Turkey, pp. 56-57.

(٤) محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربى، ص ٥٤ ـ ٥٥، يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، جـ١ ، ص ١١٨ ، محمد حرب: العثمانيون فى التاريخ والحضارة، ص ١٣٣ ـ ١٣٥.

ذهب الشيخ بدر الدين إلى تبريز للإرشاد الصوفى، وفى أزنيق بدأ يدعو إلى مذهبه، فنادى به على النحو الآتى:

- وحدة الوجود.

- الوجود المطلق هو الله الإله الخالق باعتبار الفعل والتأثير، والعبد المخلوق باعتبار التأثر والانفعال.

- الدعوة إلى الزهد المطلق، وذلك بأن يتجرد الفرد من فخار الثياب، ويكتفى بقطعة من الملابس واحدة تستره، وأن يسير عارى الرأس، وله أن يتخلص من شعره تماما ويسيرحافى القدمين[١].

وجعل الشيخ بدر الدين ترك الدنيا وعدم الاشتغال بأمورها من أهم مانادى به، ويعبر عن ذلك بالعبارات الآتية:

- ترك الاشتغال بالدنيا من أعظم أصول الوصول إلى الحق.

- إنكار الجنة والنار ويوم القيامة والملائكة والشياطين.

- عيسى مات جسداً، أما روحه هى الحية.

- إنكار حق التملك، والقول بشيوعية المال والملك.

- قصر الشهادة على نصفها الأول، بمعنى أن تقتصر الشهادة على «لا إله إلا الله» وحذف نصفها الثانى «محمد رسول الله» وكان ذلك طمعا فى ضم اليهود والمسيحيين إلى الحركة[٢].

وساعد على نشر أفكار الشيخ بدر الدين مريدان على درجة كبيرة من النشاط، أحدهما يهودى يدعى طورلاق هود كمال، وكان يدعو لفكر الشيخ فى منطقة مغنيسيا، والثانى يدعى بوركلوجه مصطفى ويدعو إلى فكر الثورة بالقرب من أزمير[٣]. وقد كثر أتباع الشيخ بدر الدين، وأخذوا فى نشر مذهبهم بالقوة والتعرض للناس والأموال، فقتلوا الآلاف،

---

(١) محمد حرب: المرجع السابق، ص ١٣٥.

(٢) محمد حرب: المرجع السابق، ص ١٣٥ - ١٣٧، يلماز أوزتونا: المرجع السابق، جـ١ ص ١١٨.

(٣) محمد حرب: المرجع السابق، ص ١٤٠.

واجترأوا على أمير أزمير اسكندر بك وقتلوه. وقبض على الشيخ بدر الدين فى دلى أورمان جنوب دوبروچه، وحاكمه السلطان محاكمة شرعية، وأعدم شنقا على شجرة فى مدينة سيريز[1] فى سنة ١٤٢٠م.

وكان محمد الأول محباً للشعر والأدب والفنون، شأنه فى ذلك شأن كثير من سلاطين الدولة العثمانية الأول. وقد أطلق عليه رعاياه لقب بهلوان (ومعناها البطل). وذلك بسبب نشاطه الدائب وشجاعته. كما أن اعتدال مزاجه وسلوكه وشهامته وحبه للعدالة والحق وسموه باعتباره راعيا فطنا للآداب والفنون، مما خلع عليه لقبا آخر أعلى مقاماهو لقب «جلبى» الذى يذكر ڤون هامر أنه يتضمن نفس المعنى الذى يخلعه الإنجليز على لقب چنتلمان[2] The gentleman أى (السيد المهذب) ويعتبر السلطان محمد أول سلطان عثمانى أرسل الهدية السنوية إلى أمير مكة التى يطلق عليها إسم «الصرة» حتى وقت قريب، وهى عبارة عن قدرمعين من النقود يرسل إلى الأمير لتوزيعه على فقراء مكة والمدينة. وقد ذكر بعض المؤرخين أن السلطان سليم الأول هو أول من أرسل الصرة فى سنة ٩٢٣هـ (١٥١٧) بعد فتح مصر، ولكن اتفق من يوثق بهم من المؤرخين خاصة صولاق زادة، على أن السلطان محمد جلبى هو أول من أرسلها[3]. حقيقة إن بعض الحكام العثمانيين قد فاقوا محمداً شهرة، إلا أن بالإمكان اعتباره من أنبل أولئك الحكام. فقد اعترف المؤرخون الشرقيون واليونانيون بإنسانيته، ومما يدل على إيثاره السلام أنه نقل العاصمة من أدرنة (مدينة الغزاة) إلى بروسة (مدينة الفقهاء)[4].

مراد الثانى (١٤٢١ ـ ١٤٥١):

يعتبر مراد الثانى واحد من أعظم السلاطين العثمانيين، وهو الذى أسس القوة العثمانية فى أوربا وآسيا. وقد سار مراد الثانى على نهج أبيه محمد الأول، فى كونه محبا للعدالة، وراعيا نشيطا للفنون، ومحبا للحياة. وعمل على تطوير مؤسسات الدولة والجيش،

---

(١) يلماز أوزتونا: المرجع السابق، جـ١، ١١٨، Castellan, op. cit., p. 64.

(2) Schevill, op. cit., p. 192.

أحمد عبد الرحيم مصطفى: فى أصول التاريخ العثمانى، ص ٦٢.

(٣) محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ٥٤.

(٤) أحمد عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق، ص ٦٢ ـ ٦٣.

بطريقة جعلت إبنه وخليفته محمد الثانى (الفاتح) قادراً على القيام بفتوحات جديدة لبناء أعظم إمبراطورية فى الشرق والغرب[١].

وقبل أن يبدأ مراد الثانى فى إعادة بناء الإمبراطورية العثمانية، قضى ثلاث سنوات (١٤٢١ ـ ١٤٢٣) محاربا فى سبيل حقه فى الحكم، فقد كان عمره عند اعتلائه العرش سبعة عشر عاما، ولكن وجود إخوته الأربعة الأصغر منه أمد أعداؤه بفرصة ثمينة لإثارة النزاع داخل البيت العثمانى[٢]. ويظهر لنا التاريخ العثمانى عنف العادة العثمانية وقسوتها، التى أصبحت بعد ذلك قانونا واقعا، وهى أن الذى يصل إلى العرش العثمانى يتبغى عليه أن يقتل كل إخوته ليتجنب أخطار الحرب الأهلية، ولسوء الحظ لم يتخل واحد ممن وصلوا إلى العرش عن تلك العادة الذميمة[٣]. وقبل أن يموت السلطان محمد الأول أراد أن يجنب أولاده ذلك المصير التعس، فأرسل الأمير مصطفى إلى إمارة حميد ليحكم الأناضول، وأرسل الأميرين الأصغر يوسف ومحمود للإمبراطور البيزنطى مانويل الثانى ليكونا فى حمايته، وليؤكد بقاءهما أحياء بعد أن يستولى أخاهما على السلطنة[٤].

وكان مراد الثانى يأمل المحافظة على السلام مع مانويل الثانى، ليكسب وقتا يسمح له بإعادة بناء الدولة من الداخل، ولكن مانويل الثانى اغتنم فرصة وفاة السلطان محمد الأول وصغر سن السلطان الجديد، وبعث برسولين هما لاخاناس باليولوجوس وثيولوجوس كوراكس Theologos Korax ـ وهو فى الأصل من آلاشهر (فيلادلفيا) ـ إلى مراد، لتعزيته فى وفاة والده، وفى نفس الوقت لتهنئته بولاية العرش. والحقيقة أن مانويل كان غرضه من تلك السفارة، هو تذكير مراد بوصية والده الأخيرة، التى عهد فيها لمانويل بالعناية بولديه يوسف ومحمود وتنشئتهما وتربيتهما فى قصره. فإذا رغب مراد فى استمرار أواصر المودة والصداقة مع الإمبراطور كما فعل والده من قبل، وجب عليه أن ينفذ وصية أبيه، أما إذا رفض تنفيذ تلك الوصية، فإن مانويل هدده بوضع شخص آخر محله حاكما لمقدونيا وخرسون وكل تراقيا. فرد عليه مراد أنه لاينبغى أن يتلقى أولاد المسلمين العلم على

(1) Shaw, op. cit., p. 44, Schevill, op. cit.,p. 192.

(2) Shaw, op, cit., p. 44.

(3)Barker, op. cit., p. 247.

(4) Shaw, op. cit.,Vol. I, p. 44.

أيدى غير المسلمين، ويأبى السلطان ذلك على نفسه بطبيعة الحال، لأنه أمر يأباه دينه. وأبلغ مراد السفارة أن الإمبراطور يطلب المستحيل[1].

وتعين على السلطان مراد الثانى أن يحمى عرشه من مدع تحالف مع الإمبراطور البيزنطى مانويل الثانى، وزعم أنه مصطفى بن بايزيد ـ عم السلطان ـ وقد أطلق عليه المؤرخون مصطفى المزيف The False Mustafa[2]. ويذكر نيقولافاتان[3] أن مصطفى من والاشيا التى كان موجوداً فيها فى صيف عام ١٤١٥، وجاء إلى مقدونيا عن طريق بلغاريا،وتسميه الروايات العثمانية بدوزمه مصطفى أى «مصطفى المزعوم» (الكاذب). ولم يتمكن المؤرخون من تحديد إذا كان مدعيا أم لا. على أن التأييد الذى حصل عليه مصطفى من مركيا الكبير أمير والاشيا، وجنيد بك الذى أراد استعادة أقاليم أسرته الواقعة حول أزمير، ومانويل الثانى، وعدة أعيان عثمانيين، والانزعاج الذى استبد بمحمد الأول، كل ذلك يشير إلى أن مصطفى كان يتمتع بنفوذ مطالب حقيقى بالعرش، بغض النظر عما إذا كانت دعواه مشروعة أم لا. وعلى أيه حال، اعترف الإمبراطور البيزنطى بمصطفى كوريث شرعى للعرش العثمانى، وإذا نجح فى الوصول إلى العرش، عليه أن يتنازل عن عدد من المدن الهامة للإمبراطور بعد الاستيلاء عليها. فلم تلبث أن وقعت غاليبولى فى أيدى مصطفى المزيف بعد مقاومة ضيلة[4]. واستغلت إمارة قرمان الفرصة، واستولت على إمارة حميد القديمة مرة أخرى، بينما أطاحت إمارات منتشا وآيدين، وصاروخان بروابط تبعيتها للعثمانيين[5].

وأثبت السلطان العثمانى الصغير مراد الثانى أنه يمتلك مقدرة حربية ومهارة سياسية جديرة بأسلافه العظام. إذ اسرع بالتوجه إلى بروسة لتجهيز جيش يمكنه من إعادة نفوذه فى الأناضول. وعندئذ عبر مصطفى المدعى إلى أوربا وزحف على أدرنة، وقد انضم لمساعدته أمراء الحدود وأتباعهم الذين كانوا يأملون آنذاك القيام بفتوحات جديدة فى أوربا، وخشوا

(1) Doukas, Decine and Fall of Byzantium, p. 132.

(2) Ibid.,p.136, Shaw, op. cit., p. 45.

(٣) صعود العثمانيين، جـ١، ص ٨٥.

(4) Creasy, Turkey, p. 57.

(5) Shaw, op. cit., p. 45,Doukas, op. cit., p. 136.

أن يستمر مراد الثاني في السير على سياسة أبيه في التركيز على الفتوحات في الأناضول(١) دون أوربا.

على أن مصطفى المدعى إرتكب نفس الخطأ القاتل الذى كلف بايزيد الأول عرشه، عندما قرر أن يدخل الأناضول لتوحيد الإمبراطورية العثمانية تحت حكمه، وإن كان في الحقيقة أن البيزنطيين هم الذين حرضوه على ذلك، إذ كان يسعدهم جعله بعيداً كلما أمكن، هو وحليفه جنيد بك. ويلاحظ أن النجاح الذى أحرزه مصطفى في أوربا، جعل مراد يحصل على بعض المساعدات من صربيا وأمراء البلقان الآخرين، الذين خافوا من إعادة تأسيس القوة العثمانية تحت زعامة مصطفى. فزحف مصطفى تجاه بروسه، حيث كان مراد يعد جيشه. وعندما تقابل الجيشان في أولوبات Ulubat لقى مصطفى هزيمة ساحقة، وفر إلى أوربا، فتبعه مراد على الفور، وقد حصل على السفن التى احتاجها لعبور رجاله من جنوية فوشا Foca، وخرج مصطفى هاربا من أدرنة ومعه كنوزه وحريمه قاصدا والاشيا، ولكنه وقع أسيراً وقتل في الطريق، وبذلك انتهت ثورته(٢).

وأدرك الإمبراطور مانويل الثانى سوء فعله والخطر الذى يهدده، وأراد أن يقلل من غضب السلطان مراد الثاني، فبعث إليه يهنئه بانتصاره على مصطفى المدعى، ويعتذر له عما بدر منه، ولكن السلطان لم يكترث له. فقد جلب هذا التصرف على عاصمة مانويل الثانى كارثة جديدة، ويظهر ذلك واضحا في أن مراد الثانى قرر فرض الحصار عليها، ومن ثم جمع جيشا ضخما بلغ حوالي عشرين ألف مقاتل، وجهز الاستعدادات اللازمة لشن هجوم على القسطنطينية. وكان الإمبراطور مانويل الثانى قد صار عجوزا طاعنا في سن السابعة والسبعين، وقد عهد منذ زمن طويل بمهام الإمبراطورية لابنه يوحنا الذى كان يخدم في المورة مع أخيه، وعندما علم مانويل أن مراد يستعد للزحف ضده في أبريل سنة ١٤٢٢ أرسل مبعوثه ثيولوجوس كوراكس إلى مراد لمعرفته التامة باللغة التركية(٣).

---

(1) Shaw, op. cit., p. 45.

(2) Shaw, op. cit., p. 45.

(3) Doukas, Decline and Fall of Byzantium, pp. 160-161, Pears, The Destruction of the Greek Empire, p. 155.

وعلى أية حال، فرض السلطان مراد الثانى الحصار السادس على القسطنطينية فى ٨ يونيو سنة ١٤٢٢ ، وكادت أن تقع فى يده، لولا المقاومة العنيدة التى أبداها سكان المدينة، فقد صدوا المحاصرين، وشجعوا ثورة جديدة فى الأناضول قامت بها إمارتا قرمان وكرميان، إذ أغرى البيزنطيون أخ صغير لمراد يدعى أيضا مصطفى الذى بقى حاكما لإمارة حميد، على الخروج على أخيه ليخفف وطأة الحصار على القسطنطينية. وقد شكل الأطراف الثلاثة ـ قرمان وكرميان وحميد ـ جيشا متحالفا، استطاع الاستيلاء على نيقية، وفرض الحصار على بروسة فى أغسطس عام ١٤٢٢ ، وبذلك هدد نفوذ مراد مرة أخرى. وعندئذ فك مراد الحصار الذى طال شهرين عن القسطنطينية، وتحرك عائداً إلى الشرق، وهناك وجد عدداً ضخماً من القادة التركمان قد انضموا إلى أخيه مصطفى[١]. ودارت معركة بين مراد وأخيه، انتصر فيها مراد، وفر مصطفى، فطارده رجال مراد، وقبضوا عليه بالقرب من شواطىء الدانوب، وهو فى طريقه إلى القسطنطينية بحثا عن النجاة، وأحضره المطاردون إلى مراد، فقرر أن يعدمه شنقا فى ميدان عام كمجرم عادى أمام الناس[٢]، فى ٢٠ فبراير عام ١٤٢٣ ، واستعاد السلطان أتباعه الذين وقفوا إلى جانب أخيه مصطفى لطاعته، كما ضم إليه أتباع أخيه.

حاول محمد الثانى أميرقرمان الاستيلاء على المرفأ العثمانى أنطاليا، ولكنه مات خلال الحصار بقذيفة مدفعية أطلقت من القلعة، وكان لذلك وقع طيب على مراد، فقد انزاح تهديد آخر من أمامه. وقد استغل مراد المنافسين للعائلة الحاكمة لإمارة قرمان لصالحه، فوضع على العرش محمد بك (١٤٢٣ ـ ١٤٢٦)، وقبلت قرمان سيادة السلطان العثمانى، كما رجعت إمارة حميد مرة أخرى إلى العثمانيين. وأنهى مراد حملته فى الأناضول، وذلك بضم الإمارات التركمانية الغربية آيدين ومنتشا وتكه وجزء عظيم من إمارة قسطمونى[٣].

وفى أوربا عقد الإمبراطور البيزنطى مانويل الثانى اتفاقية سلام دائم مع مراد فى سنة ١٤٢٤ ، وافق الإمبراطور بمقتضاه على تسليم السلطان المدن الواقعة على البحر الأسود،

(1) Shaw, op. cit., Vol. I, p 45, Hearsey, City of Constantine, p. 232.

(2) Doukas, op. cit., p. 160.

(3) Shaw, op cit.,p. 46.

باستثناء القلاع الحصينة مثل مسمبريا ودركوا Derkoi، كما تعهد الإمبراطور بدفع جزية سنوية مقدارها ثلاثمائة ألف قطعة من الفضة(1)، وقبلت صربيا ووالاشيا والمجر السيادة العثمانية، ووافقت على دفع جزية في سنة ١٢١٤(2). وبذلك عادت بيزنطة مرة أخرى إلى وضع دولة تابعة للعثمانيين، وهى التبعية التى تخلصت منها لفترة بعد معركة أنقرة، ولم تتخلص بيزنطة أبداً من تلك التبعية، حيث بقيت على هذا الوضع حتى النهاية(3).

الحرب الأولى بين العثمانيين والبنادقة واشتراك صربيا ووالاشيا والمجر فيها:

وحتى ذلك الوقت كانت الصداقة قائمة بين العثمانيين والبنادقة، فقد أرادت البندقية أن تحمى مصالحها التجارية فى الأراضى العثمانية ومنطقة البحر الأسود، وذلك بالحفاظ على علاقات طيبة مع السلطان، خاصة منذ أخذ منافسوها الجنوية يبحثون عن عقد أواصر الصداقة مع السلطان لإبعاد البندقية. وقد سبق للبندقية أن وقعت اتفاقية تجارية مع السلطان بايزيد فى عام ١٣٨٨، كما أنها لم تشترك مع القوى الأوربية فى الحملة الصليبية التى قامت بها فى كوسوفا. بيد أن التوسع العثمانى فى مقدونيا تجاه البحر الأدرياتى، وفى اليونان تجاه البحر الإيجى، جعل البندقية تشعر بالقلق، وتخشى المنافسة فى مساحة كانت تحت سيطرة نفوذها لبعض الوقت. وقد رأى العثمانيون أنه طالما تسيطر البندقية على الممرات المؤدية للبحر الإيجى، فإن باستطاعتها دوماً تهديد المواصلات بين الأناضول وروميللى (أملاك الدولة العثمانية فى البلقان)، وتقف حجر عثرة فى التوحيد الكامل لشطرى الإمبراطورية الرئيسيين(4).

وقد أرادت البندقية القضاء على النفوذ العثمانى فى مقدونيا، وذلك بوضع أمير عثمانى آخر فى العرش، إدعى حقه فيه إسمه مصطفى، وهو المعروف عند المؤرخين باسم مصطفى المدعى، وأرسلت السفن لمساعدته فى الاستيلاء على كساندرا Kassandra وكفالا Kavalla، وهيأت له الحصول على مساندة هامة من التركمان الموجودين فى

---

(1) Doukas, op. cit., p. 169.

(2) Shaw, op. cit., pp 46-47, Lodge, op. cit., p. 506.

(3)Ostogorsky, Hist of the Byzantine State, p. 529.

(4) Shaw, Hist of the Ottoman Empire, Vol. I, p. 47.

المنطقة سنة ١٤٢٥. وهنا نلاحظ أن الحرب الأولى بين العثمانيين والبندقية قامت على فترات طال أمدها حتى سنة ١٤٣٠. ومن الأسباب الرئيسية التى أدت إلى طول تلك الحرب، اختلاف المواقف الاستراتيجية عند الفريقين، والبندقية المعروفة بقوتها البحرية، استطاعت الحفاظ على قواعدها الساحلية بقوات برية صغيرة نسبيا. أما العثمانيون الذين كانت قواتهم الفعالة فى البر، فقد بدأوا فى إنشاء أسطولهم حديثا، ولذلك لم تتوفر لديهم وسيلة لمنافسة قوة البندقية ومقدرتها فى استخدام قواعدها[1]. على أن البندقية قد أنهكت قواها فى حرب ضد أعدائها فى إيطاليا، وهى الحرب التى قادتها ميلان، ولهذا لم يكن بوسع البندقية سوى استخدام جزء صغير من أسطولها ضد العثمانيين. وقد حصلت البندقية على مساندة المجر والصرب ووالاشيا فى البر، حيث صاروا الأداة الفعالة فى نزاعها مع جيوش السلطان العثمانى[2].

والحقيقة أن غزو الأتراك العثمانيين لصربيا حتى نهر الدانوب، وبلغاريا جنوبى الجبال البلقانية، جعلتهم يدخلون فى صدام مباشر مع المجر. أما والاشيا فقد صارت إمارة قوية ومتحدة فى عهد مركيا الكبير (١٣٨٦ ـ ١٤١٨)، ولكن النزاع الذى نشب بعد وفاته من أجل الوصول إلى العرش أضعف قدرتها على القتال إلى حد كبير، وأوهن مقاومتها، فى الوقت الذى استغل كل من المجريين والعثمايين هذا الوضع لصالحهم الخاص. أما صربيا فقد سمح ملكها ستيفن بن لازار للعثمانيين بعبور أراضيه فى طريقهم لغزو البوسنة فى عام ١٤٢٦. وبعد وفاة ستيفن فى ١٩ يوليو عام ١٤٢٧، دخلت صربيا فى منازعات أسرية لمدة نصف قرن تشبه تماما الموقف فى والاشيا. وعندما أصبح جورج برانكوفتش (١٤٢٧ ـ ١٤٥٦) ـ إبن أخت ستيفن ـ ملكا على صربيا، وقد أخذ على عاتقه منذ البداية التخلص من التبعية التى خضع لها أسلافه منذ معركة كوسوفا، إعترف بسيادة سيجسموند ملك المجر فى مقابل الخدمات التى أداها له. وتنازل برانكوفتش عن قلعة بلغراد الدانوبية المنيعة للمجر فى مقابل الحصول على مساعدتها، وبذلك جعل منها القاعدة الرئيسية لمقاومة العثمانيين. ولكن السلطان مراد الثانى رد على ذلك بدعوى أن صربيا تابعة له نتيجة لزواج السلطان بايزيد من أوليفيرا Olivera أخت ستيفن. ولكى يقوى مراد دعواه غزا صربيا مرة

(1) Ibid., pp.47-48.

(2) Ibid., p. 48.

أخرى فى عام ١٤٢٨، واستولى على عاصمتها كروشيفاتش (ألاجه حصار) الواقعة فى وسط بلاد الصرب، وأجبر برانكوفتش على استئناف روابط التبعية القديمة للدولة العثمانية، كما تزوج مراد الثانى من مارا إبنة جورج برانكوفتش لدعم النفوذ العثمانى(١). وتوثيق عرى التحالف بين الدلتين. ويرى البعض أن برانكوفتش قد برهن على أنه دبلوماسى داهية وسياسى حقيقى، فلكى يهدىء من ثائرة مراد الثانى الذى طلب منه تسليم صربيا، زوجه من ابنته مارا، وأعطاه بعض الأقاليم الصربية دوطة لها، كما تعهد برانكوفتش بدفع جزية سنوية، وتقديم مساعدة حربية، وقطع علاقته مع المجر. وبذلك استبقى جورج برانكوفتش عرشه المتزعزع واحتفظ به(٢).

وعلى أية حال، جهز سيجسموند ملك المجر جيشا متحالفا من المجر ووالاشيا وإمارة قرمان ضد العثمانيين فى الأناضول وأوربا فى وقت واحد. وتحالفت البندقية مع اللاتين فى قبرص لمساعدة قرمان، وحثت الأمراء التركمان الباقين فى الأناضول وحاكم إيران التيمورى شاه رخ ضد العثمانيين. وعندما علم السلطان مراد الثانى بذلك عاد إلى أوربا، وبنى أسطولا جديدا(٣). وتقدم الأتراك العثمانيون مندفعين بأعداد كبيرة كالنحل إلى سالونيكا، وعندما اقتربوا من المدينة نشروا خيمهم وأحاطوا بها. وفى اليوم الرابع ٢٩ مارس عام ١٤٣٠ تقدم الجيش العثمانى نحو سور المدينة، يحملون السلالم والألواح الخشبية السميكة، وأدوات الحصار والدروع، وتغلب الأتراك على القلة المدافعة عن المدينة، وقتل وجرح العديد، ودخل الأتراك المدينة باندفاع شديد، وامتلأت المدينة بهم، ونهبوا كل شىء صادفهم(٤). وبعد أن استقر العثمانيون فى المدينة أعاد مراد المسيحيين إليها، ورجعوا إلى كنائسهم وأديرتهم، واستعادوا كل ممتلكاتهم(٥). وفى ٤ سبتمبر من نفس العام، أجبرت

---

(1) Ibid., p. 78, Lodge, op. cit., p. 130.

(2) Spinka, A Hist of Christianty in the Balkans,p. 153.

(3) Shaw, op. cit., p. 48.

(4) Vryonis (Speros), "The Ottoman Conquest of Thessaloniki in 1430", in Continuity and Charge in late byzantine and Early Ottoman Society. ed. by Bryer (Anthony) and lowry (Heath) (U.S.A, 1986), pp. 290-293, Nicol, op. cit., p. 78, Schevill, op. cit., p. 130.

(5) Vryonis, op. cit., p. 302.

البندقية على قبول صلح لابسكى Peace of lapseki، إعترفت بموجبه بسيطرة العثمانيين على مقدونيا ودفع جزية سنوية، فى مقابل سيطرة البندقية على ليبانتو والقواعد الأدرياتية الأخرى، بالإضافة إلى استعادة البنادقة لحقوقهم فى الإبحار خلال المضايق فى البحر الأسود[1]. ويذكر هايد[2]. أنه حين انعقد الصلح، شعرت البندقية بسعادة بالغة، إذ حصلت من العثمانيين على وعد بأن يترك سائر ممتلكاتها فى أمن وسلام، وأن يمنح التجار فى الإمبراطورية العثمانية حرية التنقل ومزاولة التجارة.

والواقع أن العثمانيين ظلوا متفوقين فى البلقان، يمارسون حكما مباشراً فى أجزاء ألبانيا وإبيروس، وأخذوا الجزية والمساعدات الحربية من حكام صربيا والبوسنة ووالاشيا وراجوزا والبندقية وبلغاريا، فضلا عن المورة وأرتا[3]. ومع ذلك فقد أقلق جورج برانكوفتش ملك صربيا بال السلطان مراد. ففى عهد الملك المجرى سيجسموند إستعاد برانكوفتش استقلال صربيا، وبنى قلعة جديدة فى سمندريا Semendria (ومعناها القديس أندريا على نهر الدانوب بالقرب من بلغراد) وهى سميدروف الحالية، واتخذها عاصمة له بدلا من كروشيفاتس (ألاجه حصار)، كما تنازل عن بلغراد للمجريين رغبة فى تأمين مساعدتهم له ضد السلطان، ولكنه قبل أن يحصل على أية مساعدة، استولى عليها السلطان فى سنة ١٤٣٩، وبذلك استولى السلطان على كل صربيا تقريبا، وأصبحت ولاية تركية، وهرب جورج برانكوفتش، ولجأ إلى أماكن مختلفة، وانتهى به المطاف أخيراً فى دبروفنيك Du-brovnik[4]. وعندما استمر الأمير الوالاشى فى قبول التبعية للعثمانيين، دبر سيجسموند استبداله بحاكم قوى يدعى ڤلاد داركول الأول (١٤٣٢ ـ ١٤٤٦) Vlad Drokul I، الذى أطاح بطاعة السلطان مرادوارتبط مع برانكوفتش وملك البوسنة تفراتو الثانى فى تحالف فى سنة ١٤٣٤م[5].

---

(1) Shaw, op. cit., p 48.

(٢) تاريخ التجارة، جـ٣، ص ١٣٩.

(3) Shaw, op. cit., p.49, Diehl, Byzantium, Greatness and Decline, p. 223.

رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية،جـ٣، ص ٧٧٥ ـ ٧٧٦.

(4) Spinka, op. cit., p. 153.

(5) Shaw, op. cit., p. 49, Lodge, The Close of the Middle Ages, p. 506.

وفى تلك الأثناء، كان اهتمام مراد الرئيسى منصبا على احتمال قيام مجهود صليبى أوربى جديد. فقد حاول الإمبراطور البيزنطى يوحنا الثامن باليولوجوس (١٤٢٥ ـ ١٤٤٨) القيام بمفاوضات لتوحيد كنيستى القسطنطينية وروما، ليضمن الحصول على مساعدة الغرب الأوربى لمقاومة الخطر العثمانى، على الرغم من أن شعب القسطنطينية وزعمائها الدينيين رجال الكنيسة الأرثوذكسية قابلوا تلك المحاولة بشعور معارض وتمسكوا بمذهبهم. وبالرغم من الوعود التى بذلها الغرب لمساعدة البيزنطيين فى وقوفهم ضد الأتراك العثمانيين، فإن المعارضة البيزنطية كانت تعتقد تماما أن الغرب الأوربى كان يضع كل أمله فى القضاء على القسطنطينية ومحو العنصر البيزنطى من الوجود(١).

وعلى أية حال، فقد غادر الإمبراطور البيزنطى يوحنا الثامن عاصمته وتوجه إلى الغرب الأوربى مثلما فعل والده منذ حوالى أربعين عاما، وجده منذ حوالى سبعين سنة. وذهب معه أخوه ديمتريوس، والبطريرك جوزيف، وعدد من الأساقفة والرهبان. ووصل الإمبراطور إلى فيرارا فى أوائل سنة ١٤٣٨، حيث دارت مناقشات عنيفة، ثم توجه إلى روما، ودخل الكنيسة الرومانية المقدسة، وفى ٦ يوليو سنة ١٤٣٩ أعلن اتحاد الكنيستين باللغة اليونانية واللغة اللاتينية، وأقيمت صلاة عامة للشكر رأسها البابا إيوجين الرابع، غير أن المعارضة الشديدة فى القسطنطينية جعلت الاتحاد الدينى أمراً مستحيلا(٢).

كان الإمبراطور البيزنطى يوحنا الثامن باليولوجوس يعانى من مرض النقرس منذ فترة طويلة، وهى حالة زادها الإحباط الشديد والحزن العميق الذى ألم به بعد عودته من إيطاليا، بسبب ما أثارته فكرة توحيد الكنيستين الشرقية والغربية من ناحية، وبسبب وفاة الإمبراطورة من ناحية أخرى، فسقط مريضا، ومات خلال أيام. واستدعى كبار رجال الدولة أخاه قنسطنطينين إلى القسطنطينية. ولم يلبث قنسطنطين أن أرسل سفارة محملة بالهدايا إلى السلطان مراد الثانى لتأكيد السلام بينهما(٣).

---

(1) Doukas, op. cit p. 181, Shaw, op. cit., p. 50,

عمر كمال توفيق: تاريخ الدولة البيزنطية (القاهرة ١٩٦٧)، ص ١٨١.

(2) Ostrogorsky, Hist of the Byzatine State., pp. 562-563.

(3) Doukas, op. cit., p. 186.

غير أن مراد الثانى أمر بشن غارات جديدة فى أوربا لإرضاء البكوات الأتراك وأتباعهم، وما يحصلون عليه من غنائم جديدة. وقد أدى موت الملك المجرى سيجسموند فى ٩ ديسمبر سنة ١٤٣٧ إلى قيام منازعات داخلية حادة فى المجر، استغلها مراد لصالحه، فشن غارة دمرت القلعة الدانوبية فى سيڤرين Severin، وفرض الحصار على سيبيو Sibiu ـ وهى المركز التجارى لترانسلڤانيا ـ فى عام ١٤٣٨، وغزا مراد صربيا، واستولى على القلعة التى بناها برانكوفتش فى سمندريا فى سنة ١٤٣٩، وكان هدفه من وراء ذلك إضعاف التحالف الصربى البلغارى. ومارس مراد نفس الإسلوب فى البوسنة، إذ استغل الفوضى الداخلية التى سادت البوسنة على إثر موت الملك تفرتكو الثانى سنة ١٤٤٣، وأجبر خلفاءه البوسنيين، وحكام الجزء الجنوب المستقل عن البلد وقتئذ ـ وهو الذى يدعى حاليا هرزرجوڤينا Herzegovina ـ على دفع الجزية(١).

وعلى أية حال، قام الملك المجرى الجديد لاديسلاس الثالث بتعيين حاكم لترانسلڤانيا يوحنا هو نيادى (١٤٠٧ ـ ١٤٥٦) John Hunyadi فى سنة ١٤٤١م، وهو شخصية جديدة ظهرت فى أفق أوربا لتكبح جماح التقدم العثمانى لفترة من الزمن حتى أنه أصبح بطلا قوميا، وأطلق عليها بسبب درعه الفضى الذى كان يتلألأ فى المعركة «فارس والاشيا الأبيض» White Knight of Wallachia. وصار هو نيادى مصدر رعب للجيوش التركية لمدة عشرين سنة،ويمكن وصفه بالمجاهد (الغازى) المسيحى Christian ghazi لأنه كرس جهوده لمحاربة الإسلام(٢)، وأحرز شهرة واسعة مكنته من قيادة حملة صليبية جديدة ضد العثمانيين.

الحملة الصليبية على ڤارنا سنة ١٤٤٤م:

دعا مجمع فلورنسة إلى حرب صليبية جديدة ضد العثمانيين، وبعد ذلك تجول جاناكى تورشلو Janaki Torzello فى أنحاء أوربا، حاملا رسالة تتضمن أنه لو استطاع أسطول مسيحى أن يسد المضايق، فإن العثمانيين سوف يعجزون عن إرسال نجدات من

---

(1) Shaw, op. cit., p 50, Halil Inalcik, The Ottoman Empire., p. 20.

(2) Stavrianos, The Balkans since 1453, p.53.

الأناضول. كما أوضح أن عدد الجيش المطلوب الذى يحتاجه لطرد الأتراك من أوربا واستعادة الأراضى المقدسة، لايزيد عن ثمانين ألف رجل(١).

وقد عهد البابا إيوجين الرابع (١٤٣٢ ـ ١٤٤٧) بتنظيم تلك الحملة ودعايتها إلى مندوبه الكاردينال سيزارينى Cesarini، واستغرق الأمر بضع سنوات لتجهيزها، وأصبحت على أهبة الاستعداد حوالى سنة ١٤٤٣ . وكان الوقت مناسبا لقيام تلك الحملة، إذ كان السلطان العثمانى بعيداً فى آسيا الصغرى، فى الوقت الذى كانت هناك علامات يقظة مسيحية: ففى ألبانيا اشتعلت ثورة ضد الأتراك، أشعلها ـ كما قيل ـ زعيم البانى مسلم خرج على السلطان إسمه جورج كاستريوتس George Castriotes وهو معروف عند الأتراك سكاندنبرج أو اسكندر بك(٢). وقد وقع جورج فى قبضة المسلمين وهو صغير كرهينة، ولما بلغ مبلغ الشباب، هرب من الأسر التركى، وتوجه إلى بلاده. وهناك اختارته قبيلته زعيما لها. وقام بأعمال حربية دفعت القوة فى العشائر المجاورة، لدرجة أنه ربما للمرة الأولى فى تاريخهم قد نسوا نزاعاتهم القديمة، وارتبطوا فى مجهود حقيقى للحفاظ على حرية تلالهم. وقد استخدم إسكندر بك فى لقائه بالجيش العثمانى حرب العصابات، الأمر الذى ألحق بمراد هزيمة بعد أخرى(٣).

وفى المورة البيزنطية أيضا ظهر أمل فى الأفق، إذ أعاد قنسطنطين ـ أخو الأمبراطور ـ بناء سور هيكساميليون Hexamilion عبر المضيق ، وكان الأتراك قد دمروه فى سنة ١٤٢٣ ، وأرغم سيد أثينا الإيطالى على دفع الجزية(٤).

وفى تلك الظروف التى تبشر بالأمل، ارتفع شأن يوحنا هونيادى كبطل مجرى وطنى عظيم، بسبب الإنتصارات التى أحرزها ضد العثمانيين فى عام ١٤٤٢ ، ووضع الأوربيون فيه آمالهم، إذ اعتقدوا أنهم وجدوا أخيراً البطل المسيحى الفذ الذى يتزعمهم فى حملة

---

(1) Shaw, op. cit., pVol. I,p. 51.

(2)Nicol, op. cit., p. 82, Ostrogorsky, op. cit., p.565.

(3) Schevill, The Hist of the balkan Penensula, pp. 203-204,

بيتر شوجر: أوربا العثمانية، ١٣٥٤ ـ ١٨٠٤، ص ٨٠؛ انظر س ٢٣٩.

(4) Nicol, op. cit., p. 62, Ostrogorsky, op. cit., p. 565.

صليبية ناجحة[1]. ويبدو ذلك واضحا عندما عاود السلطان مراد الثانى غزو ترانسلفانيا فى عام ١٤٤٢ هزم فى هرمانستد وخسر عشرين ألفا من القتلى. وفى غضب قام بمحاولة ثالثة يائسة للإغارة على المدينة، ولكنه قاسى مثل النتائج السابقة. وأسر هونيادى خمسة آلاف من المحاربين الأتراك، وذهبت أدراج الرياح تلك القصة التى كانت تؤكد أن الأتراك قوة لا يمكن قهرها[2].

وعلى أية حال، سارت الحملة من المجر فى يوليو سنة ١٤٤٣، وقد أتبعت نفس طريق حملة نيقوبوليس، وبلغ عدد جيش الحملة خمسة وعشرين ألف مقاتل بقيادة سيزارينى وجورج برانكوفتش ويوحنا هونيادى بحذاء نهر الدانوب، فى الوقت الذى كان على الأسطول أن يبحر من البحر الأسود لمقابلتهم على الساحل[3]. واستولى هونيادى على نيش ومعظم جنوب صربيا، وحث إسكندر بك والألبان على توسيع مقاومتهم ضد العثمانيين. ثم توجه الصليبيون بعد ذلك إلى الجبال البلقانية فى بلغاريا.، واستولوا على صوفيا على أمل عبور الجبال والوصول إلى الأراضى المنخفضة بحذاء نهر ماريتزا قبل أن ينتهى فصل الشتاء[4].

وإزاء تلك الظروف المتغيرة، أسرع السلطان مراد الثانى عائداً إلى أوربا. وكان جيشه فى روميللى (البلقان) قد تفرق قبل وصوله، وكان بكوات الحدود وكثير من القادة الإقطاعيين، قد استغلوا الهزائم التى لحقت بالسلطنة، وأيدوا وضع محمد الإبن الأصغر لمراد على العرش العثمانى. وهنا نلاحظ أنه كان مع مراد قوات القابوقولى الجديدة من المشاة وقوات الإنشكارية التى رجعت معه من الأناضول. ولذلك قرر مراد إيقاف تقدم الصليبيين بالاستحواذ على أحد الممرات البلقانية كابولو ديربندى (بوابة تراجان Trayan Gate)، إذ كان على العدو أن يخترق هذا الممر حتى يصل إلى الأراضى المنخفضة. وقد أحرز الصليبيون انتصاراً ضد العثمانيين فى بداية هجومهم فى ٢٤ ديسمبر عام ١٤٤٣،

---

(١) عزيز سوريال: العلاقات بين الشرق والغرب، ص ١٠٢.

(٢) المرجع السابق، ص ١٠١ ـ ١٠٢.

(3) Nicol, op. cit., p. 82.

(4) Shaw, op. cit., p. 51.

ولكن اقتراب حلول فصل الشتاء جعل هونيادى يتخلى عن الحملة الصليبية، بعد أن قام بذبح الآلاف من الأسرى المسلمين، ورجع إلى المجر لقضاء فصل الشتاء(١).

والواقع أن وضع العثمانيين صار محرجا، فى حين أحس الصليبيون بإمكانية إحراز النصر، خاصة بعد أن تدفقت آلاف أخرى من الصليبيين على المجر، وحملت الدول المسيحية السلاح من جديد، ووجد مراد نفسه عاجزاً عن حسم الموقف، فأقنعه وزيره الأعظم وزوجته مارا الصربية، بضرورة عقد الصلح. ومن خلال وساطة برانكوفتش ملك الصرب عقدت اتفاقية فى أدرنة فى ١٢ يوليو ١٤٤٤ مدتها عشر سنوات.ولكن هونيادى المقاوم العنيد وأتباعه اشترطوا أن يعود ومعظم جيشه إلى الأناضول(٢). وبمقتضى هذا الصلح حصل برانكوفتش عل أعظم مكاسبه، فقد نال استقلاله، وبذلك عادت مملكة الصرب إلى ما كانت عليه عند موت ستيفن دوشان فى عام ١٤٢٧، وضمت المجر ووالاشيا(٣).

وعندئذ أحس السلطان مراد الثانى أن بوسعه العودة إلى الأناضول لمواجهة أعدائه، وفى اعتقاده أن الحلفاء الصليبيين، وهم مسيحيون، لن يخرقوا الاتفاقية، ولكنه أساء التقدير. إذ استطاع المندوب البابوى المرافق للجيش الصليبى المتحالف الكاردينال سيزارينى، أن يقنع قادة الجيشّ على أن كل يمين تبذل لكافر تعتبر باطلة، وحثهم على مواصلة الزحف، واستغلال ما لديهم من ميزة. غير أن ملك الصرب جورج برانكوفتش الأرثوذكسى لم يوافق على نقض الاتفاقية، ولم يسمح لإسكندر بك أن يبقى مع الجيش، واحتج على نقض الاتفاقية يوحنا هو نيادى، على أنه بقى فى قيادة الجيش، بعد أن وعده الكاردينال سيزارينى بتاج بلغاريا بمجرد تحريرها نهائيا من نير الأتراك(٤).

على أية حال، تحرك جيش صليبى ضخم بجنوده من جميع أنحاء أوربا إلى بودا Buda تحت زعامة الملك المجرى لاديسلاس، وقد غادر هذا الجيش سزجدين فى أول

---

(1) Shaw, op. cit., p 51.

(2) Shaw, op. cit., pp 51-52, Pears, op. cit., p. 161.

(٣) محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ٥٧.

(2) Nicol, op. cit., p. 82, Ostrogorsky, op. cit., p. 565, Shaw, op. cit, pp. 52-53, رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٧٧٦ ـ ٧٧٧، عزيز سوريال: المرجع السابق، ص ١٠٢.

سبتمبر عام ١٤٤٤، وانضم إليه هونيادى فى أورسوفا الواقعة على الدانوب، ومعه قوة من فرسان ترانسلفانيا، ثم زحف الجيش الصليبى غربا بحذاء الدانوب تجاه ڤارنا(١)، وهى مدينة جميلة تقع فى بلغاريا اليوم على شاطىء البحر الأسود.

وعندما علم السلطان مراد الثانى بما أقدم عليه الصليبيون من انتهاك الاتفاقية عاد مسرعاً، وبمساعدة السفن الجنوية نقل الجيش العثمانى الأناضول إلى أوربا فى أكتوبر عام ١٤٤٤، وقد بلغ هذا الجيش ثلاثة أمثال جيش الصليبيين، ونشبت المعركة فى ١٠ نوفمبر من نفس العام بالقرب من ڤارنا، فاستبسل الصليبيون فى المقاومة، وفى أثناء اشتداد حدة المعركة، كان السلطان الذى أمر بأن ترفع على لوائه المعاهدة التى جرى انتهاكها، يصيح هاتفا «أيها المسيح إذا كنت إلها حسبما يقول أتباعك، فلتنزل العقاب بهم لما ارتكبوه من خيانة». وتغلب مراد، وانتصر انتصار ساحقا بفضل حماسة وأعداد جيشه، فلقى الملك المجرى لاديسلاس مصرعه ومات الكاردينال سيزارينى، وهرب يوحنا هونيادى مع فلول جيشه الضئيلة(٢).

وتعتبر معركة ڤارنا علامة بارزة فى تاريخ العلاقات التركية الأوربية. فقد حطمت اعتقاد المسيحيين أنهم قادرون على طرد الأتراك إلى آسيا، وهى آخر محاولة يقوم بها الغرب الأوربى لإنقاذ الإمبراطورية البيزنطية من الغرق، وهو المصير الذى سنراه بعد تسع سنوات(٣). وقد أثبت فشل حملة ڤارنا تأسيس السيطرة التركية فى كل شبه جزيرة البلقان، تلك السيطرة التى استمرت حوالى أربعة قرون(٤).

والمهم أن حملة ڤارنا الصليبية هى آخر محاولة قام بها الغرب الأوربى لتخليص القسطنطينية، ولم يشترك الإمبراطور البيزنطى يوحنا الثامن فيها، وشعر البعض أن فقدانهم

---

(1) Shaw, op. cit., p 54, Pears, op. cit.,p. 169.

(2) Nicol, op. cit, p. 92, Ostrogorsky, op. cit., pp. 565-566, Eliot, Turkey in Europre., p. 40.

رنسيمان: المرجع السابق، ج٣١، ص ٧٧٧، عزيز سوريال: المرجع السابق، ص ١٠٢.

(3) Stavrianos, The Balkans since 1453,p. 51.

(4) Halecki (O.), The Crusades of Varna.A Discussion of Controversial Problems (New York, 1943) P. 5.

حريتهم على أيدى الأتراك، أفضل من الحصول عليها على أيدى اللاتين. صحيح أن آلاف المسيحيين صاروا وقتئذ تحت سيطرة الحكم الإسلامى لمدة جيل أو أكثر، ولكن بإمكان عقد مقارنة بين عدالة وتسامح سادتهم الأتراك بعجرفة واستبداد الفرنسيين والإيطاليين فى مستعمراتهم الإغريقية، فالحياة كانت صعبة فى ظل الأتراك، ولكنها كانت مفعمة بالإستقرار، بدلا من المصير المجهول تحت وطأة اللاتين، أى أن المسيحيين كانوا يفضلون الخضوع لحكم السلطان العثمانى على الإذعان لسيطرة اللاتين(١).

لم يقتصر الاحتفال بانتصار تركيا على الصليبيين وحدها، بل امتد إلى العالم الإسلامى أجمع، وفى الجمعة الأولى من وصول الخبر إلى القاهرة فى أبريل سنة ١٤٤٥، أمر السلطان المملوكى جقمق بذكر إسم السلطان بعد رسم الخليفة العباسى، والدعاء لأرواح الشهداء العثمانيين فى الأقطار المملوكية، وأقيمت الاحتفالات بهذا النصر فى مصر(٢).

وقضى السلطان مراد الثانى بقية سنوات عمره فى القيام بسلسلة من الحملات العسكرية، لإقرار الحكم العثمانى فى البلقان، وذلك بالضغط على أتباعه وأفصاله الذين ثاروا عليه، واشتركوا فى الحملة الصليبية السابقة. ففى سنة ١٤٤٦ إجتاح مراد المورة، وأجبر البيزنطيين على الدخول فى طاعته، وفرض حكما عثمانيا مباشراً على معظم أراضى اليونان الرئيسية، وإن كانت البندقية وجنوة والبيزنطيون لازالوا يسيطرون على حلقة من الموانى والجزر الممتدة فى كل الطريق من كورفو إلى نيجروبونت. كذلك جعل مراد بلغاريا تحت السيطرة المباشرة للعثمانيين، وأقصى أمرائها الوطنيين، وأخذ فى «تتريكها» و«عثمنتها»، بصورة تفوق ما حدث فى أى ولاية بلقانية أخرى. واستوطن عدد كبير من القبائل التركية فى الشمال والشرق، ولهذا ففى أقل من قرن أصبح الأتراك يمثلون غالبية السكان. وقام مراد أيضا بحملة هامة ضد الثائرين فى ألبانيا فى سنة ١٤٤٧م، ولكن أخبار تقدم هونيادى جنوبا ومعه جيش صليبى جديد، أرغمه على التخلى عن جهوده التى كان يضطلع بها(٣).

---

(1) Nicol, op. cit., pp. 82-83, Vasiliev, op. cit., Vol. II, p. 644. Runciman, The Fall of Constantiople, p. 21.

(٢) يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، جـ١، ص ١٢٧.

(3) Shaw, op. cit., Vol. I, P. 53, Pears, The Destruction of the Greek Empire. pp. 171-172.

وكان هو نيادى بعد موت لاديسلاس ملك المجر قد عين وصيا على طفله، وبذلك عزز قوته على القيام بتنظيم جهد صليبى جديد ضد العثمانيين. ولم يلبث أن استدعى هونيادى الفرسان الصليبيين من جميع أنحاء أوربا. وعبر الدانوب فى شمال صربيا على رأس خمسين ألف جندى، على الرغم من أن برانكوفتش رفض التعاون معه أو تقديم مساعدة له.وفى أثناء رحف هو نيادى جنوبا إنضم إليه الجنود التى أرسلها اسكندر بك، وتلك التى أتت من والاشيا، ولكن مرادرجع على وجه السرعة من ألبانيا، وتقابل الفريان فى الموقع القديم كوسوفا بولاى Kossovo - Polye (كوسوفا الثانية)، وكانت المرة الأولى سنة ١٣٨٩م، فلم تنقذ بطولة هونيادى وشجاعة أتباعهوقوع الكارثة بجيشه، إذ أن قلة عدد المسيحيين عن أعدائهم، واضطراب نظامهم، وعدم إحكام خطط الألبانيين والمجريين، ونفاذ البارود من أيد مشاة الألبان والبوهيميين مما جعل بنادقهم غير ذات قيمة، والشك فى ولاء الوالاشيين، كل هذه كانت العوامل التى ساهمت فى مأساة المعركة الثانية فى كوسوفا (١٧ ـ ١٩ أكتوبر ١٤٤٨)، والتى أنهت الصليبية المجرية بإبادة كاملة لم تستطع تجنبها. وبذلك تأكد الحكم العثمانى فى جنوبى الدانوب مرة أخرى. وعندئذ أرسل مراد «الغزاة» إلى والاشيا، واستعاد سيطرته عليها[١]. ولم تبق على قيدالحياة إذ ذاك إلا القسطنطينية كقلعة منيعة وكرمز للإمبراطورية البيزنطية الطاعنة فى السن. ويذكر الأستاذ شو[٢] Shaw أن النتيجة الوحيدة الأكيدة لهذا الفصل المؤلم فى تاريخ الحروب الصليبية إطالة عذاب الإمبراطورية البيزنطية المتعثرة سنوات قليلة أخرى.

وفى ٣١ أكتوبر سنة ١٤٤٨ مات الإمبراطورية البيزنطى يوحنا الثامن فى القسطنطينية يائسا دون وريث من صلبه، وقد أوصى بأن يخلفه أخوه قنسطنطيين، وكما هو متوقع تقريبا فى عائلة باليولوجوس، فإن اثنين من إخوة قنسطيطين وهما ديمتريوس وتوماس نازعاه على العرش. ولم ينفذ الموقف إلا أمهم الإمبراطورة العجوز الحازمة هيلينا، فقد أكدت حقها فى الوصاية على العرش حتى وصول قنسطنطين من المورة إلى العاصمة. وقد توج قنسطنطين

---

(1) Shaw, Hist, of the Ottoman Empire, Vol, I. pp. 53-54.

(2) Ibid.,p. 53.

أمبراطورا فى مستترا ـ بالقرب من مدينة إسبرطة القديمة ـ فى يناير سنة ١٤٤٩، باسم قنسطيطين الحادى عشر، وهو آخر إمبراطور بيزنطى(١).

وكان من الواجب أن يحاط السلطان العثمانى مراد الثانى علماً باعتلاء قنسطنطين الحادى عشر باليولوجوس، عرش الدولة البيزنطية، ولكنه لم يبد أى اعتراض، إذ صار متقدماً فى السن ومنهكا، وعهد بمعظم سلطاته إلى ابنه محمد، وتوفى السلطان بالسكتة القلبية فى بروسة فى ٥ فبراير سنة ١٤٥١، قبل أن يرى القسطنطينية قد أضيفت إلى إمبراطوريته(٢). ولكنه قبل أن يموت عمل على أن يجنب دولته أية منازعات داخلية جديدة حول الوصول إلى العرش بعد وفاته، ولذلك ترك وصية مكتوبة عين فيها إبنه محمداً خليفة له، وكان فى سن التاسعة عشرة، وأرسل الوصية إلى كل الولايات والوزارات، واختار الصدر الأعظم جندرلى خليل باشا وصيا عليه(٣).

وكان محمد الثانى ساعة وفاة والده فى إمارته مغنيسيا بآسيا الصغرى. فوصلته رسالته على وجه السرعة جاء بها نعى والده، ويدعوه كبار رجال الدولة بسرعة الحضور إلى أدرنة، وهناك استقبله كبار رجال الدولة والعلماء، وفى ١٨ فبراير سنة ١٤٥١ تولى محمد الثانى عرش آبائه. وعندما علم الإمبراطور البيزنطى قنسطنطين الحادى عشر بوصول محمد إلى العرش أرسل سفارة لتقديم العزاء فى وفاة أبيه، وتهنئته بالعرش، فرحب محمد بالسفارة(٤).

ويسجل عهد السلطان مراد اثانى نهاية الثقافة العثمانية القديمة، فقد واصلت الحياة الدينية فى عهده دورانها فى فلك الصوفية التى فرضت طابعها على الحياة الفكرية. فقد كانت قصائد الشاعر التركى الشرقى المتصوف أحمد تيسوى، معروفة فى الأناضول منذ القرن الثالث عشر بواسطة الطرق الصوفية التى نشرت تعاليمه. وفى بلاطه فتح أبوابه

(1) Nicol,op. cit.,pp. 83-84.

(2)Ibid.,p. 84.

(3)Shaw, op. cit., p. 54.

(4) Doukas, Decline and Fall of Byzantium, pp. 187-191, Kritavoulos, Hist of Mohamed the Conguerer, Trans from greek by charles T. Riggs (New Jersey, 1954), p. 13.

للعلماء والشعراء والموسيقيين، وأخذت اللغة التركية تحل محل لغتى الأدب الرفيع: العربية والفارسية[1].

ويعتبرمراد الثانى من أكبر المهتمين بالبناء والتشييد، فالجوامع والكليات الموجودة فى بروسة وأدرنة من إنجازاته، وكذلك دار الحديث (١٤٣٥)، والجامع ذو الثلاث شرفات وكلياته (١٤٤٧)، وأوزون كوبرى على نهر أركنه الذى استغرق تشييده ستة عشر سنة، وكان طوله ٣٩٢ متراً، وهو من الإنجازات الهامة التى شيدها بأموال الغنائم، وافتتح فى سنة ١٤٤٣[2].

ويقول المؤرخ الألمانى ڤون هامرVon Hammer: «حكم السلطان مراد الثانى فى إمبراطوريته بعدالة وشرف طيلة ثلاثين سنة. كان عادلا سليم النية مع رعيته دون التفريق بين الأديان، وعرف بوفائه بوعده فى الحرب والسلم، يفضل الصلح، لكنه لم يكن يتردد فى الحرب إذا دعت الضرورة لذلك. كان انتقامه شديداً من الذين لايوفون بعهودهم، فلا ضير عنده فى هذه الحالة من إبادتهم، ولم يفقد دهاءه حتى نهاية سلطنته»[3].

(١) كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبية أمين فارس، منير البعلبكى (بيروت ١٩٦٥)، ص ٤٢٩.

(٢) يلماز أوزتونا: تاريخالدولة العثمانية، جـ١، ص ١٣٠.

(٣) نفس المرجع السابق والصفحة.

الفصل الخامس

محمد الفاتح

(١٤٥١ ـ ١٤٨١)

- فتح القسطنطينية.
- فتح صربيا والبوسنة وهرزوجيڤنيا (الهرسك).
- حروب محمد الفاتح فى المورة.
- حروب محمد الفاتح فى ألبانيا.
- حروب محمد الفاتح فى والاشيا (الأفلاق) ومولداڤيا.
- حروب محمد الفاتح مع البندقية وقرمان.
- حصار رودس والاستيلاء على أوترانتو فى جنوب إيطاليا.

فتح القسطنطينية:

ورث محمد الثانى (١٤٥١ ـ ١٤٨١) إمبراطورية أفضل حالا من تلك الإمبراطورية التى كان يحكمها أبوه قبل ذلك بثلاثة عقود، إذ كان مطلق اليد فى أخذ زمام المبادرة دون أن يرضخ لأية ضغوط داخلية أو خارجية. بيد أن محمد الثانى عقب توليه العرش شعر هو ومستشاروه وخاصة شهاب الدين شاهين وزغنوس باشا أنهم فى حاجة إلى إحراز نصر مثير يقوى مركزهم ضد النبالة التركية، التى لازالت في حاجة إلى الهدوء والاستقرار لمنع القابى قولو Kapikulu والدوشرمة من القيام بفتوحات لبناء قوتهم(١).

ولاشك أن الاستيلاء على القسطنطينية كان ضرورة سياسية واستراتيجية، ذلك أن وجود قلعة مسيحية وسط أراضى السلطان وفى موقع استراتيجى غاية فى الأهمية ، كان أمراً يهدد أمن السلطة من الداخل والخارج. كما أن وجود إمبراطور مسيحى وبطريرك للكنيسة داخل الدولة مستقلين عن السلطة العثمانية، كان من شأنه أن يجعل من رعايا السلطان المسيحيين والذين كانوا يمثلون أغلبية السكان، عناصر للثورة المضادة(٢).

وأحس محمد الثانى أنه طالما ظلت الإمبراطورية البيزنطية باقية، فسوف يكون هناك احتمال لقيام حملة صليبية جديدة تقلق بال العثمانيين، وستعوق توحيد شطرى الإمبراطورية العثمانية وتجعل منه أمراً مستحيلاً. ومن الأحلام التى راودت العثمانيين تأسيس إمبراطورية عالمية تكون القسطنطينية مركزها الطبيعى. وينبغى ألا ننسى أن الإمبراطورية البيزنطية كانت تأوى المدعين المسلمين فى أحقيتهم فى العرش العثمانى(٣).

ومن الواضح أن مدينة القسطنطينية تحتل موقعاً فريدا بين مدن العالم، وتتميز بأهمية جغرافية واستراتيجية، فمن الناحية الجغرافية تقع تلك المدينة عندالتقاء القارتين آسيا وأوربا إذ يحدوها البوسفور من جهة الشرق، والقرن الذهبى من جهة الشمال، وبحر مرمرة فى الجنوب، ولا يمكن الوصول إليها براً إلا من جهة واحدة. أما من الناحية الاستراتيجية، فأرضها تشكل مثلثا تحمى المياه ضلعيه، أما الضلع الثالث فقد حمته الأسوار المنيعة التى

---

(1) Shaw,Hist. of the Ottoman Empire. Vol. I, p. 55.

(٢) شوجر: أوربا العثمانية، ص ٨٤.

(3) Shaw, op. cit., Vol. I. p.55.

أقامها الحكام. يضاف إلى ذلك أن القسطنطينية صارت أهم مراكز التجارة العالمية، فقد سيطرت سيطرة تامة على كل تجارة البحر الأسود، فمنها تتجه طرق التجارة شمالا إلى روسيا، وشرقا إلى آسيا حيث تؤدى الطرق البرية إلى الهند والصين ووسط آسيا، وغربا إلى وسط أوربا، وجنوبا إلى الشام ومصر وأفريقية. ومما يجدر ذكره أن القسطنطينية بفضل مزاياها التى تحدثنا عنها، ظلت قادرة على الوقوف فى وجه أعدائها، وخط دفاعى أول ضدهم، والحفاظ على الإمبراطورية البيزنطية لمدة تربو على الألف عام[1].

وقد نوه نابليون بونابرت بوجه خاص فى العصور الحديثة بأهمية القسطنطينية وخطورتها، فقال فى شأنها: «لو كانت الدنيا مملكة واحدة لكانت القسطنطينية أصلح المدن لتكون عاصمة لها»، وأشار فى مذكراته التى كتبها فى منفاه بجزيرة سانت هيلانة أنه حاول عدة مرات الاتفاق مع روسيا على اقتسام الإمبراطورية التركية، ولكن وقفت القسطنطينية فى كل مرة العقبة الكؤود دون الاتفاق، فقد كانت روسيا تلح فى امتلاكها، ونابليون يصر على عدم تسليمها، إذ أن هذه المدينة وحدها كانت فى نظره تساوى إمبراطورية، وهى بعد بمثابة مفتاح العالم، من استولى عليها استطاع أن يسيطر على العالم بأجمعه[2].

وقد أدرك الغزاة والفاتحون منذ وقت بعيد أهمية مدينة القسطنطينية وخطورة موقعها، فحاولوا الاستيلاء عليها وحاصروها مرات كثيرة، غير أن هذه المدينة استطاعت بمناعة موقعها وقوة حصونها وأسوارها أن تصد عن نفسها أعظم الغزاة والفاتحين. وكان للمسلمين نصيب كبير من هذه المحاولات، وقد وردت أحاديث شريفة كثيرة تبشرهم بفتح القسطنطينية، منها «لتفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش»، الأمر الذى زادهم تعلقا وأملا فى فتح هذه المدينة. وأولى محاولات المسلمين ما كان فى عهد خلافة معاوية بن أبى سفيان عندما وجه إبنه يزيد إلى القسطنطينية فى القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى)، على رأس حملة ضخمة كان نصيبها الإخفاق، وكان من شهدائها أبو أيوب الأنصارى، الذى أوصى وصيته التى صارت مناراً يهتدى به المسلمون التواقون لحرب البيزنطيين على مر العصور. لقد قال أبو أيوب ليزيد بن معاوية وقد عاده حين ثقل عليه

---

(١) محمود محمد الحويرى: رؤية فى سقوط الإمبراطورية الرومانية (القاهرة ١٩٩٣)، ص ٤٣.
(٢) سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ٢٧.

المرض: «إذا مت فاركب بى، ثم سُغْ بى فى أرض العدو ما وجدت مساغاً، فإذا لم تجد مساغا فادفننى ثم ارجع» .وتوفى أبو أيوب الأنصارى سنة ٥٢هـ فنفذ المسلمون وصيته، ودفن تحت أسوار القسطنطينية، حيث صار قبره مزاراً للبيزنطيين والمسلمين على السواء، إلى أن كان فتح العاصمة على يد الأتراك العثمانيين فيما بعد، فوجدوا ضريحه وبنوا عليه قبة، وأقاموا إلى جانبه مسجداً يبايع فيه سلاطين آل عثمان، حيث يقلدون سيف عثمان مؤسس الدولة العثمانية، من يد إمام مسجد أبى أيوب الأنصارى.

ومن أعظم المحاولات التى قام بها المسلمون لفتح القسطنطينية ما كانت فى عهد الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك سنة ٩٨هـ، فقد جهز جيشا ضخماً، عهد بقيادته إلى أخيه مسلمة بن عبد الملك. وبالرغم من ضخامة هذا الجيش وعظم العدة فى البر والبحر، وما أظهره المسلمون من البسالة فى الحصار والقتال، فقد ردتهم القسطنطينية بأسوارها المنيعة ونيرانها الإغريقية الفتاكة.

وفى تراث الأتراك كانت القسطنطينية تدعى أحيانا كيزيل إلما Kizil Elma أى.. التفاحة الحمراء»، بمعنى أنها الحلم الذى يتوق المسلمون الوصول إليه[١]. ولذا كان من الطبيعى بعد أن استقر العثمانيون فى آسيا الصغرى، وأقاموا بها دولتهم، ولاصقوا الدولة البيزنطية أن يرنو بأبصارهم إلى القسطنطينية، وقد حاصرها السلطان بايزيد الأول، وكان من الممكن أن يقرر مصيرها، لولا أن تيمور الأعرج حوّل انتباه السلطان إلى آسيا الصغرى، كما حاول السلطان مراد الثانى فتح القسطنطينية، ولكنه لم يصل إلى غرضه، حتى جاء السلطان محمد الثانى، فشغل نفسه برسم خطط لفتحها، وذلك منذ اللحظة الأولى التى اعتلى فيها العرش.

حاول العثمانيون مراراً الاستيلاء على المدينة لأنهم كانوا يشعرون بأنها العاصمة الطبيعية لإمبراطوريتهم، إذ أن بقاءها فى أيدى غيرهم من شأنه أن يهدد المواصلات التى تربط أملاكهم الأوربية والآسيوية، كما أن الاستيلاء عليها كفيل بتشديد قبضتهم على الأراضى التى يحكمونها، ويخلع المهابة والعظمة اللتين كانتا لاتزالان تكمنان حول تلك الأسوار التى أحاطت بقاعدة الإمبراطورية الرومانية الشرقية حوالى أحد عشر قرنا[٢].

(1) Hearsey, City of Constantine, p. 230, Shaw, op. cit.,p. 55.

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق، ص ١٦٥.

وعلى أية حال، كانت الظروف مهيئة تماما لفتح القسطنطينية، فقد صارت حطاما، وظلا واهيا، وكما قال عنها المؤرخ ديل Diehl «القسطنطينية جسم مريض وضعيف وبائس برأس ضخمة، وتحيط بها دولا إما مستقلة أو عدائية، حتى أطلق على الإمبراطورية البيزنطية «رجل العصور الوسطى المريض»(١).

غير أنه كانت ثمة مصاعب لابد أن يعالجها السلطان العثمانى محمد الثانى قبل الإقدام على فتح القسطنطينية. فقد استغل الإمبراطور البيزنطى قنسطنطين الحادى عشر باليولوجوس (١٤٤٩ ـ ١٤٥٣) صغر سن السلطان واختار أحد الأمراء العثمانيين لينافسه على تولى العرش. وحدث فى البلقان والأناضول أن بدأ أتباعه فى استغلال الفرصة بحجة عدم خبرته وثاروا عليه. كما عرف محمد الثانى أن النبالة التركية التى يتزعمها الصدر الأعظم جندرلى خليل تعارض خططه الرامية إلى فتح القسطنطينية. ولم يستطع محمد أن يتخلص من نفوذ وزيره الأعظم(٢). ولكنه قام بقتل إخوته الصغار، خوفا من منازعتهم فى الملك إذا كبروا، وكان منهم طفل رضيع هو ابن زوجة أبيه الشرعية ابنة أمير سينوب، فأمر بقتله فى الحمام، وأرغم أمه أن تتزوج مملوكا من البطانة يدعى إسحق باشا. ولكن واحدا من أولئك الإخوة الصغار يدعى كلابين، أنقذ وحمل إلى روما، حيث نُصِّر وسمى «كالستوس أتومانوس»، وأقطعه الإمبراطور فردريك الثالث ضيعة فى النمسا، فعاش هنالك حتى مات(٣). وكإجراء أمن داخلى أمر محمد الثانى بترحيل زوجة أبيهما إلى موطنها الأصلى صربيا ومعها معظم مستشاريها، وأحل محلهم فى المراكز والمناصب الهامة رجاله المقربين إليه(٤).

وحتى يركز محمد الثانى جهوده على فتح القسطنطينية، ولا يشغله شيء عنها، كان لابد أن يتحرك لتهدئة جيرانه، فجدد اتفاقيات السلام مع صربيا ووالاشيا. ولكن الوضع مع إمارة قرمان أشد صعوبة، إذ كانت لاتزال تحكم قطاعا ضخما من وسط وشرق الأناضول

---

(1) Lamerle (Paul), A Hist. of Byzantium. Trans. by Antony Matthew (New York, 1964), pp. 119-120.

(2) Shaw, Hist. of the Ottoman Empire, Vol I, pp. 55-56.

(١) محمد عبد الله عنان: مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام (القاهرة ١٩٦٢)، ص ١٧٢ ـ ١٧٣.

(4) Shaw, op. cit, p. 56.

ومعظم قيليقية، وتستخدم نفوذها فى إثارة القلاقل فى الأقاليم المجاورة ضد العثمانيين، وتبث عدم الثقة فيهم. فيعث السلطان جيشه بقيادة إسحق باشا لقتال إبراهيم بك أميرقرمان الذى كان يريد الإستفادة من فترة الانتقال من عهد إلى آخر، وسار إسحق باشا فى إثره، ولمْ يكد الجيش العثمانى يصل إلى اكيشهر Aksehir، حتى فوجىء به إبراهيم، ووجد أنه أضعف من الوقوف ضده، فاضطر إلى الصلح والإذعان، ووافق إبراهيم على إعادة الحدود القّديمة وتعهد ألا يخرج بجيوشه إلى ما ورائها، وزوج إبراهيم إحدى بناته لمحمد الثانى لتقوية العلاقة بينهما، وتوكيداً لطاعته(١).

وعندما عاد محمد الثانى من قرمان، شرع فى مارس سنة ١٤٥٢م فى بناء قلعة حصينة على الضفة الأوربية لمضيق البوسفور، فى الموقع الذى يتميز فيه المضيق بأقل اتساع له، حيث ينخفض العرض إلى ٦٦٠ مترا، فى مواجهة قلعة أناضولو حصارى التى كان السلطان بايزيد الأول قد شيدها على الضفة الآسيوية، فكان باستطاعة محمد الثانى بسيطرته على هذين الموقعين أن يغلق حسب مشيئته كل إتصال بين القسطنطينية والبحر الأسود، أى تجويع أهالى القسطنطنية.وكان للقلعة أربعة عشر برجا، منهم خمسة أبراج مغطاة بالرصاص، وعرفت تلك القلعة بروميللى حصار،وقد تم بناء هذه القلعة فى أواخرأغسطس سنة ١٤٥٢م. وعندئذ بعث الإمبراطور البيزنطى بسفرائه للاحتجاج على هذا العمل، فأمرمحمد الثانى بهم فقطعت رؤوسهم، وأصدر أوامره إلى قائد القلعة فيروز أغا بأن يوقف كل السفن الأجنبية التى تمر أمامه، سواء كانت آتية من جنوة أو البندقية أو القسطنطينية أوكافا أو طرابيزون أو أميسوس أو سينوب، وأن يفتشها وتؤدى ضريبة المرور، فإن رفضت فعليه أن يطلق عليها المدافع ويغرقها. ولاشك أن هذا الإجراء عاد على التجارة الإيطالية بالضرر الجسيم(٢).

---

(1) Shaw, op. cit., p. 56, Kritovoulos, Hist. of Mohamed the Comqueror, p 14, Eliot, Turkey in Europe., p. 42.

(2) Nicolo Barbaro, Diary of the Siege of Constantinople 1453. Trans. by Jones (J.R.), (New York, 1969), p. 9, Shaw, op. cit., p. 56, Nicol, op, cit., pp. 34-35, Kritovoulos, op. cit., pp. 15-16, lemerle, op. cit., p. 130.

ويروى أن ثلاثة من القباطنة البنادقة كانوا عائدين من البحر الأسود فى سفينة، فمروا على مر أى من روميللى حصار فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٤٥٢، ورفض الثلاثة الاستجابة لإنذار العثمانيين، واستطاع إثنان منهم الهروب دون أية خسائر، ولكن الثالث واسمه انطونيو ريزو Antonio Rizzo كان سيء الحظ، فغرقت سفينته، وانتشل من الماء وسيق إلى حاكم أدرنه، وحكم عليه بالإعدام «بالخازوق»(١)، وضربت أعناق معظم بحارته. وسارع مندوب البندقية فى القسطنطينية جيرولامو مينوتو Girolamo Minotto بإيفاد مبعوث إلى السلطان لمحاولة إنقاذ حياتهم، ولكنه وصل متأخراً(٢).

ولكى يتم محمد الثانى عزل القسطنطينية ويحكم تطويقها، بعث قائده طرخان على رأس جيش قوى فى بداية شهر أكتوبر سنة ١٤٥٢ إلى شبه جزيرة المورة لمناجزة حاكميها توماس وديمتريوس باليولوجوس ومنعهما من مساعدة أخيهما قنسطنطين إمبراطور القسطنطينية، كما أرسل فرقا من جنده لتطهير المناطق المجاورة لهذه المدينة(٣)، وتمكن من وقف أى إمدادات تتجه إليها.

وأقبل الشتاء، ودلت بوادره على أنه سيكون قارساً شديد البرودة، وفرح قنسطنطين بذلك، وظن أن البرد سيعوق الأعمال الحربية، وبعث إلى محمد الثانى يحاول صرفه عما

---

(١) الخازوق هو عمود من الحديد الأملس له رأس مدبب كالقلم الرصاص، ويؤتى بالضحية فيطرح أرضا على بطنه وتنزع ثيابه. ويبدأ خبير الخوزقة فى إدخال الخازوج فى فتحة الشرج والدق على قاعدته بلطف حتى يأخذ طريقه إلى أحشاء الضحية بطريقة إنسيابية. ومع كل دقة تتعالى صرخات المعذب إلى عنان السماء من شدة الألم، وتتمثل براعة خبير الخوزقة فى قدرته على إيلاج الخازوق إلى جوف الرجل دون أن تتمزق أمعاؤه فيموت سريعا وينتفى الغرض من التعذيب. فإذا نجح فى مهمته وتم إدخال الخازوق كاملا، رفعوا الضحية ليأخذ الوضع جالساً على الخازوق، فيتضاعف ألمه وكأنه قاعدعلى فرن ملتهب. ثم يشدون وثاقه إلى عمود قائم تحت حراسة مشددة. ويتركونه هكذا فى العذاب المقيم حتى يلفظ أنفاسه، وبعدها تبدأ الكلاب والضباع والصقور والحشرات فى نهش جيفته. أنظر: جمال بدوى: جريدة الوفد، «نظرات فى التعذيب»، ٢٩ يونيه ١٩٩٥، ص ١٤.

(٢) هايد: تاريخ التجارة، جـ٣، ص ١٦٣.

شارل ديل: البندقية جمهورية ارستقراطية، تعريب د. أحمد عزت، عبد الكريم، توفيق اسكندر (القاهرة ١٩٤٧)، ص ١٣٦.

(٣) سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ٤٨.

هو بسبيله للاستعداد للحرب، فقال محمد الثانى للرسل: «إذا كان إمبراطوركم يخشى الحرب فليسلم لى القسطنطينية، وأقسم أن جيشى لن يتعرض لأحد فى نفسه أو ماله، ومن شاء بقى فى المدينة وعاش فيها فى أمن وسلام، ومن شاء رحل عنها وذهب حيث أراد فى أمن وسلام أيضاً»(١).

أدرك الإمبرطور البيزنطى نوايا السلطان العثمانى، ومثل أخيه استنجد بالغرب الأوربى، غير أن البابا فى روما نيقولا الخامس (١٤٤٧ ـ ١٤٥٥) طلب فى مقابل الدفاع عن المدينة أن تخضع له الكنيسة الشرقية البيزنطية، وحين وافق الإمبراطور على ذلك استشاط رعاياه المتمسكون بمذهبهم الأرثوذكسى غضبا(٢). أما أوربا آنذاك فقد كانت منهمكة فى منازعاتها الخاصة، ذلك أن فرنسا وإنجلترا أنهكهما عندئذ الصراع الطويل الذى انتهى بضياع ممتلكات إنجلترا فى القارة، فى حين كانت ألمانيا دولة ممزقة لاتستطيع الوقوف على قدميها إلا فى صعوبة، مماترك الإمبراطور البيزنطى وحيداً دون معونة تذكر(٣). ومع ذلك فقد أعدت البندقية عشر سفن بقيادة جاكوبو لوريدانو Jacopo Loredano، ثم بعث البابا بثلاثين سفينة، وأبحرت هذه السفن معا وكانت تحمل الزاد والعتاد والجند، ووصلت إلى جزيرة خيوس، ثم استأنفت سيرها، ولكنها ما كادت تمضى قليلا حتى التقت بها بعض السفن الفارة من القرن الذهبى تنبئها بسقوط القسطنطينية فى يد الأتراك. أما سفن البندقية التى كانت راسية فى القرن الذهبى من قبل ضرب الحصار، فقد اشتركت كلها فى الدفاع عن القسطنطينية، كما اشترك جميع البنادقة فيها فى القتال وعلى رأسهم القنصل البندقى، وقد قاتلوا جميعا بشجاعة(٤).

أما جنوة، فقد غلبت عليها المصالح التجارية، فعندما رأت أن الحرب على وشك الاندلاع بين محمد الثانى والقسطنطينية، لم تجاهر بالوقوف إلى أى من الجانبين، وأصدرت تعليماتها إلى مستوطناتها فى جالاتا بأن تتخذ موقف الحياد المشوب بالحذر(٥).

---

(١) نفس المرجع والصفحة.

(٢) عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق، ص ٦٦.

(3) Lodge, op. cit., p. 509.

سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى، (القاهرة ١٩٧٨)، جـ١، ص ٦٤٤.

(٤) سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ٥١.

(5) Nicol, op. cit.,p. 36.

وفى ٢٩ يناير سنة ١٤٥٣ وصل إلى القسطنطينية جيوفانى جويستنيانى Giovanni Guistiniani المغامر الجنوى الشجاع ومعه سبعمائة من رفاقه المغامرين الجنويين المسلحين على ظهر سفينتين كبيرتين يمتلكهما. وفى طريقه إلى القسطنطينية توقف فى جزيرتى خيوس وردس، وجمع الرجال من هناك. وكان جويستنيانى رجلا نبيلا، نشيطا ذكيا، شجاعا إلى أبعد حد، له خبرة بشئون الحرب، وقد أتى من تلقاء نفسه، عندما علم بخطورة وضع القسطنطينية، والحصار الذى فرضه محمد الثانى عليها، وذلك لمساعدة البيزنطيين والإمبراطور قسطنطين والعقيدة المسيحية. وقد سر الإمبراطور لمجيئه، واحتفى به ومعه الحكومة والنبلاء، ووعده الإمبراطور بأن يكافئه بجزيرة لمنوس نظيرمساعدته، إذا رفع العثمانيون الحصار عن القسطنطينية، وعهد إليه بالقيادة العامة للدفاع(١).

وعندما اطمأن البابا نيقولا الخامس إلى أن الإمبراطور البيزنطى سينفذ قرار مجمع فلورنسة سنة ١٤٣٩ بشأن توحيد الكنيستين الشرقية والغربية، أرسل الكاردينال إيزيدور Isi-dore فى مائتين من الجنود المختارة لتوحيد الكنيستين والدفاع عن القسطنطينية. وفى ١٢ ديسمبر ١٤٥٢ قام الكاردينال إيزيدور فى كنيسة أيا صوفيا بإجراء مراسم الاتحاد، وأدى الصلاة على الأصول الكاثوليكية حضرها الإمبراطور ومؤيدوه. وقد أثار هذا العمل غضبا عارماً فى نفوس المعارضين للاتحاد، وهم غالبية الشعب ومعظم رجال الدين بزعامة جورج سكولاريوس الذى أصبح البطريرك جناديوس. وفى وسط الاضطرابات التى عمت القسطنطينية ، صاح الدوق لوكاس نوتاراس ـ وهو ثانى رجل فى الدولة بعد الإمبراطور من حيث المكانة ـ قائلاً: «إنه من الأفضل لنا أن نرى فى القسطنطينية حكم عمامة الأتراك، خير من أن نرى فيها قلنسوة البابوية»(٢).

(1) Barbaro, op. cit., p. 22. Ostrogorsky, op. cit., p. 569, Kritovoulos, op. cit., p. 39, Nicol, op. cit., pp. 36-37, Doukas, op. cit., pp. 211-212, Guerdan (René), Byzantium: its triumphs and tragedy. Trans. by D.F.B. Hartley. (New York, 1957), p. 190.

(2) Guerdan, op. cit., pp. 192-193, Creary, Turkey, p. 74, Diehl (Charles), Hist of Byzantium (New York, 1945), p. 159, Diehl, Greatness and Fecline, Trans. from french by Naomi Walford (U.S.A., 1957), p. 223, lemerle, op. cit., p. 134, Ostrogorsky, p. 568, Vasiliev, op. cit., Vol. II, p. 647. Runciman, The Fall of Constantinople, 1453 (Cambridge, 1965), p. 21.
عزيز سوريال: العلاقات بين الشرق والغرب، ص ١٣٨.

ونتيجة لانقسام الشعب بين مؤيد ومعارض لاتحاد الكنيستين الشرقية والغربية، واشتداد الجدل، وتفاقم الخلاف، وتفرق الكلمة، وغلب التعصب على الحكمة، فقد سيطرت هذه المحنة الكلامية على عقول المدافعين عن المدينة، فزادت قواهم المعنوية ضعفا على ضعف، ومازالت هذه «المناقشات البيزنطية» الشهيرة مضرب الأمثال للجدل العقيم الذى يضطرم وقت الجد والخطر والداهم[١].

وفى تلك الأثناء انشغل السلطان محمد الثانى فى الاستعداد والتأهب لحصار القسطنطينية، إذ كان كل همه الاستيلاء على تلك المدينة، وبينما كان محمد الثانى يوجه تعليماته الخاصة بمحاصرة المدينة، جاءه مهندس مجرى يدعى أوربان، ويعد أمهر صانع للمدافع، وكان قد ذهب إلى القسطنطينية ليقدم خدماته للإمبراطور، ولكن أحداً لم يأبه له، فتوجه إلى السلطان محمد الثانى، وسأله السلطان إذا كان باستطاعته صنع مدفع ضخم يدك به أسوار القسطنطينية، رد المهندس بالإيجاب. فغمره السلطان بالأموال، وأمده بما يحتاجه، وانتهى المهندس من صنع المدفع الذى لم ير مثله قط فى ضخامته وكبر حجمه، وذلك فى خلال ثلاثة شهور[٢]. وعندما استخدم المدفع لأول مرة، أهتم السلطان بتحذير الأهالى منه، «وذلك لتجنب إخافه النساء الحوامل، وسمع صوته المدوى الصاعق على بعد خمسة عشرميلا، ويطلق قذائف زنة الواحدة منها ستمائة رطل. وبذلك كان محمد الثانى أول حاكم فى التاريخ يمتلك مدفعية حقيقية.

وعلى أية حال، استولى على بال السلطان فكرة فتح القسطنطينية، وسيطرت على جميع حواسه، فكان يقضى الليالى فى التخطيط لمهاجهة المدينة، مستخدما الورق والحبر، ويتتبع تحصينات المدينة، ويعين لها الماهرين فى عملية الحصار، وأخذ يفكرفى الأماكن التى يضع فيها المدافع، والأسوار التى سيجرى وضع السلالم عليها، لقد كان يرسم الخطط بالليل، ويصدر أوامره لتنفيذها فى الصباح[٣].

---

(١) عبد الله عنان: مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام، ص ١٧٩.

(2) Doukas, op. cit., p. 200, Guerdan, op. cit., pp. 194-195, Castellan, op. cit., p. 76. Runciman, The Fall of Constantinople, pp. 77-78.

(3) Doukas. op. cit., pp. 202-203.

كان عدد الإغريق والأجانب المدافعين عن مدينة القسطنطينية لايزيد عن حوالى سبعة آلاف مقاتل، وقد وقع عليهم عبء الدفاع عن الأسوار ضد القوات العثمانية التى لاتقل عن خمسة عشر ضعفا، وجيش نظامى بلغ حوالى مائة وستين ألف مقاتل، يقوده السلطان ومعه عشرة آلاف من الإنكشارية، ونصب السلطان أمام السور البرى للمدينة المدافع، وكانت هناك أربع عشرة بطارية، فى كل واحد منها أربعة مدافع[1]، وضعت فى نقاط متقاربة، واصطف من ورائها حملة السهام. أما أكبر مدفع عرفه العالم آنذاك، فقد أمر محمد الثانى بنقل المدفع الضخم من أدرنة إلى القسطنطينية، فجرى ربط ثلاثين عربة معا يجرها ستون ثوراً ضخماً. وانتشر على الجانبين مائتا رجل لمساندة المدفع ومنعه من السقوط فى الطريق. كما استخدم خمسون نجارا ورجلا لمساعدتهم، وذلك فى مقدمة العربات، لإنشاء كبارى خشبية على الطريق الوعر غير المستوى. واستمرت رحلة نقل المدفع من فبراير إلى مارس سنة ١٤٥٣، ثم نصب المدفع العملاق فى مكان يبعد خمسة أميال عن المدينة أمام باب القديس رومانوس، وعهد السلطان لكراجه بك وقواته بحراسة المدفع[2].

ويبالغ بعض المؤرخين المعاصرين مثل دوكاس وغيره فى تقدير القوات العثمانية المحاصرة، ويقولون إنها بلغت ثلاثمائة ألف أو أربعمائة ألف. ويذكر المؤرخ خير الله التركى أنها لم تزد على ثمانين ألف من الجند النظامية والباقى من غير النظامية (الباش بوزرق) والدراويش والحمالين،ويقدرها باربارو سفير البندقية وصاحب يوميات الحصار بمائة وستين ألف. ولكن فرانزا وهو مؤرخ معاصر أيضا يقدرها بمائتين ثمانية وخمسين ألفا، وهو أرجح التقديرات. وكان من ذلك العدد مائة ألف فارس تحتشدفى المؤخرة، ومائة ألف راجل فى الجناح الأيمن من ناحية الباب الذهبى، وخمسون ألف فى الجناح الأيسر حتى قصر بلاشرنى (بلا شيمار) وكان السلطان يحتل القلب، ومعه خمسة عشر ألفاً من الإنكشارية، ورابط القائد زغنوس باشا ومعه بعض القوات على مرتفعات ضاحية جالاتا لمراقبة حركات الجنويين. واحتشد الأسطول التركى فى مياه البوسفور، وكان يضم حوالى أربعمائة سفينة

---

(1) Doukas, op. cit., p. 213, Nicol, op. cit., p. 87, Kritovoulos, op. cit., p. 36.

Doukas, Deline and fall of Byzantium., p. 207.

منها نحو عشرين سفينة حربية كبيرة. وكان يرابط بقيادة أمير البحر بلطة أوغلى فى الخليج الذى يحمل إسمه حتى اليوم(١).

وفى داخل المدينة، قابل الأهالى الاستعدادات التى قام بها محمد الثانى بشعور ملىء باليأس، واستمرت الانقسامات الدينية والسياسبة فى نسف جهود الدفاع عن المدينة، فى الوقت الذى لم تأت إلا مساعدات قليلة من الخارج، الأمر الذى أدى إلى انهيار الروح المعنوية للقوات البيزنطية، حتى أنه لم يعد ثمة رجال تكفى لتغطية الدفاع عن سور المدينة الضخم. ولم يعد للبيزنطيين ما يدافع عنهم سوى الأسوار و«النار الإغريقية»، وسلسلة طويلة ممتدة فى مدخل القرن الذهبى لمنع دخول الأسطول العثمانى(٢). وعهد بحراسة ميناء القرن الذهبى إلى الجنويين.

وفى يوم الإثنين ٢ إبريل سنة ١٤٥٣، نصب محمد الثانى معسكره خارج أسوار المدينة وسط ضربات الطبول وصياح آلاف الرجال الثائرين. وبعد ذلك بثلاثة أيام وصل السلطان على رأس جيشه، وبدأت مدافع العثمانيين تطلق قذائفها لأول مرة يوم الجمعة ٦ أبريل. وكان لاصطدام القذائف بالسور وخاصة قذائف المدفع الضخم دويا هائلا وزئيراً يبعث الرعب فى قلوب أهالى القسطنطينية ويصم الآذان. وأسرع الرجال القادرون إلى أسلحتهم، ورأت أعينهم منظرا مفزعا، فعلى طول السور البرى، من بحر مرمرة إلى القرن الذهبى، فى أى مكان يمتد إليه البصر، فى الأفق أو على الساحل، جيشا عدده كحبات الرمل، ومدافع ضخمة تتحرك ببطء إلى مواقعها، وآلاف الثيران تخور بصوت عال، إنها إحدى اللحظات الحاسمة فى التاريخ، وقد لحق بأسوار المدينة كثيراً من الدمار، ولكن خلال الليل استطاع المدافعون أن ينسلوا إلى الأسوار، وقاموا بترميمات سريعة(٣).

لم ينقطع العثمانيون عن رمى قذائفهم على سور المدينة من اليوم الثانى عشر من أبريل حتى اليوم الثامن عشر. وأبدى الإنكشارية شجاعة نادرة، لايبالون الموت، ولايخافون الخطر، واقتحموا السور كالوحوش الكاسرة، وعندما كان يموت واحد أو اثنان منهم فى

---

(١) عبد الله عنان، مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام، ص ١٧٦.

(2) Kritovoulos, op. cit., p. 36, Shaw,op. cit., Vol. I, pp. 56-57.

(3) Nicol, op. cit., p.87.

الهجوم، ففي الحال كان يأتي مزيداً من الأتراك، ويأخذون الموتى، ويحملونهم على أكتافهم، دون أن يعبأوا بخطر الاقتراب من أسوار المدينة[1].

وفي أصيل اليوم الثامن عشر من أبريل، استطاعت المدافع العثمانية بقذائفها المتواصلة أن تهدم جزءاً من السور الخارجي، واندفع عدد كبير من الأتراك إلى السور، واشتد القتال بينهم وبين البيزنطيين، وارتفعت الصيحات التي أطلقها العثمانيون عندما أتوا إلى السور، حتى بدت أعدادهم أكثر من حقيقتها، واستمر القتال الضاري العنيف إلى أن أظلم الليل، ولكن المغامر جويستنياني استطاع أن يصد المهاجمين بعد أربع ساعات من النضال العنيف، فأمر محمد الثاني جنوده بالانسحاب[2].

وفي نفس ذلك اليوم حاولت بعض السفن التركية تحطيم السلسلة الغليظة (موجودة بالمتحف العسكري حاليا) القائمة على مدخل ميناء القرن الذهبي واقتحامه، ولكن السفن البيزنطية والإيطالية استطاعت أن تردها عن محاولتها. وفي صبيحة اليوم العشرين من أبريل ١٤٥٣ ظهرت في بحر مرمرة خمس سفن قادمة من الغرب الأوربي تحمل الطعام والمعدات والرجال، أربع منها بعث بها البابا وجنوه لمساعدة القسطنطينية، والخامسة للإمبراطور كانت تحمل جنودا ومؤنا وأسلحة، وحاولت السفن العثمانية الاستيلاء على تلك السفن، ولكنها عجزت عن ذلك، لأنها كانت مجهزة بمدفعية حسنة وبحارة مدربين، واستطاعت السفن الخمسة أن تفلت من بين السفن العثمانية، وتجنبت الحصار العثماني، إلى أن دخلت القرن الذهبي، حيث أنزلت السلسلة الحديدية الضخمة، ثم شدها البيزنطيون مرة أخرى، ووصلت إلى ملاذ أمين[3]. أما أهل القسطنطينية، فقد غمرتهم موجة من الفرج، وانتعشت آمالهم، وارتفعت روحهم المعنوية، وزادت ثقتهم في المستقبل، وأقيمت مواكب الأفراح في المدينة، ودقت أجراس الكنائس[4].

---

(1) Barbaro, op. cit., p. 32.

(2) Barbaro, op. cit, p. 32. Guerdan, op. cit., pp. 195-196, Stavrianos, op. cit., pp. 56-57.

(3) Kritovoulos, op. cit., p. 52,

سالم الرشيدي: محمد الفاتح، ص ٦٠ ـ ٦٢.

(٤) سالم الرشيدي: المرجع السابق، ص ٦٢ ـ ٦٣.

وفى ٢١ أبريل سنة ١٤٥٣ لم تكف المدافع العثمانية، عن إطلاق قذائفها على أسوار القسطنطينية بالقرب من بوابة القديس رومانوس، وسوى برج بالأرض، وخاف البيزنطيون أن يشن الأتراك هجوما عاما، واعتقدوا أن العمامات التركية سرعان ما ستظهر فى المدينة. ويذكر المؤرخ باربارو أنه لو حدث أن الأتراك قد هاجموا المدينة فى هذا اليوم بعشرة آلاف جندى فقط، فمما لاشك فيه أن المدينة ستسقط فى أيديهم، ولكن البنادقة أصلحوا السور. ولم يتوقف الأتراك عن قصف بوابة القديس رومانوس، وهى التى جرت فيها الإصلاحات، بل ركزوا إرسال قذائفهم من مدفعهم الضخم والمدافع الأخرى على هذه البوابة، بحيث كان من الصعب حصر تلك القذائف، وامتلأت الأرض بجثث الأتراك، خاصة الإنكشارية بعماماتهم البيضاء. أما الأتراك العاديون، فكانوا يرتدون العمامة الحمراء(١).

أخذ السلطان محمد الثانى يبحث عن وسيلة لإدخال سفنه فى القرن الذهبى وحصار القسطنطينية من أضعف جوانبها، وإضعاف الدفاع عن السور البرى، وتشديد المراقبة على الجنوية فى جالاتا، ثم تسهيل المواصلات مع قاعدته فى روميللى حصار. وقد حاولت السفن العثمانية عدة مرات تحطيم السلسلة الضخمة القائمة عند مدخل القرن الذهبى، ولكن التوفيق لم يحالفها. ولاحت لمحمد الثانى فكرة حربية هائلة جديرة بذكائه لنقل السفن من مرساها فى بشكطاس إلى القرن الذهبى، وذلك بجرها على الطريق البرى، وإنزالها خلف السلسلة، وكانت المسافة التى ينبغى أن تقطعها السفن نحو ثلاثة أميال، وذلك فوق أرض ليست سهلة، ولكن تتخللها مرتفعات ووهاد وتلال وعرة متعرجة(٢).

وبعد أن مهد الأتراك الأرض المنحدرة وسووها، أتوا بألواح من الخشب وطلوها بالزيت والدهون والشحم، ورصوها على الطريق، لسهولة زلق المراكب عليها، وبهذه الطريقة المبتكرة أمكن إنزال نحو سبعين سفينة فى مياه القرن الذهبى فى جنح الظلام فى خليج يدعى المياه الباردة بعد جالاتا بقليل، بعد أن استخدمت الثيران لجرها(٣). واستيقظ أهالى القسطنطينية فى صباح ٢٢ أبريل على صيحات المسلمين المدوية، وهتافاتهم المتصاعدة،

---

(1) Barbaro, Diary of the Siege of Constantinople, pp. 36-37.

(2) Barbaro, op. cit., p. 37, Creasy, Turkey, p. 77. Runciman, op. cit., pp. 101-103.

(3) Kritovoulos, op. cit., Guerdan, op. cit., pp. 201-202.

محمد فريد: المرجع السابق، ص ٦٠، سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ٦٤.

وأناشيدهم العالية، وموسيقاهم العسكرية الصاخبة عقب نزولهم فى ميناء القرن الذهبى، فانتابهم الهلع والفزع[1]. وهكذا فتحت أول ثغرة خطيرة فى خطوط الدفاع البيزنطية، وتم إحكام الحصار فى البر والبحر. ويصف المؤرخ دوكاس وهو بيزنطى عاصر الحادثة، دهشته من هذ العملية قائلا: «إنها لمعجزة لم يسمع أحد بمثلها من قبل، ولم ير أحد مثلها من قبل»[2].

وفى اليومين الأول والثانى من عام ١٤٥٣، لم يحدث أى نشاط حربى فى البحر أو البر، فيما عدا القذف المتواصل للمدافع العثمانية، والصياح طبقا لعادة الأتراك. وكانت القسطنطينية فى حالة حزن وألم، بسبب النقص المتزايد فى المؤن، وبخاصة الخبز والنبيذ، وأشياء ضرورية أخرى للحفاظ على الحياة[3]. ولما اشتدت الضائقة بأهالى القسطنطينية، أمر الإمبراطور بأن تؤخذ آنية الكنائس من الذهب والفضة وأن تصهر وتسك نقوداً حتى يأتى الإنقاذ.

وفى اليوم الثانى عشر من مايو، وفى منتصف الليل، أتى إلى أسوار القصر خمسين ألف جندى مزودين بالأسلحة، وأحاطوا به، وأطلقوا صرخاتهم التى أثارت الرعب، وعلت أصوات الصنج والدفوف. وفى الليل شنوا هجوما قويا ضد أسوار القصر، جعل سكان المدينة يظنون أن المدينة وقعت فى أيدى الأتراك فى الليل. ولكن المدينة لم تقع - كما يذكر المؤرخ باربارو وصاحب يوميات الحصار - لأن الرب شاء ألا تقع فى أيدى الأتراك، تحقيقا للنبوءة التى قالها الإمبراطور قنسطنطين الكبير (٣٠٦ - ٣٣٧) بأن القسطنطينية التى شيدها وحملت إسمه سوف لاتقع أبداً[4].

وفى اليوم الثامن عشر من مايو ١٤٥٣، فاجأ محمد الثانى البيزنطيين ببناء برج شامخ استغرق بنائه ليلة واحدة، فطوال الليل ظل عدد ضخم من العمال يعملون فيه، وقد بنى هذا البرج بارتفاع يزيد على أسوار المدينة بالقرب من مكان يدعى كريسكا Cresca، وهو

---

(1) Barbaro, op. cit., p. 43.

(٢) محمد حرب: العثمانيون فى التاريخ والحضارة، ص ٧٢.

(3) Barbaro, op. cit., p. 43.

(4) Barbaro, op. cit., pp.48-49.

مكون من ثلاث طبقات كسيت كلها بالجلود، وفى كل طبقة منهاعدد من الجنود يحملون معدات القتال، وقد هال أهل القسطنطينية ضخامة هذا البرج، ووقف الإمبراطور البيزنطى ومن معه من أهل المدينة ينظرون إليه فى دهشة، وقال المؤرخ باربارو[1]، الذى شهد هذا البرج بنفسه: «وفى الحقيقة، لو اجتمع كل المسيحيين فى القسطنطينية، وأرادوا بناء مثل هذا البرج، لاستغرق منهم ذلك شهرا، وقد بناه المسلمون فى ليلة واحدة».

وفى وسط الظروف الصعبة التى شهدتها القسطنطينية بعد شهر من الحصار العثمانى، وضع البيزنطيون أملهم فى مساعدة الأسطول البندقى، خاصة أن سفير البندقية قد وقع اتفاقية مع الإمبراطورية فى ٢٦ يناير ١٤٥٣م، تتضمن أن حكومته سوف ترسل المساعدة عند الحاجة إليها، فإذا ظهر الأسطول البندقى فى البوسفور فإن المسلمين سيلوذون بالفرار، ولو تأخر فى المجىء لنجدة القسطنطينية فلن يجد إلا الجثث لتحريرها. وفى ٣ مايو استدعى الإمبراطور البيزنطى قادة المجتمع البندقى فى القسطنطينية وخاطبهم قائلاً: «أيها القباطنة المهذبون، وأنتم كلكم نبلاء البندقية، لقد صار من الواضح أن حكومتكم سوف لاترسل أسطولا لمساعدة تلك المدينة البائسة، ويبدو لى أنه ينبغى أن نرسل سفينة سريعة إلى المياه القريبة لتحاول أن تجد أسطولكم»، فوافق الجميع على ذلك[2]، ولكن البندقية لم ترد الدخول فى الحرب بين العثمانيين والبيزنطيين لضمان مصالحها الاقتصادية.

وعلى أية حال، قطع البيزنطيون كل أمل فى مجىء النجدة من الغرب الأوربى، ووضعوا كل أملهم فى سور المدينة الضخم الذى لم تنقطع مدافع الأتراك عن قذفه ودكه. واستحوذ اليأس على بطريرك القسطنطينية، فاعتزل منصبه، واختفى فى أحد الأديرة ليقضى بقية حياته فى الصلاة والعبادة[3].

وعندئذ طلبت الحامية من الإمبراطور البيزنطى أن يغادر المدينة، على أمل أن يجمع جيش فى البلقان لمساعدته ضد العثمانيين، ولكنه أدرك ماترمى إليه الحامية ورفض بإباء قائلاً: «أنا لا أوافق أبداً على أن أفارق رجال كنيستى وكنائس العامة المقدسة، وعرشى

---

(1) Barbaro, op. cit., p. 52.

(2) Guerdan, op. cit., pp. 206-207.

(٣) سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ٧٢.

وشعبى. وماذا سوف يقول العالم؟ أتوسل إليكم ألا تسألونى مغادرتكم، فليس لى من رغبة إلا فى الموت معكم(١).

وفى ٢٣ مايو ١٤٥٣م أعتقد السلطان محمد الثانى أن الوقت قد حان للقيام بالهجوم الشامل، فبعث برسالة إلى قنسطنطين الحادى عشر باليولوجوس يدعوه فيها إلى تسليم المدينة قبل أن تهدر الدماء، وأوفد إليه صهره إسفنديا أوغلو داماد قاسم بك الذى كان يربطه بالإمبراطر ود قديم وصداقة قوية، وعرض عليه أن يسلم المدينة بعد أن وصلت إلى ما وصلت إليه من الخراب والبؤس، وتهدمت أسوارها، وأن يجنب الأطفال والنساء والشيوخ أهوال الحرب وويلاتها، وأن الدفاع عبث لايجدى. وعرض عليه باسم السلطان أن يكون حاكما على المورة كما كان من قبل، وسوف يمنح إخوته ولايات أخرى. أما سكان المدينة فمن أراد الرحيل رحل عنها بما شاء من أمواله، ومن آثر البقاء فيها فقد ضمن لهم السلطان على أنفسهم وأموالهم، فإن أبى قنسطنطين هذا فلا ينتظرن غير الحرب والدمار(٢)، واجتمع قنسطنطين برجاله ومستشاريه يأخذ رأيهم فى هذا الأمر، ومال بعضهم إلى تسليم المدينة، ولكن چويستنيانى وجماعة من أهل الحرب رفضوا هذا العرض، وأصروا على مواصلة القتال مهما كانت نتائجه. وكان ذلك رأى قنسطنطين، فقال لرسول السلطان: «أنه يشكر الرب إذا جنح السلطان إلى السلم وأنه يرضى أن يدفع له الجزية، أما القسطنطينية، فإنه قد أقسم أن يدافع عنها إلى آخر نفس فى حياته، فإما أن يحتفظ بعرشها أو يدفن تحت أسوارها(٣).

وعندما علم السلطان بإجابة الإمبراطور البيزنطى، وانتابه اليأس من الاستيلاء على المدينة بدون حرب، أعطى تعليماته للمنادين ليبلغوا الجيش عن اليوم الذى حدده لشن الهجم العام على المدينة. وأكد السلطان بأنه لايريد لنفسه غير مبانى المدينة وأسوارها، أما بالنسبة لكنوز المدينة الثمينة وأسراها فسيتركها مكافأة للجنود، فاستحسنوا ذلك وصاحوا فرحين(٤).

---

(1) Guderdan, op. cit., p. 202.

(2) Doukas, op. cit., pp. 217-218,

سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ٧٤.

(3) Creasy, Turkey, p. 77-78, Doukas, op. cit., p. 218.

سالم الرشيدى: المرجع السابق والصفحة.

(4) Doukas, op. cit., p. 230., Runciman, The Fall of Constantinsple, p. 126.

وهنا نلاحظ أن ملك المجر أراد أن يضغط على السلطان محمد الثانى وهو فى هذا الوقت الحرج، فأرسل يقول له فى ٢٦ مايو ١٤٥٣ إنه فى حالة عدم توصل العثمانيين إلى اتفاق مع الإمبراطور البيزنطى فإنه ـ أى ملك المجر ـ سيقود حملة أوربية لسحق العثمانيين .ولم تغير هذ الرسالة شيئا من الوضع القائم، وإن كان محمد الثانى قد صفى حسابه مع ملك المجر(١).

وبعد أن مضى على الحصار خمسون يوما اشتد فيها الضيق بالمدينة، وظل القصف فيها دون انقطاع، أمضى السلطان محمد الثانى استعداداته الأخيرة فى يوم الإثنين ٢٨ مايو ١٤٥٣ ، فأمر بنفخ الأبواق فى معسكره، وأمر جميع قواده أن يكونوا على أهبة الاستعداد فى مراكزهم، إذ قرر أن يوجه هجوما عاما على المدينة فى اليوم التالى. وعندئذ أسرع الجميع إلى مراكزهم، ولم يفعل الأتراك شيئا بقية اليوم سوى إحضار السلالم ووضعها على الأسوار لاستخدامها فى اليوم التالى، وقد تم وضع حوالى ألفين من السلالم(٢).

وفى نفس اليوم ركب السلطان ومعه عشرة آلاف فارس إلى مرسى أسطوله فى بشكطاش ليتفقده، ويطلع بنفسه على ما اتخذه من الاستعدادات، ثم وضع مع أمير البحر حمزة باشا التنظيمات حول الطريقة التى سيقتحمون بها المدينة،ثم رجع السلطان إلى معسكره(٣).

وفى مساء ذلك اليوم (٢٨ مايو) أوقد الجنود العثمانيون النيران والمشاعل، وتعالت صيحات المسلمين وهم يهتفون بأعلى صوتهم «لا إله لا الله، محمد رسول الله»، ودقت الطبول، ونفخ فى الأبواق، وارتفعت الأناشيد الحماسية، وأخذ فريق من الشيوخ والعلماء يقرأون القصائد والأذكار الدينية. واستخف بعضهم الطرب والفرح، فأخذوا يتواثبون ويرقصون(٤).

---

(١) محمد حرب: العثمانيون فى التاريخ والحضارة، ص ٧٢ ـ ٧٣.

(2) Barbaro, op. cit., p. 59

(3) Barbaro, op. cit., p. 60.

سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ٧٩.

(4) Guerdan, op. cit., p. 211.

سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ٧٨.

وبعد أن عاد محمد الثانى إلى معسكره، دعا إليه كبار رجال جيشه، وأصدر إليهم التعليمات الأخيرة، وأعلن إليهم أن هجوما عاما سيقع على المدينة، ثم ألقى عليهم الخطبة التالية: «إذا تم لنا فتح القسطنطينية تحقق فينا حديث من أحاديث رسول الله ومعجزة من معجزاته، وسيكون من حظنا ما أشاد به هذا الحديث من التمجيد والتقدير، فأبلغوا أبناءنا العساكر فرداً فرداً، إن الظفر العظيم الذى سنحرزه سيزيد الإسلام قدرا وشرفا، ويجب على كل جندى أن يجعل تعاليم شريعتنا الغراء نصب عينيه، فلا يصدر عن أحد منهم ما يجافى هذه التعاليم، وليتجنبوا الكنائس والمعابد ولا يمسوها بأذى، ويدعو القسس والضعفاء والعجزة الذين لايقاتلون»(١). فتعهد رؤساء الإنكشارية بتحقيق النصر، ووعد السلطان الشجعان الذين يصعدون إلى الأسوار فى المقدمة بأعظم الصلات، وأنه سيعينهم رؤساء وسناجق، ولكنه أنذر الجبناء بشر الجزاء، وطايف المشايخ بالعسكر، حاثين على الجهاد فى سبيل الله(٢).

وقبل ظهور الفجر بثلاث ساعات في اليوم التاسع والعشرين من مايو ١٤٥٣م، أتى السلطان محمد الثانى إلى أسوار المدينة، وبدأ أشد الهجوم وأعنفه. وقد قسم السلطان الذين يقاتلون إلى ثلاثة أقسام، يضم كل منها خمسين ألف مقاتل، فالقسم الأول مؤلف من جنود الروميللى، وأسرى المسيحيين الذين احتفظ بهم السلطان فى معسكره، والقسم الثانى مؤلف من رجال ينتمون إلى رتب متواضعة من الفلاحين وما شابه ذلك، والقسم الثالث يتألف من الإنكشارية بعمائهم البيضاء، وهم جنود السلطان، وخلفهم ضباط السلطان، وخلف هؤلاء السلطان(٣).

وقد أُسند إلى رجال القسم الأول ـ أو المجموعة الأولى ـ مهمة وضع السلالم على الأسوار لتسلقها ـ ورد المدافعون على هؤلاء المهاجمين بأن قاموا بقلب هذه السلالم بمن كان عليها، ولم يمنع ذلك المهاجمين من معاودة تسلق السور مرة أخرى، ونجح بعضهم فى ارتقائه، وحدث قتال عنيف استمات فيه جويستنياتى وجنوده. وعندما رأى بعض

(١) سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ٧٩.

(٢) عبد الله عنان: مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام، ص ١٨٤ ـ ١٨٥.

(3) Barbaro,Diary of the Seige of Constantinople, p. 62.

المهاجمين الذين يرفعون السلالم كثرة الموتى، وحاولوا التقهقر، ردهم الترك إلى الأسوار مرة أخرى(١).

وكان السلطان العثماني يرمى بهذا الهجوم إلى إرهاق المحصورين واستنزاف طاقتهم، واستهلاك ذخيرتهم، قبل أن يوجه إليهم الضربة القاضية، فأمر جنوده بعد نحو ساعتين من القتال العنيف بالانسحاب، ودفع إلى الهجوم القسم الثانى من جنوده وهم جنود الأناضول. أما المدافعون فقد ظنوا لأول وهلة عند انسحاب المهاجمين أن الأتراك ارتدوا على أعقابتهم، وعدلوا عن مواصلة القتال، ولكنهم فوجئوا بهجوم أشد وطأة وعنفا قام به جنود الأناضول، وهم أشد مراساً فى القتال(٢). ويذكر المؤرخ باربارو(٣) أن القسم الثانى من الجنود اندفعوا كالأسود على الأسوار الواقعة فى بواية القديس رومانوس، وعندما رأى أهالى القسطنطينية هذا الهجوم العنيف المرعب، جرى كل رجل طلبا للنجاة.

وبينما كان القتال يجرى عنيفا عند السور البرى، كان هناك قتال آخر لايقل عنفا على جانب البحر. فقد أخذت السفن العثمانية التى يقودها أمير البحر حمزة باشا فى بحر مرمرة أمكنتها من السور، والتحم الجنود العثمانيون فى صراع عنيف مع المدافعين الذى هبوا إلى قذف السلالم إلى البحر وإطلاق النيران على الأتراك(٤). وقد أثار هذا الهجوم الشديد من ناحية البحر الفزع بين أهل القسطنطينية، وجأرت أصواتهم بالدعاء والضراعة، ودقت أجراس الكنائس دقات شديدة متوالية. على أن هذا الخطر قد أثار فى الأهالى من جهة أخرى روح المقاومة والكفاح، ولم تتخلف النساء عن الإشتراك فى أعمال الدفاع، فأخذن يغلين الزيوت ثم يحملنها إلى الأسوار لتصب على المهاجمين والذين يتسلقون السور منهم خاصة، ولكن ذلك لم يضعف عزيمة الأتراك(٥).

أما جنود الأناضول الذين كانوا يقومون بالهجوم، فقد أمرهم السلطان بالانسحاب، وكان المدافعون قد بلغوا من الإعياء أقصاه، ولم يكن السلطان يرمى من هذه الهجمات المتواصلة إلا إرهاق المدافعين قبل الإجهاز عليهم. واغتبط چويستنيانى وجنوده بانسحاب

---

(1) Ibid., p. 62.

(٢) سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ٨٥.

(3) Barbaro, op. cit., p. 62.

(٤) سالم الرشيدى: المرجع السابق، ص ٨٤.

(٥) المرجع السابق، ص ٨٥.

الأتراك، واعتقدوا أنهم سينالون قسطا من الراحة، ولكن السلطان لم يدعهم ينعمون بالراحة[١]. إذ جاء بالقسم الثالث من جنوده وهم الانكشارية، وقد قاد السلطان بنفسه هذا الهجوم. وفى ذلك يقول المؤرخ باربارو[٢]: «هجمت الإنكشارية على سور المدينة البائسة كالأسود صائحين، ووصلت أصواتهم بعيداً إلى الأناضول على بعد إثنتى عشرميلا من معسكرهم، وسلبت أصواتهم العالية شجاعتنا، وانتشر الإنكشارية فى المدينة، وتعالت أصوات السكان تطلب الرحمة من السماء، حتى لايحكم الوثنيون (الأتراك) إمبراطورية قسطنطين، وركع كل الرجال والنساء، وصلوا للرب وأمه العذراء، لكى يمنحنا النصر ضد العنصر الوثنى...».

ويذكر المؤرخ بابارو[٣]، أن البيزنطيين فعلوا المعجزات من أجل الدفاع عن المدينة، واستبسلوا فى القتال، ولكن الأتراك ركزوا هجومهم، وقدموا أروع صور البسالة والبطولة. ورأى البيزنطيون أنه له تعد ثمة فائدة، لأن الرب قرر أن المدينة لابد أن تقع فى أيدى الترك، وتلك هى مشيئته. وضاعف الترك قوتهم فى الهجوم، وانهالت القذائف من المدفع الكبير، وانطلق الترك كالوحوش الكاسرة، وفى مدى ربع ساعة كان هناك حوالى ثلاثين ألف تركى داخل الحصون، وقد أطلقوا صرخاتهم العالية التى بدت كالجحيم تماما، ووصلت بعيداً إلى الأناضول، وسرعان ما أصبحت التحصينات على مسافة ستة أميال مليئة بالترك.

وأدرك البيزنطيون أن المعركة فى ساعتها الأخيرة، فانتابهم الرعب والفزع الشديدين، وأمر الإمبراطور بدق ناقوس الخطر فى جميع أنحاء المدينة، وظهر نشاط مكثف فى المدينة، ولكنه نشاط ذات صفة دينية. ففى كل مكان جماعات صغيرة من القسس والأساقفة والرهبان والنساء والأطفال يصلون ويبكون، ويرفعون الأيقونات. وقضى الأهالى الوقت فى الصلاة فى كنيسة أياصوفيا، وأقيم قداس فى تلك الكنيسة، وجثا جميع الحاضرين على ركبهم: الإغريق والجنوية والبنادقة والأرثوذكس والكاثوليكية، والقسس والجنود، والنبلاء والعامة، الإمبراطور والشحاذون. وقد وحدت النكبة بينهم، وأصبحوا متساويين أمام المصير الذى تلقاه المدينة، والموت الذى يحوم حولهم[٤].

---

(١) سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ٨٥.

(2) Barbaro, Diary of the Seige of Constantinople., p. 63.

(3) Ibid., pp. 64-65.

(4) Guderan, Byzantium: Its triumphs and Tragedy., p. 212.

وفى عنفوان الهجوم أصيب جويستنيانى الجنوى بجرح مميت من سهم مشتعل بالنار إخترق صدره، وقرر أن يهجر مركزه ويهرب إلى سفينته، حيث قضى فيها نحبه بعد يومين، وبموته سرى اليأس إلى قلوب القوات الأجنبية، ودخل الأتراك المدينة من بوابة القديس رومانوس، حيث سويت الأسوار بالأرض من شدة قصف المدافع(١). ويصف أحد أوائل شهود العيان الذين وصلوا إلى البندقية، وهو چاكوبو تيدالدى Jacopo Tedaldi شدة القصف، وكان تاجراً من فلورنسة، وحارب خلال الحصار، وفر فى اللحظة الأخيرة، حيث التقطته إحدى السفن السبعة التى أنقذت حوالى أربعمائة، ووصل إلى البندقية فى ٥ يوليوسنة ١٤٥٣، ومنها إلى فلورنسة. وقد روى أن السلطان حاصر المدينة بحوال مائتى ألف مقاتل، وضرب أسوارها بمدافع ضخمة، وخاصة المدفع العملاق الذى كان يطلق أكثر من مائة قذيفة فى اليوم، وتحت القذف المتواصل تهشمت الأسوار القديمة كالطين(٢).

وازداد هجوم الإنكشارية عنفا، وصعد البعض منهم برجاً كان يعلوه راية القديس مارك Saint Mark وراية الإمبراطور، فأنزلوهما ووضعوا مكانهما راية السلطان العثمانى، وعندئذ أيقن الأهالى أن الأتراك قد استولوا على المدينة، وأنه لم يعد ثمة أمل فى استردادها(٣).

فلما رأى قنسطنطين الأعلام العثمانية ترفرف فى المدينة، واندفاع جموع الأتراك كالسيل فى أرجائها، نزل عن حصانه، وخلع ملابسه الإمبراطورية، وسل سيفه، وأخذ يخبط به ذات اليمين وذات الشمال، حتى أصابه أحد الجنود الأتراك بضربة سيف قاتلة، ومات ميتة الأبطال، ولم يقف شيء بعد ذلك فى وجه الأتراك لدخول المدينة، فقد تفتحت لهم جميع الأبواب والمنافذ، وتزاحم الناس كل يطلب النجاة لنفسه(٤).

وبعد أن دخل الأتراك المدينة، ترك الجنود الاستحكامات ومراكزهم بحثا عن الأمان، واندفع البنادقة إلى سفنهم، وأبحروا على وجه السرعة، وامتلأت سطوح السفن بالفارين،

---

(1) Barbaro, op. cit., p. 65, Kritovoulus, op. cit., p. 70,

عزيز سوريال عطية: العلاقات بين الشرق والغرب، ص ١٣٩.

(2) Schwoebel (Robert), The Shadow of the Crescent, (New York, 1967), p. 4.

(3) Barbaro, op. cit., p. 66, Doukas, op. cit., pp. 222-223, Guerdan, op. cit., p. 215.

(4)Guerdan, op. cit., pp. 216-217.

وتبعهم عدد من السفن الجنوية، بعضها كان يحمل أعضاء من الأرستقراطية البيزنطية من ال باليولوجوس وكانتا كوزين، الذين كان لديهم الوقت ليجمعوا عائلاتهم، وهربوا من العقاب الذى كان سينزل بهم، وكانوا محظوظين فى ذلك، فهرب البعض إلى خيوس، والبعض إلى كريت، والبعض إلى البندقية وغيرها. أما نهب المدينة وسلبها الذى وعد به السلطان قواته المنتصرة، فقد استمر ثلاثة أيام ليلا ونهارا. فقد نهبت ودمرت المنازل الخاصة والكنائس والأديرة، وتعرض القصر الإمبراطورى للتلف، وحطمت الأيقونات والتحف، والمخطوطات النادرة الثمينة، وانتزعت أطر الأيقونات الثمينة من الذهب والفضة، وألقى بالأيقونات للنيران. وقتل الأتراك كل شيء حى وقف فى طريقهم، وجرت الدماء فى الشوارع. وقد سمع الجنود الأتراك أن أغلى ما يستحق النهب يوجد فى كنيسة أياصوفيا، وكان الإنكشارية أول من توجه إلى هناك، وكانت الكنيسة مزدحمة بالخائفين والمذعورين الذين فروا إلى هناك، وأغلقوا الباب عليهم. ولكن الجنود سرعان ماشقوا طريقهم إلى داخل الكنيسة، وحطموا التحف الثمينة[١]. ومع هذا فإذا أخذنا وجهات النظر المتعارضة والأدلة القائمة، فإن معاملة الأتراك لسكان القسطنطينية كانت أرحم من معاملة الصليبيين. لهم أثناء احتلالها سنة ١٢٠٤[٢].

وما أن انتهت كل مقاومة فى المدينة، حتى ركب السلطان محمد ـ الذى أطلق عليه لقب الفاتح ـ صهوة جواده الأبيض، وكان عمره آنذاك ثلاث وعشرين سنة، وتوجه إلى كنيسة آياصوفيا (سانت صوفيا)، وطاف بأرجائها، وقد بهرته روعتها وأعمدتها الرخامية الرائعة، وصلى شكراً لله، وأمر بتحويل هذه الكنيسة إلى مسجد، وطلب إلى أحد العلماء أن يؤذن للصلاة، ثم صلى السلطان لله الذى اختصه بتحقيق نبوءة الرسول ﷺ القائلة إن القسطنطينية ستصير يوما مدينة إسلامية[٣].

---

(1) Nicol, op. cit., 89`90, kritovoulos, op. cit., p. 72, Schwobel, op. cit., p. 7.

(2) Ostrogorsky, Hist. of Byzntine State, p. 571, Stavrianos, op. cit, p. 60, Vasiliev, op. cit., Vol. II, p. 653.

عزيز سوريال عطية: المرجع السابق، ص ٤٠، عبد القادر أحمد اليوسف: الإمبراطورية البيزنطية (بيروت ١٩٦٦)، ص ١٨٤.

(3)Nicol, op. cit., p. 90 Hearsey, City of Constantine,p. 245.

ولما كانت مدينة القسطنطينية قد فتحت عنوة أو أخذت بالحرب، فإن الشريعة الإسلامية كانت تبيح نهب المدينة والاستيلاء علي أموال سكانها. ولكن محمد الفاتح سيطر على رجاله، وبذل كل ما فى وسعه للاحتفاظ بالمدينة سليمة، حتى يجعل منها مركزاً لإمبراطوريته العالمية. وعندما لجأ كثير من السكان إلى مستعمرة جالاتا الجنوية عبر القرن الذهبى، عقد زغنوس باشا إتفاقية بمقتضاها ضمت جالاتا إلى الإمبراطورية العثمانية، وهدمت أسوارها ودفاعاتها وتحصيناتها، فى مقابل أن يسمح السلطان لسكانها بممتلكاتهم، وضمان حرية العبادة، وممارسة التجارة فى جميع أرجاء الدولة العثمانية، على أن يدفعوا جزية سنوية(١).

وفى اليوم الخامس من الفتح زار محمد الفاتح جالاتا، وأمر بإجراء تعداد للسكان، فوجد أن كثيراً من البيوت قد أغلقت لأن أصحابها اللاتين فروا فى السفن. فأصدر أمراً أن يرجع السكان فى غضون ثلاثة شهور، وإذا لم يرجعوا سيصادر بيوتهم. ثم أمر بإزالة أسوار جالاتا، وعين عبده سليمان حاكما عليها. وحول الكنيسة الكبيرة إلى مسجد، ولكنه ترك بقية الكنائس على حالها، ورجع منتصراً إلى أدرنة فى ١٨ يونيو ١٤٥٣ ومعه عدد ضخم من الأسرى وكميات كبيرة من الغنائم(٢).

وعندما انتهت الفوضى التى أعقبت فتح القسطنطينية، كانت البطريركية شاغرة إذ ذاك، فالبطريرك المعين جريجورى الثالث كان متغيبا فى إيطاليا، وكان لابد من وجود شخصية دينية تقود المجتمع المسيحى فى الإمبراطورية العثمانية(٣). فاختار محمد الثانى رجل دين بارز يدعى جناديوس Gennadius ليكون بطريركا للكنيسة الأرثوذكسية، وأكد له «كل امتيازات أسلافه». وعفى محمد الثانى الكنيسة من الضرائب، وسمح لها باستقلال تام فى إدارتها، والاحتفال بحرية الخدمات الدينية، حتى أنه قام بزيارات للبطريرك الجديد، وناقشه فى اللاهوت، وطلب إليه أن يكتب كراسة عن المسيحية، مما يدل على تسامح وعقلية مستنيرة(٤).

---

(1)Shaw, op. cit., Vol. I, p. 57, Kritovoulos, op. cit., p.76.

(2)Doukas, op. cit., pp. 240-241

(3) Nicol, op. cit., pp. 90-91.

(4) Stavrianos, The balkans since 1453, p. 60.

وكان سقوط القسطنطينية حادثا جللا اهتزت له أوربا المسيحية من أقصاها إلى أقصاها. ففي خلال صيف عام ١٣٥٤ انتشرت أخبار سقوط القسطنطينية، فقد وصلت إلى جزيرة كريت فى أوائل يونيو ثلاث سفن تحمل الفارين من المدينة المنكوبة. ويروى راهب دير أجاراثوس Agarathos الذى سجل الحدث أنه «لاشيء أسوأ مما حدث، ولن يحدث مثله»، وتضرع إلى أن يخلص جزيرته من براثن الأتراك[1]. وكتب المؤرخ ليونتيوس مخاريس Leontis Makharis قائلا إن «كثيراً من الرجال الطيبين والرهبان أتوا إلى جزيرة قبرص قادمين من القسطنطينية، وأن ملكة الجزيرة شارلوت دى لوزجنان انتابها الحزن العميق، وأشفقت على حالة اللاجئين، وبنت لهم ديراً، ومنحتهم قرى وأموالا كثيرة». وفى نهاية يونيو كتب جين دى لاستيك Jean de Lastic مقدم منظمة الاسبتارية فى رودس إلى الأمير الألمانى فردريك الثانى صاحب براند نبرج الذى كان يؤدى فريضة الحج فى بيت المقدس، يخبره بما حدث. فوصف دى لاستيك رعب الحصار العثمانى، والنهب الدموى الذى أعقب سقوط المدينة، وحث فردريك والحكام المسيحيين على أن يتوحدوا ويقاوموا السلطان الطاغية الذى أقسم بتحطيمهم[2].

وقد أوضح البنادقة شدة الرعب الذى استولى على جمهوريتهم فى رسالة بعثوا بها إلى البابا نيقولا الخامس (١٤٤٧ ـ ١٤٥٥)، وحذروا من عواقب النصر العثمانى وخطره الداهم. وأقر البنادقة خطأ أن بيرا وقعت فى ٢٨ مايو، وتم ذبح كل سكانها من ست سنين فما فوق، وجعل السلطان من القسطنطينية عاصمة له، ومن الصعب إيقافه، إلا إذا قام الرب والبابا والدول المسيحية بمد يد المساعدة، وقد تنبأ السناتو فى البندقية بخضوع الجمهورية للترك،وما يترتب على ذلك من نتائج خطيرة للمسيحية. وتوسل البنادقة للبابا أن يستخدم كل نفوذه لمد يد المساعدة قبل أن يفوت الأوان. ولم يلبث السناتو أن أرسل چيوڤانى مورو Giovanni Moro إلى بلاط نابولى، لتبليغ ألفونسو الخامس،وتذكيره «أن السلطان العثمانى لازال صغيرا، وأنه يكره المسيحية من كل قلبه». وأكد مورو حاجة أوربا الملحة للاتحاد والوئام بين الحكام المسيحيين. وأخيراً وصل الرسول إلى روما فى ٨ يوليو،

---

(1)Schwoebel, The Shadaw of the Grescent, p. 1.

(2) Schwoebl, The Shadow of the Crescent., p. 1.

وأبلغ الشعب الرومانى بالكارثة التى ألمت بالقسطنطينية، فانبرى الشعب ينتحب فى االشوارع(١).

وكتب الكاردينال بيساريون Bessarion إلى دوج البندقية بعد سقوط القسطنطينية قائلا: «المدينة التى كانت مزدهرة، رمز الفخامة والعظمة فى الشرق، وموطن كل ما هو جيد. هذه المدينة قد سقطت وخربت ونهبت تماما على أيدى أكثر البرابرة همجية ووحشية. حدث لها هذا على أيدى القساة غلاظ القلوب، ذوى الطبائع الحيوانية. وثمة أخطار تهدد إيطاليا ـ ولن أذكر مناطق أخرى ـ إذا لم نكبح جماح الهجوم المدمر لأكثر أنواع البرابرة الهمج ضرراً»(٢).

كما قام الهاربون الذين فروا من أيدى السلطان العثمانى بنشر خبر سقوط القسطنطينية فى بلاد البلقان المجاورة. وسافر أسقف إغريقى يدعى صمويل وبصحبته رجل دين أرثوذكسى خلال والاشيا وترانسلفانيا، وعندما وصلا هرمانشتاد Hermanstadt فى أغسطس، حذر الإغريق من هجوم يوشك أن يحدث فى المنطقة، كما وصلت أخبار الكارثة إلى ألمانيا وأوربا الشرقية(٣).

وأبلغت البندقية وروما بقية أوربا بأحداث القسطنطينية، فعلم فيليب الطيب صاحب بورجنديا، وكان من أشد الناس تحمساً لقتال الأتراك قبل سقوط القسطنطينية، من البابا نيقولا الخامس، ومن إمبراطور ألمانيا فريدريك الثالث، وعندما علم ملك البرتغال بالخطر الوشيك، وعد بمساندة البابا. كما وصلت أنباء الكارثة الأليمة إلى أبعد مكان فى العالم المسيحى، فعندما علم كرستيان الأول ملك الدانمارك والنرويج بالحادث، أعلن أن السلطان العثمانى وحش خرج من البحر(٤).

أما فى الشرق الإسلامى، فقد كان الفتح العظيم على عكس ذلك، إذ عم الفرح والابتهاج بين المسلمين فى أرجاء آسيا وأفريقية لهذا الفتح الإسلامى. وما أن وصل رسل

---

(1) Ibid., p. 1.

(٢) بول كولز: العثمانيون فى أوربا، ص ١٥٣ ـ ١٥٤.

(3)Schwoebel, The Shodow of the Crescent., p. 3.

(4) Ibid., pp. 3-4.

السلطان محمد الفاتح إلى مصر والحجاز وفارس يحملون نبأ هذا الفتح، حتى هلل المسلمون وكبروا، وأذيعت البشائر من منابر المساجد، وأقيمت صلوات الشكر، وزينت المنازل والدكاكين والحوانيت، وعلقت على الجداران والحوائط الأعلام والأقمشة المختلفة الألوان، وأمضى الناس فى هذه البلاد أياما كأحسن ما تكون أيام الأعياد الإسلامية روعة وبهاء[1].

ويصف المؤرخ المصرى المعاصر أبا المحاسن شعور الناس فى القاهرة، بعد أن وصل إليها رسول السلطان محمد الفاتح ورفقته فى ٢٣ شوال سنة ٨٥٧ هـ (٢٧ أكتوبر ١٤٥٣) بنبأ فتح القسطنطينية ومعهم الهدايا وأسيران، قال: «قلت ولله الحمد والمنة على هذا الفتح العظيم، وجاء القاصد المذكور ومعه أسيران من عظماء استانبول، وطلع بهما إلى السلطان (السلطان إينال) وهما من أهل القسطنطينية، وهي الكنيسة العظمى باستانبول، فسر السلطان والناس قاطبة بهذا الفتح العظيم، ودقت البشائر لذلك، وزينت القاهرة بسبب ذلك أياما، ثم طلع القاصد المذكور، وبين يديه الأسيران إلى القلعة فى يوم الاثنين خامس وعشرين شوال، بعد أن اجتاز القاصد المذكور ورفقته بشوارع القاهرة، وقد احتفلت الناس بزينة الحوانيت والأماكن، وأمعنوا فى ذلك إلى الغاية، وعمل السلطان الخدمة بالحوش السلطانى من قلعة الجبل..».

ويقول ابن إياس فى هذه الواقعة: «فلما بلغ ذلك، ووصل وفد الفاتح، دقت البشائر بالقلعة، ونودى فى القاهرة بالزينة، ثم إن السلطان عين برسباى أمير آخور ثانى رسولا إلى ابن عثمان يهنئه بهذا الفتح»[2].

والواقع أن الانتصار الذى حققه العثمانيون ضد الإمبراطورية البيزنطية فى ٢٩ مايو ١٤٥٣، يعتبر علامة بارزة على نهاية إمبراطورية وبداية أخرى. فقد توج محمد الفاتح إنجازات أسلافه، وما أنجزه فى إيجاز كما قال المؤرخ وتيك Wittek كان «عملا إمبرطوريا، تحدى به الفاتح كل الغرب الأوربى، وأثبت أنه صار سيداً على الأرض الممتدة من البحر الأسود حتى البحر المتوسط، وهو وحده الذى يقرر مصيرها»، وهذا يعنى أن التجارة التى

---

(١) سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ١٠٥.

(٢) إبن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور، جـ ٢، ص ٣١٦.

كانت تمر خلال الأراضى السابقة، والتى سيطر عليها الإيطاليون بصفة خاصة، أصبحت حينئذ تحت تصرف السلطان العثمانى(١).

وكان فتح القسطنطينية من وجهة نظر العثمانيين ليس مجرد نصر عسكرى عظيم، فلم تكن القسطنطينية مدينة عادية، بل عاصمة كبيرة، ومركزاً لشبكة مواصلات تجارية واسعة وممتدة، وقاعدة إدارية، غير أنها تفسخت فى القرون الأخيرة. وها هى بعد أن وقعت فى أيدى العثمانيين، أضحى من الممكن بعثها من جديد لخدمة أهداف السادة الجدد (العثمانيين) ومصالحهم. ولوقوع القسطنطينية موقعا وسطا بين آسيا وأوربا، أصبحت هى العاصمة الطبيعية للإمبراطورية العثمانية التى تمتد ولاياتها فى القارتين(٢).

ومن النتائج الهامة لفتح القسطنطينية بالنسبة للغرب الأوربى أنه ترك أثراً بعيداً فى مسيرته الفكرية، فقد هاجرت جماعات عديدة من المفكرين والعلماء إلى الغرب وبخاصة إيطاليا، حاملين معارفهم وبقايا مكتباتهم(٣). وكان ذلك من بواعث النهضة الحديثة فى أوربا.

وعلى أية حال، أصبحت مدينة القسطنطينية بعد فتحها على أيدى محمد الثانى عاصمة للإمبراطورية العثمانية، تعرف باسم إستانبول أو إسلامبول أو الآستانة، وإستانبول كلمة تركية معناها دار الإسلام. وكانت الخطوة التالية للسلطان هو إعادة المدينة إلى سابق عظمتها، فقبل الفتح بوقت طويل اختفى كثير من سكان المدينة، وانهار ازدهارها الاقتصادى، وتركت المدينة فقيرة بائسة وخالية من السكان إلى حد كبير، وبلغ عدد سكانها حوالى ستين أو سبعين ألف. وقد حاول محمد الثانى بعد الفتح مباشرة أن يتجنب النهب والسلب قدر الإمكان، ولكن كثيراً من الناس هربوا من شدة الخوف. ومن ثم كان أول عمل قام به محمد الثانى هو إعادة سكان استانبول، وإغراء سكانها الفارين بالعودة إليها(٤). وقد أراد بذلك أن يجعل من عاصمته الجديدة عالماً صغيراً يسكنه مختلف الشعوب والعناصر الدينية المتنوعة فى الإمبراطورية(٥).

---

(1)Schwoelbe, p. cit., p. 10.

(٢) بول كولز: العثمانيون فى أوربا، ص ٣٤.

(3)Lemerle, A Hist of Byzantium., p. 135.

(4) Shaw, Hist of Ottoman Empire, Vol.. I. p. 59.

(5) Ibid., p. 59., Runciman, The Fall of Constantinople., p. 159.

وقد اتخذ محمد الثانى إجراءات لإعادة تسكين المدينة التى غادرها سكانها الإغريق إلى أدرنة وبروسة وبلوفديف Plovdiv وغاليبولى، ودعا إغريق المورة وأزمير وطرابيزون، ويهود سالونيكا، وأرمن توقات وأماسيا وقيصرية، وأتراك الأناضول، للإقامة باستانبول، وقدم لهم شروطا مغرية للغاية، منها المنازل المجانية، والإعفاء المؤقت من الضرائب، ومدهم بأدوات العمل اللازمة(١). وعندما رأى السلطان أن سياسة التهجير التطوعى لم تأت بالغرض المنشود، إبتكر حلا جذريا، وهو تهجير رعاياه ممن يتمتعون بالمهارة فى الحرف والتجارة إلى إستانبول بالقوة الجبرية، فأتى بالمهاجرين من الأناضول، والبلقان، ومنحهم الأراضى وتنازلات فى الضرائب، على أمل استعادة الحياة الاقتصادية للمدينة. وقد تم تنفيذ هذا الإجراء فيما بعد فى القرن السادس عشر الميلادى على أيدى السلطان سليم الأول، بعد استيلائه على تبريز ودمشق والقاهرة، كما اتخذه السطان سليمان القانونى بعد غزواته فى البلقان ووسط أوربا(٢).

لم يكن كافيا إعادة تسكين استانبول أو جعلها عاصمة الإمبراطورية حتى تصير مزدهرة، إذ كان ينبغى أيضا جعلها مركز تجارة البحر الأبيض المتوسط، وملتقى تجارة العالم الإسلامى مع العالم المسيحى. ومن الواضح أن العثمانيين كانت خبرتهم قليلة فى مجال التجارة، ولذلك فقد احتاجوا إلى خبرة التجار الأجانب، ونظرا لأن أهالى القسطنطينية قد غادروها أثناء الفتح العثمانى بها، فقد عملت الإمبراطورية العثمانية على إحضار غيرهم ليحلوا محلهم فى العاصمة: الإغريق، وخبراء أرمن فى التجارة الدولية، واليهود وخاصة يهود سالونيكا. وعندما تعرض اليهود والمسلمون فى أسبانيا فى نهايةالقرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر الميلاديين، اجتذبت العاصمة العثمانية عدداً كبيراً من اليهود لتعزيز الحرف والتجارة والشئون المالية(٣)

(1) Mantran (Robert), "Foreign Merchants and the Minorities in Instanbul during the Sixteenth and Seventeenth Cenruries". inChristians and Jews in the Ottoman Empire. Ed. by Benjamin Braude and Bernard lewis, Vol. I (New York, 1982), p. 128.

(2) Ibid , p. 128.

(3) Ibid., p.128.

ومما يجدر ذكره أن السلطان محمد الفاتح وجه نداءات لمختلف أنحاء العالم الإسلامى، رحب فيها بالمجيء إلى عاصمة الإسلام الجديدة للعيش فيها، والعمل على النهوض بها. كما أطلق السلطان سراح أسرى الحرب ومنحهم حريتهم، شريطة العمل فى بناء الطرق وتمهيدها. أما الفلاحون الذين ينتمون إلى مناطق البلقان، فقد أقاموا فى المدينة وحولها، وغرسوا فيها البساتين وأشجار الفاكهة. ونتيجة لذلك، ففى خلال وقت قصير أصبحت إستانبول مزدحمة بالسكان، ومليئة بالحياة والنشاط(١).

وبعد فتح القسطنطينية إعترف العالم الإسلامى بالسلطان العثمانى محمد الفاتح زعيما للحرب المقدسة ضد المسيحيين، ووجد السلطان نفسه متفوقا على كل الحكام المسلمين، بما فيهم جيرانه سلاطين المماليك، وطالب بأن يحل محلهم فى الإشراف على الحجاز. وشجع على كتابة التراث التركى الذى يظهر أن أسرته تنحدر مباشرة من أوجوزخان Oguz Han، لمواجهة أطماع منافسه الرئيسى أوزون حسن حاكم تركمان «الشاة البيضاء» فى إيران، الذين بدأوا يتحدونه فى حكم الأناضول الشرقية(٢).

وبفتح القسطنطينية اعتبر السلطان الشاب فاتح روما الجديدة، واعتبر نفسه الوارث الوحيد والفعلى لواحدة من إمبراطوريات العالم آنذاك، وهى الإمبراطورية الرومانية الشرقية (الإمبراطورية البيزنطية)(٣). وأحاط به البحاثة البيزنطيون والإيطاليون، وشجعوه على اعتناق الأفكار المبالغ فيها التى تتسم بالعظمة الرامية إلى سيطرته على العالم(٤).

وقد اتخذ محمد الفاتح من الشريعة الإسلامية قاعدة لحكمه، فقد ترك ـ كما ذكرنا ـ أهالى البلاد المفتوحة من المسيحيين على عقيدتهم وتقاليدهم، ويمارسون حياتهم الخاصة، ويتمتعون بأملاكهم تحت حماية الدولة، بشرط أن يدفعوا الجزية، فضلا عن الضرائب النظامية المفروضة على الإنتاج والدخل سواء المسلمين أو المسيحيين.

---

(1) Shaw, Hist of the Ottoman Empire, Vol. I, p. 59.

(2) Ibid., p. 60.

(٣) خليل إينالجيك: «العثمانيون، النشأة والازدهار»، ص ٦٢.

(4) Shaw, op. cit., p. 60.

لقد قدر للمدينة التي شيدها الإمبراطور قسطنطين الكبير (٣٠٦ ـ ٣٣٧) أن تطوى آخر صفحاتها فى عهد سميه قسطنطين الحادى عشر باليولوجوس[١]. ومن المفارقات حقا أن المدينة التي جعلها قسطنطين الكبير رمزاً للإمبراطورية المسيحية، أصبحت مناراً إسلامياً، منطلقا لتوجيه الدعوة الإسلامية على يد العثمانيين إلى جهات أوربا الشرقية[٢].

ونصل إلى القول إن فتح القسطنطينية كان بداية لسلسلة من الانتصارات العثمانية الرائعة فى البر والبحر، فلم تأت أواسط القرن السادس عشر حتى استطاع الأتراك أن يبسطوا نفوذهم على مناطق شاسعة فى أوربا الوسطى مثل المجر ورومانيا وجنوب بولونيا وأجزاء من شرقى النمسا. وزحف العثمانيون على مدينة فيينا وحاصروها لأول مرة فى سنة ١٥٢٩، ثم حاصروها للمرة الثانية فى سنة ١٦٨٣م. وبالرغم من فشل العثمانيين فى هذين الحصارين الشهيرين، فإن مجرد وصول الفتوحات العثمانية إلى قلب أوربا المسيحية على هذا النحو، أثار الرعب والفزع فى دول أوربا، وكان فى أحيان كثيرة عاملا فى جمع كلمة الدول الأوربية، واتحادها على مقاومة الخطر المشترك، وكان ملوك أوربا وحكامها يشجعهم على مقاومة هذا الخطر نزعة صليبية لاشك فيها، ولو أنها لم تكن يومئذ من وحى البابوية أو صنعها[٣].

فتح صربيا والبوسنة وهرزوجيفينا (الهرسك):

ظن بعض الأوربيين فى الغرب أن سقوط القسطنطينية فى أيدى السلطان محمد الثانى سيضع حداً لاماله، ويقنعه بالاكتفاء بما وصل إليه من جهد توجه بامتلاك عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، وبعبارة أخرى فإن السلطان الصغير سيحول انتباهه عن أية فتوحات أخرى فى أوربا. ولكن هذا الظن كان مجرد وهم، فقد اعتبر محمد الثانى أن استيلائه على القسطنطينية ليس نهاية أعماله الحربية، بل بدايتها ومستقبل تاريخه[٤].

---

(1) Ostrogorsky, op. cit., p. 571.

(٢) عبد القادر اليوسف: الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٨٤.

(٣) عبد الله عنان: مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام، ص ١٩٧ ـ ١٩٨.

(4) Stavrianos, op. cit., p. 60.

ومما يجدر ذكره أن العثمانيين فرضوا سيادتهم على كثير من أجزاء البلقان، ولكنها كانت سيادة مزعزعة تقوى حينا وتضعف حينا. ولكن بعد أن وضع محمد الفاتح يده على القسطنطينية مفتاح أوربا الشرقية توطدت سيادة العثمانيين، وبدأت حقا إمبراطوريتهم فى أوربا، وكان أول هدف قصده الفاتح هى صربيا[١].

ففى سنة ١٤٥٤ قام محمد الفاتح ببعض الجهود لغزو ساحل البحر الأسود لمولداڤيا. ولكنه لم يلبث أن وجد أن مصلحته الأولى آنذاك تتركز فى غرب البلقان، فهناك صربيا الضعيفة التى كانت تمارس الحكم الذاتى قاعدة ينطلق منها المجريون ـ أو أى حملة صليبية ـ للزحف ضد السلطان. وكذلك كان الوضع فى إمارات المورة البيزنطية، حيث من الممكن أن تستولى عليها البندقية، وتستخدمها قاعدة تمكنها من إزاحة العثمانيين من أوربا[٢]. وإزاء تلك الأخطار التى تهدد محمد الفاتح، قام بسلسلة من الحملات بين سنتى ١٤٥٤ و١٥٦٣ ليمد حكمه المباشر إلى نهر الدانوب من جهة، والبحر الإيجى من جهة أخرى، وبذلك يقيم خطا دفاعيا حربيا قويا[٣].

وكان ملك صربيا إذ ذاك جورج برانكوڤتش يقوم بدفع الجزية للعثمانيين وتابعا لهم، ولكنه فى الحقيقة لم يكن مخلصا فى تلك التبعية. ومما يدل على ذلك أنه لما جاءه رسول يوحنا هونيادى يعرض عليه الاشتراك فى الحلف الذى ستعقده بعض الدول الأوربية ضد محمد الثانى الذى عظم خطره على أوربا بعد استيلائه على القسطنطينية، بادر إلى الموافقة عليه وتأييده. ولتفادى خطر هذا الحلف بادر محمد الثانى إلى غزو صربيا، قبل أن تتخذها القوات المتحالفة قاعدة للهجوم. فلما علم چورچ برانكوڤتش بزحف السلطان أمر الأهالى أن يلجأوا إلى الأماكن الحصينة، وفرهو إلى المجر بعد أن وعدهم أنه سيأتيهم بالمدد من هناك[٤]. وقد أحرق الأتراك الأراضى فى تلك الحملة، ونهبوا، وذبحوا الأهالى بقسوة ووحشية، حتى ظهر كأن شيئا لايمكن أن يشبع عطشهم إلا دماء المسيحيين، وقتلوا كل الذكور فوق أربعين سنة، وساقوا النساء والشباب إلى الأسر[٥].

---

(١) سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ١٥٣.

(2)Shaw, op. cit., p. 63.

(3) Shaw,p. 63.

(٤) سالم الرشيدى: المرجع السابق، ص ١٤٢.

(5)Schwoebel, The Shadow of Crescent., p. 36.

وقبل أن يعود محمد الفاتح من حملته الصربية، عقد معاهدة سلام مع البندقية فى ١٨ أبريل ١٤٥٤م، منحت موجبها امتيازات تجارية فى القسطنطينية، منها احتكار تجارة الشب فى فوسيه، واستغلال مناجم النحاس وصناعة الصابون ومصانع سك العملة وجباية رسوم الجمارك[١]. وفى تلك الأثناء كرس السلطان كثيراً من جهده لإعادة تنظيم دولته، وعين عدداً جديداً فى المناصب الإدارية. ومنح الإغريق وثيقة توضح حقوقهم وواجباتهم باعتبارهم رعايا له. كما أصدر وثيقة مشابهة للسكان اليهود المقيمين فى المدينة، وعين موسى كابسالى Moche Kapsali ربانيا أعظم، وعهد إليه بمهمة مسئولية سلوك شعبه[٢].

وفى ربيع عام ١٤٥٥ جمع محمد الفاتح جيشه فى السهول الواقعة أمام أدرنة، ثم قادها إلى ولاية كراتوفو Kratovo، وهناك لحقت به قوة بقيادة عيسى بك بن إسحق بك، حاكم الجزء الشمالى الغربى من الولاية، وزحفت الجيوش المتحدة بقيادة السلطان وضربتها بعنف، وحاصرت نوفو بردو Novo Brdo، وهى أحد أعظم المدن التجارية الهامة فى البلقان، لوفرة مناجم الذهب والفضة بها، وبعد أربعين يوما من الحصار سقطت المدينة فى أيدى السلطان الفاتح فى أول يونيو سنة ١٤٥٥، وجعل عليها واليا وقاضيا وقائدا للقلعة، ومن المعروف أن مناجم تلك المدينة قد ساهمت فى ازدهار النشاط الاقتصادى للإمبراطورية العثمانية. وقضى القائدان العثمانية قراجه بك وعيسى بك بقية صيف هذا العام فى إخضاع كل الجزء الجنوبى الغربى من صربيا، وبذلك أمن العثمانيون الاتصال المباشر مع مقدونيا من الشمال، ثم توقف السلطان فى سالونيكا، ومنها عاد إلى القسطنطينية فى أكتوبر[٣]، من نفس العام، ولم يبق أمامه من قلاع فى صربيا غير بلغراد التى تعتبر «باب المجر».

وفى غضون ذلك نجحت جهود البابا نيقولا الخامس فى شمالى جبال الألب فى ألمانيا. ففى خلال سنتى ١٤٥٤ و١٤٥٥ استدعى فردريك الثالث إمبراطور ألمانيا أمراءه للاجتماع به، وعلى الرغم من أن الإمبراطور لم يحضر شخصيا أولى تلك الاجتماعات

---

(١) شارل ديل: البندقية جمهورية ارستقراطية، ص ١٣٧.

(2)Schwoebel, op. cit., p. 36.

(3) Shaw, op. cit.,p. 36, Schwoebel, op. cit., p.36.

التى انعقدت فى راتسبون فى أبريل عام ١٤٥٤، وقد حضره فيليب الطيب، فقد استحوذ هذا الاجتماع على الأهمية فى أوربا. وفى هذا الاجتماع أظهر دوق بورجنديا مدى الأزمة التى أمسكت بخناق المسيحية، وأعلن أنه لابد من المحافظة على العقيدة المسيحية وحرية المسيحيين وحياتهم، وأعلن رغبته فى وضع نفسه وموارده للعمل المقدس، ولو أن أى أمير آخر لديه قوة مناسبة فسوف ينضم إليه[1].

وبينما كان محمد الفاتح يقود قواته لحصار نوفو بردو، مات البابا نيقولا الخامس زعيم المعارضة ضد الأتراك فى ٢٤ مارس عام ١٤٥٥ بعد مرض طويل ومعاناة شديدة، واختارمجلس الكرادلة فى ٨ أبريل الفونسو بورجيا الذى توج بابا بإسم كالكستس الثالث Calixtus II (١٤٥٥ ـ ١٤٥٨) فى ٢٠ أبريل. ومنذ اللحظة الأولى لاعتلائه كرسى البابوية، أعلن أنه سيبذل قصارى جهده لإعلان الحرب ضد الأعداء (الأتراك)، ووعد بتخليص المسيحيين من عبوديتهم، وأكد على ضرورة إرسال حملة صليبية ضد الأتراك. وبدأ كالكستس مشروعاته الصليبية ضد الأتراك بانتهاز فرصة وصول سفراء الدول الأوربية لتهنئته بمنصب البابوية لفتح باب المفاوضات، والتعرف على القوى والخطط والتوقعات. وعندما ظهر مبعوثو فلورنسا برئاسة رئيس الأساقفة أنطونينوس فى البلاط البابوى فى ٢٤ مايو، تحدث كالكستس عن رغبته فى القيام بعمل حزبى ضد الأتراك، وعبر عن أمله أن تكون فرنسا أول من يأتى لتقديم المساعدة للديانة المقدسة[2]. وبعد ذلك بيومين وافق أنطونينوس فى مجلس كنسى واسع باستحسان مدو على برنامج البابا. وبعد مديح طويل لفضائل البابا وصلاحيته لمنصب البابوية، توسع أنطونينوس فى مشكلة العثمانيين، وأثنى على البابا الجديد لرغبته فى القيام بعمل مقدس، واتهم الأتراك كوحوش قاسية، يسبون الرب، ووصفهم بأعداء المسيح، كما وصف محمد الثانى بأنه ابن الشيطان، والعدو اللدود للجنس البشرى، وأساس الشر فى العالم[3].

وعلى أية حال أخذ الراهب الفرنسسكانى يوحنا كابسترانو John Capistrano يجوب أسبانيا وفرنسا وألمانيا وبولندا والمجر يلهب الحماس فى صدور الناس بخطبه البليغة،

---

(1)Schwoebel, op. cit., p. 32.

(2) Schwoebel, op. cit., pp. 36-37.

(3) Schwoebel, op. cit , p. 37.

ويدعوهم إلى شن حرب صليبية على الأتراك. واختار البابا كالكستس الثالث المجرى يوحنا هونيادى ليتولى قيادة الحملة الصليبية، يعاونه الراهب كابسترانو وكثير من رجال الدين، وتكون حلف صليبى ضد الأتراك اشترك فيه ملك المجر وملك أرجونة وعدة من أمراء إيطاليا ودوق بورجنديا والبنادقة والجنويون وفرسان الاسبتار فى رودس وألمانيا وبرهيميا وبولندا وصربيا[١].

وفى يوم ٧ أبريل سنة ١٤٥٦ وصلت الأخبار إلى بودا أن محمد الفاتح سار على رأس جيش ضخم بلغ تعداده مائة وخمسين ألف مقاتل، ناحية الحدود الجنوبية للمجر. فمنذ أن استولى على القسطنطينية رأى أن المجر تمثل تهديداً خطيراً لإمبراطوريته فى أوربا، حتى أن الحملات التى قام بها ضد صربيا فى سنتى ١٤٥٤ و١٤٥٥ كان الغرض منها تمهيد الطريق للقيام بحملة رئيسية ضد المجر. وفى شتاء سنة ١٤٥٥ رأى السلطان أن الوقت قد حان للقيام بعمل حاسم، فاختار بلغراد التى تعتبر بوابة المجر من الجنوب هدفاً رئيسياً له. ووضع السلطان فى حسبانه أنه بمجرد أن تقع بلغراد فى يديه، فلن يأخذ الأمر منه إلا شهرين لفتح بقية المجر[٢]. وفى خلال شهور شتاء (١٤٥٥ ـ ١٤٥٦) ركز السلطان كل جهوده لإعداد الحملة ، فجمع قوات من جميع أنحاء الإمبراطورية. ووضع أسطولا ضخما فى ويدين Vidin على نهر الدانوب. وفى كروشيفاز Krushevac، كان لديه مسبك، صنع له مدفعا ضخما. وقد كتب المندوب الكاردينالى إلى فرانسسكو سفورزا، معلنا أن الخطر لم يعد قاصرا على المجر وحدها، فلو سقطت المجر، فالإمبراطورية الألمانية والعقيدة المسيحية الصحيحة، وميلان، سيحيط بهم خطر ماحق. وأوضح أن السلام مع عدو كالأتراك أمرا مستيحلا، فالأتراك لايشغلهم فقط إخضاع المسيحيين، ولكن تدمير ديانتهم أيضا. وقد رد الأمراء الصليبيون بكلمات ووعود، واعتقدوا أن الرب لن يسمح للأتراك بالإنتصار والنجاح، وأن المساعدة البشرية غير ضرورية[٣].

وقد بدأ الهجوم التركى الأخير على بلغراد فى مساء يوم ٢١ يوليو سنة ١٤٥٦م، وقاوم المدافعون بشجاعة، وصدوا عدة هجمات. وتكبدت الوحدات المتقدمة التركية خسائر

---

(1) Lodge, The Close of the Middle Ages, p. 412,

سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ١٢٥.

(2)Schwoebel, op. cit., p. 43.

(3) Ibid., p. 44.

فادحة أثناء مرورها على الخنادق ومهاجمة الأسوار. وقد قام بعض الأتراك باختراق الدفاعات والتحصينات المسيحية من خلال ثغرات أحدثتها قذائف المدافع، ولكن الصليبيين قابلوهم بشجاعة فى شوارع بلغراد الضيقة، ودخلوا معهم فى قتال وجها لوجه. وكان كاسترانو خلال المعركة واقفاً يلوح بعلم الصليبيين، ويحرض المقاتلين، ويهتف باسم المسيح. وواصل الصليبيون القتال على الأسوار وفى الشوارع، الأمر الذى أدى إلى مصرع كثير من الأتراك. ولم يعد القادة الأتراك قادرين على إعادة النظام بين الجند وتوحيد صفوفهم، وأدت الفوضى إلى هروب الجند الأتراك إلى خطوط دفاعهم لحماية أنفسهم[١].

وفى ضوء النهار ظهرت آلاف من جثث الأتراك، وعندئذ قرر محمد الفاتح أن يفك الحصار عن بلغراد ويتراجع عنها، خاصة أن يوحنا هونيادى قد جاء بسفنه من بودا، وكانت تعادل السفن التركية فى الكثرة، ولكنها كانت أشد صلابة وإحكاما فى الصنع. وقد انقضت على السفن التركية، فمزقتها كل ممزق. ولما رأى الفاتح ما أصاب أسطوله من دمار، أعطى أوامره بحرق بقية سفنه لكيلا تقع غنيمة فى أيدى عدوه. وهرب الأتراك من مواقعهم وتركوا وراءهم مدافعهم وانسحبوا من القتال، وتم إنقاذ بلغراد، حيث ظلت فى أيدى المجريين لنصف قرن آخر، إلى أن سقطت فى النهاية فى سنة ١٥٢١ على أيدى السلطان العظيم[٢] سليمان القانونى (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦).

وسرعان ما أن وصلت أنباء النصر إلى روما فى ٦ أغسطس سنة ١٤٥٦، حيث اقتنع البابا كالكستس الثالث أن الرب قد استجاب لصلوات المخلصين، وأعلن أن ذلك أسعد لحظة فى حياته، وأمر بإقامة الاحتفالات، وأن تدق جميع أجراس روما، وإقامة صلاة الشكر فى كل الكنائس. كما وصلت أخبار النصر على العثمانيين إلى جميع أنحاء أوربا، فعم الفرح والسرور، وتردد أن الصليبيين فى بلغراد لم ينقذوا المجر فقط، بل المسيحية!. وشاركت أماكن أخرى فى الاحتفالات مثل سيينا وفيترابو وبولونا والبندقية[٣]. وقد كتب الراهب

(1)Ibid., p. 47.

(2) Ibid., p. 47, Shaw op . cit., p. 63, lodge, op. cit., p. 412, Schevill, The list of the Balkan Peninshla, p. 201,Osterhanver, (M. Eugene), Transylvania. (U.S.A., 1968) pp. 16-17.

سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ١٢٦.

(3)Schwoebel, The Shadow of Crescent., p. 48.

كابسترانو للبابا أن الوقت قد ..ان، «وأن يوم تخليص المسيحية قد ظهر فجره»، وحانت اللحظة التى يستعيدون فيها أوربا، وليس هذا فحسب، بل أيضا غزو الأراضى المقدسة وبيت المقدس. وتوسل كابسترانو للبابا أن يرسل له عشرة آلاف أو إثنى عشر ألف فارس إيطاليين مسلحين ليبقوا معه على الأقل ستة أشهر، حيث يمكنهم هم والصليبيون والنبلاء المجريون الاستيلاء على ثروات العدو لدفع نفقات الحملة الصليبية لمدة ثلاث سنوات. وفى نفس هذا المعنى كتب هونيادى إلى أوربا، موضحا أن السلطان قد اندحر تماماً، وأنه لو نهض المسيحيون، فبإمكانهم الإطاحة بالمملكة التركية كلها(١).

واظب البابا كالكستس الثالث على مواصلة جهوده ضد العثمانيين، وقد دفعه إلى ذلك انتصار بلغراد من ناحية، واعتقاده أن التيار قد تحول ضد الأتراك من ناحية أخرى. فازداد حماساً، ودعا الأمراء المسيحيين لمقاومة التوسع الإسلامى، واستمر نوابه ودعاته فى الإنضمام للصليبيين الذين تجمعوا فى بلغراد فى جموع ضخمة فى خلال الأشهر الأخيرة لعام ١٤٥٦م. وفى تلك الأثناء تفاوض البابا مع جيران الأتراك المسيحيين والمسلمين الذين باتوا يخشون قوة السلطان الصاعدة. كما ساند البابا مباشرة اسكندر بك قائد الألبانيين الشجاع الذى قاوم الاعتداء التركى بنجاح فى سنتى ١٤٥٦ و١٤٥٧م. ولكن تفاؤل البابا لم يستمر طويلا، ففى أقل من شهر بعد انتصار بلغراد، مات قائد المقاومة المجرية يوحنا هونيادى فى ١١ أغسطس سنة ١٤٥٦م، ضحية وباء مرعب قضى على حياة كثير من المسيحيين الذين ساهموا فى إنقاذ المدينة(٢). ويرى البعض أن هونيادى لم يعش طويلا بعد انتصار بلغراد، بسبب ما أصابه من جهد وإعياء، فضلا عن كبر سنه، كل ذلك لم يساعده على تحمل الجرح الذى أصابه، ثم انتابته حمى عنيفة قضت عليه. وقد بكى البابا عندما بلغه نعيه، وأقيمت له صلاة خاصة فى كنيسة القديس بطرس بروما. وكتب إينياس سلفيوس، الذى صار بابا فيما بعد باسم بيوس الثانى، موضحا فداحة الخسارة التى ترتبت على موت هونيادى، فكتب يقول: «لقد ماتت آمالنا بموته»(٣). وبعد فترة طويل من المعاناة

---

(1) Ibid., p. 49.

(2) Ibıd.,p. 49.

(٣) سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ١٢٨.

مات حنا كابسترانو فى ٢٣ أكتوبر سنة ١٤٥٦ ، ففقد الصليبيون رجلا كان مصدر ثقتهم الكاملة وطاعتهم التامة. لقد فعل البابا كالكستس أقصى ما بوسعه، ولكن أيامه السعيدة الموفقة قد ذهبت، ففى ٦ أغسطس ١٤٥٨ مات البابا دون أن يحقق غرضه وهو القضاء على الأتراك(١)، وخلفه فى كرسى البابوية بيوس الثانى (١٤٥٨ ـ ١٤٦٤)(٢).

وبعد أن عاد السلطان محمد الفاتح إلى استانبول، مات چورچ برانكوفتش ملك الصرب فى ٢٤ ديسمبر عام ١٤٥٦م، تاركا بلاده فى حالة سيئة من الفوضى الداخلية ساهمت فى انهيارها(٣). وترك برانكوفتش خلفه زوجته إيرين وابنته مارا أرملة السلطان مراد الثانى وأبناءه الثلاثة، وكان لازار أصغر الأبناء الثلاثة، ولكنه كان أكثرهم طموحاً وأشدهم جرأة وطمعا فى الحكم والتفرد به، فوضع السم لوالدته وطرد أخويه، وخشيت مارا على نفسها من بطشه، ففرت إلى السلطان محمد الفاتح ولاذت به، وقد أكرمها ورحب بها(٤).

غير أن لازار مات بعد شهرين فى ٢٠ يناير سنة ١٤٥٨ ، وقد أوصى قبل مماته بتزويج ابنته من ولى عهد البوسنة ستيفن توماشيفيتش Stephen Tomashevich ، واستصوبت زوجته هيلين هذه الفكرة، كما رأى ملك المجر ماتياس كورفان فى هذه المصاهرة بين بيتى صربيا والبوسنة ما يقوى جبهة المسيحية ضد الأتراك. ولم تكتف هيلين بذلك، بل رغبت

---

(1)Schwoebel, op. cit., p. 49.

(٢) كان البابا الجديد بيوس الثانى شخصية هامة، وصل إلى مكانة عالية فى الدراسات الإنسانية، وهو صاحب تجربة واسعة فى السياسة والدبلوماسية. فقد انغمس إينياس سيلْيوس الذى عرف فيما بعد بإسم البابا بيوس الثانى لمدة ثلاثين سنة فى شئون أوربا السياسية، وحضر المجامع الكاثوليكية الهامة. وقد امتلك عقلا موسوعياً مفكراً لايعرف الراحة. ومن بين الموضوعات العديدة التى جذبت انتباهه مبكراً، وظلت موضع اهتمامه خلال حياته الوظيفية، هى المشكلة= التركية، فقبل أن يعتلى كرسى البابوية، وقبل سقوط القسطنطينية فى أيدى العثمانيين، تناقش مع الحكام المسيحيين حول الوقوف ضد الأتراك.واستغل كل مهاراته فى الدراسات الإنسانية والسياسية والإدارة الدينية، فى الضغط على الأمراء والشعوب. وقد سار بيوس الثانى على سياسة سلفه كالكستس الثالث العدائية للأتراك، وكتب عن نفسه: «لاشىء أعز عندى من حث المسيحيين على عداوة الأتراك، وإعلان الحرب ضدهم».

أنظر: Schwoebel, The Shadowof the Crescent., p 57.

(3)Shaw, op. cit., p. 83.

(٤) سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ١٢٩.

فى تأمين بلادها ضد الأتراك الذين يتطلعون إلى الاستيلاء عليها، فوضعتها تحت حماية البابا كالستس الثالث، فوافق وأرسل مندوبه الخاص إلى صربيا. ومما يجدر ذكره أن أهل صربيا لم يكونوا أقل عداء للكاثوليكية من أهل القسطنطينية، فلما وضعت هيلين بلادها تحت حماية البابا ثار الصرب عليها، وفضلوا حكم الأتراك على حكم البابا[1].

ولم يستمر الوضع على ذلك، ففى صيف سنة ١٤٥٩م، تحرك العثمانيون بقيادة السلطان محمد الفاتح إلى بلاد الصرب، وقام بطرد المجريين، واستولى على كل بلاد الصرب، فيما عدا بلغراد، وبذلك قضى العثمانيون على استقلالها، وصارت منذ ذلك الحين ولاية عثمانية. وقام العثمانيون أيضا بدمج نظام الإقطاع السابق والتشريع والنظم المالية ـ بعد تغيير قليل ـ فى التنظيم الإدارى العثمانى[2]. وكتب السلطان محمد الفاتح إلى سلطان مصر المملوكى الأشرف إينال يبشره بفتح صربيا، وأهدى إليه بعض الأسرى وأصنافا مختلفة من الأقمشة[3].

أما البوسنة فقد ظلت خلال النصف الأول من القرن الخامس عشر الميلادى فريسة للمتنافسين الطامعين فى العرش، والصراع بينهم وبين النبالة القوية. فقد حدث أن استعاد الملك البوسنى ستيفن توماس (١٤٤٣ ـ ١٤٦١) عرشه بمساعدة المجر. وفى سنة ١٤٥٧ طلب السلطان من توماس أن يسلمه أربع مدن على نهر الدانوب، وذلك لتعطيه سهولة الوصول إلى الإقليم الواقع فيما بعد نهر الساف. وعندما أحس توماس بخطر العثمانيين طلب مساعدة البابا كالكستس الثالث، فقام البابا بتنظيم حملة صليبية من قوات مجرية وبوسنية ضد الأتراك. ولكن لسوء حظ البابوية، فإن موت ملك المجر لاديسلاف وضع نهاية لهذ ه الحملة[4].

وكانت البابوية فى روما قد بدأت تهتم اهتماماً بالغا بالبوسنة فى أثناء السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر، خاصة أن الرهبان الفرنسسكان قد تمتعوا بفترة من النشاط الفعال هناك فى ظل رئاسة جاكوب دى مارتشيا Jacob de Marchia، أسقف البوسنة النشيط، فى ثلاثينيات القرن الخامس عشر. ولكن البابوية ظلت أيضا شديدة الانشغال بمساعدة

---

(١) سالم الرشيدى: المرجع السابق، ص ١٢٩.

(2)Shaw, Hist of the Ottoman Empire, Vol. I. p. 63.

(٣) إبن اياس: بدائع الزهور، جـ٢، ص ٣١٦.

(4)Spinka, A Hist of Christianity in the Balkans., pp. 179-180.

الهرطقة البوسنية، وانهمر منها سيل من الوثائق فى أربعينيات هذا القرن، تتهم فيها الكنيسة البوسنية بارتكاب أخطاء مذهبية قاتلة من بينها المانوية. وبذل الرهبان الفرنسيسكان جهودا دائبة فى خمسينيات القرن الخامس عشر لمكافحة الهرطقة. ومما يدل على ذلك التقرير الذى كتبه قاصد رسولى فى البوسنة فى عام ١٤٥١م، يذكر أنه بمجرد أن وصل الإخوة الرهبان إلى الأماكن التى يسكنها الهراطقة، «ذابوا كالشمع إذا اقترب من النار»(١). واعتنق الملك البوسنى ستيفن توماس الكاثوليكية، ثم وافق فى سنة ١٤٥٩، على أن يتحول إلى سياسة الاضطهاد المباشر، فاستدعى رجال الدين فى الكنيسة البوسنية المنشقة وخيرهم بين التحول إلى الكاثوليكية أو النفى من البوسنة، فقبل التحول ألفان منهم، ولم يبق إلا أربعون لاذوا بالفرار، وبذلك قصم طهر الكنيسة البوسنية على يد ملك البوسنة نفسه، وقد حدث ذلك قبل أربع سنوات فقط من تدمير المملكة البوسنية نفسها(٢).

ومن الأسباب التى أدت إلى انتشار الهرطقة فى البوسنة، أن النفوذ المجرى فيها عاد ـ إلى حد كبير ـ إلى النبلاء أصحاب الملكيات الكبيرة، وكذلك المزارعين الذين اعتنق منهم هرطقة البوجوميلية رداً على الضغط الكاثوليكى(٣). وقد رأينا من قبل أن ستيفن توماشيفتيش ـ إبن ستيفن توماس ملك البوسنة ـ قد تزوج من حفيدة الملك الصربى جورج برانكوفتش، وبذلك ضمن بقايا الإقليم الصربى الذى يتركز حول مدينة سمندريا Se-mendria (سميدرڤو الحالية)، ولكن سكان تلك المدينة فضلوا أن يعطوا مفاتيح القلعة للسلطان محمد الثانى، بدلا من أن يسمحوا لمجرى كاثوليكى أن يفرض سيادته عليهم.

ومما يذكر أن ملك البوسنة ستيفن توماس لقى مصرعه على أيدى إبنه ستيفن تومافيتش وأخوه راديڤوى Rdivoy فى سنة ١٤٦١. وقد صعد توماشيفتش إلى العرش فوق جثة والده، وكان فى موقف لايحسد عليه، ذلك أن الشعب كان منقسما من الناحية الدينية، والبلد مهدد كل لحة من الفاتح العثمانى الكبير. ولذلك أبلغ توماشيفتش البابا بيوس الثانى أن السلطان العثمانى يخطط لغزو البوسنة فى المستقبل. القريب. وفى أوائل سنة ١٤٦٣م طلب المساعدة من المجر والبندقية، إذ أنه بدونهما لن يتمكن من إنقاذ نفسه.

---

(١) مالكولم: البوسنة، ص ٥٤.

(٢) نفس المرجع والصفحة.

(3)Spinka, op. cit., p. 180.

وأخذ توماشيفتش يذكر البابا أن السلطان العثماني لن تتوقف أعماله الحربية على غزو البوسنة، ولكن غزواته ستمتد إلى أبعد من ذلك، إلى روما نفسها[1]. وعلى الرغم من ذلك لم تصله المساعدة المنشودة.

وعلى أية حال، دعا البابا القيام بحملة صليبية ضد الأتراك، وطبقا للوعد الذى قطعه المجريون على أنفسهم بتقديم المساعدة، رفض ملك البوسنة توماشيفتش أن يدفع الجزية السنوية لمبعوث السلطان، الأمر الذى جعل محمد الفاتح يصر على غزوالبوسنة، وتأهب للزحف عليها، ولكنه كان عاجزاً عن أن يضع خطته موضع التنفيذ حتى سنة ١٤٦٣[2].

ففى أوائل ربيع هذا العام، خرج السلطان محمد الفاتح على رأس جيوشه الضخمة من أدرنة متجها إلى البوسنة. وأصيب ملك البوسنة توماشيفتش بدهشة بالغة لتقدم السلطان فى زحفه دون أن يعترضه أحد، حتى وصل إلى العاصمة الملكية القديمة بوبوفاتش Bobo-vats، وحاصرها يومن إلى أن استسلمت. وبسقوط تلك المدينة ضاع كل شيء أمام الملك البوسنى[3]. وعندئذ فر الملك شمالا إلى يايسه Jajce على أمل الحصول على مساعدة المجر، واعتصم بقلعة كليوتش Kljuc على نهر السانا، وهناك أدركه الأتراك، وحثوه على تسليم القلعة مقابل منحه وعد بالأمان، ولكنهم نقضوا وعدهم، فقد ساقوه إلى يايسة وحزوا رأسه، ودفن هناك[4]. ثم تتابعت سائر القلاع والحصون فى الاستسلام للعثمانيين فى غضون أسابيع قليلة، ففى منتصف يونيو سنة ١٤٦٣ إنتهت الحرب بين السلطان والبوسنة من الناحية العملية، وفقدت البوسنة استقلالها، وصارت ولاية من ولايات الإمبراطورية العثمانية[5]. ولاشك أن عدم وجود التعاون بين النبلاء، وفيما بينهم وبين الملك،والمقاومة العاجزة، وهبوط الروح المعنوية، كل ذلك كان من الأسباب التى أدت إلى سقوط البوسنة فى أيدى العثمانيين بسرعة أدهشت الجميع[6].

---

(1)Spinka, A Hist of Christianity in the Balkans, p. 180,Babinger (Franz), Mehamed the Conqueror and his time (Pirinceton, 1978), p. 216.

(2) Ibid., p. 181.

(3) Ibid., pp. 181-182, Babinger, op. cit., p. 219.

(4) Fine, The Bosnian Church, p.339,Clissold, A Short Hist of Yugoslavia, pp. 62-63, Babinger, op. cit., p. 221.

(5) Spinka, op. it., p. 182.

(6) Fine, op. cit., p. 339.

ثم حول محمد الثانى انتباهه بعد ذلك إلى هرزجوفينا (الهرسك)، لمناعة حصونها وقلاعها وموقعها الاستراتيجى الهام المشرف على البحر الأدرياتى. ولكن ذلك البلد الجبلى الصعب صمد أمام هجمات السلطان العثمانى، واستعصى عليه، ولذلك اضطر إلى العودة إلى استانبول،دون أن يحقق غرضه. وقد حصلت هرزويڤنيا على استقلالها الذاتى حتى سنة ١٤٨٣م، عندما ضمت نهائيا إلى الإمبراطورية العثمانية على أيدى السلطان بايزيد االثانى(١) (١٤٨١ ـ ١٥١٢).

حروب محمد الفاتح فى المورة:

كان يحكم المورة قنسطنطين قبل أن يتولى عرش الإمبراطورية البيزنطية، فلما آلت إليه هذه الإمبراطورية سنة ١٤٤٨م، عهد بحكم المورة إلى أخويه توماس وديمتريوس، وقسمت بينهما، فكان الأول يقيم فى بتراس، والثانى فى إسبرطة. وقد أخذت عليهما الأيمان والعهود فى القسطنطينية قبل رحيلهما إلى المورة أن يعيشا فى وئام، وأن يتركا المنازعات القائمة بينهما، وقد كانا فى المورة بمثابة نائبين للإمبراطور قنسطيطين الحادى عشر باليولوجوس(٢).

وعندما بلغ الأخوان سقوط القسطنطينية، استولى عليهما الفزع، وخشيا على ملكهما، فبادرا إلى طلب السلام من محمد الفاتح، فأبقاهما فى الحكم وفرض عليهما جزية سنوية. غير أن أحداً من الأخوين لم يكن على شيء من الدراية بالحكم والإدارة، واشتدت المنافسة بينهما، فطلب توماس المساعدة من البنادقة، فى حين طلب ديمتريوس المساعدة من العثمانيين(٣). ولم تستتب الأمور فى المورة، بل عمتها الفوضى والاضطرابات، مما أدى إلى تدخل محمد الفاتح، فغزا الجزء الشمالى من المورة خلال صيف سنة ١٤٥٨م، وأضاف إلى ممتلكاته أثينا فى يناير عام ١٤٥٩، ثم غزا الجزء الجنوبى من المورة

---

(1) Spinka, op. cit., p. 1w82, Babinger, op. cit., p. 223.

(2)Lodge, op. cit., p. 511.

سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ١٣٦.

(3)Hali Inalcik, The Ottoman Empire, p. 27.

في يوليو سنة ١٤٦٠، وبذلك قضى السلطان على المورة، ولم يعد باقيا إلا طرابيزون من الزاوية الجنوبية الشرقية للبحر الأسود، كآخر أثر للإمبراطورية البيزنطية. وهذا يعنى أن اليونان كلها صارت تحت السيطرة العثمانية المباشرة، فيماعدا موانى المورة كورنثه ومودون وبيلوس، التى جرى الاستيلاء عليها فيما بعد فى عهد السلطان بايزيد الثانى(١).

أما عن مصير الأخوين حاكما المورة ديمتريوس وتوماس، فإن السلطان محمد الفاتح قد جعل للأول مقراً فى مدينة إينوس وعين له راتبا سنويا ضخما، وقضى الأمير البيزنطى بقية حياته فى عيشة هادئة، ثم ارتدى مسوح الرهبان فى آخر عمره، إلى أن توفى بأدرنة سنة ١٤٧١م. أما توماس فإنه ما أن علم بدخول السلطان الفاتح إسبرطة، حتى فر على إحدى السفن إلى كورفو، وظل هناك يترقب الموقف، إلى أن فقد كل أمل فى العودة إلى المورة، فأقلع فى أواخر سنة ١٤٦٠ إلى روما ليطلب المساعدة من البابا بيوس الثانى ودوق ميلان وغيرهما من أمراء المسيحية، ولكنه لم يلق شيئا مما كان يريد، فغلبه اليأس، وعاد أدراجه إلى دورازو بألبانيا، وظل بها حتى مات فى ٢ مايو سنة ١٤٦٦(٢).

حروب محمد الفاتح فى ألبانيا:

أصر محمد الفاتح فى حوالى سنة ١٤٦١م على وضع حد لمتاعبه فى أوربا، حتى يمكنه أن يركز جهوده على السيطرة على الأناضول. فبعد أن بسط نفوذه على صربيا واليونان، بقيت ألبانيا تشكل له صعوبة بالغة فى الغرب الأوربى. وكان أن دارت المفاوضات بين السلطان وإسكندر بك ملك ألبانيا، إنتهت إلى عقد هدنة بينهما فى ٢٢ يونيو سنة ١٤٦١م مكنت إسكندر بك من إعادة سيادته على الجزء الجنوبى من ألبانيا وإبيروس، فى مقابل أن يحجم عن توجيه هجمات ضد الممتلكات العثمانية فى الشمال(٣).

على أن الهدنة لم تدم أكثر من ثلاث سنوات، إذ فى سنة ١٤٦٣ دعا البابا بيوس الثانى إلى شن حملة صليبية ضد العثمانيين. ووصلت دعوة البابا هذه إلى إسكندر بك عن

---

(1) Shaw, op. cit., p. 63.

(2) Lodge, op. cit., pp. 513-514.

(3) Shaw, op. cit., pp. 63-64.

طريق صديقه الحميم بول أنجيلو مطران دورازو، ونجح فى حمله على نقض عهده مع السلطان، وأقنعه بأن هذا العمل لايعد ذنبا، بل هو قربى إلى الرب. ولما علم محمد الفاتح بما حدث، بعث إلى إسكندر بك يذكره بما بينهما من عهد وميثاق، فما كان منه إلا أن سخر من السلطان، ورد عليه قائلا إنه لن يحافظ على أى عهد معه إلا إذا ارتد عن دينه االمزيف (الإسلام)[١].

ولم يشأ إسكندر بك إنتظار الجيوش الصليبية، بل بادر بالإغارة على أملاك الدولة العثمانية وتخريبها. فانتاب السلطان الغضب لذلك، وأرسل إلى ألبانيا جيشا ضخما يقدر بخمسة عشر ألف فارس وثلاثة آلاف من المشاة بقيادة بالابان بك، وهو ألبانى الأصل، سبق أن أظهر فى حصار القسطنطينية بسالة نادرة، وكان أول جندى رفع الراية العثماية على أسوار هذه المدينة، وقد كافأه السلطان على ذلك بأن رقاه إلى منصب القيادة[٢].

وقد اختار إسكندر بك لملاقاة بالابان وادى فالخاليا حتى لاتطغى عليه كثرة الجيش العثمانى. وقد توقع أن يكون وراء هذا الوادى كمين للعثمانيين، فحذر جنوده إلى ذلك قبل نشوب القتال ونهاهم عن مطاردة العدو إذا ماكتب لهم النصر فى القتال. وعندما التحم الجيشان إنهزم العثمانيون وارتدوا على أعقابهم. ولم تستطع تحذيرات إسكندر بك أن تمنع ثمانية من أشجع قواده من الاندفاع وراء المهزومين، فوقعوا فى شرك وأحيط بهم من كل جانب، وأسرهم العثمانيون، وأرسلهم بالابان إلى القسطنطينية. وكان لفقد هؤلاد القواد أثر عميق من الحزن فى نفوس أهل ألبانيا، واشتد الغضب باسكندر بك وجنوده، فانقضوا على العثمانيين، واشتبكوا معهم فى معركة حامية فى أورنيج بالقرب من دبرا العليا أرغمت بالابان على الانسحاب، ولكنه لم يلبث أن عاد بجيش جديد أرسله له السلطان الفاتح، غير أن اسكندر بك استطاع أن يمزق صفوف هذا الجيش، ولم ينج بالابان نفسه إلا بصعوبة[٣].

---

(١) سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ١٥٣ ـ ١٥٤.

(٢) المرجع السابق، ص١٥٤.

(٣) المرجع السابق،ص ١٥٤ ـ ١٥٥.

على أن هذا الفشل الذى منى به العثمانيون لم يوهن عزم السلطان محمد الفاتح ولا عزم قائده بالابان. واقترح هذا القائد أن يعد جيشان جديدان قويان يزحفان إلى ألبانيا فى وقت واحد من طريقين مختلفين. وتولى قيادة أحد الجيشين يعقوب أرناءوط، وكان عليه أن يدخل ألبانيا من الجنوب متبعا ساحل البحر، ويقود بالابان الجيش الثانى، فيسير من تراقيا ومقدونية ويدخل ألبانيا من معابر الجبال. وأدرك اسكندر بك أن السرعة وحدها هى التى ستمكنه من منع الجيشين التركيين من الإطباق عليه، فعجّل بملاقاة بالاان وهزمه. وفيما كان جنوده يقتسمون الغنائم، جاءه رسول يخبره بأن يعقوب أرناءوط قد دخل بيرات على رأس جيش ضخم. فأسرع إليهم اسكندر بك بجيشه وقذف إليهم برءوس قتلى الأتراك من جيش بالابان يعلمهم بهزيمته. ثم اشتبك الجيشان فى قتال عنيف، لقى فيه يعقوب أرناءوط مصرعه، وتشتت شمل الجيش العثمانى(١).

عاد إسكندر بك إلى كرويا، ثم بعث إلى ملوك أوربا يبشرهم بالنصر العظيم الذى أحرزه. وسعت دولا كبيرة مثل المجر والبندقية لمحالفته، وأطلق عليه البابا «نصير المسيحية»، ونظرت إليه شعوب أوربا كبطل من أبطال المسيحية يذود عنها ضد تيار الإسلام الجارف(٢).

ولم يجد السلطان الفاتح بدأ بعد فشل قواده أن يخرج بنفسه، فجهز جيشا ضخما يزيد على مائة ألف جندى، وزحف به على ألبانيا ودخلها فى يونيوسنة ١٤٦٥م، واستعاد بعض القلاع. ورأى إسكندر بك أنه من الطيش أن ينازل بجيشه الصغير جيش الفاتح الضخم فى ميدان مكشوف، فغادر كرويا قبل أن يحاصرها الجيش العثمانى، ولاذ بالجبال، وأخذ ينقض منهابين حين وآخر على الجيش العثمانى(٣).

ووجد محمد الفاتح أن أمد الحصار سيطول، فعهد إلى قائده بالابان بمواصلة حصار كرويا، فى الوقت الذى رأى إسكندر بك أن هناك بعض القلاع والحصون تعوزها حاميات

---

(١) المرجع السابق، ص ١٥٥.

(2)Schevill, op. cit., p. 204.

(٣) سالم الرشيدى: المرجع السابق، ص ١٥٦.

للدفاع عنها، فسافر إلى إيطاليا طلبا للمعاونة من البابوية التى كانت تنظر إليه باعتباره نصير المسيحية. فرحب البابا بيوس الثانى بقدومه، ثم اجتمع إسكندر بك بالكرادلة، ووصف لهم الأخطار التى تهدد إيطاليا، وذكر لهم أن الأتراك يتقدمون كل يوم ويقتربون من إيطاليا. وعندئذ باركه البابا وقدم إليه مالا، وكتب إلى جميع حكام أوربا يستحثهم على معاونته، كما أمدته البندقية بجنود مسلحين من الفرسان والمشاة[١].

وعندما عاد إسكندر بك إلى بلاده كان القائد التركى بالابان لايزال على حصاره لكرويا وينتظر مدداً جديداً من الجند سيأتى به أخوه يونس. فلما علم إسكندر بك بأمر هذا المدد أصر على أن يمنعه من الوصول إلى بالابان بأى ثمن حتى لاتزداد قوته وشدة ضغطه على كرويا، فكمن مع نخبة من رجاله فى بعض الطرق التى سيجتازها يونس، ثم انقض عليه فجأة فأسره وأسر معه إبنه وشتت شمل الجيش الذى جاء به. وأتى بالأسيرين مكبلين بالحديد وعرضهما من بعيد على بالابان، ثم ضربهما بالسيف نصفين. فلما رأى بالابان ما حدث لأخيه يونس والجيش الذى جاء به تملكه اليأس، وهجم بجيشه على المدينة مندفعا بغير روية، فأصابته قذيفة قاتلة فى حلقه صرعته فى الحال، الأمر الذى أحدث الفوضى والاضطراب فى صفوف جيشه، فانسحب إلى تيرانا[٢].

وبالرغم من فشل القوات التركية فى إخضاع كرويا، فإن محمد الفاتح رفض أن يستسلم للهزيمة ويدع الألبانيين ينعمون بالراحة والطمأنينة، فأرسل قوات أخرى لمناوشتهم. وأمر بتحصين مدينة البسان وهدم مدينة تشودرى التى أنشأها إسكندر بك بالقرب من دورازو على شاطىء البحر. أما إسكندر بك نفسه، فقد أخذ يطوف ببعض المدن، ووصل فى جولته إلى مدينة السيو التابعة للبنادقة، وهناك فاجأته حمى عنيفة، ومات فى ١٧ يناير سنة ١٤٦٧، بعد أن حكم أربعة وعشرين عاما. ولم تجد ألبانيا بعد وفاته زعيما تجتمع عنده

---

(١) سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ١٥٦ ـ ١٥٧.

(٢) المرجع السابق، ص ١٥٧.

الكلمة، فانتشرت الفوضى والاضطرابات فى أرجائها، وصارت هناك ثلاث قوى تتنازع السيادة فيها، وهى رؤساء القبائل والدولة العثمانية وجمهورية البندقية(1).

حروب محمد الفاتح فى والاشيا ومولداڤيا:

أراد محمد الفاتح أن يصفى حساباته مع هاتين الإمارتين ـ والاشيا (الأفلاق) ومولداڤيا ـ الواقعتين فى الأراضى المنخفضة شمالى الدانوب، ويقطنهما شعوب تتحدث باللغة اللاتينية، ويطلقون على أنفسهم الرومان. ومن المحتمل أن تلك الشعوب أسلاف الداكيين القدماء الذين احتل الإمبراطور تراچان (٩٨ ـ ١١٧) إقليمهم داكيا Dacia، ويتباهون بأنهم أبناء روما القديمة. وقد اختفى الداكيون والولايات الأخرى التى ترومنت من صفحة التاريخ خلال القرون الخمسة التى تلت الغزوات السلاڤية والمغولية، الأمر الذى زاد من الغموض الذى أحاط بهم. وعندما سقطت دفاعات البلقان الإمبراطورية بحثوا عن ملاذ لهم فى البلقان. ومرتفعات الكرابات، بيد أن الفيضان المغولى فى حوالى سنة ١٠٠٠م أجبرهم على شق طريقهم مرة أخرى إلى الأراضى الدانوبية المنخفضة، وأسسوا دولتين جديرتين بالاعتبار، وهما والاشيا ومولداڤيا قبل نهاية القرن الثالث عشر الميلادى(2). ولوقوع والاشيا بين الكرابات والدانوب، وامتداد مولداڤيا شرقا من الكرابات إلى نهر دنيستر، فقد دخلت هاتان الدولتان فى صراعات مريرة مع جارتيها الطموحتين المجر وبولندا، واستمر الوضع على ذلك، حتى ظهر خطر جديد آتيا من الجنوب، وهو التقدم العثمانى(3).

وكان أول اتصال العثمانيين بهاتين الإمارتين فى عهد السلطان بايزيد الأول، وكانت والاشيا بطبيعة موقعها فى الجنوب أسبق إلى هذا الاتصال. وقد أخضعها بايزيد الأول للسيادة العثمانية سنة ١٣٩٣م فى عهد أميرها مركيا الأول عقابا على تكاتفها مع الصرب فى محاولة استرداد أدرنة من العثمانيين، واشتراكها فى معركة كوسوڤو إلى جانب المسيحيين سنة ١٣٨٩م، وعندما نشبت معركة نيقوبوليس سنة ١٣٩٦ قاتل مركيا إلى

---

(1)Babinger, Medamed the Conqueror, pp. 264-265,

سالم الرشيدى: المرجع السابق، ص١٥٧ ـ ١٥٨.

(2)Schevill, The Hist of Balkan Peninsula, pp. 204-205.

(3) Ibid., p. 205.

جانب المسيحيين، ثم أعلن استقلالا له بعد الهزيمة التى لحقت ببايزيد فى أنقرة سنة ١٤٠٢م. ولكن السلطان محمد الأول (١٤١٣ ـ ١٤٢١) بعد أن استتب له الأمر، أخضع والاشيا مرة أخرى سنة ١٤١٦م، وصارت تدفع له الجزية(١). ومنذ ذلك الوقت وجد مركيا وخلفاؤه أنفسهم مرتبطين بعجلة التبعية للعثمانيين(٢).

وبعد موت مركيا أمير والاشيا سنة ١٤١٨م تنازع أبناؤه الملك، واحتدمت بينهم الحروب الأهلية، فمنهم من استنجد بالأتراك، ومنهم من استنجد بالمجر، وظل الأمر على ذلك من الفوضى إلى أن خلصت الإمارة لولده فلاد الرابع (١٤٥٦ ـ ١٤٦٢) Vlad IV المعروف بالخوزق، The Impalar الذى لم يذكر فى التاريخ رجلا يضارعه فى القسوة وحب التعذيب وسفك الدماء. فقد ابتدع له خياله فى وسائل القتل والتعذيب أفانين شتى لاتخطر على بال أحد. وقد أطلق الناس عليه ألقابا مختلفة تدل كلها على هذا المعنى. فمواطنوه أهل والاشيا لقبوه بالشيطان (دراكول)، وبه يذكره معظم المؤرخين. وأهل المجر لقبوه بالسفاح، والعثمانيون لقبوه بالخوزق (قازيقلى). وكان من أحب الأشياء إلى نفسه أن ينظر إلى مشاهد التعذيب والآلام التى يعانيها ضحاياه، ويطرب لسماع أنات المعذبين. وكان لايتناول طعامه مع رجاله إلا وحوله أعمدة الخوازيق وضحاياه من المئات منصوبون عليها يئنون أنات الموت(٣). وعلى الرغم من أن الخوزق استطاع أن يحارب أعداءه مثل الشيطان، ويلقى الهزيمة بمحمد الفاتح وقواده عدة مرات، إلا أنه وقع ضحية لثورة داخلية فى سنة ١٤٦٢ أثناء هروبه، وعين محمد الفاتح بدلا منه حاكما، أعلن عن رغبته فى وضع حد للحرب مع الأتراك، واعترف بتبعيته للسلطان، وتعهد بدفع جزية له(٤).

وفى ذلك الوقت كان يحكم مولدافيا ستيفن الرابع الشهير الملقب بستيفن الكبير (١٤٥٧ ـ ١٥٠٤) لمهارته كقائد ودهائه كدبلوماسى، وقد بنى دولة قوية، واستولى على ميناء كيليا الدانوبى، وتدخل فى سياسة والاشيا كخطوة أولى تمكنه من غزو ساحل البحر

---

(١) سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ١٥٩.

(2)Schevill, op. cit., p. 205.

(3) Schevill, op. cit., pp. 205-206.

سالم الرشيدى: محمد الفتاح، ص ١٥٩ ـ ١٦٠.

(4)Schevill, op. cit., p. 206.

الأسود والقرم. وكان نزاعه آنذاك مع العثمانيين حول السيطرة على أمراء والاشيا الضعاف، وأخيراً اعترف فلاد الرابع بسياسة العثمانيين والمجريين، وفى المقابل جرى الاعتراف به أميراً على والاشيا. وفى سنة ١٤٦٠ عقد فلا الرابع معاهدة مع السلطان محمد الفاتح، وفى هذه المعاهدة تعهد السلطان بحماية والاشيا والدفاع عنها ضد أى عدو، والحفاظ على أمرائها ودياناتها وقوانينها ومؤسساتها، على أن تكون له السيادة على هذه الإمارة وتدفع له جزية سنوية. كما وعد السلطان العثمانى أن يبعد «الغزاة» العثمانيين عن أراضى والاشيا، بشرط ألا يقوم ستيفن بأى عمل لتوسيع نفوذه فى المنطقة(١).

وبتسوية الموقف فى والاشيا وجعلها محايدة، أصبح السلطان العثمانى محمد الفاتح قادراً على تحويل جهوده إلى الأناضول، خاصة أن المعارضين المسلمين للسلطان قد تركزوا فى شرق ووسط الأناضول، ويظهر ذلك واضحا فى أنه بعد انهيار إمبراطورية تيمور المغولية، شيدت دولة «الشاه السوداء» إمبراطورية قوية فى غرب إيران وشمالى العراق، فى حين استطاعت دولة «الشاة البيضاء»، تحت زعامة الأمير التركمانى المرموق أوزون حسن (١٤٥٣ ـ ١٤٧٨)، وبمساعدة ضئيلة من دولة المماليك الجراكسة فى مصر، استطاع أن يبنى دولته فى غرب إيران وشرق الأناضول. أما إمارة قرمان، فقد أخذت تمد نفوذها فى الأناضول الوسطى، وتحرض الأهالى على الثورة ضد العثمانيين(٢).

ومما يجدر ذكره أن الانتصارات التى حققها العثمانيون فى مناطق البلقان، قد أثارت الفزع والرعب فى قلب البندقية وجنوة، الأمر الذى جعلهما يشجعان إمارات الأناضول على الخروج ضد السلطان، بهدف تقليل التهديد العثمانى ضدهما. وعندئذ أراد محمد الفاتح أن يضع حداً لما تقوم به البنقية وجنوة. ففى أبريل عام ١٤٦١ استخدم محمد الفاتح أسطوله الجديد فى هجماته البرية والبحرية، وانتصر على الأسطول الجنوى فى مدينة أماصرة Amasra فى آسيا الصغرى على شاطىء البحر الأسود، ثم فى كفّه Kaffa، وأراضى الكاندر Candar بشبه حزيرة القرم، وهى آخر إمارة فى المنطقة، وفى أواخر هذا العام قضى على طرابيزون البيزنطية. أما أوزون حسن زعيم دولة «الشاة البيضاء»، فلم تكن لديه قوة

---

(1) Schevill,op. cit., p.20, Shaw, op. cit.. Vol.I, p. 64.

(2) Shaw, op. cit., p. 64

كافية لمواجهة العثمانيين بمفرده، ومن ثم اضطر إلى عقد معاهدة سلام معهم فى أرزنجان فى ١٤ أغسطس عام ١٤٦١م، فى الوقت الذى وقفت إمارة قرمان ساكنة، وحافظت على هدوئها، وخافت أن تقوم بأى عمل يثير غضب السلطان ضدها(١).

ولكن محمد الفاتح لم يلبث أن انشغل عن حملاته فى الأناضول بالغزوات التى قام بها أمير والاشيا فلاد الرابع فى الأقاليم العثمانية فى شمالى بلغاريا فى سنة ١٤٦١ ـ ١٤٦٢. فأرسل إليه الفاتح يدعوه إلى الطاعة، فجاء رسول الفاتح أمام الأمير، فإذا به يأمر بخلع عمامة هذا الرسول وأن يخلع من معه عمائمهم أيضا إظهاراً لاحترام الأمير، فلما خالفوه أمر فلاد بأن تستمر عمائم رسل الفاتح على رؤوسهم بمسامير من حديد(٢). وقد رد محمد الفاتح على ما فعله أمير والاشيا بغزو إمارته وفتحها وضمها إلى الإمبراطورية العثمانية (أبريل ـ أغسطس ١٤٦٢). ولكن إمارة والاشيا لم تلبث أن استعادت استقلالها الذاتى فى عهد رادو الرابع المعروف برادو الوسيم (١٤٦٢ ـ ١٤٧٩) شقيق فلاد الرابع، وكان رادو قد تربى فى البلاط العثمانى، وفى سبيل حصوله على العرش، اعترف بسيادة السلطان العثمانى، ووافق على دفع الجزية له(٣).

حروب محمد الفاتح مع البندقية وقرمان:

وهناك مصدر آخر لمتاعب للدولة العثمانية، وهو نشاط البندقية ضد مشاريعها. فالبندقية خوفا من التوسع العثمانى بحذاء البحر الأدرياتى، راحت تبحث فى كل مكان عن حلفاء لها ضد محمد الفاتح، ووفقت فى مسعاها، فوجدت فى ألبانيا إسكندر بك، وفى شرق الأناضول الأمير التركمانى حسن أوزون. وقد استخدم مجلس الدولة فى البندقية كل وسيلة ممكنة للتغلب على العدو ومنها القتل السياسى، فقد فكر البنادقة جديا فى دس السم لمحمد الفاتح، «نظرا إلى الحاجة لاستخدام كل الوسائل الممكنة ضد تركيا وسلطانها»(٤). وقد استطاعت البندقية أن تقنع إسكندر بك بتحطيم تحالفه مع السلطان العثمانى،

---

(1) Shaw, Hist of the Ottoman Empire, Vol. I, p.64.

(٢) محمد حرب: العثمانيون فى التاريخ والحضارة، ص ٨٦ ـ ٨٧.

(3)Shaw, op. cit., p. 64.

(٤) شارل ديل: البندقية، جمهورية أرستقراطية، ص ١٣٨ ـ ١٣٩.

واستئناف العمليات الحربية ضد الحاميات العثمانية فى الشمال فى فبراير عام ١٤٦٢ . ومما يجدر ذكره أن ملك البوسنة الجديد ستيفن توما شيڤيتش (١٤٦١ ـ ١٤٦٣) أبدى تعاونه، فأطاح بالسيادة العثمانية، وقبل حماية المجريين وسيطرتهم عليه فى عام ١٤٦٢م. ولكن محمد الفاتح رد على ذلك بغزو ألبانيا، وأجبر ملكها اسكندر بك على توقيع معاهدة سلام جديدة معه، والتخلى عن الأراضى التى استولى عليها فى ٢٧ أبريل سنة ١٤٦٣ . ونتيجة لذلك أصبحت يد السلطان العثمانى طليقة فى التعامل مع البوسنة، فغزاها خلال الفترة الباقية من الصيف[١]. وقد حصل على مساعدة قيمة من البوجوميليين الوطنيين الذين عانوا من وطأة الاضطهاد المرعب الذى قام به الكاثوليك والأرثوذكس خلال الاحتلال المجرى[٢] . ولم يعد أمام السلطان إلا حدود مجرية «بانات Banats»، هذا وقد قبلت هرزيجوفينا حينئذ السيادة العثمانية[٣] .

ومنذ عام ١٤٦٣ فصاعداً ظلت أراضى البوسنة واقعة تحت الحكم التركى الدائم، رغم أن العثمانيين سحبوا قواتهم العسكرية الرئيسية أثناء الخريف. بيد أن المكاسب التى غنمها الجيش التركى فى النصف الشمالى من البوسنة، ما لبث أن استردها سريعا ملك المجر ماتياس كورڤينوس. إذ ما كاد السلطان العثمانى يعود أدراجه، حتى حاصرت القوات المجرية زفتشا Zvechaj ويايسة Jajce، اللتين لم تلبثا حتى سلمتا. وسرعان ما أسس الملك ماتياس «بانية» جديدة للبوسنة تحت الحكم المجرى فى هذه الأجزاء الشمالية. وفى سنة ١٤٧١ أصدر أمراً بترقية «ألبان» إلى رتبة «ملك البوسنة». ومع أن هذه المملكة ما لبثت أن تهاوت تحت أقدام الترك فى حملاتهم التالية فإن القسم الذى بقى من تلك المملكة، استمر صامداً مدة تزيد على الثمانين عاما. وفى غضون عشرينيات الألف وخمسمائة ظلت مدينة يايسة فى حالة حصار مستمر تقريبا وهى تتلقى معونات من الأغذية من سلاڤونيا المجرية بواسطة قوافل مسلحة، لايكاد يصل عددها إلى أربع مرات فى السنة. وأخيراً فتحها العثمانيون فى سنة ١٥٢٧م، بعد تحطيم الجيش المجرى فى معركة موهاتس Mohats الفاصلة فى السنة السابقة.

---

(1)Shaw, op. cit., pp. 64-65.

(2) Darby and others, A Short Hist of Yugslavia, op.63.

(3) Shaw, op. cit., p. 65.

(٤) مالكولم: البوسنة، ص ٧٧.

أما حرب الدولة العثمانية مع البندقية فلم يكن من الممكن تجنبها. إذ استغل البابا بيوس الثانى الموقف ليربط البندقية بالمجر فى اتفاقية ضد عدوهما المشترك العثمانيين فى ١٢ سبتمبر عام ١٤٦٣، والقيام بحملة صليبية جديدة ضد هذا العدو. واتفق على أنه لو نجحت تلك الحملة، فستحصل البندقية على المورة والأقاليم اليونانية بحذاء البحر الأدرياتى، وسوف يمد اسكندر بك حدود دولته الألبانية فى مقدونيا، وكذلك تقوم المجر بحكم بلغاريا والصرب والبوسنة ووالاشيا، وفضلا عن ذلك سوف تعود القسطنطينية وأعمالها إلى الأفراد الموجودين على قيد الحياة من الأسرة البيزنطية الحاكمة السابقة[١]. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل تفاوض الصليبيون مع الأميرين المسلمين أوزون حسن (١٤٥٣ ـ ١٤٧٨) صاحب إمارة «الشاة البيضاء»، وأمير قرمان، حيث وعدا بمهاجمة أملاك العثمانيين فى الأناضول ويزحفان إلى الغرب، فى نفس الوقت الذى يتحرك فيه الصليبيون ضد محمد الفاتح فى أوربا، ويزحفون إلى الشرق، وبذلك يقع العثمانيون بين فكى الكماشة[٢]. ويرى البعض أن سياسة الفتوحات التوسعية التى اتبعها محمد الفاتح، وليست سياسته التجارية، هى التى دفعته لأن يدخل فى صراع لايمكن تجنبه مع البندقية. فقد كان السلطان يمتلك قوة بحرية محدودة، استطاع بفضلها الإستيلاء على القسطنطينية. وعلى ذلك رأى أنه لتأمين ممتلكاته البلقانية، فلابد له من السيطرة على شواطىء البلقان والبحار المحيطة به، التى كانت تسيطر عليها البندقية من الناحية الفعلية، وذلك بفضل أساطيلها وخبرة ملاحيها، التى جعلتها تنتشر فى البحار الأيونية والإيجية. وحتى يجعل محمد الفاتح من البلقان منطقة أمان وخضوع، كان على القوات العثمانية أن تستولى على المراكز البحرية التى انتزعتها البندقية من الإمبراطورية البيزنطية[٣]. ومما يذكر أن البابا بيوس الثانى بعث برسالة طويلة إلى محمد الفاتح، يحضه فيها على اعتناق السميحية، ووعده بإعطائه الإمبراطورية الشرقية، مثلما فعل أسلافه البابوات الذين أعطوا الإمبراطورية الغربية لشارلمان، وكل ما نعرفه أن محمد الفاتح لم يرد على الاقتراح الغريب الذى عرضه البابا[٤].

---

(1)Shaw, op. cit.,p. 65.

(2) Shaw, p.65.

(3) Schevill, The Hist of the Balkan Peninsula, pp. 208-209.

(4) Lodge, The Close of the Middle Ages., p. 279.

وقد بدأت الأعمال الحربية للصليبيين في سبتمبر عام ١٤٦٣، عندما احتلت البندقية عدداً من الجزر الإيجية وأجزاء كثيرة من المورة على أيدى أمهر قوادها(١). وفي ٢٢ أكتوبر سنة ١٤٦٣، أذاع البابا بيوس الثانى منشوراً حماسيا على جميع المسيحيين فى أوربا، دعاهم فيه إلى الحرب المقدسة ضد الأتراك، ثم جمع جيشا صليبيا جديداً فى أنكونا (مدينة فى منتصف إيطاليا على ساحل البحر الأدرياتى). وأبحر الأسطول البندقى إلى الدردنيل، واستولى على ليمنوس وتيندوس Tenedos فى عام ١٤٦٤، ومنع العثمانيين من إرسال المؤن إلى المورة، وهدد بمهاجمة إستانبول. فما كان من السلطان محمد الفاتح إلا أن أمر ببناء أسطول جديد، كما شيد قلعتين حصينتين تواجه كل منهما الأخرى عبر مضيق الدردنيل لتجبرا العدو على البقاء بعيداً، وقد استغرق بناؤهما سنتين فى ١٤٦٣ و١٤٦٤ . وقاد الصدر الأعظم محمود باشا حملة ضخمة تمكنت من استعادة المورة وسحق الجيش البندقى فى ربيع عام ١٤٦٤ . كما قاد السلطان بنفسه جيشا إلى البوسنة وطرد المجريين من أراضيها، وبدأ فى غزو المجر، وحاصر بلغراد، ولكنه فشل فى الإستيلاء عليها مرة أخرى. وعلى أى حال، فشلت الحملة الصليبية، ومات البابا بيوس الثانى كمداً فى أنكونا فى ١٥ أغسطس عام ١٤٦٤م(٢).

وفى سنة ١٤٦٩ تحرك الأسطول البندقى إلى شرق البحر الإيجى واستولى على جزر لمنوس، ونهب جنوب الساحل الأناضولى، وأنزل المؤن لإمارة قرمان. فغضب السلطان محمد الفاتح وصمم على أن ينزل ضربة قوى بالبندقية(٣). فقاد حملة بحرية إلى مدينة يوبويا (نجربونت) Negroponte ـ أى الجسر الأسود ـ وهى القاعدة البحرية الرئيسية للبندقية فى البحر الإيجى. وحاصر السلطان المدينة، وأبلت المدينة فى الدفاع بلاء حسنا، ولكن تراخى أمير البحر نيقولا داكانالى أضاع كل شيء، إذلم يستطع منع وصول الأسطول العثمانى ولااقتحام جسر السفن الملقاة بين الجزيرة والبر،والتى يقطع تدميرها الإمدادات عن العدو. وقد «نسى نفسه»، فى كسل وجبن، فلم يقم بجهد ما لإنقاذ المدينة، وأخيرا سقطت نجربونت بعد نضال مستميت. وقد انتقم العثمانيون من الحامية والسكان

(1)Shaw, op. cit., p. 65. Babinger, op. cit., pp. 228-229.

(2) Shaw, Hist of the Ottiman Empire, Vol. I. p. 65.

(3) Ibid., p. 65.

المدنيين انتقاما ذريعا، فقطعوا أجسام بعض جنود القلعة بواسطة المناشير، ووضعوا البعض الآخر منهم على الخوازيق، ومثلوا بجثة نائب البندقية فيه أبشع تمثيل، وقال أحد المعاصرين: «لم ير أحد قساوة تفوق هذه قط»(١).

على أن الغزو النهائي الذى قام به العثمانيون لقرمان، جعلهم يحتكون احتكاكاً مباشراً مع دولة المماليك الچراكسة في مصر، وأوزون حسن صاحب إمارة «الشاة البيضاء»، ويدخلون في نزاع معهما. فقد تحالف أوزون حسن الأمير التركمانى المسلم مع البندقية فى عام ١٤٧٢، ووجدت فيه حليفاً أكثر حماساً وأشد جرأة واندفاعاً فى مقاتلة العثمانيين، وفى مقابل ذلك وعدته البندقية بإرسال جيوش وذخيرة وخبراء لتعليم رجاله طريقة استخدامها. واستعد أوزون حسن لقتال العثمانيين، بأن جمع حوله كل الأمراء التركمان الذين خلعهم محمد الفاتح، ووعد أن يرد إليهم إماراتهم فى مقابل مساعدته فى القضاء على العثمانيين(٢).

وفى رسالة بعث بها أوزون حسن في غضون الأيام التى سبقت لقائه بالعثمانيين إلى حلفائه دوج البندقية، وإمبراطور ألمانيا وملك المجر ماتياس، كتب يقول إن إبادة الجيش العثمانى خلال عدة أيام أمر مؤكد، وأنه لايستطيع أن يتكهن بما إذا كان سيمكن أسر السلطان أم لا. كما تضمنت رسائله أن الدولة العثمانية ذات تسعة أرواح، فقد استطاعت أن تستعيد حيويتها بعد انهيارها فى موقعة أنقرة التى جرت منذ حوال سبعين سنة. وأهاب أوزون حسن بالإسراع فى احتلال أراضى الدولة العثمانية فى روميللى فور قيامه بإبادة الجيش العثمانى، وإذا لم يمكنه القضاء عليه بشكل تام، فإن الدولة العثمانية ستصبح على الأقل بعد ذلك دولة من الدرجة الثانية، وتسقط إلى درك إمارة عادية عديمة الشأن(٣).

وكان أن زحف جيش تركمانى ضخم من إمارة «الشاة البيضاء»، فى الأناضول الوسطى، واستولى على سيواس، ثم انقض فجأة على مدينة توقات، فأمعن فيها قتلا ونهبا

---

(١) شارل ديل: البندقية، جمهورية أرستقراطية، ص ١٣٩،

Creasy, Turkey, p. 85, Babinger, op. cit., pp. 283-284

عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانيجة، جـ٢، ص ٨٨٤.

(2)Shaw, op. cit.,p. 66.

(٣) يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، جـ١، ص ١٦٢.

تخريبا، حتى أصبحت الممتلكات العثمانية فى الأناضول فى خطر. وما أن علم السلطان الفاتح بما حدث، حتى واجه الموقف بنشاطه المعتاد، فبعد أن أعد إستانبول لمواجهة أى هجوم بحرى صليبى محتمل، تركها لإبنه جم سلطان البالغ من العمر أربعة عشر عاما، وقاد جيشا ضخما فى الأناضول فى العام التالى، وحطم جميع المحاولات التى قام بها الصليبيون للمرور خلال المضايق. ثم التقى محمد الفاتح مع أوزون حسن والأمراء التركمان فى سهل أوتلوق بيلى بالقرب من أرضروم فى ١١ أغسطس ١٤٧٣، واحتدم القتال بين الفريقين، وانتهى بانتصار حاسم للجيش العثمانى بفضل الإنكشارية. وأمعن العثمانيون القتل فى رجال أوزون حسن. ومرة أخرى أدرك الأخير أنه لايستطيع التغلب على العثمانيين فى معركة مفتوحة، ولذلك وافق على توقيع معاهدة سلام معهم فى ٢٤ أغسطس من نفس العام(١). وقد قضت معاهدة السلام بتخلى أوزون حسن عن قلعة «قره حصار»، وبالتعهد بعدم التعرض للأراضى العثمانية مرة أخرى، ثم عاد إلى آذربيجان(٢). وبذلك توطد الحكم العثمانى فى الأناضول غربى الفرات، وقضى على تحالف أوزون حسن مع القوى الأوربية وبخاصة البنادقة، وبعد وفاته إنهارت إمارته من أساسها، وفى عهد إبنه يعقوب (١٤٧٩ ـ ١٤٩٠) ظلت العلاقات بينه وبين العثمانيين هادئة(٣).

تحرج موقف البندقية تحرجاً شديداً، بعد أن وقع أوزون حسن أكبر حلفائها فى الشرق معاهدة سلام مع العثمانيين، وفى الغرب تحول حلفاء البندقية إلى أعداء، ومن ثم وجدت البندقية نفسها وحيدة، فلم تجد بداً من أن تذعن للواقع بعد أن أحست أنها عاجزة عن مواجهة السلطان العثمانى، فاجتمع مجلس الشيوخ فى ٢ مايو سنة ١٤٧٨، وقرر عقد الصلح مع الدولة العثمانية(٤).

وعلى أية حال، أسرعت البندقية إلى إجراء مفاوضات مع السلطان محمد الفاتح، إنتهت بتوقيع معاهدة صلح فى إستانبول فى ٢٥ يناير سنة ١٤٧٩، وبذلك انتهت ستة

---

(1)Shaw, op. cit., p. 66, Halil Inalcik, Ottoman Empire, pp. 28-29.

يلماز أوزتونا: المرجع السابق، ص ١٦٤ ـ ١٦٥.

(٢) خليل إينالجك: «العثمانيون، النشأة والازدهار»، ص ٦٦.

(3)Shaw, op. cit., p.66.

(٤) سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ٢٣٣.

عشر عاما من الحروب بينهما. وبمقتضى هذا الصلح وافقت البندقية على التنازل عن سكوتارى، وهو آخر ميناء كانت تحتله فى شمالى ألبانيا، والاعتراف بالحكم العثمانى فى ألبانيا، والفتوحات العثمانية فى جزر البحر الإيجى، وبذلك أعطى البنادقة السلطان سيطرة كاملة على البحر الإيجى الشمالى، فيما عدا جزر سبوروادس Sporades وخيوس التى لازالت فى أيدى جنوة. وفى مقابل تلك التنازلات الفادحة سمح السلطان للبندقية باستعادة عدد من الموانى فى دلماشيا بحذاء البحر الأدرياتى، فضلا عن ممتلكاتها السابقة فى المورة فيما عدا أرجوس. وقد أرغم السلطان البندقية على دفع مبلغ سنوى ضخم مقداره عشرة آلاف دوكات، لمنحها حرية التجارة فى جميع أرجاء الدولة العثمانية[1]، وأن يكون للبندقية قنصل فى استانبول ليشرف على مصالح البنادقة، وينظر فى قضاياهم المدنية[2].

حصار رودس والاستيلاء على أوترانتو فى جنوب إيطاليا:

ولاشك أن النصر الذى أحرزه محمد الفاتح على البندقية أعظم قوة بحرية فى شرق البحر المتوسط، جعله يحاول جاهداً تحقيق هدفين هامين لبحريته وهما:

(١) غزو جزيرة رودس بالقرب من مدخل البحر الإيجى، التى تعتبر البوابة التى ينطلق منها لمزيد من التوسع فى غرب البحر المتوسط.

(٢) إحتلال إيطاليا، التى صارت مهيئة للغزو بسبب المنافسات العميقة بين البندقية ونابولى وميلان، فضلا عن الانقسامات التى أوجدها النشاط السياسى للبابا فى روما.

وكانت رودس الجزيرة الإيجية الهامة الوحيدة التى لم يضع العثمانيون يدهم عليها بعد، وكان يحكمها فرسان القديس يوحنا (الإسبتار)، وهم أصلا منظمة دينية حربية تأسست فى بيت المقدس فى عام ١٠٧٠م. ومن المعروف أن الهيئات الدينية الحربية لعبت دوراً بالغ الأهمية فى الدفاع عن مملكة بيت المقدس طوال القرن الثانى عشر. وفى خلال

---

(1)Shaw, op. cit., p. 69, Castellan, Hist of the Balkans, p. 83,

شارل ديل: البندقية، جمهورية أرستقراطية،ص ١٤٠.

(1)Lodge, op. cit., p. 256, Halil Inolclik, The Ottoman Empire, p.29.

نيقولا فاتان: «صعود العثمانيين (١٤٥١ ـ ١٥١٢)»، فى تاريخ الدولة العثمانية، ص ١٤٥.

القرن التالى انتقل عبء الدفاع عن الممتلكات الصليبية فى الشام إلى تلك الهيئات، والتى كان أقدمها هيئة فرسان الإسبتارية. وبعد أن سقطت عكا فى أيدى المسلمين عام ١٢٩١، وانتهى الوجود الصليبى ببلاد الشام، اتخذت الاسبتارية من جزيرة قبرص مقراً لها، على أنها لم تلق شيئا من التقدير الذى كانت تأمله فى تلك الجزيرة، فاستولت على جزيرة رودس فى أغسطس سنة ١٣٠٨، واتخذتها قاعدة لنشاطها. ولم يكن فرسان الاسبتارية الذين حولوا الجزيرة إلى قلعة منيعة يقلون حماساً عن آل لوزجنان فى قبرس فى مشاريعهم الصليبية ضد المسلمين.

وكانت جزيرة رودس آنذاك جزءاً من الإمبراطورية البيزنطية المتداعية، واستخدمت وكراً للقراصنة. وقد أصبحت منظمة الإسبتارية حصنا منيعا ضد الإسلام، وقاعدة رئيسية للقراصنة الذين يغيرون على السفن العثمانية فى البحر الإيجى وشرق البحر المتوسط، فضلا عن قيامها بمساندة الجهود البحرية الصليبية المختلفة فى المناطق المجاورة(١).

وفى عهد السلطان العثمانى أورخان (١٣٢٤ ـ ١٣٦٢) انقضت سفن فرسان رودس على بعض السفن العثمانية فى إمبروس سنة ١٣٤٦ وحطمتها وأسرت بعض بحارتها العثمانيين. بيد أن انصراف السلاطين العثمانيين الأوائل إلى الفتوحات البرية وعدم امتلاكهم بحرية قوية وقلة تمرسهم بأساليب القتال فى البحر وانشغال الفرسان أنفسهم بعد نزولهم فى رودس بتشييد القلاع والحصون وإنشاء قوة بحرية قوية لهم، كل ذلك لم يتح للدولتين فرصة الالتحام فى معركة كبيرة حاسمة(٢).

وقد اشترك فرسان رودس برجالهم أو سفنهم فى معظم المعارك والحملات التى شنها الغرب الأوربى على الدولة العثمانية فى عهد محمد الفاتح وعهد من قبله من السلاطين. وعندما نشب الصراع بين الفاتح وأوزون حسن، عقد رئيس الفرسان معاهدة تحالف مع الأخير، وأمده بما كان يحتاج إليه من رجال المدفعية وصناع الأسلحة النارية(٣).

---

(1)Shaw, op. cit., Vol I, p. 69.

(٢) سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٤٤.

ويذكر المؤرخ دوكاس أنه فى خلال العام التالى من سقوط القسطنطينية على أيدى السلطان محمد الفاتح، وفى أثناء وجوده فى أدرنة، وصل فرسان الاستبار من رودس ومعهم كثير من الهدايا، وذلك لتقديم الطاعة للسلطان. وقد رغب هؤلاء الفرسان فى إجراء مفاوضات هادئة الغرض منها عقد اتفاقيات تسمح لهم بحرية التجارة فى المناطق المجاورة لكاريا وليكيا، فى الوقت الذى سيكون فيه الأتراك قادرون على الذهاب إلى رودس دون خوف، ولهم الحرية فى شراء ما يحتاجونه من مؤن من رودس والجزر التابعة بها. وعندئذ طلب السلطان من السفراء دفع جزية سنوية، ولكن السفراء أجابوا عليه بأنه ليست لديهم سلطة البت فى هذا الموضوع دون الرجوع إلى حكومتهم. وهنا قال وزراء السلطان: «إذا لم توافقوا على دفع الجزية، فإنكم ستحرمون من عطف السلطان،وإذا لم تخضعوا لمطلبه: فسوف يخوض السلطان مع الجزيرة معركة ضخمة، ويقوم بتحطيمها هى والمناطق المجاورة لها. وعندئذ طلب السفراء من السلطان أن يرسل معهم واحداً من حاشيته للتحدث فى هذا الأمرمع مقدم الإسبتار، إذ أنهم لايملكون سلطة التصرف فى هذا الأمر، فوافق السلطان على طلبهم، وأرسل معهم أحد حاشيته[١]. وعندما عادت السفارة إلى رودس، واستمع مقدم الفرسان بعناية لطلب السلطان، أجاب على رسوله بأن الجزيرة لاتخصه، بل هى تابعة للبابا الذى منعه من دفع جزية، وإذا رغب السلطان فى صداقتنا، فسيرسل له المقدم سفارة كل سنة لتحيته كجار وسلطان عظيم. وعندما سمع السلطان بذلك ثار وغضب وأعلن الحرب على رودس، وأعقب ذلك أن نزل العثمانيون على شاطئها، وأسروا أربعين من أهلها، وفعلوا نفس الشيء فى جزيرة قوس Kos[٢].

والواقع أن الأحداث السياسية والعسكرية فى أوربا الشرقية وآسيا منعت السلطان الفاتح من التفرغ لمجابهة جزيرة رودس، واقتصر الصدام بينه وبين فرسان الاسبتار فى السنين الأولى من حكمه على المناوشات البحرية والغارات التخريبية المتبادلة على الشواطىء، لم يكن لها من أثر إلا أنها حملت الفرسان على مضاعفة جهودهم فى تحصين جزيرتهم وسد الثغرات والثلمات[٣].

(1) Doukas, Decline and Fall of Byzatium to the Ottoman Turks,p. 245.

(2) Ibid., pp. 245-246.

(٣) سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥.

غير أن فرسان القديس يوحنا فى رودس قد اقتنعوا أن محمداً الفاتح سوف يعمل إن عاجلا أو آجلا على طردهم من الجزيرة. ونتيجة لذلك بذل مقدم الفرسان وأتباعه جهداً كبيراً فى توجيه الصرخات للبابا وملوك وحكام أوربا طلباً للمساعدة، وقد توجه ضباط المنظمة إلى الغرب الأوربى سعيا وراء ذلك. وفى يوليو سنة ١٤٧٧ أرسل مقدم المنظمة مبعوثا هوبيير دوبسون Pierre d'Aubusson إلى رؤســاء الأديرة فى أوربا، لكى يصل صوت الاستغاثة إلى أوربا. وقد كتب دوبسون أن السلطان العثمانى يزداد قوة يوما بعد يوم، ولاشىء يوقفه عند حده، ويرجع السبب فى ذلك إلى أن عدد جيشه يفوق الحصر، ويطيعه طاعة عمياء عند أقل بادرة أو إشارة، وسفنه يقودها قبطانات رائعين وبحارة مهرة، ولديه أفضل المهندسين وآلات الحرب وأموال ضخمة، وقد أقسم السلطان على طرد كل المسيحيين من الشرق الأوربى(١).

وقد علم دوبسون من جواسيسه الذين يعملون لحسابه فى الباب العالى أن السلطان يعد العدة لمهاجمة رودس بأقوى جيوشه، وأنه سيعمل على سحق فرسان رودس الذين يقفون عقبة كأداء فى طريق طموحاته التى لاتنتهى. وحث المقدم ملوك وحكام أوربا على التفكير فى الكارثة التى ستقع على رأس المنظمة ما لم يأتوا إليها فى الحال، ويقدموا لها المساعدة، وألا يتركوا الجزيرة نهبا لغضب البرابرة(٢).

وعلى عكس ما كان يتوقع دوبسون، فإن قوات محمد الفاتح لم تهاجم الجزيرة فى سنة ١٤٧٧ أو فى العام التالى، بل الحقيقة أنه فى صيف سنة ١٤٧٩ أتى رسل إلى رودس برسالة تتضمن طلب عقد هدنة دائمة بين المنظمة والباب العالى. ولكن دوبسون لم يوقع على أية اتفاقية، بل أسرع يعمل الاستعدادات اللازمة تحسبا لأى هجوم يشنه االعثمانيون(٣). من ذلك أنه شدد الحراسة والمراقبة على المرتفعات، وأحصى سكان رودس الذين يقدرون على حمل السلاح. وأنشأ فى أطراف الجزيرة القريبة من الساحل المعرضة للأخطار أكثر من غيرها قلعة منيعة للسكان ومنعهم من الخروج منها صباحا قبل أن يخرج كشافون من الفرسان ويستوثقوا من عدم وجود أى خطر. ولما نفذت أموال الخزانة العامة فى

---

(1)Schoebel, The Shadow of the Crescent., p. 120.

(2)Ibid., p. 120.

(3) Ibid., pp. 120-121.

هذه الاستعدادات، لجأ دوبسون إلى أموال الكنيسة، واستخدمها فى هذا السبيل، وأمر بتخزين الحبوب والطعام، وأكره الأجانب المقيمين فى رودس وفيهم المسلمون على الإشتراك فى أعمال التحصين والبناء، واستولى على السفن الأجنبية الراسية فى مياه رودس. ويمكن القول إن دوبسون عبأ جميع القوى والطاقات لتحصين رودس، حتى غدت هذه الجزيرة قلعة محكمة شديدة المناعة(١).

وكيفما كان الأمر، ففى ديسمبر سنة ١٤٧٩ ظهر أسطول تركى بقيادة مسيح باشا ــ وهو أصلا من أسرة باليولوجوس التى حكمت بيزنطة ــ أمام جزيرة رودس، فوجدها فى غاية التحصين، فرجع إلى خليج فسكوس Physcos انتظاراً للنجدات التى وصلت فى مايو سنة ١٤٨٠، وصار عدد الأسطول العثمانى يزيد على مائة سفينة. وفى ٢٢ أو ٢٣ مايو نجح مسيح باشا تحت ضربات مدافعه المتواصلة فى إنزال جنوده على الساحل الغربى من الجزيرة(٢).

وتبع الأتراك نزولهم الناجح بتركيز قواتهم حول تل يدعى تل القديس ستيفن غربى المدينة، ثم واصل الأسطول التركى تعزيزاته حتى أصبحت قوته حوالى سبعين ألف جندى. ووضع الأتراك ثلاثة مدافع ضخمة بالقرب من كنيسة القديس أنتونى القريبة من الميناء، وفتحوا النار على قلعة القديس نيقولا. وقد اهتم مسيح باشا بتدمير البرج، فظل الأتراك يقصفونه ليلا ونهاراً حتى استطاعوا تدمير جزء كبير من السور الغربى للقلعة. ولكن دوبسون بادر بإرسال جماعات لترميم ما تهدم بالأحجار والأشجار، وتولى بنفسه قيادة حامية برج القديس نيقولا(٣).

وأمر مسيح باشا بمواصلة ضرب أسوار قلعة نيقولا، على أمل أن ينسحب المدافعون،وقد اهتزت المبانى فى داخل المدينة كأن زلزالا وقع بها من شدة الضرب، فوقعت أجزاء ضخمة من الأسوار والبيوت، ولكن أهالى رودس إنشغلوا بإصلاح وترميم الأجزاء التى دمرتها المدفعية العثمانية، واشتركوا جميعهم فى بناء سور جديد، وحفر خندق فى

---

(١) سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ٢٤٦.

(2)Schwoebel, The Shadow of the Crescent., pp. 121-122.

(3) Ibid., pp. 123-124.

وقت قصير كخط دفاع ثان. وعلى الرغم من أن الأتراك كانوا متفوقين فى العدد، إلا أنهم عجزوا عن الاستيلاء على برج القلعة، وعانوا هزيمة ثقيلة، قتل فيها حوالى ٢٥٠٠ جندى عثمانى، وأصيب كثير من الجند بجروح، وفاقت الخسائر فى المعدات الحربية أى وصف(١).

وبعد شروق الشمس بساعة صباح يوم ٢٨ يوليو ١٤٨٠م، هاجم الجيش العثمانى أسوار حى اليهود الضئيلة، واقتحم العثمانيون الخندق، وصعد الآلاف منهم الأسوار، وغرسوا رايتهم أمام أعين أهالى رودس، وهبط بعض المهاجمين سلماً داخل داخل، ودخلوا المدينة. ولكن الموقف لم يلبث أن تغير، فجزء من المدافعين كان يقوده مقدم المنظمة، فى حين أن الجزء الآخر كان يقوده أخوه أنطوان دوبسون الذى صعد السور ومعه فرسانه وجنوده وحارب الأتراك، ودمر البعض الآخرالسلم الذى كان الأتراك يستخدمونه لدخول المدينة، وقتلوا أولئك الذين وصلوا إلى الأرض. واستمر القتال ساعتين، جرح فيه بيير دوبسون عدة مرات، ولكنه ظل يقاتل. وعجز الأتراك عن اختراق صف المدافعين، ووقعوا فى فوضى، وتكبدوا خسائر فادحة فى الأرواح، فقد مات حوالى ثلاثة آلاف جندى. وبعد ثلاثة شهور إنسحبت القوات العثمانية، وعادت إلى بلادها تجر أذيال الفشل(٢). ولاشك أن الانتصار الذى حققه فرسان رودس على العثمانيين قد رفع من شأنهم فى أوربا، وازدادت أهمية جزيرة رودس فى الدفاع عن المسيحية. ومن ناحية أخرى دلت الحملات الفاشلة التى قام بها العثمانيون ضد رودس على ضعف البحرية العثمانية.

على أن الفشل الذى منى به الجيش العثمانى فى حصار رودس ، قد خفف من سوء وقعه النجاح الذى أحرزه جيش عثمانى آخر فى جنوبى إيطاليا. فبعد أسابيع قليلة من نزول القوات العثمانية فى رودس. وصلت الأخبار إلى الغرب الأوربى بظهور أسطول عثمانى بلغ عدد سفنه مائة وأربعين سفينة بقيادة جدك أحمد باشا فى جنوبى إيطاليا. وفى ٢٨ يوليو سنة ١٤٨٠، وهو اليوم الذى انتصر فيه فرسان رودس على الأتراك، رسا الأسطول دون عوائق بالقرب من مدينة أوترانتو فى مملكة نابولى. وشرع جدك بعد إنزال المعدات والجنود الذين يقدرون بثمانية عشر ألف جندى فى حصار قلعة المدينة(٣). وساد الذعر أنحاء شبه

(1) Ibid., pp. 125-126.

(2) Ibid., p. 129.

(3) Ibid.,p. 131.

جزيرة الإيطالية. وكان ملك نابولى فرانتى Ferrante فى أفرسا Aversa عندما علم أن العثمانيين، قد غزوا مملكته، فكتب إلى أبن الفونسو دوق كالابريا فى ٢ أغسطس يأمره بأن يقطع حملته فى توسكانى، ويتوجه من فوره إلى الجنوب لملاقاة العثمانيين. وفى نفس اليوم وجه فرانتى رسائل إلى البابا وحكام أوربينو وفيرارا يطلب المساعدة العاجلة. وكتب رسائل متشابهة إلى الحكومات الإيطالية الأخرى يحذرهم من أنهم ما لم ينضموا إليه فى طرد العثمانيين، فإنهم سوف يجتاحون دولهم(١).

وفى تلك الأثناء نزلت قوات تركية على ساحل أبوليا، ونهب جنود جدك أحمد باشا قرى وضواحى مدينة أوترانتو، ودمروا كل شىء فى طريقهم، وقتلوا واستعبدوا الفلاحين، فقد كان عدد الأتراك يفوق عدد المدافعين الذين كان ينقصهم الرجال والسلاح. وحاصر الأتراك أوترانتو، حيث وعد القائد التركى الأهالى بالإبقاء على حياتهم ومنحهم حريتهم إذا خضعوا له طائعين، وعندما رفض الأهالى نداء القائد التركى، بدأ الأتراك فى ضرب المدينة بالمدافع. وعلى الرغم من أن أهل أوترانتو قاوموا بعناد، إلا أن الأتراك اقتحموا أسوار المدينة بالمدفعية، واستولوا على المدينة بسهولة فى ١١ أغسطس سنة ١٤٨٠، وبذلك أصبح لمحمد الفاتح قاعدة فى شبه الجزيرة الإيطالية(٢)، يزحف منهامن الجنوب إلى الشمال، حتى يصل إلى روما مقر البابوية.

وعندما وصلت الأخبار إلى الإيطاليين بسقوط أوترانتو فى أيدى الأتراك، دب الرعب والفزع فى قلوبهم، إذ حملت تلك الأخبار المعاملة الوحشية التى عامل بها العثمانيون الأهالى، من ذلك أن العثمانيين قادوا ثمانمائة مواطن برىء إلى تل قريب يعرف منذ ذلك الوقت بتل الشهداء، حيث خيرهم القائد التركى بين اعتناق الإسلام أو ذبحهم(٣).

أدى الهجوم العثمانى على رودس، وماتبعه من غزو إيطاليا والاستيلاء على أوترانتو على أيدى القوات التى قادها جدك أحمد باشا، إلى ظهور موجة جديدة من الرعب فى الغرب الأوربى. وفى سنتى ١٤٨٠ و١٤٨١ أصبحت نبؤات الدعاة الصليبيين حقيقة

(1) Ibid.,p. 131, Lodge, The Close of Middle Age, p. 283.

(2) Schwoebel, op. cit., pp. 131-132, Halil Inalcik, Ottoman Empire,p. 29.

(3) Schwoebel,op. cit., p. 132.

واقعة، ونجحت خطط السلطان الرامية إلى إخضاع الغرب الأوربى وامتلأ البابا سكستوس الرابع (١٤٧١ ـ ١٤٨٤) فزعاً، واشتد به القلق، وخطط للهرب شمالا مع معظم سكان المدينة. وقبل أن ينظم جهوده للقيام بعمل عدائى مضاد، جاءت الأخبار إلى الغرب الأوربى بموت السلطان محمد الفاتح فجأة فى ٣ مايو سنة ١٤٨١ عن عمر يبلغ تسعة وأربعين عاما،وسط مظاهر فرحة عظيمة عمت أرجاء أوربا، وشعور عميق بالراحة إنتاب المسيحيين.وظهر لكثير من المسيحيين أن الرب قد استجاب لصلوات المخلصين. وتأكد لهم مرة أخرى أن تدخله قد أنقذ المسيحية[1]. ويمكن القول إن وفاة محمد الفاتح قد أنقذت أوربا من خطر العثمانيين. فقد عاد الأسطول العثمانى إلى الوطن فى ١٠ يوليو، وانتهى بذلك التوسع الإسلامى فى المنطقة[2].

والواقع أن حكم السلطان محمد الثانى شهد سلسلة خارقة من الفتوحات والتحديات لأعظم القوى المجاورة فى أوربا. فبعد استيلائه على القسطنطينية فى سنة ١٤٥٣، واصل الزحف وفتح شمال صربيا، وشطراً من بلاد الأناضول، وبلاد والاشيا والبوسنة وهرزجوفينا (الهرسك)، ودمر جيش البندقية فى اليونان، واجتاح مولداڤيا والمجر، وحاصر جزيرة رودس، ووافته المنية وهو يدبر هجوما وغزوا كاملا لإيطاليا[3].

ويعد محمد الفاتح المؤسس الحقيقى للإمبراطورية العثمانية فى أوربا وآسيا عاصمتها إستانبول، وإليه ينسب ترتيب الحكومة المركزية وتقويتها على نظام جديد، فقد أطلق على نفس الحكومة العثمانية الباب العالى، وجعل لها أربعة أركان، وهى الوزير وقاضى عسكر والدفتر دار الذى تعادل اختصاصاته اختصاصات وزير المالية حاليا، والرابع يسمى نيشانجى وهوعبارة عن كاتب سر السلطان، ثم بعد امتداد سلطة الدولة العثمانية فى أوربا، جعل لها قاضى عسكر خاص إسمه قاضى عسكر الروميللى، وقاضى عسكر آخر للأناضول. ثم رتب محمد الفاتح وظائف الجند، فجعل للإنكشارية رئيسا معنيا «أغا»، وعهد إليه بأشغال الضبط والربط بمدينة القسطنطينية، ورئيسا آخر للطوبجية، وثالثا يختص بدخائر ومؤن الجيش.

---

(1) Ibid., p. 202.

(2) Shaw, op. cit., Vol. I., pp. 69-70.

(٣) مالكولم: البوسنة، ص ٧٨.

ووضع أول مبادىء القانون المدنى وقانون العقوبات، فأبدل العقوبات البدنية أى السن بالسن والعين بالعين، وجعل عوضها الغرامات النقدية بطريقة واضحة أتمها السلطان سليمان القانونى[1].

ومن القوانين التى أصدرها محمد الفاتح قانونا يبيح قتل إخوة السلطان الجديد، إذ جرت العادة أن كل إبن من أبناء السلطان الحاكم كان يرى أنه أحق من غيره فى ارتقاء العرش بعد وفاة أبيه. ودلت التجربة فى تاريخ الأسرة الحاكمة على أن الإبن الذى يتقلد العرش يستهل حكمه بقتل جميع منافسيه، واتسع نطاق الصراع العائلى الدموى الرهيب، إذ شمل الأفراد الذكور من الأسرة الحاكمة، حتى الذين لم يتطلعوا إلى إرتقاء العرش. ولم تمارس عمليات قتل الإخوة بصفة قانونية ورسمية إلا منذ عهد محمد الفاتح. فقد أصدر قانونا خول بمقتضاه السلطان الجديد الذى يتولى العرش أن يباشر عمليات قتل إخوته تأمينا لسلامة الدولة. وجاء فى هذا القانون مايلى: «على أى واحد من أولادى تئول إليه السلطنة أن يقتل إخوته، فهذا يناسب نظام العالم. وإن معظم العلماء يسمحون بذلك،ولذلك فعليهم أن يتصرفوا بمقتضاه»[2].

والواقع أننا لا نجانب الصواب إذا قلنا إن أعظم آثار محمد الفاتح على الإطلاق هو جعله إستامبول عاصمة للدولة العثمانية، ومركزا اقتصاديا هاما لها، وميناء تجاريا معتبراً فى ذلك العصر، وذلك علاوة على تحويله لهذه المدينة إلى مدينة إسلامية بحق[3]. لقد وضع محمد الفاتح نواة الدولة العثمانية فى الروميللى والأناضول حول إستامبول، وبقيت الدولة على هذا النحو دون تغيير ذى بال مدة أربعة قرون كاملة، كما وضعت سياسته المركزية القوية أيضا حداً لحركة توسع الأسر المحلية الحاكمة فى المنطقة، وللسياسة القبلية التى كانت منتشرة فى تلك الجهات. ومن ناحية أخرى، فقد أنشأ الفاتح ثمانى مدارس كانت نواة لتطوير المؤسسة العلمية فى الدولة، وجعل من استانبول واحدة من مراكز العلوم فى العالم الإسلامى. وقد تميز عصر الفاتح ببدء ظهور فن العمارة والأدب والتاريخ العثمانى، حيث أعطت كل هذه الفنون وبخاصة المعمارية منها أهم معالم هذا العصر[4].

---

(١) محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ٦٧.

(٢) عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية، جـ١ ،ص ٣٤٧ ـ ٣٤٩.

(٣) خليل إنالجيك: «العثمانيون، النشأة والأزدهار»، ص ٧٠.

(٤) المرجع السابق، ص ٧٠ ـ ٧١.

كان محمد الثانى يجمع فى شخصه جميع مظاهر عصره الفكرية والثقافية فقد ناصر العلوم الإسلامية، وناصر الشعر بما أغدقه على الشعراء من هبات ماديةسخية.ليس هذا فحسب، بل كان مولعا بأن يختبر براعته الشخصية فى ميدان الشعر، تاركا للأجيال اللاحقة جمهرة من الأشعار اعتبرها جديرة بأن تحفظ. والواقع أن السلطان محمداً كان شديد الإعجاب باللغة الفارسية، بدليل أنه عهد إلى الشاعر الأناضولى شهدى أن ينظم بالفارسية قصيدة تصور التاريخ العثمانى على غرار الشاهنامة للفردوسى، وأن ديوان حميدى أحد شعراء بلاطه، ينتظم قصائد بعضها باللغة الفارسية، وبعضها باللغة التركية.كذلك كان شديد الاهتمام بالنهضة التى تفتحت أكمامها فى إيطاليا، وعهد إلى أحد فنانى البندقية جنتيل بلينى Gentile Bellini بأن يخرج له صورة زيتية ـ ولاتزال هذه الصورة محفوظة إلى اليوم فى مجموعة لايارد بالبندقية(١).

لقد ارتبط محمد الفاتح بموهبة النشاط السياسى والحربى الذى تمتع به أسلافه، وجعل منه نشاطه أقدر حاكم فى عصره، ولهذا فإن لقب أمير الذى اتخذه أسلافه إلى عهد يرجع إلى مراد الأول بانتصاره فى كوسوفو، لم يعد مناسبا لمحمد الثانى، الذى اتخذ بكل فخر واعتزاز لقب سلطان(٢).

ولاشك أن إجادة محمد الفاتح للغات اللاتينية واليونانية والصربية والإيطالية وفهمه عدة لغات أخرى، ودهاؤه فى الرياضيات،ومعرفته العلوم الدينية بصورة فائقة، وإجادته العربية والفارسية، تحملنا على الاعتراف بأن السلطان محمد الفاتح هو أعظم حاكم وأكبر عسكرى وأكبر رجل دولة سياسية، وبالنسبة إلى كثير من المؤرخين، فإن محمد الفاتح هو أكبر شخصية أنجبها الأتراك طوال التاريخ(٣).

---

(1)Dereksen, The Cresenct and Cross, pp. 151-152.,

بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ٤٤١ ـ ٤٤٢.

(2)Schevill, The Hist of the Balkan Peninsula, pp. 195-196.

(٣) يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، جـ١، ص ١٤٥.

الفصل السادس

الإمبراطورية العثمانية فى أوج قوتها

- بايزيد الثانى (١٤٨١ ـ ١٥١٢).
- نزاع بايزيد الثانى مع مصر المملوكية.
- غرب البحر المتوسط.
- الخطر الصفوى.
- السلطان سليم الأول (١٥١٢ ـ ١٥٢٠).
- الحرب ضد الصفويين.
- العثمانيون والمماليك.

بايزيد الثاني: (١٤٨١ ـ ١٥١٢):

يعتبر عهد بايزيد الثانى أكبر أبناء محمد الفاتح فترة انتقال من عهد البطولة القديم فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر، إلى عهد جديد من العظمة والفخر. وكمارأينا، فقد قام أبوه محمد الثانى بفتوحات هامة فى الشرق والغرب، وأعاد إلى الأذهان إمبراطورية السلطان بايزيد الأول وأضاف إليها، ولكنه ترك صعوبات اقتصادية ومشاكل اجتماعية لايمكن حلها إلا إذا ظلت الإمبراطورية قوية متماسكة من ناحية، والقيام بفتوحات جديدة من ناحية أخرى. ويعد عهد بايزيد الثانى عهد قوة وتماسك شهدته الإمبراطورية العثمانية قبل أن تستأنف الفتوحات[١].

والواقع أن الأتراك والأوربيين كلاهما فى خلال الجيل الذى تلى موت السلطان محمد الفاتح كانوا يميلون إلى التفاوض أكثر من ميلهم إلى الحرب. وحتى بعد أن انتهت الحرب الأهلية التى نشبت بعد وفاة محمد الفاتح كما سنرى، وجد بايزيد الثانى أنه من الأفضل الحفاظ على العلاقات الدبلوماسية مع القوى الأوربية. وقد اعتقد الغرب الأوربى أنه أمام رجل هادىء المزاج، ولكنه فى الحقيقة كان مشغولا بتقوية نفوذه، وإيجاد إدارة فعالة فى الإمبراطورية التى أسسها والده[٢]. وبعبارة أخرى كان السلطان بايزيد الثانى ميالا للسلم أكثر منه إلى الحرب، محبا للعلوم الأدبية،ومشتغلا بها، ولذلك سماه بعض المؤرخين الترك بايزيد الصوفى أو بايزيد الولى. لكن سياسة الدولة دعته آنذاك إلى ترك أشغاله السلمية المحضة، ولم يغفل واجباته كسلطان، فاشتغل بالحرب،وكانت أول حروبه داخلية[٣].

فعندما توفى السلطان محمد الفاتح كان إبنه «جم سلطان» أحق بالعرش من أخيه بايزيد الثانى، وكان له أنصار كثيرون. وعندما علم جم الذى كان يقيم فى قونية بوفاة أبيه،كان أخوه بايزيد الثانى قد سبقه إلى دخول إستانبول، ولذلك وجد جم أن الوقت لم يعد فى صالحه لمنع أخيه من اعتلاء العرش، ومن ثم توجه جم إلى مدينة بروسة، واستدعى

---

(1) Shaw, Hist of Ottoman Empire, Vol. I, p. 70.

(2) Schwoebel, The Shadow of the Crescent.. p.203.

(3) Schevill, The Hist of the Balkan Peninsula., pp. 211-212,

محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ٦٨.

جميع أنصاره والتركمان فى الأناضول، وأعلن نفسه سلطانا على الأناضول فى ٢٨ مايو سنة١٤٨١م،وأمر بضرب النقود باسمه. ثم اقترح جم على أخيه بايزيدالثانى تقسيم الإمبراطورية العثمانية إلى قسمين: قسم أوربى يحكمه بايزيد الثانى، وقسم آسيوى يحكمه جم سلطان. ولكن بايزيد الثانى لم يوافق على هذا الاقتراح دفاعا عن وحدة الإمبراطورية العثمانية والإبقاء عليها متماسكة(١).

وحصل بايزيد الثانى على مساعدة جدك أحمد باشا الذى كان آنذاك فى الأناضول لتجنيد فرق جديدة لغزو إيطاليا، وعرف بحب الانكشارية له. وسرعان ما نشبت الحروب بين جم وأخيه بايزيد الثانى، واستمرت عاما. ولقى فيها جم الهزيمة بالقرب من ينى شهرفى ٢٠ يوليو سنة ١٤٨١، واضطر هو وفلول جيشه إلى الفرار، ولجأوا إلى مصر، فرحب بهم السلطان المملوكى قايتباى، الأمر الذى أغضب بايزيد، ونقم على قايتباى(٢). وبعد أن أقام جم بالقاهرة ضيفا عند السلطان قايتباى، وأمده ببعض المساعدة، عاد إلى حلب فى أبريل ١٤٨٢، ومنها راسل قاسم بك آخرأمير قرمانى، ووعده أنه لو أنجده وساعده للحصول على ملك آل عثمان، يرد له بلاد أجداده، فاغتر قاسم بك بهذه الوعود، وجمع أنصاره، وسار مع الأمير جم لمحاصرة مدينة قونية عاصمة إمارة قرمان من قبل. وهناك انضم إليه عدد من أمراء التركمان الفارين من وجه العثمانيين، وبعض كبار الملاك الإقطاعيين الذين عزلهم بايزيد الثانى وجردهم من إقطاعاتهم، وحين دخلت قوات جم الجديدة الأراضى العثمانية فى قيليقية فى ١٩ مايو سنة ١٤٨٢م، لم يجد جم كثيراً من الأنصار، ولم يستطع أن يحصل على أية مساعدة سواء من الدوشرمة أو الارستقراطية التركية، فأصابه اليأس من

(1) Shaw, op. cit., p. 17.

(2) Ibid., p. 71, Halil Inalcik, Ottoman Empire, p. 30.

ومن الأسباب التى أدت إلى الاحتكاك بين المماليك والعثمانيين الإمارتين التركمانيتين قرمان ودلغادر بآسيا الصغرى،إذ تدخل محمد الفاتح فى شئون هاتين الإمارتين المشمولتين بالحماية المملوكية،ونجح فى أن يولى عرشهما أميرين مواليين للعثمانيين، وإلى جانب ذلك رحب السلطان العثمانى بالأمراء اللاجئين إليه من بلاط السلطان خشقدم (١٤٦١ ـ ١٤٦٧). أنظر إبن إياس: بدائع الزهورفى وقائع الدهور، جـ٣، ص ١٨٣.

الوصول إلى عرش الدولة العثمانية، وهرب إلى جزيرة رودس فوصل إليها فى ٢٩ يوليو سنة ١٤٨٢، حيث احتمى بأصحابها فرسان القديس يوحنا[١].

وعلى أية حال، وعد بيير دوبسون مقدم فرسان القديس يوحنا برودس الأمير جم، بالعمل على كسب الأنصار فى أوربا ضد أخيه بايزيد الثانى. وقد اتصل مقدم الفرسان ببايزيد، الذى وعد بمنح أخيه دخل إمارة قرمان دون أن يتولى حكمها، بشرط أن يتخلى عن قتال أخيه، ويعتزل ويعيش فى سلام فى القدس.ولكن جم أصر على أن يتولى حكم قرمان. فلم يوافق بايزيد على ذلك، ووعد المقدم بمنحه سنويا بعض المال فى مقابل التحفظ على أخيه جم، كما تعهد له السلطان بعدم التعرض لاستقلال الجزيرة طيلة حياته[٢]. وقد قبل فرسان القديس يوحنا ماعرضه عليهم السلطان بايزيد الثانى وأوفوا بوعدهم، ويتضح ذلك فى أنهم لم يقبلوا تسليم الأميرجم إلى ملك المجر أو إمبراطور ألمانيا اللذين طلبا إطلاق سراحه ليستغلاه فى إثارة المتاعب فى وجه بايزيد الثانى[٣].

وفى أول سبتمبرعام ١٤٨٢ أبحر الأمير العثمانى جم إلى فرنسا، وكان لايزال تحت حماية فرسان القديس يوحنا برودس، ووضع تحت التحفظ أولا فى مدينة نيس، وبقى ينتقل من بلدة لأخرى مدة سبع سنوات. وفى نهاية الأمر، تقرر فى عام ١٤٨٦ إرسال جم إلى البابا إنوسنت الثامن (١٤٨٤ ـ ١٤٩٢) الذى كان يفكر مليا آنذاك فى الدعوة إلى حملة صليبية جديدة ضد العثمانيين، وشجعه على ذلك أن أخا بايريد الثانى وخصمه فى نفس الوقت جم وصل إلى روما، ورأى البابا أنه بإمكان إشعال حرب أهليه فى الإمبراطورية العثمانية لصالح جم. ويقال إن رسل السلطان العثمانى أقنعوا البابا بالتوقف عن تنفيذ ذلك المشروع وتخليصهم من جم، وبعبارة أخرى القضاء عليه بقتله، مقابل أن يدفعوا له مبلغ ثلاثمائة ألف من الدوكات الذهبية[٤].

---

(1) Shaw, op. cit., p. 71,

محمد فريد: المرجع السابق، ص ٦٨ ـ ٦٩.

(2) Shaw, op. cit., p. 71,

محمد فريد: المرجع السابق، ص ٦٩.

(3) Shaw, op. cit., p. 71,

(٤) عزيز سوريال عطية: العلاقات بين الشرق والغرب، ص ١٠٥، محمد فريد: المرجع السابق، ص ٦٩.

وجاء البابا الإسكندر السادس (١٤٩٢ ـ ١٥٠٣) بعد البابا إنوسنت الثامن، وأصبح صاحب الدور الهام في تلك المأساة الغامضة بالاشتراك مع ملك فرنسا شارل الثامن (١٤٨٣ ـ ١٤٩٨). ذلك أنه عندما عبر شارل الثامن جبال الألب وغزا إيطاليا وحاصر روما، قام بأسر جم في ٢٧ يناير عام ١٤٩٥، وأمر بإرساله إلى فرنسا، غير أن جم سقط مريضا في الطريق، ومات في نابولي في ٢٥ فبراير من نفس العام، وبموته تخلص بايزيد الثاني من الخطر الذي كان يتهدده. ويقال إن وفاة جم غير الطبيعية جاءت بسبب آثار سم أعطى بتحريض من أخيه بايزيد، وإن كان ذلك لم يتأكد تماما(١).

ويرى البعض أنه بعد انتهاء الحرب الأهلية بين جم وبايزيد الثاني تفرغ بايزيد لشئون دولته، وكان مسالما بطبعه، فلم يلجأ إلى مد الأملاك العثمانية شرقا أو غربا، بل إنصرف إلى سياسة التعمير كإصلاح الطرق والجسور، على أن أعظم آثار بايزيد العمرانية ذلك المسجد الذي يحمل إسمه والذي شيده ما بين سنة ١٤٩٧ و١٥٠٣ في إستانبول(٢).

ومهما كان بايزيد الثاني مسالما، فإن سياسته الخارجية أملت عليه القيام بنشاط حربي، عندما كان الوضع يسمح ذلك. وكانت أولى خطواته الحربية، هو إرسال غزاة من الصرب والبوسنة بحذاء ساحل دلماشيا حتى راجوزا، وعبر الدانوب إلى تيمسفار Temesvar والأراضي المجرية، وقد حصل الغزاة على كثير من الغنائم، وأدت غزواتهم إلى فتح نهائي لهزروجوفينا (الهرسك) في سنة ١٤٨٣، فيما عدا كرينا Craina الساحلية التي ظلت في أيدي البنادقة(٣).

وأول الأعمال الحربية التي قام بها بايزيد الثاني أنه اختار والاشيا، وكان ستيفن الكبير قد ألحق هزائم فادحة بالسلطان محمد الفاتح منعت تأسيس المواصلات البرية المباشرة حول البحر الأسود للتابع العثماني الجديد في كريميا. وقد شعر بايزيد الثاني أن الاستيلاء على

---

(1) Shaw, op. cit., Vol. I, p. 72

يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، جـ١، ص ١٨٨، عزيز سوريال: المرجع السابق، ص ١٠٥، محمد فريد: المرجع السابق، ص ٦٩ ـ ٧٠.

(٢) محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربي، ص ٦٠.

(3) Shaw, Hist of the Ottoman Empire., p. 72.

موالدڤيا سوف يعطيه ميزة استراتيجية عندما تتجدد الحرب مع المجر من ناحية، وسوف تمكنه من السيطرة على مصبات نهر الدانوب لإيقاف القراصنة المسيحيين الذين كانوا يدخلون البحر الأسود، ويهاجمون السواحل والسفن العثمانية من ناحية أخرى. وقد أمد ستيفن الكبير السلطان العثماني بالذريعة المباشرة للحرب، إذ ما علم ستيفن بثورة جم، حتى غزا والاشيا من يونيو إلى يوليو سنة ١٤٨١، وبعدئذ عبر الدانوب، وقام بسلسلة من الغزوات فى بلغاريا، وبذلك هدد بشكل رئيسى نفوذ السلطان بين كل الأتباع الأوربيين(١).

أما الجبليون فى مونتنيجرو (الجبل الأسود)، فلم يكونوا مثل سكان المدن من أهل راجوزا، بل كانوا فى عزلة، ولم ينغمسوا تماما فى تيارات الغزو العثمانى. لقد احتل العثمانيون هذه المنطقة بعد غزوها فى سنة ١٤٩٦، ولكن بعد المنطقة، وقسوة تضاريسها، كانا سببين فى أن يستبدل العثمانيون سياسة السيطرة المباشرة بسياسة أخرى تعتمد على الاكتفاء بالسيادة الإسمية. وكان الذى يقع عليهم الاختيار من الشخصيات من ذوى المكانة الاجتماعية والأوضاع المميزة من أهل مونتنيجرو، هم المسئولون أمام السلطات العثمانية، عن جمع الضرائب العامة وتسليمها. ولكن الثمن الحقيقى الذى دأب أهل مونتنيجرو على أن يشتروا به حريتهم ويتحاشوا به التدخل العثمانى فى شئونهم، كان هو الخدمة العسكرية التى كان يقدمها رجال قبائل المنطقة فى خدمة السلطان(٢).

نزاع بايزيد الثانى مع مصر المملوكية:

وفى عهد السلطان بايزيد الثانى تفاقمت المشاكل بينه وبين المماليك الجراكسة حكام مصر والشام. ومن الأسباب التى أدت إلى وجود المشاكل بين الدولتين العثمانية والمملوكية تجاور ممتلكاتهما فى شرق الأناضول، وخاصة منذ أن ساعد السلطان المملوكى قايتباى الأمير العثمانى جم خلال منافسته لأخيه بايزيد الثانى، ولكن بايزيد قضى على حركته، فلجأ جم إلى مصر، حيث رحب به قايتباى وأكرم وفادته، الأمر الذى أغضب بايزيد، ونقم على قايتباى(٣)، كما سبق أن ذكرنا.

(1) Ibid., p. 72.

(٢) كولز: العثمانيون فى أوربا، ص ١١٣.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ج٣، ص ١٨٣.

عزم بايزيد الثانى على الانتقام من قايتباى، فانتهز فرصة شكوى على دولات أمير دلغادر[١] من تصرفات قايتباى، وأمده بقوات ضخمة هاجم بها ملطية التابعة للمماليك فى سنة ١٤٨٤، وفى هذا الصدد يقول ابن إياس[٢]: «وهذا أول تحرك ابن عثمان على بلاد السلطان». ولم يقف السلطان قايتباى عاجزاً إزاء ماحدث من على دولات وحلفائه العثمانيين، فأرسل حملته بقيادة الأمير تمراز الشمسى استطاعت إلحاق الهزيمة بهم، وأخذت رايات السلطات العثمانى، ودخلت بها حلب وهى منكسة.

ومن ناحية أخرى، حدث فى العام التالى أن أحد ملوك الهند قد أرسل مع أحد التجار هدايا قيمة للسلطان العثمانى بايزيد الثانى، وكان من بينها خنجر نفيس مرصعا بفصوص ثمينة، ولما وصل التاجر إلى جدة استولى عليها قايتباى. فلما علم بايزيد بذلك اشتد غضبه على قايتباى. ويبدو أن قايتباى رغب فى مد يد السلام إلى بايزيد الثانى، بدليل أنه أرسل إليه الخنجر والهدايا التى بعث بها ملك الهند، فضلا عن تقديم اعتذاره عما حدث[٣]. ولكن بايزيد الثانى قابل ذلك بالإساءة، إذ استولت قواته على قلعة كولك التابعة للمماليك فى آسيا الصغرى، فلم ير قايتباى بدأ من إرسال حملة فى سنة ١٤٨٥م بقيادة الأمير أزبك، استطاعت أن تلحق الهزيمة بالعثمانيين، وأوقعت عددا كبيرا منهم فى الأسر[٤]. وعلى الرغم من ذلك فقد أطلق قايتباى سراح الأسرى وأرسلهم إلى بلادهم، على أمل أن يتم الصلح بينه وبين بايزيد، وشاع فى مصر أمر الصلح بينهما[٥].

والحقيقة أن الصلح لم يتم بين المماليك والعثمانيين، بدليل أن السلطان العثمانى بايزيد الثانى أرسل أسطولا إلى ميناء الإسكندرية ليقطع الطريق على الجيش المملوكى بقيادة الأمير أزبك، ولكن عاصفة قوية اجتاحت الأسطول العثمانى وأغرقت معظمه،

---

(١) دلغادر فى منطقة الحدود بين أراضى الدولة المملوكية فى بلاد الشام وأراضى الدولة العثمانية فى بلاد الأناضول، أى المنطقة المعروفة اليوم بلواء الإسكندرونة وبعض المناطق المجاورة لها فى سوريا وتركيا. وتنتسب إمارة دلغادر إلى مؤسسها قراجا بن دلغادر التركمانى(ت ١٣٥٣م).

(٢) بدائع الزهور، ج٣١،ص٢٠٦ ـ ٢١٠.

(٣) بدائع الزهور، ج٣١، ص ٢١٥.

(٤) بدائع الزهور، ج٣١، ص٢١٨ ـ ٢٢٦.

(٥) بدائع الزهور، ج٣١، ص ٢٣٧.

وعندئذ تقدم أزبك ووصل إلى أطنة (أذنة) واستولى عليها بعد حصار استمر ثلاثة شهور، وعاد إلى القاهرة وفى يده كثير من الأسرى والغنائم(١).

ولم يكد الجيش المملوكى يصل إلى القاهرة، حتى استولى عساكر بايزيد الثانى على سيس وطرسوس وغيرها من البلاد الحلبية فى سنة ١٤٨٨(٢). وكان أن أرسل السلطان قايتباى حملة بقيادة الأمير أزبك، استعادت كولك، واستولت على قلعة كوارة، ثم عادت الحملة إلى القاهرة، فى سنة ١٤٩٠م (المحرم سنة ٨٩٦هـ)(٣).

وعلى الرغم من الانتصارات التى أحرزها المماليك ضد العثمانيين فى هذا الدور، إلا أنها لم تكن حاسمة، بل كشفت القناع عن أطماع العثمانيين فى الاستيلاء على باقى إمارات آسيا الصغرى، والتوسع على حساب الدولة المملوكية، إلى أن قضى السلطان سليم الأول على دولة المماليك، كما سنرى بعد قليل.

غرب البحر المتوسط:

عندما ذبلت دولة المسلمين فى أسبانيا، لم يعد لهم فىَ الأندلس سوى مملكة غرناطة، بعد أن سقطت المدن الإسلامية مدينة إثر أخرى، ووقع أكثرها بأيدى المسيحيين. فبين سنتى ١٢٣٨ و١٢٦٠م استولى فرديناند الثالث ملك قشتالة، وجايم الأول ملك أرجونة على مدن بلنسيه وقرطبة وأشبيليه ومرسية، وقدر للمسلمين بعد ذلك أن يستمر حكمهم بغرناطة قرنين ونصف قرن(٤). ولم يكن يتوقع المسلمون أن يعيشوا تلك الفترة فى غرناطة، والممالك المسيحية على مقربة منهم، وقد أحسوا فى الربع الأخير من القرن الخامس عشر الميلادى بقرب زوالهم، عندما تم توحيد أرجونة وقشتالة بتزويج فرديناند بإيزابيلا(٥). وكانت هاتان المملكتان فى منازعات وحروب مستمرة، لهذا أثارت هذه الوحدة فى أسبانيا موجة

---

(١) بدائع الزهور، جـ٣، ص ٢٥٤ ـ ٢٥٧.

(٢) بدائع الزهور، جـ٣، ص ٢٦١.

(٣) بدائع الزهور، جـ٣، ص ٢٧٥.

(٤) لين بول (ستانلى): العرب فى أسبانيا، ترجمة على الجارم (القاهرة ١٩٦٤)، ص ١٧٦ ـ ١٧٨.

(٥) المرجع السابق، ص ١٨٣.

كبيرة من الفرح، ولاشك أن هذا الاتحاد كان معناه فى الواقع انتهاء مملكة غرناطة المسلمة، لأن بقاء هذه المملكة الصغيرة كان راجعا إلى حد كبير إلى العداء القائم بين هاتين الدولتين[1]. وكان أول شيء اهتم به هذان الملكان الكاثوليكيان، هوتصفية مملكة غرناطة وإزالة الحكم الإسلامى من أسبانيا نهائيا. وقد اتبعا فى ذلك سياسة مزدوجة تقوم على القوة العسكرية من جهة، وإثارة التفرقة والفتن الداخلية بين المسلمين من جهة أخرى[2].

وقد بدأت الدولة العثمانية تهتم بغربى البحر المتوسط، فمنذ عام١٤٨٢ طلب حكام غرناطة المسلمون مساعدة دولة «الغزاة» الوحيدة ـ الدولة العثمانية ـ ضد أرجونة وقشتالة.وقد أبدى بايزيد الثانى اهتمامه وعطفه، تاركاً لغزاة البحر المسلمين فى شمالى أفريقية الذين أطلق عليهم الغربيون إسم القراصنة، أن يقدموا المساعدة الفعلية، وحين سقطت غرناطة فى عام ١٤٩٢م، وبدأت الدول الإسلامية فى شمالى أفريقية تواجه احتمالات الغزو المسيحى، تزايد الضغط على العثمانيين طلبا لمزيد من المساعدة، وإن تكن مشاكل بايزيد الثانى فى الشرق قدحالت دون تقديمه المعونة لإخوته المسلمين، ولو أن كثيراً من «غزاة» البحر العثمانيين، قد التحقوا بخدمة العثمانيين وبخاصة بعد أن عززوا قوتهم البحرية، وحثوهم على القيام بنشاط بحرى فى المغرب الإسلامى، وإن تكن الخلافات الأسرية قد شلت نشاط بايزيد الثانى، وبخاصة ما يتعلق منها بمصير أخيه جم الذى كان محوراً لتآمر الدول المسيحية ضد الدولة العثمانية[3].

الخطر الصفوى:

سبق الإشارة إلى أن السلطان العثمانى بايزيد الثانى كان ميالا إلى التأمل والسلام، ويحب الشعر ولكنه فى أواخر حياته تعرض لمشاكل، منها النزاع بين أبنائه، وظهور الأسرة الصفوية فى الشرق التى هددت حدوده الشرقية.

أما تلك الأسرة الصفوية الحاكمة فى فارس فترجع إلى جدها الأكبر موسى الكاظم، وقد أسسها فى أردبيل من أعمال آذربيجان الشيخ صفى الدين إسحاق (١٢٥٢ ـ ١٣٣٤)

---

(١) أحمد مختار العبادى: دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس (القاهرة ١٩٦٨)، ص ٤٦٢.
(٢) المرجع السابق، ص ٤٦٢ ـ ٤٦٣.
(٣) أحمد عبد الرحيم مصطفى: فى أصول التاريخ العثمانى، ص ٧٤.

أحد سلالة هذه الأسرة، وحملت إسمه(1). وكانت الصفوية فى نشأتها صوفية كبقية الحركات الصوفية التى اجتاحت هذه المناطق، ولكنها لم تتخذ الدعوة الشيعية إلا ابتداء من مشيخة «خوجه على» وإبان إغارة تيمور لنك على الشرق. واتصل تيمور بخوجه على هذا وأوقف عليه أردبيل له ولأعقابه من بعده. وتمركزت الحركة هناك. ثم أخذت فى الانتشار حتى إذا ما وصلت مشيخة الحركة لجنيد، أخذ هذا يعمل على تحويلها من حركة دينية إلى حركة سياسية، متخذاً القوة أداة لنشرها، وارتبط جنيد بأواصر المصاهرة بأسرة أوزون حسن، واكتسب بهذا الزواج قوة كبيرة(٢).

وحين حصل الصفويون على مساندة أوزون حسن الحاكم التركمانى لفارس وشرق الأناضول، اتخذ لهم زعيمهم «حيدر» غطاء رأس أحمر مميز له إثنتا عشر لفة تعظيما للأئمة الشيعة الإثنى عشر، باعتباره علامة مميزة لأتباعهم الذين عرفوا بعد ذلك باسم قيزلباش (الرأس الأحمر)(3). وفى سنة ١٤٨٨م قتل حيدر فى إحدى المعارك المحلية وخلفه إسماعيل وأصله تركمانى ـ الذى يعتبر المؤسس الحقيقى للدولة الصفوية(٤).

وقد حاول خلفاء أوزون حسن الضغط على الصفويين والقضاء عليهم، ولكن إسماعيل (١٤٨٧ ـ ١٥٢٤) تمكن من الهرب إلى إيران ومعه سبع قبائل من القيز لباش مكنته من القضاء على الإمارات الإيرانية الصغيرة التى خلفت إمارة «الشاة البيضاء» والتيموريين، والسيطرة على كل البلد خلال عقد واحد(5).

وإذا كانت الأسرة الصفوية قد برزت فى الأصل باعتبارها حركة صوفية، فإن التحول إلى المذهب الشيعى قد اكتمل خلال السنوات الأولى من القرن السادس عشر،وانضوى أهالى إيران تحت زعامة إسماعيل الصفوى الذى كان يتمتع بكثير من الاحترام، وقد صمم إسماعيل على مد النفوذ الصفوى إلى الأراضى العثمانية الواقعة فى شرقى

---

(1) Shaw, Hist, of Ottoman Empire, Vol. I, p. 77.

(٢) محمدأنيس: الدولة العثمانية والشرق العربى، ص ١٠٥.

(3) Shaw, op. cit , p. 77.

(٤) محمد أنيس: المرجع السابق، ص ١٠٥.

(5) Shaw, op. cit., p. 77.

الأناضول، فأرسل مئات من الدعاة نجحوا فى نشر رسالته بين الرعاة. والحقيقة أن العثمانيين نظروا إلى المذهب الشيعى على أساس أنه تهديد سياسى، وعارضوا الصفويين ليس فقط بسبب خطرهم االحربى، بل أيضا لأن المذهب الشيعى كان يمثل تحديا خطيراً للمذهب السنى الذى يعتنقه الأتراك(١).

وقد عارض السلطان بايزيد الثانى القيام بهجوم واسع ضد الشاه إسماعيل الصفوى، إما لتعاطفه الخاص مع التعاليم الغامضة التى كان ينشرها الدعاة الشيعة، أو لرغبته فى تجنيب الحرب قدر الإمكان، أو لخوفه من أن الدعوة الصفوية من الممكن أن تغرى عدداً كبيراً من مقاتليه على اعتناقها. ولذلك تمهل بايزيد ودخل فى مراسلات مع إسماعيل، على أمل إقناعه بالتخلى عن المذهب الشيعى، وإنهاء مساعيه الرامية إلى نشره(٢). وفى سنة ١٥٠٨ استولى إسماعيل على بغداد ومعظم جنوب غربى إيران، وأجرى مذابح واسعة ضد المسلمين السنيين، وهدم مساجدهم وقبورهم. ونلاحظ أن بايزيد الثانى لم يبد أى رد فعل إزاء ما فعله الشاه إسماعيل إلا أن طلب إيقاف مثل هذه الممارسات، فى الوقت الذى طلب بايزيد المساعدة من المماليك فى مصر، ولكنهم لم يفعلوا أكثر من إصدار الأمر لنائب حلب لمقاومة النشاط الصفوى إذا دخل قيليقيه. كما طلب بايزيد الثانى المساعدة من دولة أزبك فى خراسان، باعتبارها قوة رئيسية وليدة، فقامت بعدة هجمات شغلت الصفويين بقية عهد بايزيد(٣).

وعلى الرغم من الهجمات التى شنتها دولة أزبك ضد الصفويين، فقد استمر الدعاة الصفويون فى نشاطهم بين تركمان الأناضول، وبخاصة فى منطقة «تكه» فى الجنوب الغربى، حيث كان نفوذ الصفويين قويا باستمرا. وتمكن أحد خلفاء الشاه إسماعيل. ويدعى شاه قولو من استغلال استياء التركمان الواسع فى القيام بثورة كبرى فى أنطاليا فى ربيع عام ١٥١١م، وحصل على مساندة الآلاف من العثانيين الذين جرى إرسالهم لإخمادها. وأرسل شاه قولو دعاته إلى داخل الأناضول، وهناك وصفوه بالمهدى المنتظر

---

(1) Shaw, op. cit., pp. 77-79.

(2)Ibid., p. 78.

(3) Ibid., p. 78.

الذى أرسله الله لإنقاذ البشرية. وفى الوقت الذى كان فيه بايزيد مشغولا بالصراع الذى نشب بين أبنائه، استولى شاه قولو على معظم وسط وجنوب شرقى الأناضول، وانسحب بايزيد وانتابه المرض، وأرسل جيشا من الإنكشارية بلغ عدده ثمانية آلاف مقاتل بقيادة الوزير الأعظم على باشا، واستطاع هذا الجيش أن يوقع الهزيمة بشاه قولو، الذى لقى مصرعه بسهم أصابه صدفة بالقرب من قيصرية فى أغسطس عام ١٥١١م، وفر من تبقى من القيزلباش إلى إيران، حيث ظل الصفويون مسيطرين عليها، وصاروا مصدر إزعاج مستمر فى عهد خلفاء بايزيد الثانى(١).

وفى عهد بايزيد الثانى بدأت أول علاقة مع روسيا، بعد أن تمكن دوق موسكو إيفان الثالث من توحيدها بعد استيلاء المغول عليها. وبدأت هذه العلاقة سنة ١٤٩٢، حيث وصل إلى استانبول سفير روسى ومعه الهدايا، كما حضر سفير آخر بعد أربع سنوات وحصل على بعض الامتيازات التجارية(٢).

واعتنى بايزيد الثانى بإنشاء المبانى العامة الفخمة، وبإنشاء شبكة الطرق والجسور. ومع أن هذه الشبكة أنشئت فى المحل الأول لأغراض عسكرية، فقد يسرت حركة المواصلات العامة وأسدت إليها خدمة جليلة أيضا. بيد أن أعظم آثار بايزيد العمرانية ذلك المسجد الذى شيده ما بين سنة ١٤٩٧ وسنة١٥٠٣. ويمتاز هذا المسجد بفخامة مواده البنائية، وبزخرفته على الطريقة الفارسية. وتحيط به من جهاته الأربع عقود محددة مصنوعة من الرخام الأبيض والأسود على التعاقب، ناهضة على أعمدة ثمينة من اليشب والمرمر الأخضر فوقها سقائف مقببة، وفى الوسط صحن كبير، وله أربعة أبواب، ومآذن ترتفع على أجنحة مستقلة(٣).

وكان بايزيد الثانى يقرأ بدقة كل مؤلف جديد يهدى إليه، ويكافىء المؤلف مكافأة تتفق وقيمة الكتاب كأجر عن التأليف، ويقابل المؤلفين ذوى الكتب القيمة، كان عادلا ووفيا ومنصفا. وقد كتب الدبلوماسى الشهير أندريه جريتى Andrea Gritti الذى كان سفيراً للبندقية على أيام بايزيد الثانى يصف السلطان فى رسالته السرية التى أرسلها إلى

---

(1) Ibid., p. 78.

خليل إينالجيك: «العثمانيون، النشأة والازدهار»، ص ٧٤.

(٣) بروكلمان:تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ٤٤٤.

مجلس الأعيان يقول: «قامته أطول من المتوسطة.. لايتعاطى الشراب أبداً.. يأكل قليلا، يسر جداً لركوب الخيل.. أحب شيء إليه الصيد ورياضات الفروسية. يعظم الشعائر الدينية ويتصدق كثيرا، يهتم بالفلسفة وعلوم الفلك..وعدا الوقت الذى يقضيه فى الاطلاع، فإنه يخصص وقتا طويلا للاهتمام بأمور إصلاح جيشه وتنميته، زاد عدد الانكشارية، وجهز جيشه بالأسلحة الحديثة والنارية، وأجرى إصلاحا جذريا خاصة بالنسبة للمدفعيين ونقلة المدافع. وخيالته وأسطوله هما اللذان حققا الأحداث الخارقة التى شهدناها...»(١).

السلطان سليم الأول: (١٥١٢ ـ ١٥٢٠):

من الأسباب التى أدت إلى فشل السلطان بايزيد الثانى فى الضغط على الصفويين بصورة حاسمة، ومواصلة انتصاراته بعد الانتصار الذى أحرزه ضدهم فى قيصرية، هو ظهور المنازعات الخطيرة بين أبنائه من أجل السلطة والوصول إلى العرش، وهو بعد على قيد الحياة. وكان السلطان بايزيد الثانى قد أنجب ثمانية أولاد، توفى خمسة منهم وهو لايزال على قيد الحياة، وبقى له ثلاثة أولاد هم: أحمد وقرقوط وسليم، وعين والدهم كلا منهم حاكما على إقليم من أقاليم الدولة. فعين أحمد حاكما على آماسيا، وعين قرقوط حاكما على صاروخان (مانيسا)، وعين سليم حاكما على طرابيزون.وقد عرف إبنه الأكبر أحمد وهو أحب أولاده إليه بأنه إدارى قدير، ويحب الناس له، وكان يفضل سياسة أبيه الرامية إلى السلام وتوطيد الحكم، ولذلك حظى بتأييد معظم الإداريين، ولكن الإنكشارية كانت تعارضه بشدة بسبب الهزائم العديدة التى قاسوها تحت قيادته فى الأناضول(٢). أما الإبن الثانى قرقوط فقد تربى فى بلاط جده السلطان محمد الفاتح، ودرس العلوم الإنسانية والشعر والموسيقى، الأمر الذى جعل العلماء يفضلونه سلطانا، ولكن قرقوط أظهر موهبة عسكرية محدودة فى أثناء الحروب التى خاضتها الدولة ضد شاه قولو. أما ثالث الإخوة الأمير سليم الذى كان أكثر قدرة فى شئون الحرب والقتال، فقد نال تأييد الإنكشارية وبكوات الحدود فى أوربا(٣). ويصفه أحد البنادقة فى هذه العبارة «إنه أكثر السلاطين قسوة، ولم يكن يحلم إلا بالغزو والحرب». أما المؤرخون العثمانيون فيطلقون عليه

---

(١) يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، جـ١، ص ٢١٢.

(2) Shaw, Hist. if Ottoman Empire., Vol. I., p. 78.

(2) Ibid.. p. 78.

«ياوز» Yaouz أى السلطان الحاد الباتر العنيد، وينظرون إليه على أنه بطل يمثل أروع تمثيل العبقرية العسكرية[1].

طلب الأمير سليم من والده أن ينقل من طرابيزون على أساس أنه ظل يحكمها مدة طويلة من ناحية، ولوقوعها فى جهة نائية على أقصى الساحل الجنوبى الشرقى للبحر الأسود من ناحية أخرى. وطلب أن ينقل إلى إحدى السنجقيات فى أوربا. ورفض بايزيد الثانى طلب إبنه، فجمع سليم قواته واتجه بها إلى أدرنة ليتباحث مع والده الذى كان يقيم وقتذاك هذه المدنية. وقبل أن يصلها سليم كان السلطان قد غادرها إلى استانبول، فلحق به سليم وسط حشود عسكرية من الإنكشارية، وأصروا على عزل السلطان فوراً وتعيين سليم مكان والده. وفى ٢٥ أبريل سنة ١٥١٢ تنازل بايزيد عن العرش لإبنه سليم، ثم غادر بايزيد استانبول متوجها إلى مسقط رأسه فى ديموتيقة، ولكنه توفى فى الطريق[2]. وهكذا قام الإنكشارية بالدور الرئيسى فى خلع السلطان بايزيد الثانى لأنهم ضاقوا ذرعاً بالسياسة السلمية التى اتبعها هذا السلطان فى معظم سنوات حكمه. وانتهزوا فرصة الصراع الذى نشب بين أولاد السلطان الثلاثة على العرش، فزجوا بأنفسهم من أجل تحقيق منافع لهم، لأنهم توسموا فى سليم الرغبة والمقدرة معاً على دفع عجلة الحرب الخارجية واستئناف سياسة التوسع الإقليمى للدولة العثمانية[3].

وعندما ارتقى سليم العرش، كان فى الأربعين من عمره، وقد سبقته سمعة يحسد عليها، كان قد حصل عليها خلال سنوات حكمه لولاية طرابيزون، فهو قائد حربى ممتاز، يقف بشخصه على رأس قواته، وهو إدارى نزيه وكفء، وهو سنى لايمكن الشك فى استقامة عقيدته، قليل الميل إلى الترف واللهو[4]. وقد أبدى سليم منذ بداية حكمه ميلا إلى سفك الدماء، ولذلك استحق فى التاريخ لقب «الشرس» The Grim. فاستهل عهده بقتل عدد كبير من إخوته، وما لبث فيما بعد أن قتل عدداً كبيراً من رعاياه وأقدر معاونيه، وأدى

---

(١) عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية، جـ١، ص ٥٠٥.

(٢) المرجع السابق، ص ٦ص٥٠ ـ ٥٠٧.

(٣) المرجع السابق، جـ١، ص ٥٠٨.

(٤) جان لوى باكى جيرامون: «أوج الإمبراطورية العثمانية (١٥١٢ ـ ١٥١٦)»،فى تاريخ الدولة العثمانية، جـ١، إشراف روبير مانتران، ترجمة بشير السباعى (القاهرة ١٩٩٣)، ص ٢٠٧.

حبه لخوض المعارك. وفى الوقت الذى اتصف سليم بحيوية ذهنية وجسدية غير عاديين، فإنه كان لايبدى أكتراثا بالمباهج الحسية ويفضل عليها الصيد. ولم يكن ينام إلا قليلا، ممضيا قسطا طويلا من الليل فى الإطلاع على الدراسات الأدبية، وكان الشعر الفارسى والتاريخ من أحب الأشياء إلى قلبه. ورغم قسوته فإنه كان يميل إلى صحبة العلماء الذين كرمهم ،ورقى كثيراً منهم لتولى وظائف عليا وهامة. وكان يصطحب المؤرخين والشعراء إلى ميدان القتال ليسجلوا تطورات المعارك وينشدوا القصائد التى تحكى أخبار الماضى[١].

تولى سليم عرش الدولة العثمانية، حاملا معه طموحاته الرامية إلى إعادة سياسة السلطان محمد الفاتح النشيطة فى الغزو، وتحقيق وجود إمبراطورية عثمانية عالمية. ولذلك قرر سليم أن يعتمد على الإنكشارية الذين ساندوه، وبفضل قوتهم فى استانبول وصل إلى العرش، فزاد أعدادهم إلى خمسة وثلاثين ألف، وزاد رواتبهم، وأغدق عليهم الهبات والهدايا[٢].

وبعد أن تأكدت سيطرة سليم الأول على الحكومة فى خلال أشهر قليلة من اعتلائه العرش، كانت المشكلة الصعبة التى واجهته هو التخلص من إخوته بغرض تأمين الدولة. فحاول فى البداية استرضائهم، فسمح لأخيه قرقوط بالعودة إلى صاروخان (مانيسا)، وأعطى لأخيه أحمد حكم قونية. ولكن أحمد أراد أكثر من ذلك، وأعلن نفسه سلطانا على الأناضول، وأرسل إبنه الوحيد علاء الدين للاستيلاء على بروسه ليتخذها عاصمة له فى منتصف يونيو عام ١٥١٢م. ونتيجة لذلك قرر سليم أن يقوى نفوذه، وذلك بإبعاد كل إخوته وأبنائه، فيما عدا سليمان الذى اختاره خليفة له[٣].

على أن ثورة أحمد تفاقمت وبلغت حداً بعيداً من الخطورة، بصورة فاقت ثورة جم. ففى ١٨ يونيو استولى علاء الدين على بروسة، وبدأ فى جمع الضرائب من الأهالى. وعندما علم سليم بذلك عبر الأناضول على رأس جيش كثيف، وهناك حصل على

(1) Schevill, op. cit., p. 212,

أحمد عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق. ص ٧٦.

(2) Shaw, Hist of Ottoman Empire., pp. 79-80.

(3) Ibid., p. 80.

مساعدة صخمة مكنته من إجبار أخيه أحمد وأتباعه على الهرب إلى قيليقية فى صيف سنة ١٥١٢م(١).

ومما يذكر أن بعض أنصار أحمد أشاروا عليه بالحصول على مساعدة الصفويين ضد سليم الأول، ولكن أحمد كان يبغض الشيعة بشدة، وفضل طلب المساعدة من المماليك فى مصر بدلا من الصفويين الشيعة. وفى الوقت الذى بدأ أحمد فى إجراء المفاوضات مع المماليك من عاصمته المؤقتة فى أماسيا، توغل سليم فى بلاد الأناضول وقتل كل أبناء إخوته، وقتل كذلك قرقوط(٢). وكان قرقوط يكبره بثلاث سنوات وأحب إخوته إليه، وقبل أن يغادر قرقوط إستانبول متوجها إلى أنطالية أقسم على عدم مطالبته بالسلطنة فى أى وقت من الأوقات. وأراد سليم التأكد من نية أخيه، فطلب إلى الوزراء أن يحرروا رسائل بأسمائهم ترغبه فى السلطنة، فتورط قرقوط ورد على تلك الرسائل المزيفة بالموافقة، فما كان من سليم إلا أن ألقى القبض على أخيه، وأعدمه فى ١٧ مارس سنة ١٥١٣ ، قبل إعدام أحمد ثمانية وثلاثين يوما(٣). ولاشك أن الأسلوب العنيف الذى اتبعه سليم فى التخلص من كل أقاربه، أدى إلى تخلى أنصار أحمد عنه، وجعله لايحصل على أية مساعدة، وكان أن شن سليم هجوما ضد أخيه، ولقى أحمد هزيمة ساحقة فى ينى شهر فى ١٥ أبريل عام ١٥١٣ ، وجرى إعدامه بخنقه بالقوس والوتر، وبذلك أكد سليم حكمه، ولم تعد هناك أية عقبات أخرى تقف فى طريقه(٤).

الحرب ضد الصفويين:

وبعد أن تخلص السلطان العثمانى سليم الأول من إخوته وأبناء إخوته، حول أنظاره نحو الشاه إسماعيل الصفوى. وكان المماليك فى مصر قد انزعجوا من خطورة التهديد الصفوى لممتلكاتهم فى بلاد الشام والحجاز، فعقدوا تحالفا مع العثمانيين ضد إسماعيل فى عام ١٥١٣ ، وبذلك تركوا السلطان سليم طليق اليدين فى جمع كل قواه ضد الصفويين، دون أن يخشى احتمال الهجوم على جناحه الجنوبى(٥). وقد بدأ سليم

(1) Ibid.,p. 80.

(2) Ibid., p. 80.

(٣) يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، جـ١ ، ص ٢١٤.

(4) Shaw, op. cit , p. 80.

(5)Ibid., p. 80.

بالحصول من شيخ الإسلام صارى جوريز، وهو أعلى مرجع دينى فى الإمبراطورية العثمانية، على فتوى تخرج الشاه إسماعيل وأتباعه من الجماعة الإسلامية، لأنها تجيز الأجهاز عليهم حتى آخر رجل، واسترقاق نسائهم وأطفالهم، ومن ثم فإن هذه الفتوى تضفى الشرعية على الدخول فى حرب ضد الشاه، كانت الاستعدادات لها قد بدأت على قدم وساق(١). ولا شك أن الجيش الذى جهزه سليم فى ربيع عام ١٥١٤ كان واحداً من أقوى جيوش عصره من حيث عدد الجنود ونوعية الأسلحة النارية، وكذلك من حيث كفاءة من يستخدمونها، أما قوات الشاه، فهى تضم وحدات فرسان أقل عدداً، لكنها فعالة بشكل رهيب، وإن كانت بلا مدافع ولا بنادق(٢).

وقبل أن يزحف سليم بجيشه تجاه الشرق، قام بذبح آلاف من أتباع القزيلباش فى الأناضول، وفى شهرى أبريل ومايو عام ١٥١٤، واصل سليم هجماته العنيفة ضد إسماعيل، متخذاً من ذلك ذريعة للقضاء على كل المعارضين لحكمه. وقد واجه سليم مشكلة توفير المؤن لجيشه، وخاصة عندما رفض صاحب إمارة دلغادر تقديم المساعدة، خوفا من أن حدوث انتصار عثمانى على الصفويين، سيتبعه زوال إمارته(٣).

وبينما كان العثمانيون يتحركون خلال ولايتى أرزنجان وأرضروم فى أعالى نهر الفرات، تجنب الصفويون الدخول معهم فى معركة مفتوحة، لمعرفتهم بتفوق قوات سليم الحربية، وعزموا على سحب السلطان إلى مناطق شمالى إيران الجبلية، حيث تمكنهم مشاكل التضاريس الوعرة والمؤن من جعل قوة الجيشين متوازنة. وفى أثناء تراجع الصفويين طبقا للخطة التى وضعوها، أحرقوا الأرض وأتلفوها، لكى يمنعوا العثمانيين من الحصول على المؤن التى كانوا فى أشد الحاجة إليها(٤). وعلى الرغم من التذمر الذى انتشر وسط جنود السلطان سليم وخاصة الانكشارية، فقد واصل سيره إلى الإمام، وأعدم كل الجنود والقواد الذين تراجعوا عن السير معه. وفى منتصف أغسطس سنة ١٥١٤ قرر السلطان الزحف مباشرة على تبريز، ليجبر الشاه إسماعيل على الدخول معه فى معركة للدفاع عن

---

(١) جان لوى باكى جرامون: «أوج الأمبراطورية العثمانية»، ص ٢٠٩ - ٢١٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٢١١.

(3) Shaw, Hist. of Ottoman Empire., p. 81.

(4) Ibid., p. 81.

عاصمته. وأخيراً حدثت المعركة الفاصلة فى سهول جالديران (تشالديران) فى منتصف الطريق بين تبريز وبحيرة أرمية ـ فى ٢٠ رجب سنة ٩٢٠هـ(٢٣ أغسطس ١٥١٤)، حيث انهزم العثمانيون فى أول الأمر، ولكنهم سرعان ما حققوا انتصاراً حاسماً، وقتلوا الآلاف من رجال قبائل القيزلباش، وجرح الشاه إسماعيل الصفوى، ولم يستطع الفرار إلا بصعوبة بالغة[١]. غير أن الانتصار العثمانى لم يستكمل بعمل لإسقاط الدولة الصفوية، إنما اقتصر على جعلها فى موقع دفاعى، وسبب تراجعا واسعا لأنشطتها داخل الأناضول.

وبعد أن استولى سليم على تبريز أرسل الآلاف من تجارها الكبار والصناع والعلماء إلى استانبول. غير أن سليم قرر مغادرة المدينة، خوفا من عدم توفير المؤن اللازمة لجيشه قبل أن يأتى فصل الشتاء، وتراجع إلى قره باغ فى القوقاز،وهو المكان المفضل للقبائل الرعوية لجنكيزخان وتيمور لنك، على أمل الرجوع فى العام التالى لاستكمال غزو إيران.ولم يلبث الشاه إسماعيل أن استرجع تبريز مرة أخرى، فى الوقت الذى أرغمت مشاكل التموين وهبوط الروح المعنوية فى جيش سليم على سحب جيشه، والعودة إلى الأناضول، بعد أن أودى هجوم الشتاء القارص بحياة الآلاف من جنده. وقد انسحب سليم راجعا فى أكتوبر سنة ١٥١٤م، بعد أن تأكد أنه سوف لايكون قادراً على العودة لمحاربة الصفويين إلا فى الربيع وفقا لما خططه، وفى أثناء تراجعه أخذالسباهية الإقطاعيون يعودون إلى أراضيهم[٢].

وأخيراً وصل سليم الأول إلى أماسيا بآسيا الصغرى فى ٢٤ نوفمبر سنة ١٥١٤، وأعاد معظم الإنكشارية إلى استانبول لقضاء فصل الشتاء تجنبا لنشوب منازعات فيما بينهم. وفى تلك الأثناء أتى وفد من الشاه إسماعيل الصفوى لعرض اقتراحات السلام على السلطان، ولكن الأخير رفض عرض إسماعيل ووضع الوفد فى السجن. وعندما سمع الإنكشارية الذين تخلفوا فى أماسيا بما حدث من السلطان، ثاروا فى ٢٢ فبراير سنة ١٥١٥، فعاملهم السلطان معاملة قاسية، وعزل الوزير الأعظم أحمد باشا وأعدمه فى ١٥ مارس من نفس العام، بسبب فشله فى إحكام قبضته على الإنكشارية، والحفاظ عليها منضبطة وعلى أهبة الاستعداد. ولم يكتف سليم بذلك، بل تخلص من قادة الانكشارية الذين لم يرغب فى

---

(1) Ibid., p. 81.

(2) Ibid., p. 81.

بقائهم، وعين بدلا منهم قادة مقربين إليه، وكان غرضه من ذلك أن يجعل الانكشارية أداة لقوته[1].

وعلى الرغم من أن الشاه إسماعيل الصفوى استرجع تبريز وآذربيجان، فإن العثمانيين أكدوا هيمنتهم على أرزنجان وبايبورت Bayburt، وقللوا الضغط الصفوى فى تلك المناطق. وقد سبقت الإشارة إلى أن إسماعيل تجنب القتال مع العثمانيين. وفى خلال بقية القرن السادس عشر وشطراً كبيراً من القرن السابع عشر، لجأ الصفويون فى حروبهم مع أعدائهم إلى أسلوب إتلاف الأرض، واعتمدوا على سوء الطقس ونقص المؤن، وإجبار العدو على التخلى عن زحفه. ومما يجدر ذكره أن موقعه جالديران جعلت إسماعيل يفقد نفوذه، وأدت إلى قيام المنازعات بين المجموعات القبلية المختلفة حول السلطة، واستمرت تلك المنازعات فى عهد إبنه وخليفته طهماسب. وأصبح من الصعب على الصفويين أن يركزوا دعايتهم للمذهب الشيعى فى الأناضول[2].

ولتقوية النفوذ العثمانى فى شرق الأناضول، أنشأ السلطان سليم ولاية حدودية أسند قيادتها إلى بييك محمد باشا Biyikh Mehmet Pasa، وعهد إليه سليم بسحق المساندين المتبقين للصوفيين، وغزو المناطق الباقية الواقعة خارج السيطرة العثمانية. فاستولت حملة ضخمة على قلعة كماخ الواقعة على حافة تطل على نهر الفرات بالقرب من أرزنجان، حيث اعتاد القيزلباش تهديد المواصلات بين سيواس وأرضروم. وقد أدت الأعمال الحربية التى قام بها سليم للإستيلاء على ما تبقى من الأناضول، إلى تحالف حاكم إمارة دلغادر والمماليك والصفويين ضده، ولكن أيا منهم لم يجرؤ على رفع السيف علنا فى وجه سليم، الأمر الذى جعله يقضى على المتحالفين ضده الواحد بعد الآخر. وقد بدأ سليم حملته بالقضاء على إمارة دلغادر، حيث ألقى هزيمة ساحقة بجيشها فى تورنا داغ Turna Dag فى ١٢ يونيو عام ١٥١٥م، وأعدم أعضاء الأسرة المالكة، وبذلك سيطر سليم على قيليقية، وتأهب لمواجهة المماليك[2]. ثم تقدم سليم صوب كردستان، وهناك أعلن زعماء الأكراد ولاءهم له، فسمح لهم بالتمتع بالاستقلال الذاتى، فى نظير أن يقدموا له المساعدة المالية

(1) Ibid., pp. 81-82.

(2) Ibid., p. 82.

والحربية من ناحية، وأن ينشروا الدعاية العثمانية والمذهب السنى فى أنحاء منطقة كردستان[١].

وعلى الصعيد الاقتصادى، فقد كان لضم مناطق شرقى الأناضول أهمية عظيمة للدولة العثمانية، حيث أصبحت منذ ذلك الحين تسيطر سيطرة تامة على طرق التجارة الدولية التى تأتى بحرير إيران وغيره من منتجات الشرق الأخرى، من تبريز إلى حلب وبروسه، الأمر الذى عاد بدخل عظيم على الخزينة العثمانية[٢]. وأخيرا سيطر السلطان سليم على وصول المماليك لمصادر الرقيق الرئيسية فى القوقاز من ناحية أخرى[٣].

العثمانيون والمماليك:

لما تولى السلطان سليم الأول عرش الدولة العثمانية، خرج عن السياسة الأوربية التى سار عليها أسلافه من السلاطين العثمانيين، فتوقف عن الزحف الغربى والتوسع فى أوربا على حساب القوى المسيحية المجاورة، واتجه بغزواته ناحية الشرق الإسلامى على حساب الدول الإسلامية المجاورة. وقد اختلف المؤرخون فى تفسير هذه الظاهرة، فيرى البعض أن الدولة العثمانية قد بلغت مرحلة التشبع فى فتوحاتها الغربية بنهاية القرن الخامس عشر الميلادى، وأنه كان عليها فى أوائل القرن التالى البحث عن ميادين جديدة للتوسع، فى حين يرى البعض الآخر أن الأحداث التى دارت داخل الشرق الإسلامى أو حوله فى أوائل القرن السادس عشر هى التى جذبت الدولة العثمانية إلى الخروج إلى الشرق الإسلامى لحماية آسيا الصغرى بصفة خاصة والعالم السنى بصفة عامة، والمقصود هنا بأحداث الشرق الإسلامى هو الزحف البرتغالى على حدود الشرق العربى ومنافذه البحرية، وأن خروج العثمانيين إلى هذه المناطق كان هدفه حماية الشرق الأدنى الإسلامى من الخطر البرتغالى[٤]. وبعبارة أخرى، فقد أعلن العثمانيون أن هدفهم من التحرك صوب الدولة المملوكية، هو حماية الحرمين الشريفين والمدن الإسلامية المقدسة والعالم الإسلامى من

---

(1) Ibid., p. 82.

(٢) خليل إينالجيك: «العثمانيون، النشأة والازدهار»، ص ٧٧.

(3) Ibid., p. 83.

(٤) محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربى (١٥١٤ ـ ١٥١٩)، ص ١٠٢ ـ ١٠٣، محمود الحويرى: مصر فى العصور الوسطى، ص ٢٧٦.

هجمات البرتغال، الأمر الذى عجز عن تحقيقه المماليك، وبذلك يكون تحرك العثمانيين ناحية الشرق بهدف الغزو والجهاد حماية لأرض الإسلام(١).

والحقيقة أن الازدهار الذى نعمت به مصر فى عصر دولة المماليك، تعرض لخطر أوربى جديد قبل أن يشرف القرن الخامس عشر الميلادى على نهايته. ذلك أن فكرة الحروب الصليبية فى هذا القرن قد تطورت، فبدلا من مواجهة المسلمين فى معارك دامية أثبتت الحروب الصليبية فشلها الذريع فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر إذا بها فى القرن الخامس عشر تتجه إلى توسيع نطاق تلك الحروب، وذلك بتطويق المسلمين من الأمام والخلف. ووجه الأهمية هنا أن الطريق إلى تحقيق هذا الهدف لم يكن معروفا، ويتطلب جهوداً متواصلة لاكتشافه. ومن ثم كانت النزعة الاستعمارية هى القاعدة العريضة التى قامت عليها الكشوف الجغرافية فى أواخر العصور الوسطى(٢). وفى هذا الدور من أدوار الحركة الصليبية ظهرت البرتغال بجهودها الكشفية ذات الطابع الصليبى، وشجعها البابوات على أساس تطويق المسلمين من الأمام والخلف، وتحطيم سيطرتهم على تجارة الهند التى تمثل المنبع الرئيسى لثروتهم ورخائهم(٣).

وفى هذه المرحلة من مراحل الحركة الصليبية تبرز شخصية الأمير البرتغالى هنرى الملاح (١٣٩٤ ـ ١٤٦٠)فى صورة الفارس الصليبى. ومن المعروف أنه كان رئيسا لمنظمة المسيح، وهى منظمة صليبية كان هدفها القضاء على المسلمين(٤). كما كان رئيسا لطائفة اليسوعيين (الجزويت) التى ورثت منظمة الداوية فى أملاكها، وبالتالى كان يهمه العمل على كسب أراضى جديدة للمسيحية على حساب المسلمين(٥).

وعلى أية حال، اشتدت رغبة البرتغال فى الوصول إلى الهند، نتيجة لاتساع نفوذ الأتراك العثمانيين وسيطرتهم على أعالى الفرات والقسطنطينية من جهة، ولتحكم سلطنة

---

(١) خليل إينالجيك: «العثمانيون، النشأة والازدهار»، ص ٧٧.

(٢) محمود الحويرى: ساحل شرق أفريقيةمن فجر الرسلام حتى الغزو البرتغالى (القاهرة ١٩٨٦)، ص٦٨.

(٣)نفس المرجع والمكان.

(٤) سعيد عاشور: أوربا العصورالوسطى، جـ١، ص ٥٥٩ (القاهرة ١٩٧٥).

(5) Prestage (Edgar), The Portuguese Pioneers (London, 1933), pp 28-30.

المماليك فى طريق البحر الأحمر ومصر والشام من جهة أخرى[١]، فى الوقت الذى اشتدت مخاوف البرتغال من النجاح الذى أحرزه الأسبان فى كشوفهم البحرية فى غرب المحيط الأطلسى. ولذلك عهد ملك البرتغال عمانويل الأول (١٤٩٥ ـ ١٥٢١) إلى ڤاسكو دى جاما بقيادة حملة بحرية بهدف الوصول إلى الهند بحراً، والتأكد من أن مدينة «سفالة» الواقعة فى ساحل شرق أفريقية، هى فعلا «أرض الذهب الذى لاينبض»[٢].

ويذكر المؤرخ البرتغالى جونادوس دى باروس أنه بعد أن استعدت الحملة للإبحار استدعى الملك عمانويل قائد الحملة وضباطها لحضور احتفال أقيم لهذا الغرض، وأعلن بحضور بعض كبار الشخصيات البرتغالية أن هدفه الأساسى من الوصول إلى الهند هو نشر الديانة المسيحية والسيطرة على ثروات الشرق. ثم قام الملك بتسليم ڤاسكو دى جاما راية من الحرير الأبيض عليها صليب منظمة المسيح الدينية. وهنا أقسم ڤاسكو أنه سيرفع تلك الراية عالية خفاقة أمام المسلمين والوثنيين، وسيحميها ويدافع عنها حتى الموت[٣].

وفى ٢٠ مايو سنة ١٤٩٨، بعد رحلة استغرقت أكثر من عشرة شهور، تمكن ڤاسكو دى جاما من الطواف حول أفريقية عن طريق رأس الرجاء الصالح، والوصول إلى كاليكوت أهم موانى ساحل ملبار الهندى، وبذلك حقق البرتغاليون إنجازا عالميا جديدا. وبعبارة أخرى، فإن وصول ڤاسكو دى جاما إلى الهند، يمثل تحولا بارزاً فى تاريخ التجارة الشرقية. إذ كانت حاصلات الشرق تصل إلى أوربا حتى ذلك الوقت بواسطة التجار فى مصر المملوكية، الذين كانوا يبيعونها بدورهم إلى البنادقة بأسعار مرتفعة، وقد عادت تلك التجارة فى تلك الحاصلات على مصر والبندقية بأرباح طائلة. وهكذا ذهبت حصيلة الضرائب التى كان سلاطين المماليك يحصلون عليها وأدت إلى ثرائهم من ناحية، واستمدوا منها أسباب قوتهم وعظمتهم من ناحية أخرى[٤].

---

(١) سعيد عاشور: المرجع السابق، جـ١، ص ٥٥٩ ـ ٥٦٠.

(2) Oliver (R.), Mathew (G), Hist of Africa (Holland, 1976), p. 134.

(3) Prestage,op. cit, pp. 251-252

محمود الحويرى: ساحل شرق أفريقية، ص ٧٤ ـ ٧٥.

(٤) هايد: تاريخ التجارة فى الشرق الأدنيفى العصور الوسطى، جـ٤، ٤ ـ ٥، محمود الحويرى: المرجع السابق، ص ٧٤ ـ ص ٨٦.

وعبثا حاولت دولة المماليك الجراكسة إيقاف البرتغاليين عن التعرض بسوء للتجار المسلمين فى الهند وتهديد سفنهم التجارية، فدخلت فى حرب معهم كان نصيبها فيها الهزيمة الساحقة وتحطيم أسطولها فى معركة ديو البحرية فى ٣ فبراير سنة ١٥٠٩، فلم تقم للتجارة المملوكية فى الهند بعد ذلك قائمة، وتدهور مركزها الاقتصادى، ولم تعد سوقا عالميا للتجارةبين الشرق والغرب، ولم تمض على تلك المعركة سوى سنوات قليلة، حتى سقطت الدولة المملوكية فريسة هينة فى أيدى العثمانيين.

وفى تلك الأثناء، كان العثمانيون يمتلكون أفضل مدفعية فى العالم، فقد استخدمت جيوش السلطان سليم الأول أحدث المدافع النحاسية المركبة على عجلات يجر الواحد منها زوج من الثيران[١]. ولم تكن مصر قد أدركت حتى السنوات الأخيرة من دولة المماليك حاجتها لاستخدام الأسلحة النارية، ويرجع السبب فى ذلك إلى أنه لم يكن ثمة تهديد خارجى على مصر يدفعها إلى طلب هذا السلاح من أوربا التى كانت على اتصال دائما بها. ثم إن تربة مصر لم تكن تنطوى على المعادن الأساسية لصب المدافع، فضلا عن تدهور الأوضاع الاقتصادية فى مصر نتيجة القحط والأوبئة والمجاعات وثورات المماليك الجلبان والعربان. وعلى الرغم من ذلك، فقد استخدمت الأسلحة النارية على عهد السلطان قانصوه الغورى (١٥٠١ ـ ١٥١٦). ولكن المماليك عجزوا عن استخدامها بكفاءة، وبخاصة أنهم عهدوا بها إلى وحدات أقل شأنا من الناحية الاجتماعية، على حين بقى القسم الأكبر من المماليك الأصلاء بعيداً عن استخدامها[٢].

وقد سبقت الإشارة إلى أن السلطان العثمانى سليم الأول بدأ بمحاربة الدولة الصفوية الشيعية بفارس، لكى يقضى عليها وعلى مذهبها الشيعى. وبعث برسالة فى مايو سنة ١٥١٤ إلى السلطان قانصوه الغورى يوضح له فيها نواياه ضد فارس، وما يعتزم القيام به ضد الشيعة. فقررالغورى إرسال جيش يرابط فى حلب دون أن يتدخل فى النزاع الفارسى العثمانى، ويرقب ما يسفر عنه النزاع[٣]. ولم يلبث السلطان سليم أن استطاع بقواته

---

(١) إيفانوف (نيقولاى): الفتح العثمانى للأقطار العربية ١٥١٦ ـ ١٥٧٤م، ترجمة يوسف عطا الله، مراجعة د. مسعود ضاهر (بيروت ١٩٨٨)، ص ٦٠.

(٢) محمود الحويرى: مصر فى العصور الوسطى، ص ٢٧٧.

(٣) بدائع الزهور، جـ٤، ص ٤٠٢ ـ ٤٠٣.

الضخمة ومدافعه أن يحقق انتصاراً كبيرا على الشاه إسماعيل الصفوى فى موقعة جالديران فى ٢٣ أغسطس ١٥١٤، ويدخل تبريز عاصمة فارس الشيعية فى ٥ ستمبر من نفس العام[١]. كما اكتسح ديار بكر والرها ونصيبين والموصل وغيرها، واستولى على إمارة دلغادر وعاصمتها الأبلستين المشمولة بحماية المماليك. وبعد هذه الانتصارات التى حققها سليم الأول، وجه اهتمامه شطر بلاد الشام التى كانت جزءا من دولة المماليك الجراكسة، وأصبحت الحرب لا محالة واقعة بينه وبين السلطان الغورى.

ويرى البعض أن الصراع العثمانى الصفوى هو الذى جعل سليم يقرر الاستيلاء على الأراضى المملوكية لأسباب استراتيجية، إذ أن سيطرته على موانى قيليقية من شأنها أن توفر له طريقا بحريا يسهل عليه تموين حملاته القادمة ضد الصفويين بصورة أجدى مما كان عليه الحال خلال الحرب السابقة[٢]. على حين يرى البعض الآخر أن الصراع العثمانى الصفوى لم يكن السبب المباشر فى النزاع المملوكى العثمانى، وإن كان عاملا مباشراً للتعجيل به، أما السبب الحقيقى فهو التنافس على السيادة العليا على العالم الإسلامى[٣].

وعلى أية حال، إتخذ السلطان الغورى عدة إجراءات، فتحالف مع إسماعيل الصفوى، كما آوى الأمير قاسم العثمانى ابن أخى السلطان سليم، الذى فر من وجه عمه بعد أن قتل السلطان أباه أحمد (أبو قاسم وأخو سليم)، واتخذ منه أداة للتهديد[٤].

وانتشرت الأخبار فى القاهرة فى أوائل عام ٩٢٢هـ (١٥١٦) بأن السلطان سليم يحشد الجنود ويجرى الاستعدادات الضخمة لمداهمة الصفويين براً وبحراً، ولكن السلطان الغورى لم يصدق أن هذه الاستعدادات من أجل الصفويين،وأن الهدف الحقيقى لها هو السلطنة المملوكية. ولم يضيع الغورى وقتا، بل سرعان مابدأ فى الاستعداد الحربى، وساءه موقف المماليك الجلبان وعدم تقديرهم للخطر المحدق، فأنبهم بقوله: «لاتشمتوا العدو فينا، وابن عثمان متحرك علينا، ولابد من خروج تجريدة له عن قريب».

---

(١) بدائع الزهور، جـ٤ ،ص ٤٨٤ ـ ٤٨٥.
(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى: فى أصول التاريخ العثمانى، ص ٨٣.
(٣) إبراهيم طرخان: مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة، ص ١٧٥.
(٤) نفس المرجع والصفحة.

ولكن دولة المماليك الجراكسة آنذاك كانت تمر بمرحلة ضعف شديد، فقد انهمك المماليك الجلبان في العبث والفساد، وأخذوا ينهبون الدكاكين في القاهرة، وتعرضوا للناس بالضرر والأذى، ولم يسلم السلطان الغورى من مضايقاتهم، بل أخذوا يطالبونه بنفقاتهم، حتى ضاق به الأمر، «وبكى حتى أغمى عليه ورشوا على وجهه الماء، وهو يقول: «ما بقى لى حاجة بسلطنة، فأرسلونى أى مكان تختارونه»[1]. والواقع أن الحماس لم يعد يملأ نفوس الجراكسة للدفاع عن مصر، إذ كانوا يرون أن السلطان العثمانى سليم الأول طالما أنه لم يقم بغزو الأراضى المملوكية، فيس ثمة داع للحرب أو تبريرها Casus belli. ولكن السلطان الغورى لم يأخذ برأيهم، فأعلن عن عزمه التحرك إلى بلاد الشام لإيقاف سليم الأول عند حده، سواء كان ذلك سلماً أو حربا. وكان أن جهز الغورى حملة ضخمة كانت تفتقر إلى النظام والتماسك، كما أن تمويلها كان عبئا ثقيلا على الأهالى، فقد سبب تموين الجيش شبه مجاعة بين الأهالى، وانتشر الغلاء، وانتزعت الدواب من الطواحين، واختفى الخياطون والتجار، خشية أن تنهب بضائعهم أو يقدمون أموالا للمماليك أو القيام بخدمات إلزامية، فى حين احتجب العبيد خوفا من استخدامهم فى جر الأثقال. وكانت الخزانة المملوكية خاوية، فرواتب ضباط الجيش آنذاك كانت لاتتعدى ثلث أو سدس ما كان يدفع لهم منذ عهد السلطان قايتباى. وفرضت حكومة المماليك على الأهالى ضرائب ثقيلة لتمويل نفقات الحرب لم يعهدوها من قبل، فى الوقت الذى كان على كل قرية صغيرة أن تمد الحملة بفرسين، والتزمت كل مدينة بتسليم أربعة خيول. ولم يكن باستطاعة الفلاحين أن يتحملوا ذلك، فهربوا تاركين محاصيلهم وهجروا قراهم. وجرى تخفيض قيمة العملة لتمويل الحملة، أما أولئك الجنود الذين سيبقون بمصر بعد خروج الحملة، فلم يتسلموا رواتبهم[2].

وبينما كان السلطان الغورى يكمل استعداداته ويصدر أوامره إلى الخليفة العباسى المتوكل والقضاة الأربعة بالتأهب لمصاحبته على رأس الجش إلى حلب لمواجهة تهديد

---

(١) بدائع الزهور، جـ٤، ص ٤٨٤ ـ ٤٨٥.

(٢) نفس المصدر، ج٥، ص ٢٨، ٣١،

Stripling (George William Frederidk, The Ottoman Empire and the Arbs.1511-1574 (U.S.A., 1977), pp. 40-41.

العثمانيين، وصلت رسالة من خاير بك نائب حلب يذكر فيها أن السلطان سليم ينوى مهاجمة الشاه إسماعيل الصفوى، وأن الشاه يستعد لمقابلته(١). والحقيقة أن خاير بك كان على اتصال بالسلطان سليم، وقد أراد برسالته هذه تثبيط همةالغورى وصرفه عن الاستعدادات القائمة(٢). وقد بدأت اتصالات خاير بك بالعثمانيين منذ عهد السلطان بايزيد الثانى.ثم وصلت رسالة أخرى من بسيباى نائب الشام ـ وهو لقب حاكم دمشق ـ لتدعيم خيانة خاير بك، إذ حدث أن اتصل خاير بك بسيباى وأقنعه بأن العثمانيين لن يفكروا فى محاربة المماليك، وطلب إليه أن يكتب إلى الغورى بذلك من جهته، فكتب سيباى وذكر كذلك أن هناك غلاء بالشام وأن الزرع لم يحصد بعد، وأن العدو لم يتحرك بعد، ولاداعى لسفر السلطان «وإن كان عدو متحرك فنحن له كفاية»(٣).

بيد أن السلطان الغورى لم يأخذ بكلام الخائن خاير بك واستمر فى استعداداته، وحشد جيوشه فى الريدانية (شمالى القاهرة بين المطرية والجبل الأحمر)، استعداداً للخروج إلى الشام، وتحسبا لأية مفاجآت قد تصدر عن العثمانيين. وفى أثناء وجوده بالريدانية وصلته رسالة ثانية من خاير بك نائب حلب، ومع تلك الرسالة رسالة من السلطان سليم موجهة إلى السلطان الغورى مليئة بالألفاظ الرقيقة والتواضع الجم، ويقول فيها السلطان سليم: «أنت والدى وأسألك الدعاء، وإنى مازحفت على بلاد علاء الدولة (دلغادر) إلا بإذنك، وكان قتله عين الصواب، وأما التجار الذين يجلبون المماليك الجراكسة فإنى ما منعتهم، وإنما هم تضرروا من معاملتكم (العملة أو النقود) فى الذهب والفضة، فامتنعوا عن جلب المماليك إليكم، وأن البلاد التى أخذتها من علاء الدولة أعيدها لكم، وجميع ما ترونه ويريده السلطان فعلناه»(٤). ويعلق ابن إياس(٥) على رسالة العثمانى بقوله: «وكان هذا كله حيلا وخداعا من ابن عثمان حتى يبلغ بذلك مقاصده، وقد ظهر حقيقة ذلك فيما بعد».

---

(١) سعيد عاشور: العصر المماليكى، ص ١٨١.
(٢) إبراهيم طرخان: مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة، ص ١٧٦.
(٣) بدائع الزهور، جـ٥، ص ٢٦.
(٤) بدائع الزهور، جـ٥، ص ٤٥.
(٥) نفس المصدر والجزء والصفحة.

وعلى أية حال، خرج قانصوه الغورى على رأس جيش كثيف، بعد أن أناب عنه فى السلطنة أثناء غيابه الأمير طومان باى، فوصل فلسطين، ومنها إتجه إلى حلب، فبلغها فى ١٠ جمادى الثانية سنة ٩٢٢هـ (يوليو ١٥١٦)، وهناك ألحق جنده الأذى بأهلها، وعاثوا فيها فساداً، «وأخرجوا الناس من بيوتهم، وسبوا حريمهم وأولادهم، وآذوهم الأذى البليغ، وكان ذلك سببا لقيام أهل حلب مع السلطان سليم على الجراكسة، لشدة ما حل بهم من الشرر منهم»[1]. وفى حلب وصل رسولان من قبل السلطان العثمانى لمفاوضة الغورى فى أمر الصلح، وإمعانا من الرسولين فى خداع الغورى قالا له: «نحن قوض لنا أستاذنا الأمر، وقال مهما اختاره السلطان افعلوه ولاتشاورونى». وقد فطن المؤرخ ابن إياس[2] إلى ما كان يرمى إليه سليم الأول من وراء سفارته، فردد ما قاله من قبل بقوله: «وكل هذا حيل وخداع حتى يبطل السلطان (الغورى) عن القتال، ويثنى عزمه عن ذلك، وقد ظهر مصداق ذلك فيما بعد». وعلى الرغم من أن الغورى استقبل الرسولين استقبالا حسنا، وأرسل بدوره للسلطان سليم رسولا يؤكد رغبته هو الآخر فى الصلح، إلا أن سلطان المماليك كان يعرف ما يدور فى ذهن السلطان سليم، بدليل أنه جمع أمراءه ـ ومن بينهم خاير بك ـ وحلفهم جميعا على ألا يخونوه ولا يغدر ون به، فحلفوا جميعا.

غير أن السلطان سليم استقبل سفير الغورى أسوأ استقبال، إذ قبض عليه وكاد يفتك به لولا شفاعة بعض وزراء سليم، وقال له: «قل لأستاذك يلاقينا على مرج دابق». وعاد رسول الغورى إليه، ليخبره بما لقى من إهانة وإذلال،و أن جيوش العثمانيين تحركت فعلا، واستولت على ملطية وكركر وبهسنا وغيرها من القلاع. وفى ذلك الوقت أدرك سيباى نائب الشام أن خاير بك قد خدعه عندما استحثه على الكتابة للسلطان الغورى فى مصر يطمأنه من ناحية سليم. وهجم سيباى على خاير بك وأمسك بتلابيبه صائحاً: «يامولانا السطان! إذا أردت أن تنتصر على عدوك بإذن الله، فاقتل هذا الغادر الخائن فى الحال»[3]. ولكن خاير بك لم يكن وحده غارقا فى الخيانة، إذ كان له شريك هو الأمير جان بردى الغزالى نائب حماه، الذى أسرع بالتدخل وأقنع السلطان بعدم السماع لتلك التهم، حتى

---

(١) ابن زنبل: آخرة المماليك، تحقيق عبد المنعم عامر (القاهرة ١٩٦٢)، ص ٢١ ـ ٢٢.

(٢) بدائع الزهور، جـ٥، ص ٦٠.

(٣) ابن زنبل: آخرة الماليك، ص ٢٥

لايفت فى عضد سائر الأمراء، وبعثرة الجهود فيما لايفيد، وتفرقة كلمة المماليك فى وقت يواجهون فيه عدواً مشتركا. وهكذا ترك خاير بك حراً طليقاً ليتم الدور الشائن الذى بدأه.

وعلى أية حال، فقد تحرك قانصوه الغورى على رأس جيوشه لملاقاةسليم الأول فى ٢٠ رجب سنة ٩٢٢هـ (١٩ أغسطس ١٥١٦)، وفى صحبته الخليفة والقضاة الأربعة. وفى اليوم التالى وقف المماليك الچراكسة والعثمانيون وجها لوجه فى سهل مرج دابق. وهناك أشاع الغورى أن جيش العدو يضم فى صفوفه مسيحيين وأرمن وشعوبا أخرى بغيضة. وكان الغورى يهدف بذلك إثارة الكراهية ضد العثمانيين بين صفوف جنده والشاميين المرافقين له، فضلا عن إعطاء تأثير مفاده أن الحرب بينه وبين سليم الأول حرب مقدسة يخوضها المسلمون ضد المسيحيين[١]. وفى يوم ٢٥ رجب عام ٩٢٢هـ (٢٤ أغسطس ١٥١٦)، استعد العثمانيون لخوض معركة تعتبر واحدة من أهم المعارك التى خاضوها فى تاريخهم، ذلك أنهم لو حققوا انتصاراً على المماليك، فسيرفعون أيديهم عن حراسة الجزء الجنوبى الشرقى من آسيا الصغرى، ويتفرغون لحروبهم فى أوربا، فضلا عن أن انتصارهم سيمنحهم مكانة عالية فى بقية البلاد الإسلامية الأخرى[٢].

وعند مرج دابق، أخذ السلطان الغورى يرتب عسكره بنفسه، فكان مكانه فى القلب، وحوله أربعون مصحفا شريفا فى أكياس من الحرير الأصفر يحملها جماعة من الأشراف، ومن حوله جماعة من الصوفية والأشراف ومعهم أعلامهم ما بين حمراء وخضراء، وتولى قيادة ميمنة الجيش سيباى نائب الشام، والميسرة خاير بك نائب حلب[٣]. ولما دارت المعركة انسحب خاير بك من ميسرة الجيش، وأظهر الهزيمة دون قتال، وأطلق الإشاعات الكاذبة بين صفوف المماليك المقاتلين، فهو حينا يشيع أن السلطان الغورى أمر مماليكه الأجلاب بعدم القتال حتى يصدر أوامره إليهم، وحتى يقاتل المماليك القرانيص وحدهم، وهم المماليك القدماء، وحينا آخر يشيع خاير بك أن الغورى سقط قتيلا فى المعركة وتراجع هو وجنوده مولين الأدبار،ليحذو حذوهم بقية الجيش المملوكى[٤].

---

(1) Stripling, op. cit., pp. 44-45.

محمود الحويرى: مصر فى العصور الوسطى، ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠.

(2) Stripling, op. cit., p. 46.

(٣) بدائع الزهور، جـ٥، ص ٦٨ ـ ٦٩.

(٤) ابن زنبل: آخرة المماليك، ص ٢٨، سعيد عاشور: العصر المماليكى، ص ١٨٤ ـ ١٨٥.

كان السلطان سليم الأول يخشى أكثرما يخشى فرسان المماليك، فوزع قواته ومدفعيته بحيث تستطيع الاختباء فى أى لحظة خلف سلاسل من العربات المتصلة بعضها ببعض، وخلف حواجز من الأشجار والأخشاب لمقاتلة العدو من هناك. وقد استطاع فرسان المماليك الشجعان أن يحرزوا نصراً على جيوش العثمانيين فى أول الأمر، وقتلوا منهم قرابة عشرة آلاف رجل[1]، حتى هم السلطان سليم الأول بالهرب أو طلب الأمان، ولكن مدفعية الجيش العثمانى بما قذفته من نيران أوقعت بجيش المماليك، فاختل نظامه، وامتلأ ميدان المعركة بالجثث، ولبث الغورى واقفا فى مكانه وهو يرى جيشه يلوذ بالفرار، وبدا شبح الهزيمة مخيفا مفزعا، فأخذ يستغيث وينادى عسكره قائلا: «يا أغوات، هذا وقت المروءة، هذا وقت النجدة». فلم يستجب له أحد، فالتفت إلى مشايخ الصوفية والفقراء الواقفين حوله، وقال لهم: «إدعوا إلى الله تعالى بالنصر، فهذا وقت دعاكم». وعندئذ خشى الأمير تمراز الزردكاش على السلطان، فشق طريقه إليه، وأخذ العلم السلطانى وطواه وأخفاه خشية أن يستولى عليه العثمانيون أو يعلموا مكان السلطان، وقال للغورى: «يامولانا السلطان! إن عسكر ابن عثمان قد أدركنا، فانج بنفسك واهرب إلى حلب!». ويقال إن هذ العبارة وقعت على قلبه وقع الصاعقة، ولم يحتمل قسوة الموقف، فأصيب بالشلل، وطلب جرعة ماء، فجاؤا بها فى كوب من الذهب، ولكنه لم يتمالك نفسه، وهوى من فوق صهوة فرسه ميتا، وداسته الخيول[2].

ولاشك أن انتصار العثمانيين فى هذه المعركة يرجع إلى استخدام المدفعية الحديثة، ذلك أنهم لو كانوا قد اشتبكوا مع المماليك بالسيوف والرماح لكان هناك شك كبير فى انتصارهم، ولو شاء المماليك استخدام المدفعية الحديثة فى القتال لتغير مصير المعركة، ولكنهم أحجموا عنها احتقاراً لها، ففى ظنهم أن الأسلحة النارية تبتعد بهم عن مبادىء الفروسية. وقد عبر المؤرخ ابن زنبل[3] عن تلك الحقيقة بدقة قائلا: «وأطلقوا (العثمانيون) المدفع والبندقيات، وحملوا على الجراكسة والعربان والمشاة مثل القطر فى الثرى، وصار النهار عليهم مثل القيامة الكبرى، وكان يجيء كل مدفع على نحو خمسين أو ستين أو مائة نفس، فصارت تلك الصحراء كالمجزرة من الدماء».

---

(١) بدائع الزهور، جـ٥ ص ٦٩ ـ ٧٠، ابن زنبل: آخرة المماليك، ص ٣٠ ـ ٣١.

() بدائع الزهور، جـ٥، ص ٧٠.

(٣) ابن زنبل: آخرة المماليك، ص ٢٩.

لجأت فلول المماليك الهاربة إلى حلب، حيث انتقم منهم الجلبيون جزاء لما ارتكبوه في حقهم من قبل وطردوهم، فأسرعوا إلى دمشق فى أسوأ حال، ومنها إلى مصر «وهم فى أنحس حال»، فدخلوا القاهرة فى رمضان سنة ٩٢٢ هـ (أكتوبر ١٥١٦)، وتعرضوا خلال الطريق لأذى العربان.

وبعد الانتصار الساحق الذى أحرزه سليم الأول فى مرج دابق، تحرك جنوبا متتبعا فلول المماليك. فدخل حلب فى ٢٨ أغسطس ١٥١٦ وسط هتافات الترحيب من الأهالى. وفى اليوم التالى، وأثناء خطبة الجمعة نودى بسليم الأول خادما للحرمين الشريفين. وبذلك اتخذ لنفسه اللقب الذى كان يحمله حكام مصر منذ صلاح الدين الأيوبى، وكرس نفسه زعيما روحيا ومدنيا لدار الإسلام، وبدأ يطلق على نفسه لقب «سلطان المسلمين» أو «بادى شاهى إسلام» كما فعل المماليك. وهكذا حقق سليم الأول خلال أسبوع واحد، أهداف الحرب بكاملها: إلحاق الهزيمة بالمماليك وبسط الهيمنة العثمانية(١).

وتساقطت فى أيدى سليم الأول مدن حماه وحمص ودمشق. ففى ٨ أكتوبر سنة ١٥١٦، دخل سليم دمشق، وسار فى شوارعها المفروشة بالحرير وسط احتفالات رائعة. واستقبل فيها وفود طرابلس وبيروت وصيدا وغيرها من المدن السورية التى سارعت إلى تقديم ولائها له. ووصل إلى دمشق أمراء دروز جبل لبنان الذين انحازوا إلى جانب العثمانيين، ومقابل الاعراف الشكلى بالتبعية للعثمانيين احتفظوا لأنفسهم بالحكم الذاتى(٢).

ثم واصل سليم زحفه جنوبا للاستيلاء على مصر قلب العالم الإسلامى، وكان بها طومان باى ـ وهو ابن شقيقة الغورى ـ نائبا عن قانصوه الغورى، فلما مات الأخير اعتلى طومان باى عرش سلطنة المماليك الجراكسة، وهو فى الثامنةوالثلاثين من عمره، وتلقب بلقب الأشرف، وهو آخر سلاطين المماليك. والواقع أن طومان باى وجد نفسه فى وضع لايحسد عليه، فالمماليك فى تلك المرحلة من تاريخ مصر، كانوا ـ قد وصلوا إلى درجة من

---

(١) نيقولاى إيفانوف: الفتح العثمانى للأقطار، ص ٦٤.
(٢) المرجع السابق، ص ٦٥.

الانحلال والفوضى حجبتهم عن رؤية الخطر المحيط بهم. ولما لم يجد طومان باى استجابة من المماليك للوقوف ضد العثمانيين، اضطر إلى تجنيد العربان والمصريين والمجرمين والقتلة الذين أعفى عنهم للانضام إلى الجيش المملوكى[١]، الأمر الذى جعل جيشه يفقد النظام والتماسك. أما الجيش العثمانى، فقد زحف إلى مصر، وهو فى حالة معنوية مرتفعة، رغم المعاناة الشديدة التى قاساها، بسبب فقد الكثير من الجمال والخيول فى صقيع بلاد الشام، وفى أثناء عبور الصحراء، فضلا عن الهجمات التى كان البدو يوجهونها للجيش العثمانى فى فلسطين وحدود مصر[٢].

وفى خلال ذلك الموقف العصيب الذى تعرضت له مصر، تسلم طومان باى رسالة من السلطان سليم العثمانى فى ذى القعدة سنة ٩٢٢هـ (يناير ١٥١٧)، يعيره فيها بأصله المملوكى، قائلا:«إنك مملوك تباع وتشترى، ولا تصح لك ولاية ملك»، ويطلب منه أن يكون نائبا عنه فى مصر، ويهدده إذا رفض ذلك بأنه سيدخل إلى مصر، ويقتل جميع من بها من الجراكسة، حتى يشق بطون الحوامل، ويقتل الأجنة التى فى بطونهن من الجراكسة[٣]. وفى الوقت الذى أرسل سليم رسله لمطالبة طومان باى بالدخول فى طاعته، دأب خاير بك الخائن على إرسال كتب إلى أمراء مصر ومشايخ العربان يرغبهم فيها بالدخول فى طاعة سليم، وأخذ يطنب فى محاسنه وعدله فى الرعية[٤].

ولما وصلت الأخبار إلى طومان باى بأن العثمانيين بدأوا يخترقون الصحراء الشرقية فى طريقهم إلى القاهرة، أراد الخروج لملاقاتهم وهم متعبون من مشقة الطريق، ولكن المماليك طالبوه بنفقات باهظة. فأخذ يستحثهم قائلا: «أخرجوا قاتلوا عن أنفسكم وأولادكم وأزواجكم، فإن بيت المال لم يبق فيه درهم ولا دينار، وأنا واحد منكم إن خرجتم خرجت معكم، وإن قعدتم قعدت معكم، وما عندى نفقة لكم(٥)». وقد أحس طومان باى بالخطر

(١) بدائع الزهور، جـ٥، ص ١١٩ ـ ١٢٠.

(2) Stripling, op. cit, p.52.

(٣) بدائع الزهور، جـ٥، ص ١٢٥.

(٤) نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٥) بدائع الزهور، جـ٥، ص ١٢٠ ـ ١٢١.

الذى يهدده ويهدد مصر، ومع ذلك فقد صمم على الخروج لقتال العثمانيين، ولكنه لم يجد استجابة من المماليك الذين رفضوا الخروج، بل تطاولوا عليه، وقالوا له: «إن رحت لعنة الله عليك، غيرك يجى يعمل سلطانا»(١).

وفى ٢٩ ذى الحجة سنة ٩٢٢هـ (٢٣ يناير ١٥١٧) كانت المواجهة الحاسمة بين العثمانيين والمماليك فى الريدانية، وقد تفوقت فيها مدافع وبنادق العثمانيين على الأسلحة التقليدية التى تسلح بها المماليك، ولحقت بطومان باى هزيمة قاسية رغم أنه حارب بشجاعة وجرأة(٢). وبذلك أصبحت القاهرة تحت رحمة العثمانيين.

والواقع أن هزيمة المماليك فى الريدانية كانت أمراً لامحيد عنه، نظراً لأن الخيانة ظلت تلعب دورها حتى آخر لحظة فى تاريخ السلطنة المملوكية، إذ كان الخائن جان بردى الغزالى قد اتصل بشريكه فى الخيانة الأمير خاير بك، وأعلمه بخطة السلطان طومان باى فى الدفاع، الأمر الذى جعل العثمانيين يتجنبون فى زحفهم نحو القاهرة التحصينات التى أقيمت بالريدانية، وأمعن خاير بك فى التنكيل بالمماليك بأن أقنع الغزالى بإخفاء الطوارق والمكاحل، حتى المرحلة الأخيرة من مراحل القتال، مما كان له أسوأ الأثر فى الجند حين وجدوا أنفسهم وراء الخندق معرضين لبنادق العثمانيين(٣).

لم يفقد طومان باى الأمل فى الاحتفاظ بسلطنة المماليك، فعمل على تحصين بوابات القاهرة، واستدعى المصريين للدفاع عن أنفسهم، كما حرر قرابة ستة آلاف من العبيد السود وجهزهم بالأسلحة، وحفر المماليك الخنادق، وأقاموا المتاريس فى شوارع القاهرة. وفى ٣ المحرم سنة ٩٢٣هـ (٢٧ يناير ١٥١٧) دخل سليم الأول القاهرة وأخذ فى مهاجمتها، وأظهر المصريون همة عالية، إذ دافعوا عن مدينتهم، حتى أن النساء والأطفال كانوا يرمون العثمانيين بالحجارة والطوب، وحدث قتال عنيف فى شوارع القاهرة وطرقاتها دام ثلاثة أيام، وأمر سليم الأول بإشعال النار فى البيوت، وأعمل العثمانيون السيف فى كل

---

(١) بدائع الزهور، جـ٥، ص ١٢٥.

(٢) بدائع الزهور، جـ٥، ص ١٤٤ ـ ١٤٦،

Stripling, The Ottoman Turks and Arabs., p. 53.

(٣) إبراهيم طرخان: مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة، ص ٨٩، سعيد عاشور. العصر المماليكى، ص ١٨٨.

من صادفوه، ونهبوا القاهرة، ولم تفلح مقاومة المماليك، فحلت بهم الهزيمة فى ٣٠ يناير سنة ١٥١٧م، واستسلموا لشروط سليم الأول[١]. واضطر طومان باى إلى الهرب، بعد أن انفض عنه رجاله، وتشتت أنصاره، والتجأ إلى الدلتا، حيث اختفى عند صديقه شيخ العربان فى البحيرة، وهو حسن بن مرعى، فأمنه وأقسم له هو وإخوته على المصحف ألا يبوحوا بسره. وللأسف فإن الشيخ لم يلبث أن خانه، وسلمه للعثمانيين، ناسياً ما فعله معه طومان باى يوم أن دفع الديون المستحقة عليه أيام السلطان الغورى. وما كاد سليم الأول يعلم بخبر القبض على طومان باى حتى فرح فرحاً شديداً، وقال: «الآن ملكنا ملك مصر»[٢].

وكان أن أحضر طومان باى مقيداً بالأغلال، ودخل سليم وهو فى زى عرب الهوارة، وعلى رأسه زنط وعليه شاش، وعلى بدنه ملوطة (قباء) بأكمام طوال، فقام له سليم وأخذ يتأمله معجبا بشجاعته وفروسيته، ثم وبخه على مقاومته، ولكن طومان باى ظل محتفظا بشجاعته وهيبته، وأخذ يدافع عن سلوكه وأفعاله، وقال للسلطان سليم: «الأنفس التى تربت فى العز لاتقبل الذل، وهل سمعت أن الأسد يخضع للذئب؟ لاأنتم أفرس منا ولا أشجع منا، وليس فى عسكرك من يقايسنى فى حومة الوغى!»[٣]. ولاشك أن طومان باى كان يقصد أن سليم لم ينتصر على المماليك بشجاعته، وإنما انتصر بمدافعه وبنادقه، وهى الأسلحة التى لم يتزود بها المماليك.

ولم يسع السلطان إزاء شجاعة طومان باى إلا أن عبر عن إعجابه، بقوله لمن حوله: «والله مثل هذا الرجل لايقتل، ولكن أخروه فى الترسيم (الحجز) حتى ننظر فى أمره»، وأوشك أن يبقى على حياته، فيرسله منفيا إلى مكة أو يصطحبه معه إلى إستانبول لولا تحريض الخائنين جان بردى الغزالى وخاير بك للسلطان سليم، مما جعله يأمر بإعدام طومان باى[٤].

وفى يوم الإثنين ١١ ربيع الأول سنة ٩٢٣هـ (٢٣ أبريل ١٥١٧) أخرج طومان باى من سجنه فى إمبابة، وحمل إلى باب زويلة (بوابة المتولى) فى اليوم المحدد لإعدامه، وأخذ

(١) بدائع الزهور، جـ٥، ص ١٥٣ ـ ١٥٥.
(٢) بدائع الزهور، جـ٥، ص ١٧٤ ـ ١٧٥، ابن زنبل: آخرة المماليك، ص ١٣٢.
(٣) بدائع الزهور، جـ٥، ص ١٧٥.
(٤) بدائع الزهور، جـ٥، ص ١٧٥، ابن زنبل: آخرة المماليك، ص ١٣٦.

يسلم على الناس طول الطريق، حتى أرخى له المشاعلى حبل المشنقة، وطلب من الناس أن يقرأوا له سورة الفاتحة ثلاث مرات، وبسط يديه وقرأ الفاتحة، ثم التفت إلى المشاعلى، وقال له: «إعمل شغلك»[1].

وبإعدام طومان باى إنتهت دولة المماليك، ودخلت مصر عهداً جديداً من تاريخها، فهبطت من دولة مستقلة كاملة السيادة إلى ولاية عثمانية. ويعلق ابن إياس[2] على ذلك قائلا: «ومن العجائب أن مصر صارت نيابة، بعد أن كان سلطان مصر أعظم السلاطين فى سائر البلاد قاطبة، لأنه خادم الحرمين الشريفين، وحاوى ملك مصر الذى افتخر به فرعون..». وغادر سليم الأول القاهرة فى ٩ مايو سنة ١٥١٧م إلى تركيا، بعد أن أخذ معه الكثير من كنوز مصر، وأخذ ألف وثلاثمائة من أمهر الصناع والعمال والحرفيين المصريين.

وبعد أن فتح السلطان سليم بلاد الشام ومصر، تقبل ولاء زعماء القبائل البدوية الكبرى وشريف مكة، وبذلك تمت له السيطرة على البقاع الإسلامية. وكان تعيينه للشريف حاكما على جدة والمدينة ومكة وسائر الحجاز سابقة سارخلفاؤه على منوالها. وقد أضفى ضم الدولة العثمانية للأماكن المقدسة عليها زعامة دينية فى العالم الإسلامى، وتأكيداً لهذه الزعامة فى العالم السنى، وهى الزعامة التى ترتبت على هزيمة الصفويين وتضييق نطاق انتشار المذهب الشيعى بعد موقعة جالديران. وقد أضاف سليم إلى ألقابه على أثر فتح مصر لقب «خادم الحرمين الشريفين»، وما لبث أن ربط كثيراً من الأوقاف على المسجد الأقصى، ثم على الأماكن الإسلامية المقدسة فى الحجاز[3].

وقد اهتم سلاطين الدولة العثمانية بمخلفات الرسول ﷺ، والتى كانت قد جاءت هدية من الشريف بركات أمير مكة المكرمة إلى السلطان سليم الأول فى أثناء إقامة الأخير فى مصر كرمز لدخول الحجاز تحت السيادة العثمانية. وقد حمل سليم هذه الهدية معه إلى إستانبول حيث حفظت فى خزانة قصر طوب قابى وأطلق عليها «أمانات مقدسة». وكانت هذه الآثار تضم بردته، وسجادة صلاة، والبيرق النبوى ـ أى العلم النبوى ـ وقوساً وسهماً،

---

(١) بدائع الزهور، جـ٥، ص ١٧٦.

(٢) بدائع الزهور، جـ٥، ص ٢٠٦.

(٣) عبد الرحيم مصطفى: فى أصول التاريخ العثمانى، ص ٨٥.

قدم، ومفاتيح الكعبة ونسختين من القرآن الكريم يقال إنهما كانتا للخليفتين عثمان وعلى[1].

وهناك مسألة ترتبط بالفتح العثمانى لمصر، هى ما يقال من أن المتوكل آخر الخلفاء العباسيين، فى القاهرة قد تنازل للسلطان سليم عن الخلافة. والواقع إن سليم كان قد أطلق على نفسه لقب «خليفة الله فى طول الأرض وعرضها» منذ عام ١٥١٤م، أى قبل فتحه للشام ومصر وإعلان الحجاز خضوعه لآل عثمان. فقد أحرز سليم وأجداده مكانة تلائم استخدام لقب الخلافة، فى الوقت الذى كان فيه مركز الخلافة فى القاهرة لايعتد به. وقد أحرز العثمانيون عظمتهم بالجهاد، كما أن فتوحات سليم جعلته أقوى حاكم مسلم معاصر، فقد شملت إمبراطوريته بلاداً لم يسبق لأى خليفة أن مارس فيها سلطة فعلية، كما أعلى مكانته دخول مكة والمدينة تحت سيادته، وأن قوة الدولة العثمانية فى عهده جعلت المسلمين فى العالم الإسلامى يتطلعون إلى مساعدته بعد أن اعتدى البرتغاليون على المواني والمدن الإسلامية فى ساحل شرقى أفريقية وفى البحار الجنوبية، وتعقب الإسبان المسلمين الأندلسيين الفارين إلى شمال أفريقية، وكان ملك البرتغال ينوى هدم المدينة المنورة ونبش قبر الرسول عليه الصلاة والسلام. والحقيقة أن السلطان سليم لم يهتم بلقب الخلافة الذى فقد مكانته، ولم يحاول أحد فى ديوان دولته أن يقيم له وزنا. أما الخليفة العباسى المتوكل، فقد انتقل إلى استانبول، ثم ما لبث أن عاد منها إلى القاهرة بعد وفاة السلطان سليم، ومارس صلاحياته بصفته «خليفة» حتى وفاته عام ١٥٤٣م.

---

(١) عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، جـ١، ص ٢٣.

(٢) عبد الحيم مصطفى: المرجع السابق، ص ٨٦ ـ ٨٧.

الفصل السابع

جوانب أخرى فى التاريخ العثمانى فى العصور الوسطى

- اليهود فى المجتمع العثمانى فى العصور الوسطى.
- علاقة العثمانيين برعاياهم المسيحيين.
- البوجوميلية.
- انتشار الإسلام فى ألبانيا.
- انتشار الإسلام فى صربيا.
- انتشار الإسلام فى البوسنة.
- انتشار الإسلام فى الأناضول.
- نظام الدوشرمة (ضريبة الغلمان).
- الإنكشارية.
- السباهية.
- البكتاشية.

كانت الدولة العثمانية دولة عالمية، بمعنى أن الدولة لم تحصر نفسها فى النطاق الإقليمى الضيق المحدود الذى نشأت فيه عند تأسيسها، وهى بقعة صغيرة من الأرض فى شبه جزيرة الأناضول، بل امتدت امتداداً واسعا فى ثلاث قارات هى آسيا وأوربا وأفريقية، وأصبحت تحكم شعوبا اختلفت جنسياتها وديانتها ولغاتها وثقافاتها وعاداتها وتقاليدها[١]. وتميزت بتنوع بشرى تناول الجوانب العنصرية واللغوية والدينية. فمن الناحية العنصرية ضمت الدولة ـ بجانب الأتراك العثمانيين ـ رعايا من العرب والأكراد والتركمان والشراكسة والبربر والسريان والأرمن والألبانيين والدروز واليونانيين والبشناق (نسبة إلى ولاية البوسنة) والصرب والمجر والبلغار والكرواتيين والكريتيين (سكان جزيرة كريت) والقبارصة وغيرهم. ومن الناحية اللغوية كان رعايا الدولة يتكلمون مجموعة من اللغات الميتة والحية، فمن اللغات الميتة أو قليلة الاستعمال كانت السريانية واللاتينية والعبرية، ومن اللغات الحية: العربية والتركية والكردية واليونانية والمجرية، فضلا عن اللهجات الصقلبية وغيرها. أما الناحية الدينية فقد كان من بين رعاياها: المسلمون السنيون ويشكلون نسبة عددية عالية، وطوائف من الشيعة مثل المتأولة والعلويين والإسماعيلية، ثم الدروز. ومن الطوائف المسيحية: الروم الأرثوذكس، والروم الكاثوليك، والسريان اليعاقبة، والأرمن، والأقباط، والأحباش، والموارنة، واللاتين، والكاثوليك، والبروتستانت، واليهود[٢].

اليهود فى المجتمع العثمانى فى العصور الوسطى:

أثبتت الحفائر الأثرية التاريخية أن اليهود سكنوا فى المناطق المجاورة ليوغوسلافيا الواقعة تحت الحكم الرومانى، وتشهد بذلك أطلال المعابد اليهودية منذ القرنين الثالث والرابع للميلاد، والمقابر اليهودية فى دالماشيا ومقدونيا والجبل الأسود، وعند مدينة أوسييك Osijek التى تبعد ثلاثين ميلا من الحد البوسنى الشمالى الشرقى. ومن الاكتشافات التى ظهرت جبانة للآفار من القرن الثامن أو التاسع الميلادى تقع قرب نوفى ساد (شرق أوسييك، وعلى بعد مماثل من البوسنة)، وهى تحتوى على عدد كبير من القبور عليها رموز يهودية ونقوش عبرية، وهو أمر يشير إلى أن هؤلاء الآفار قد استوعبوا بعض قبائل خزر القرم القديمة التى اعتنقت اليهودية أثناء القرن الثامن[٣].

(١) عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية، جـ١، ص ٩٠ ـ ٩١.

(٢) المرجع السابق، جـ١، ص ٩١ ـ ٩٢.

(٣) مالكولم: البوسنة، ص ١٤٦ ـ ١٤٧.

وفى عهد الدولة البيزنطية ، وفى وقت يرجع إلى القرن الثانى عشر على الأقل، كان اليهود الربانيون[1] Rabbis يتزعمون المجتمعات اليهودية، سواء كان ذلك فى العاصمة القسطنطينية أو المدن الصغيرة. ومن الواضح أن العثمانيين تبنوا نفس السياسة فى مدنهم العواصم، فمنحوا اليهود تيسيرات كثيرة، فكان ليهود بروسة حيا خاصا بهم، يطبق الإجراءات الخاصة بحكمهم الذاتى فى الأعمال اليومية[2]. وعندما استولى العثمانيون على أدرنة سنة ١٣٦١م، انتقلت غالبية حياة البلاط العثمانى إلى تلك المدينة، ونقل اليهود نشاطهم من بروسة إلى العاصمة الجديدة، حيث لعبوا دوراً فى تطورها. وفضلا عن ذلك، فإن اليهود الذين كانوا يقيمون فى أقاليم البلقان التى لاتخضع للعثمانيين، قد جذبتهم الحياة الفكرية والفرص الاقتصادية فى العاصمة العثمانية، فهاجروا إليها، وانضموا إلى المجتمع اليهودى الموجود الذى يضم الربانيين والقرائين، والمنافسين الجدد الذين وصلوا من بروسة[3].

وكان زعيم اليهود الربانيين إسحق تسارفاتى Isaac Tsarfati وقد جاء من أوربا المسيحية، وألف رسالة هامة تحتوى على بعض المعلومات عن موقف يهود أدرنة، ومن المحتمل أنه كتب رسالته عندما رأى ازدهار حالة اليهود والحرية التى يتمتعون بها فى الدولة

---

(١) الربانيون هم غالبية يهود العالم المعروفين أكثر من غيرهم الآن، كما كانوا فى العصور الوسطى، وتعنى كلمة «ربانيم» العبرية: الإمام أو الحبر أو الفقيه، وقد عربت هذه الكلمة إلى «ربانى» ووردت فى القرآن الكريم فى قوله تعالى (سورة المائدة آية ٤٣) «إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار، بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء... الآية». وبمرور الوقت أصبح هذا اللفظ يطلق على الغالبية العظمى من اليهود، وقد سمى أتباع هذه الفرقة ربانيين إشارة إلى اتباعهم تفاسير علماء الربانيين فى عدد من المسائل الجوهرية والفرعية مع غيرهم من الفرق اليهودية مثل القرائين والسامرة. أنظر نورمان ف. كانتور: تاريخ العصور الوسطى. قصة حياة حضارة ونهايتها. ترجمة د. قاسم عبده قاسم، مراجعة د. على الغمراوى، جـ ١ (القاهرة ١٩٧٩)، هامش (١) ص ٣٢٣ ـ ٣٢٤.

(2) Epstein (Mark A.), AThe leadership of the Ottoman Jews in the Fiffeenth and Sixteenth Centurias", in Christians and Jwes in the Ottoman Empire. Ed. by Benjamin Braude and Bernard lwewis - Vol. I (New York, 1982), pp. 101-102.

(3) Ibid., p. 102.

العثمانية. وقد وصف تسارفاتى سهولة الرحلة إلى فلسطين والأماكن المقدسة، بغرض اجتذاب من يريد أداء فريضة الحج، أو الذين فضلوا أن يدفنون هناك[1].

وفى نهاية القرن الرابع عشر الميلادى، لقى اليهود اضطهادات واسعة النطاق فى كل الدول المسيحية فى الغرب الأوربى، ونتيجة لذلك أخذوا يبحثون جاهدين عن أرض آمنة يستقرون فيها، فقدم لهم العثمانيون الأرض الموعودة التى طالما حلموا بها، وبعبارة أخرى، رحب العثمانيون باليهود المهاجرين إلى دولتهم، وحموهم من أية ضغوط، ومنحوهم استقلالا ذاتيا، وتسامحوا معهم فى ممارسة شعائرهم الدينية، حتى أنهم كانوا - إلى حد ما - المفضلين لدى السلطات العثمانية. ومما يجدر ذكره أن العثمانيين كانوا فى أشد الحاجة إلى الحرفيين والتجار ورجال البنوك والأطباء وجامعى الضرائب، ولذلك استفادوا من الأنشطة والخبرات الاقتصادية اليهودية، والتقنيات والمهارات التى جلبها اليهود معهم، الأمر الذى جعل اليهود يعترفون بالجميل للعثمانيين، فساعدوا بكل قوتهم الإمبراطورية العثمانية وحكامها منذ أواخر القرن الرابع عشر الميلادى[2].

وفى عام ١٤٥٣ عين السلطان محمد الفاتح أول حاخام باشى لطائفة اليهود وهو موسى قيزالى، وأعلن فى الوقت نفسه السماح لليهود بالبقاء فى إستانبول وأعطاه أسبقية بروتوكولية على البطريرك. وفى عهد السلطان سليمان الأول (١٥٢١ - ١٥٦٦) كان اليهود أو من منحوا حق تعيين كخيا (وكيل) لهم ليمثلهم أمام الحكومة المركزية. وإذا كان موسى قيزالى احتاج إلى «براءة» السلطان لممارسة مهامه كأول حاخام باشى، فإن خلفاءه لم يكونوا بحاجة إلى ذلك، إذ كان يقع الاختيار عليهم بمعرفة أبناء الطائفة أنفسهم[3].

وثمة أسباب كثيرة كانت وراء تمتع اليهود بهذه المعاملة الخاصة، فبينما كان السلطان محمد الفاتح يعتبر الأرثوذكس أكثر الطوائف المسيحية ولاء له، إلا أنه كان فى

---

(1) Ibid., p. 102.

(2) Hacker (joseph R.). "Ottoman Policy toward the Jwes and Jewish Attitudes toward the Ottomans during the fifteenth century". Ed. by Benjamin Braude & Bernard lewis. Vol. I, p. 117.

(٣) بيتر شوجر: أوربا العثمانية، ص ٦٥.

الوقت نفسه على يقين من وفاء اليهود ودقتهم. ولم يحدث أن عومل يهود أوربا القرن الخامس عشر الميلادى فى أى دولة بأفضل مما عاملتهم الدولة العثمانية. وكانوا منذ أيام السلطان مراد الثانى (١٤٢١ ـ ١٤٥١) يعملون فى خدمة السلاطين وبصفة خاصة كأطباء للقصر، وأكثر من هذا كانوا يتقنون مهارات عالية، كدرايتهم بلغات كثيرة كان العثمانيون بحاجة إليها بجانب التركية والعربية والفارسية(١).

ويعتبر استيلاء العثمانيين على القسطنطينية فى سنة ١٤٥٣م حدا فاصلا، ليس فى التاريخ العثمانى فحسب، بل فى تاريخ اليهود فى الدولة العثمانية أيضا. ففى خلال السنوات الأولى التى تلت الفتح العثمانى للمدينة، قام العثمانيون بحملة معروفة لإعادة تسكين المدينة، وليجعلوا من استانبول عاصمة عظيمة حقا. ومن بين الجماعات التى أتى بها العثمانيون لإعادة الاستقرار للمدينة، معظم اليهود الذين كانوا يعيشون فى مدن البلقان الواقعة تحت النفوذ العثمانى، كما أتى لإستانبول بعض اليهود من الأناضول. وقد حدث أن نقلت الدولة العثمانية يهود ما يزيد عن أربعين مدينة، بما فيهم أغلبية يهود أدرنة، إلى العاصمة الجديدة(٢).

وقد كتب باحث يهودى يدعى موسى كبسالى Moses Capsali فى سنة ١٥٢٣ تاريخ الأسرة العثمانية، فذكر أن السلطان محمد الفاتح دعا اليهود إلى الإقامة فى استانبول، وقدم لهم مزايا خاصة، وأصدر مرسوماً يحمى مصالحهم، ومنحهم بيوتاً وأراضى، وأعفاهم من الضرائب، فى الوقت الذى صاروا مقربين لديه(٣). ومن الوثائق التركية نعلم أن كثيرا من اليهود عملوا جامعى ضرائب خلال عهد محمد الفاتح وبايزيد الثانى، وانهمك كثير من التجار اليهود فى تجارة الحرير والتوابل وسلع أخرى فى بروسة وإستانبول وغاليبولى ومدن عثمانية أخرى(٤).

---

(١) المرجع السابق، ص ٦٥.

(2) Epstein, op. cit., p. 103.

(3) Hacker, op. cit., pp. 118-119.

(4) Hacker, "Ottoman Policy toward the Jews and Jewish Attitudes toward the Ottomans during the Fifteenth Century", p. 122.

وفى سنة ١٤٧٧ قبل بضع سنوات من انتهاء حكم محمد الفاتح، بلغ عدد السكان اليهود فى استابول طبقا لتعداد هذا العام حوال ثمانية آلاف نسمة، ومما يجدر ذكره أنه بين سنتى ١٤٦٦ و١٤٦٩ قد عانت استانبول من سلسلة من الأوبئة اجتاحتها وأدت إلى إنقاص سكانها، فلابد أن نستنتج أن المجتمعات اليهودية كانت فى ازدياد إبان تلك الفترة(١).

وقد أتى اليهود من أسبانيا إلى الإمبراطورية العثمانية منذ نهاية القرن الرابع عشر الميلادى فى أعداد قليلة. ولكن تلك الأعداد خلال العقد الأخير من القرن الخامس عشر الميلادى ازدادت زيادة ضخمة جديرة بالاعتبار، وسرعان ما فاقوا فى أعدادهم اليهود المقيمين فى الإمبراطورية العثمانية. ففى سنة ١٤٩٨ أصبح اليهود يمثلون غالبية فى استانبول طبقا لما ذكره إلياه مزراحى Elijah Mizrahi، ذلك أن طردهم من أسبانيا كان أكبر مأساة ألمت بهم فى أواخر العصور الوسطى. ففى الوقت الذى منعت فيه الدول الأوربية المسيحية أولئك اليهود المطرودين من أسبانيا من دخول أراضيهم، رحبت بهم الدولة العثامانية واستقبلتهم فى أراضيها، وأحسنت معاملتهم، الأمر الذى أدى إلى تعاطف اليهود بصورة واسعة النطاق مع الدولة العثمانية(٢).

ومما يجدر ذكره أن اليهود المطرودين من أسبانيا فى سنة ١٤٩٢ وما بعده، دخلوا أراضى الإمبراطورية العثمانية، وقد تجرد بعضهم من ثرواته وممتلكاته على أيدى حركة الاسترداد الكاثوليكية، ولكنهم أتوا بقدراتهم ودرايتهم بأوربا وطرقها، وهى دراية تشكل دعمهم الثقافى ومهاراتهم وقيمهم بصورة حسنة فى السنوات المبكرة من وصولهم إلى أراضى الإمبراطورية العثمانية. وكان بعض اليهود أثناء قيام حركة الاسترداد الكاثوليكية قد أخفوا ديانتهم خوفا من بطش السلطات الأسبانية، وأظهروا أنهم كاثوليك، فلما خرجوا من أسبانيا ورحبت بهم الدولة العثمانية، رجعوا إلى ديانتهم اليهودية تحت حماية الدولة الإسلامية(٣).

---

(1) Ibid., p. 123.

(2) Ibid., p. 123.

(3) Epstein, op. cit., p. 108.

وتعطينا سيرة اللاجىء اليهودى «يوسف ناسى» إلى الإمبراطورية العثمانية صورة واضحة عما يمكن أن يصل إليه الأجنبى ذو الموهبة والطموح من مكانة عالية فى ظل الدولة العثمانية. لقد ولد ناسى حوالى سنة ١٥٢٠م من أسرة يهودية تمارس التجارة والطب. وكانت أسرته قد طردت من أسبانيا فى سنة ١٤٩٢، وأجبرت على التحول للمسيحية فى لشبونة فى سنة ١٤٩٧. وعندما أنشئت محاكم التفتيش فى البرتغال فى سنة ١٥٣٦ قررت جراسيا ناسى المسئولةعن الأسرة وصاحبة النفوذ عليها، أن ترحل بالأسرة كلها بما فيها يوسف - ابن أخيها وزوج ابنتها فيما بعد - إلى أنتويرب Antewerp، وهناك أصبح يوسف ثريا ورجل أعمال محترما ومشهورا، يلقى الترحاب فى بلاط فرنسا ومجتمعاتها،وفى بلاط الهابسبرج فى الأراضى المنخفضة، وفى إيطاليا، وفى غيرها من المجتمعات الأوربية. ولما كان اعتناق يوسف ناسى وأسرته للمسيحية ومسيحيته ظاهريا وغير حقيقى، فقد تزايدت الشكوك حول حقيقة مسيحيته ومسيحية أسرته، الأمر الذى اضطرهم إلى الهجرة إلى استانبول فى سنة ١٥٥٣ هربا من الاضطهاد[(١)]، وفى استانبول سرعان ما عاد يوسف إلى ديانته اليهودية، وأعلن ذلك على الملأ فى سنة ١٥٥٤م. وفى الأعوام التالية أصبح تاجراً مشهوراً، كما كان مستشاراً سياسيا يحظى بالثقة فى الدوائر الحكومية العثمانية، ونصيراً سخياً للدوائر العبرية فى استانبول وسالونيكا. وقد فتح له باب التأثير والسلطة واسعا، عندما تولى صديقه سليم الثانى عرش السلطنة فى سنة ١٥٦٦م، وقد عينه سليم الثانى دوقا على ناقسوس Naxos وجعلها له إقطاعاً خالصا يورث، وناقسوس هذه تتكون من إثنتى عشر جزيرة فى بحر إيجة، ولها أهمية تجارية واستراتيجية. وبعد موت سليم الثانى فى سنة ١٥٧٤، انعزل يوسف وعاش مغموراً فى قصره فى بلقدير Belvedere على البوسفور[(٢)].

وقد حصل اليهود فى الدولة العثمانية على الحكم الذاتى فى الولايات، وأبرز نظام لهذا الحكم كان فى مدينة سالونيكا، ففى السنوات الأولى من حكم السلطان سليمان القانونى (٥٢٠ - ١٥٦٦)، كان اليهود يمثلون أكثر من نصفها، ونافس اليهود مجتمع استانبول فى الأهمية[(٣)].

---

(١) كولز: العثمانيون فى أوربا، ص ١٦٤ - ١٦٥.
(٢) كولز: العثمانيون فى أوربا، ص ١٦٥ - ١٦٦، بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص ٤٨٧ - ٤٩٠.

(2) Epstein, op. cit., p. 100.

وهنا نكرر أن الأطباء اليهود لعبوا دوراً بارزاً فى الإمبراطورية العثمانية، لما عرفوا عنه من مهارة وحذق. وأول طبيب يهودى يسترعى الانتباه كان حكيم يعقوب Hakim Yakub الذى احتل مكانة فريدة فى بلاط السلطان، وحصل على صداقته، ولطبيعة عمله كان فى حاجة لينال ثقة السلطان كاملة. وفضلا عن ذلك، فإن التعليم الأوربى الذى ناله يعقوب ودرايته باللغات، وضعه فى مكانة متميزة، وجعله نافعا لمن يطلب منه المشورة. وكان يعقوب فى خدمة العثمانيين قبل سنة ١٤٥٣، وبعد أن استقر العثمانيون فى العاصمة الجديدة، لابد أنه احتل مكانة هامة، بدليل أن هناك حياً فى إستانبول يحمل إسمه(١). وفى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى أتى الكثير من الأطباء اليهود من أسبانيا فارين أمام ضغط الكاثوليك، وخدموا فى البلاط العثمانى، ولا شك أن النجاح الذى حققه من سبقهم، وخدمتهم المخلصة، جعلت من السهولة عليهم أن يشغلوا مراكز متميزة(٢). وهناك أيضا أماتوس لوسيتانوس Amatus Lusitanus، وهو واحد من أعظم الأسماء الأوربية فى عالم الطب فى القرن السادس عشر، ولازالت كتبه حتى اليوم تحتوى على عدد ضخم من الحالات العلاجية. وقد ولد فى البرتغال فى سنة ١٥١١م بإسم خوان رودريجو Juan Rodrigo. أما الإسم أماتوس الذى حمله فيما بعد، فهو ترجمة لإسم حبيب، الإسم العبرى الأصلى للعائلة. وقد تخرج طبيبا فى سلامنكا، وهاجر إلى إيطاليا، حيث قدم خدماته الطبية للبابا، وحاضر فى فيرارا، وخرج من إيطاليا بسبب الاضطهاد الشديد الذى تعرض له، وتوجه إلى سالونيكا، وهناك توفى فى سنة ١٥٦٨م(٣).

وعلى أية حال، تمتع اليهود فى ظل الإمبراطورية العثمانية بالحرية الدينية، وزاولوا شعائرهم الدينية، وأخذت الدولة على عاتقها مسئولية حماية أرواحهم وممتلكاتهم، وتبوأوا أرفع المناصب، فى حين أنزلت بهم أوربا المسيحية أبشع أنواع الإذلال والتعذيب والاضطهاد.

---

(1) Epstein, op. cit., p. 110.

(2) Epstein, op. cit., p. 111.

(3) Roth (Cecil), The Jewish Constribition to Civilization (U.S.A., 1940), p.232.

علاقة العثمانيين برعاياهم المسيحيين:

عندما وصل الأتراك العثمانيون إلى آسيا الصغرى ووجدوا أنفسهم فى وسط إسلامى وهو سلاجقة الروم، كان ذلك أكبر عامل فى اعتناقهم للدين الإسلامى. ولم يكن للعثمانيين حين نزلوا بآسيا الصغرى أى نوع من التعصب الدينى، إذ كانوا قبائل محاربة كل شغلها الشاغل أن تحارب فى سبيل الحصول على عيشها. ولقد كان لاعتناق العثمانيين للإسلام أثر كبير، فالإسلام جمع شمل العناصر المتفرقة فى شمال غرب آسيا الصغرى تحت راية واحدة، وخلق لها قضية واحدة(١). وفى أثناء عملية تكوين الدولة العثمانية واتساعها، وخاصة فى عهد السلطان أورخان (١٣٢٤ ـ ١٣٦٢)، عاش المسلم والمسيحى جنبا إلى جنب فى تسامح زائد، وفى عهده تحول سكان بيثنيا إلى الإسلام(٢).

ولم تكد القسطنطينية تسقط فى أيدى العثمانيين سنة ١٤٥٣م، حتى توطدت العلاقات بين الدولة العثمانية والكنيسة المسيحية بصفة قاطعة وعلى أساس ثابت. ومن أولى الخطوات التى اتخذها محمد الفاتح بعد استيلائه على القسطنطينية وإعادة إقرار النظام فيها، أن يضمن ولاء المسيحيين بأن أعلن نفسه حامى الكنيسة الإغريقية، فحرم اضطهاد المسيحيين تحريما قاطعا، ومنح البطريرك الجديد جناديوس مرسوماً يضمن له ولأتباعه ولمرءوسيه من الأساقفة حق التمتع بالامتيازات القديمة والموارد والهبات التى كانوا يتمتعون بها من قبل. وقد تسلم الراهب جناديوس أول بطريرك بعد فتح القسطنطينية عصا الأسقفية التى كانت رمز هذا المنصب(٣). وبمقتضى ذلك أصبح جناديوس رئيس طائفة ملة الروم (الأرثوذكس)، برتبة باشوية رفيعة بثلاث شارات من رموز الإمبراطورية العثمانية، والسيد غير المنازع للكنيسة الموحدة، والمسئول الرسمى عن سلوك وولاء كافة الأرثوذكس الخاضعين للسلطان(٤).

---

(١) محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربى، ص ١٨ ـ ١٩.

(2) Schevill, The Hist of the Balkan Peninsula, pp. 180-181.

(٣) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ترجمة د. حسن ابراهيم حسن، د. عبد المجيد عابدين، إسماعيل النحراوى (القاهرة ١٩٧٠)، ص ١٧٠ ـ ١٧١.

(٤) عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية، جـ١ ص ٦٣.

وبجانب كل السلطات الكنسية والقضائية التى كان البطريرك يتمتع بها، كانت له سلطات شرعية أخرى تتعلق بمسائل الزواج والطلاق والميراث وفقا للأصول الكنسية، فكان من عمل البطريركية أن تفصل فى القضايا التى تتعلق بالإغريق بعضهم مع بعض، وكان لها أن تفرض الغرامات، وتسجن المجرمين فى سجن بطريركى خاص فى استانبول، بل كان لها أن تحكم بالإعدام فى بعض الأحيان. وكانت المراقبة التامة على الشئون الروحية والكنسية متروكة كلها فى أيدى البطريرك وأعضاء المجمع الأعظم، وكان فى استطاعة البطريرك أن يدعوهم متى شاء، كذلك كان فى استطاعته أن يفصل فى كل شئون العقيدة من غير أن يخشى تدخلا من جانب الحكومة(١).

وكان للكنيسة مدارسها الخاصة، وطبقا للقانون العثمانى كان البطريرك وأساقفته هم الذين يفتحون تلك المدارس ويديرون شئونها. وبفضل الكنيسة حافظ الإغريق على تراثهم القديم، وظهر البطريرك فى صورة من أخذ مكانة الإمبراطور البيزنطى الذى لم يعد له وجود، ومن قصره فى حى الفنار فى إستانبول، باشر البطريرك نفوذه على كل الكنائس المسيحية فى الإمبراطورية العثمانية سواء كانت إغريقية أو سلافية(٢). وبذلك قادت الكنيسة الأرثوذكسية سفينة المسيحية، وحافظت على اللغة الإغريقية والتقاليد والوطنية المسيحية فى شرق البلقان لمدة أربعة قرون، وفتحت الكنيسة المدارس بعد فتح القسطنطينية مباشرة، فأسرع البطريرك جناديوس بتأسيس «مدرسة الشعب الكبيرة» فى حى الفنار، كما فتح الأساقفة فى ولاياتهم مدارس للتعليم(٣).

وإذا كان محمد الفاتح قد سعى إلى استمالة الكنيسة الأرثوذكسية، باعتباره راعيها وحاميها ضد البابا فى روما. فقد سارت الدولة العثمانية على هذه السياسة التى عرفت فى التاريخ العثمانى باسم «الاستمالة». ويمكن تعريف سياسة الاستمالة هذه، بأنها تقوم على جذب الأهالى والسكان المحليين من غير المسلمين واستمالتهم لطاعة الإدارة العثمانية، وذلك بتقديم الامتيازات المختلفة لهم، ثم إرساء دعائم الحكم العثمانى فى مناطقهم بعد

(١) توماس أرنولد: المرجع السابق، ص ١٧١.

(2) Diehl (Charles), Byzantium: Greatness and Decline. Trans. from the French by Naomi Walford (U.S.A., 1957) pp. 291-292.

(3) Ibid., p. 292-293.

ذلك[١]. وبناء على هذا، كانت الإدارة العثمانية تتكفل بحماية هؤلاء فى ممارسة كافة الشعائر الدينية. وبهذا المسلك القويم كانت الدولة تروج لنفسها دعاية كان لها تأثيراً إيجابياً بين السكان المسيحيين. الذين تحرروا من أغلال النظام الإقطاعى وأعباؤه، وعاش السكان المسيحيون الذين كانوا يتحصنون خلف القلاع لدفع هجمات الغزاة فى البداية، عاشوا فى ظل حماية دولة ذات نظم سمحة[٢].

وعلاوة على ذلك، كانت هناك مظاهر أخرى هامة لسياسة الاستمالة التى اتبعها العثمانيون تتمثل فى حمايتهم لكنائس الأرثوذكس وأديرتهم، وإعلانهم العفو عن بعض الضرائب التى كانت مفروضة عليهم، أو عنها كلها فى بعض الأحيان، وإبقائهم على الأوقاف الدينية فى تلك المناطق كما هى، وذلك بالإضافة إلى إلغاء الامتيازات الخاصة بالطبقة العسكرية المحلية الإقطاعية، وضم هذه الطبقة إلى النظم العسكرية العثمانية. وهكذا نجح العثمانيون فى استمالة القرويين والكنيسة والطبقات العسكرية التى كانت موجودة فى المناطق المفتوحة، حيث وطدت هذه الإجراءات أقدامهم هناك، ويسرت عليهم القيام بغزوات جديدة فى تلك الجهات[٣].

وقد جعل التسامح الدينى الذى منحته الإمبرطورية العثمانية للإغريق، وماتمتعوا به من حماية لحياتهم وأموالهم يسرعون فى الموافقة على تغيير سادتهم وإيثار سيادة السلطان العثمانى على سيادة أية سلطة مسيحية. وكان الغزاة العثمانيون فى بقاع كثيرة يلقون ترحيبا من جانب الاغريق، ويعدونهم مخلصين لهم من الحكم الظالم المستبد الذى عانوه على أيدى المسيحيين والبنادقة. كذلك كان الاغريق الذين عاشوا تحت حكم بيزنطة غير المباشر، فقد بلغت حالة التدهور والظلم التى ميزت أسرة باليولوجوس إلى حد يدعو المتأمل إلى الخوف والذعر، «فإن الأرستقراطية الفاسدة ورجال الكنيسة المستبدين الذين لايحصيهم العدد، وضغط القانون الباطل، وإرهاق الحكومة الوضيعة، وأكثر من هذا، المقاطعات والمالية والجيوش المجيشة لجمع الضرائب والخراج، كل ذلك قد جعل الشعب المنحل، لافرصة أمامه للإصلاح، ولا أمل له فى الانتعاش»[٤].

(١) خليل إينالجيك: «العثمانيون، النشأة والازدهار»، ص ٤٨.

(٢) نفس المرجع والصفحة.

(٣) المرجع السابق، ص ٤٩.

(٤) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص ١٧٢ ـ ١٧٣.

ومما يؤيد ذلك، ما ذكره الإخباريون من الروس الذين تحدثوا عن سقوط القسطنطينية بقولهم: «إن أية دولة لاتخاف القانون تشبه فرساً من غير زمام. لقد سمح الإمبراطور قنسطنطين (٣٠٦ ـ ٣٣٧) وأسلافه لأكابر دولته بأن يستبدوا بالشعب، فلم تعد فى محاكمهم عدالة، ولا فى قلوبهم شجاعة. وجمع القضاة الثروات من دموع الأبرياء ودمائهم، وأصبح الجنود الإغريق لايفخرون إلا بفخامة الملبس، والمواطنون لايتحرجون من الظهور بمظهر الغش والخيانة، والجنود لايخجلون من الفرار. وأخيراً صب الله غضبه على هؤلاء الحكام الجاحدين، ورفع من شأن محمد الفاتح الذى يتشد أتباعه المحاربون اللذة فى القتال، والذى لايخدع قضاته ضمائرهم»(١).

وكان المغامر يوحنا هونيادى إبان قتاله العثمانيين قد طلب إليه چورج برانكوفتش ملك الصرب (ت ١٤٥٦م) أن يمضى فى قتالهم، وسأله برانكوفتش: «وماذا تصنع بديننا إذا أنت انتصرت على الأتراك؟»، فأجابه هونيادى: «أحمل الناس على اعتناق الكاثوليكية، وأقيم الكنائس الكاثوليكية فى كل مكان». ووجه برانكوفتش نفس السؤال إلى السلطان محمد الفاتح، فأجاب: «أقيم إلى جنب كل مسجد كنيسة والناس أحرار فى دينهم، فمن شاء ذهب إلى المسجد، ومن شاء ذهب إلى الكنيسة». وقد كان لهذه السياسة الإسلامية السمحة فى عصر لم يكن قد عرف بعد مبدأ التسامح الدينى أثر عظيم فى مد فتوحات السلطان محمد الفاتح، ويسرت له سبيلها»(٢).

وكتب چين بودن Jean Bodin فى كتابه الصادر فى سنة ١٥٧٦م باسم «كتب الجمهورية الستة»، والذى ألفه خلال الحقبة المريرة التى يمكن تسميتها بحقبة الحروب الفرنسية الدينية، فيبدى إعجاباً واحتراما شديدين بالتسامح الدينى الذى يمثل اشعاراً عثمانياً أساسياً. وكتب بودن قائلا: «إن ملك (سلطان) العثمانيين الذى يحكم جانبا كبيراً من أوربا، يحمى شعائر الأديان بطريقة أفضل من أى أمير فى هذا العالم. أضف إلى هذا أنه لايجبر أحداً، بل على العكس أنه يسمح لكل فرد أن يعيش وفقا لما يمليه ضميره. وفضلا عن ذلك، فإنه فى قصر حريمه يسمح بممارسة شعائر أديان أربعة مختلفة، شعائر اليهودية،

---

(١) المرجع السابق، ص ١٧٣.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٢٣، سالم الرشيدى: محمد الفاتح، ص ١٢٨.

وشعائر المسيحية وفقا لطقوس الكنيسة الرومانية، وشعائر المسيحية وفقا لطقوس الكنيسة الإغريقية، وشعائر الإسلام»[1].

وعلى أية حال، نادراً ما كان العثمانيون استبداديين طغاة، رغم قسوتهم، إذا ما قارناهم بأوربا المعاصرة لهم، حيث كان الهوس الدينى والتعصب المذهبى، بينما كان الرعايا العثمانيون فى أوربا يتمتعون بأقصى درجات التسامح الدينية[2]. ولكن المناظر التى تدعو للأسى، والتى مازالت كامنة فى الخيال الشعبى لشعوب البلقان المسيحية، والتى تصور العثمانيين غزاة سفاحين متعطشين للدماء، ما هى إلا نتيجة للدعاية التى سادت يوم كانت الروح الصليبية هى الغالبة، وكان الهبسبرج وبابوات روما هم عصب هذه الدعاية[3].

ونجد خير تعبير عن التسامح الذى عرفه العالم العثمانى، فى أخبار رحلات القرن السادس عشر ثم فى القرن السابع عشر، وذلك قبل أن يؤدى التوسع الاقتصادى والثقافى والسياسى الأوربى إلى تبديل تصورات الرحالة، وإلى دفعهم إلى التركيز على مفاسد النظام[4].

البوجوميلية:

أخذت البوجوميلية إسمها من حركة بلغارية هرطقية أسسها فى القرن العاشر الميلادى ـ فى عهد الملك بطرس (٩٢٧ ـ ٩٦٨) ـ قسيس بلغارى يدعى بوجوميل Bogomil (حبيب الرب) beloved of God، وقد أتت البوجوميلية من آسيا ثم انتشرت فى القرون التالية فى القسطنطينية وبقية مناطق البلقان، بما فى ذلك مقدونيا وأجزاء من صربيا. وتنادى البوجوميلية بلاهوت ما نوى «ثنائى»، يكاد يكون فيه للشيلطان قوة تكافىء قوة الرب أو تكاد، ويرى بوجوميل أن العالم المادى قد خلقه الشيطان، وللهروب من سيطرة العالم المادى يجب على المرء أن يناضل لتجنب كل اتصال بالمادة، ولن يتمكن من ذلك إلا إذا عاش حياة زهد وتقشف قاسية، وأن يتخلى عن اللحم والنبيذ والاتصال الجنسى. وقد

---

(١) كولز: العثمانيون فى أوربا، ص ١٦٠.

(٢) المرجع السابق، ص ١١٨ ـ ١١٩.

(٣) المرجع السابق، ص ١١٩.

(٤) روبير مانتران: تاريخ الدولة العثمانية، جـ ١ ص ١٣ (التمهيد).

رفض البوجوميل العهد القديم، واعتبار تجسد المسيح نوعاً من الوهم والخيال، وأنه من ثم لم يكن فى الإمكان حدوث موته على الصليب. ونبذ البوجوميل التعميد بالماء والسر المقدس وكل نظم الكنيسة المسيحية وأديرتها الثرية. وكون البوجوميل «كنيسة بوسنية» خاصة بهم يرأسها أسقف، ويخدمها هيئة شبه رهبانية من المخلصين الذين نشروا عقيدتهم بالعمل كرسل أو مبشرين، واستمرت تلك الكنيسة فى الانتشار حتى أصبحت ـ على وجه التقريب ـــ الديانة القومية فى البوسنة(١).

وقد تعرضت طائفة البوجوميل منذ القرن الثالث عشر الميلادى لاضطهاد الكاثوليك، وطالما دعا البابوات إلى شن حرب صليبية على أتباعها. ففى سنة ١٣٢٥ كتب البابا يوحنا الثانى والعشرون إلى ملك البوسنة قائلا: «إلى ولدنا الحبيب الحسيب ستيفن ملك البوسنة، لعلمنا بأنك ابن مخلص للكنيسة، نعهد إليك أن تستأصل شأفة الهراطقة فى ملكك، وأن تبذل العون والمساعدة لقاضينا فابيان، ذلك أن جمهوراً عظيما من الهرطقة تجمعوا من نواح كثيرة متعددة، وتدفقوا جميعاً على مملكة البوسنة مطمئنين إلى أنهم سيبرزون هناك خطاياهم الفاحشة ويعيشون فى أمن ودعة. ولما كان هؤلاء القوم قد أشربوا خبثَ العدو القديم (أى الشيطان) وتسلحوا بسموم باطلهم، أفسدوا عقول الكاثوليك بتظاهرهم بالبراءة وادعائهم الزائف اسم المسيحيين، كلامهم يدب دبيب السرطان، ويندسون فى تواضع، ولكنهم يقتلون فى باطن الأمر، وهم ذئاب فى ثياب خراف، يسيرون جنونهم الوحشى، يجعلونه وسيلة للتمويه على خراف المسيح الأبرياء»(٢).

وفى القرن الخامس عشر الميلادى أصبحت آلام البوجوميل لاتحتمل، حتى إنهم استغاثوا بالأتراك لتخليصهم مما هم فيه من بؤس وشقاء، لأن ملك البوسنة والقساوسة كانوا قد بلغوا باضطهاد البوجوميل حداً ربما لم يبلغه أحد من قبل. فهرب عدد كبير منهم يقرب من أربعين ألفا من البوسنة، ولجأوا إلى البلاد المجاورة، أما الذين لم يوفقوا فى الهرب، فقد أرسلوا إلى روما مكبلين فى الأصفاد. ولكن ذلك لم يضعف من قوة البوجوميل فى

(1) Stephen Clissold (ed.), A Short Hist of Yugoslavia., pp. 58-59, Obolonesky, The Bogomils, p. 114,119-120, Eliot, Turkey in Europe., pp. 240

مالكولم: البوسنة، ص ٥٩ ـ ٦٠.

(٢) ترماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص ٢٢٧.

البوسنة إلا قليلا. ففى سنة ١٤٦٣ عندما غزا السلطان محمد الفاتح البوسنة، وجد الملك الكاثوليكى أن رعاياه قد تخلفوا عنه، وسلم حاكم البوجوميل مفاتيح الحصن الرئيسى، مدينة بوبوفاتس الملكية إلى العثمانيين(١).

والواقع أنه عندما جاء العثمانيون إلى البوسنة لم ينهض أحد من البوجوميل إلى قتالهم ومقاومتهم، بل رحبوا بمجيئهم، واستقبلوهم استقبال من جاء لإنقاذهم وتحريرهم، ومنذ ذلك الوقت لم نسمع عن طائفة البوجوميل إلا قليلا(٢). وذلك لأن معظمهم اعتنقوا الدين الإسلامى، فقد كانوا يفضلون غزو السلطان لهم، عن أن يحولهم البابا عن مذهبهم. ويرجع السبب فى إقبال البوجوميل على الإسلام، إلى أن العقيدة الإسلامية تمتلك كثيراً من نقاط التشابه مع البوجوميلية، فقد رفض البوجوميل عبادة مريم العذراء، ونظام التعميد، وأنكروا الصليب رمزاً دينيا، ورفضوا تقديس الأيقونات والصور الدينية وآثار القديسين، واعتقدوا أن المسيح نفسه لم يصلب وهم يتفقون فى هذه الناحية مما جاء به القرآن الكريم(٣). وفضلا عن هذا فإن العقيدة الإسلامية تمنح ميزة عملية لأولئك الذين يعتنقونها، وهى المحافظة على أراضيهم وامتيازاتهم الإقطاعية. وعلى هذا تقدم البوسنة لنا ظاهرة فريدة لطبقة أرستقراطية، سلافية الجنس ومسلمة الديانة. وقد تولت تلك الطبقة فى الدول العثمانية أرفع المناصب، ومنها من وصل إلى منصب الوزير الأعظم، وبعض الحكام كانوا بوسنويين وطنيين، ولذلك قيل: «ينبغى أن يكون المرء إبنا لمسيحى مرتد، لكى يحصل على أرفع المناصب فى الإمبراطورية العثمانية». وقد حافظ النبلاء البوجوميل على لغتهم، ولكنهم قلدوا العثمانيين فى الزى والألقاب وكثيراً من عادات البلاط العثمانى(٤).

انتشار الإسلام فى ألبانيا:

بدأ غزو الأتراك العثمانيين لألبانيا سنة ١٣٨٧م، ولكن كان لابد أن تنسحب الجيوش التركية سريعا، وجرى الاعتراف بنفوذ السلطان العثمانى محمد الفاتح للمرة الأولى فى سنة

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٢٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٢٧.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٢٨.

(4) Stephen Clissold, op. cit., pp. 63-64.

١٤٦٣م. ثم استردت ألبانيا استقلالها فترة قصيرة بزعامة چورچ كاستريوتا George Kas-tiota الذى اشتهر باسمه الإسلامى إسكندر بك. وقد أثبتت الدراسات الحديثة عدم صحة الأفكار الخيالية التى نسجت حول قصة أيامه الأولى، التى تذكر أنه سُلم فى صباه رهينة إلى الأتراك، وشب بينهم على الإسلام، وحظى بعطف السلطان. والحقيقة أنه قضى أيام شبابه فى بلاده الجبلية، وبدأ نضاله مع الأتراك منذ اليوم الذى أحرز فيه النصر عليهم سنة ١٤٤٤، وظل أكثر من عشرين عاماً يقاوم غزواتهم مقاومة عنيفة. ولكن بعد وفاته سنة ١٤٦٧ أخذ الأتراك يستردون ألبانيا، وسقطت كرويا (آق حصار) عاصمة أسرة كاستريوتا فى أيديهم بعد أحد عشر عاما. ومنذ ذلك الوقت، يظهر أنه لم تحدث مقاومة منظمة فى كافة أنحاء ألبانيا، على الرغم من أن الثورات كانت كثيرة الوقوع، وأن خضوع البلاد لم يكن تاماً بحال. وظل بعض الموانىء البحرية يقاوم مدة أطول، وسقطت مدينة دورازو فى سنة ١٥٠١م، على حين لم تسلم مدينة أنتيفارى Antivari الواقعة فى أقصى الشمال من ساحل ألبانيا حتى سنة ١٥٧١. وقد نصت شروط التسليم على أن تحتفظ المدينة بقوانينها ونظام حكومتها، وأن تكفل لأهلها الحرية فى إقامة شعائر دينهم المسيحى، وألا يتعرضّ أحد بسوء لكنائسهم ومعابدهم(١).

وإذا تتبعنا انتشار الإسلام فى ألبانيا، نلاحظ أنه انتشر تدريجيا وفى بطء على أيدى أهالى البلاد أنفسهم لانتيجة لضغط المؤثرات الأجنبية. وفى خلال القرن السادس عشر، يظهر أن الإسلام لم يخط إلا خطوات بطيئة نحو التقدم، على الرغم من أن تيار الدخول فى الإسلام كان قد بدأ منذ حين. وفى سنة ١٦١٠م كان عدد الأهالى المسيحيين يفوق عدد المسلمين بنسبة عشرة إلى واحد. ولما كان المسيحيون يقطنون معظم القرى مع خليط قليل جداً من المسلمين، يظهر أن حالات الدخول فى الإسلام كانت أكثر منها فى المدن الكبيرة. ففى مدينة أنتيفارى مثلا، بينما آثر كثير من المسيحيين أن يهاجروا إلى البلاد المسيحية المجاورة، تحولت الغالبية من هؤلاء الذين بقوا فى هذه البلاد إلى الإسلام تدريجيا، سواء الشريف منهم والوضيع، حتى أخذ عدد الأهالى المسيحيين يتناقص يوما بعد يوم(٢).

---

(١) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص ٢٠٥ص - ص٢٠٦.
(٢) المرجع السابق، ص ٢٠٧ - ٢٠٨.

وقيل إن جميع أهالى ألبانيا الوسطى فى الوقت الحاضر مسلمون تقريبا، وإن أتباع الإسلام يؤلفون نحو ستين فى المائة من أهالى ألبانيا الشمالية، ويحتفظ الأهالى المسيحيون بأكبر نسبة فى ألبانيا الجنوبية، ولاسيما فى المقاطعات المتاخمة لبلاد اليونان(١).

انتشار الإسلام فى صربيا:

سبقت الإشارة إلى أن مملكة الصرب فقدت استقلالها بعد الهزيمة الساحقة التى منيت بها فى كوسوفو (كوسوفا) سنة ١٣٨٩، وفى تلك المعركة فقد لازار ملك الصرب والسلطان العثمانى مراد الأول حياتهما، وأصبحت صربيا ولاية تابعة للإمبراطورية العثمانية، التى سمحت لستيفن لازاريفتش (١٣٨٩ - ١٤٢٧) - إبن لازار - بحكم صربيا بعد أن اعترف بسيادة العثمانيين، وزوج أخته من السلطان الجديد بايزيد الأول، وعقد معه تحالفا وديا. وفى موقعة نيقوبوليس سنة ١٣٩٦ انتصر العثمانيون ضد التحالف الأوربى الصليبى. وفى ساحة أنقرة عندما سحق تيمور لنك الجيوش العثمانية سنة ١٤٠٢، ووقع السلطان بايزيد نفسه أسيراً، كان ستيفن يشهد أحداث المعركة، فجارب بشجاعة فى جانب زوج أخته، وبدلا من أن ينتهز الفرصة لدعم استقلاله ظل مخلصا لعهده، ووقف مع أبناء بايزيد حتى استردوا عرش أبيهم. وفى عهد جورج برانكوفتش خليفة ستيفن، تمتعت صربيا بشبه استقلال. ولكنه عندما ثار سنة ١٤٣٨ غلب العثمانيون على مدينة كوسوفو مرة أخرى، وحينئذ لم يكن بد من أن يعترف الصرب بسيادة المجر إلى حين. ولكن الهزيمة التى لحقت بيوحنا هونيادى فى فارنا سنة ١٤٤٤، حملت صربيا على أداء الجزية مرة أخرى للإمبراطورية العثمانية، وانتهى أمرها إلى أن صارت ولاية عثمانية فى سنة ١٤٥٩م.

بدأ انتشار الإسلام بين الصربيين بعد موقعة كوسوفو مباشرة، عندما تحول عدد كبير من النبلاء الإقطاعيين القدامى بمحض إرادتهم إلى الدين الإسلامى، إذ طال بهم العمر ولم يلجأوا إلى البلاد المسيحية المجاورة، حتى يضمنوا سلامة ما كسبوه من مزايا قديمة. وقد وجد السلطان العثمانى فى هؤلاء النبلاء الداخلين فى الإسلام أشد الدعاة تحمساً للدين الجديد. ولكن السواد الأعظم من الشعب الصربى ظل متمسكا بدينه القديم فى خلال الفترة التى تحملوا فيها المتاعب والمشاق. أما فى ستار صربيا Stars Serbia أو الصرب

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٢١.

القديمة وحدها، التى تؤلف الآن الجزء الشمالى الشرقى من ألبانيا الحديثة، فقد كان هناك عدد هائل نوعا ما من هؤلاء الذين تحولوا إلى الإسلام، بل لقد سار انتشار الإسلام هنا بخطى وئيدة جداً حتى القرن السابع عشر الميلادى(١).

انتشار الإسلام فى البوسنة:

تعتبر «الدفاتر» العثمانية خير مصدر للمعلومات، وهى سجلات الضرائب التى سجل فيها مالكو العقارات، والتى تقسم الناس إلى فئات حسب أديانهم. فمن هذه الدفاتر والبيانات يمكن عمل استيفاء التفاصيل حول انتشار الإسلام فى البوسنة. وتظهر أقدم الدفاتر (١٤٦٨ ـ ١٤٦٩) أن الإسلام كان محدود الإنتشار فى السنوات القليلة الأولى بعد الغزو. ففى منطقة شرق ووسط البوسنة التى تغطيها تلك السجلات، كانت هناك ٣٧١٢٥ داراً للمسيحيين، بينما لم تكن للمسلمين سوى ٣٣٢ دارا. فلو فرضنا أن بكل دار خمسة أفراد فقط فى المتوسط، لأعطانا ذلك عدداً يصل إلى ١٨٥٣٢٦ مسيحيا(٢).

والدفتر التالى الذى حلل تحليلا وافيا، يغطى البوسنة لعام ١٤٨٥، وهو يظهر أن الإسلام قد بدأ يحدث تقدما له ضخامته. وتسجل لنا دفاتر عشرينيات القرن السادس عشر أرقاما كلية حول سنجقية البوسنة، بشكل فيها المسيحيون ١٩٠٠٩٥ فرداً، والمسلمون ٨٧٥٧٥. ونظراً لأننا نعرف أنه لم تكن هناك هجرة واسعة المدى للمسلمين إلى داخل البوسنة أثناء تلك المدة، فإن الرقم ينبغى أن يمثل اعتناق البوسنيين المسيحيين للإسلام(٣).

وما لبثت عملية اعتناق الإسلام أن زادت سرعتها تدريجيا فى هرزوجوفينا (الهرسك)، إذ أن هناك تعليقا صدر عن أحد الرهبان الأرثوذكس بالهرسك فى سنة ١٥٠٩م، وفيه يلاحظ أن كثيراً من أفراد الشعب الأرثوذكسى قد اعتنقوا الرسلام عن رضا وقبول. وفى شمال البوسنة وشمالها الشرقى لم يتيسر لانتشار الإسلام أن يتم إلا ببطء فى مواكبة التوسع على حساب المجر. وما أن اكتمل الفتح فى عشرينيات القرن السادس عشر، حتى انتشر الإسلام بصورة أسرع قليلا(٤).

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٢٤.
(٢) مالكولم: البوسنة، ص ٨٧.
(٣) نفس المرجع والصفحة.
(٤) نفس المرجع، ص ٨٨.

ولاشك أن الفكرة القائلة بأنه جرى تحويل جماعى للبوسنيين إلى الإسلام فى السنوات الأولى التالية للغزو، إنما هى فكرة واضحة الزيف، فإن عملية التحويل للإسلام كانت بطيئة فى البداية فى أحيان كثيرة واستغرقت عدة أجيال، ولكن الأهالى كانا يعتنقون الإسلام بمحض إرادتهم المطلقة. وتشير الدفاتر، بوصفها دليلا وشاهداً، إلى عدم وجود أدنى تعرض للمسيحيين الذين أصروا على التمسك بعقيدتهم، وكان من الأشياء الطبيعية لدى الأهالى أن يصبحوا مسلمين، ويتسموا بالأسماء الإسلامية، ومع ذلك يواصلون المعيشة مع بقية عائلتهم المسيحية[1].

وهناك أيضا نظرية خاطئة أخرى حول إسلام البوسنة ومازالت شائعة، وإن تقوضت على يد البحث التاريخى منذ سنة ١٩٣٠ ومابعدها، وهى الادعاء بأنه عندما فتح العثمانيون البوسنة، اعتنقت هيئة النبلاء المحلية بأجمعها الإسلام، بغية الاحتفاظ بأراضيها الإقطاعية. وقد شاعت هذه النظرية فى القرن التاسع عشر على يد الفرنسيسكانى والوطنى السلافى إيڤان فرانيو يوكيتش Ivan Franjo Jukich الذى أصدر كتابا فى سنة ١٨٥١م عن تاريخ البوسنة تحت إسم مستعار هو «سلافوليوب بوشنياك» Slavoljub Bosnjak أى البوسنى المحب للسلاف. وقد أكد فى كتابه هذا أثناء حديثه عن الأرستراطية المسلمة فى البوسنة: «أنهم نشأوا عن المسيحيين الفاسدين الذين تحولوا إلى مسلمين، لأن التحول إلى الإسلام كان سبيلهم الوحيد للاحتفاظ بأراضيهم. واحتفظت لهم العقيدة الجديدة بممتلكاتهم وثروتهم وحررتهم من كل الضرائب والمدفوعات، وأعطتهم تفويضا كاملا للانغماس فى كل رذيلة وإتيان كل شر، وذلك من أجل أن يعيشوا كالسادة العظام دون بذل أى تعب أو جهد»[2]. وفى ثلاثينات الألف وتسعمائة لاحظ المؤرخ فاسو تشوبريلوڤيتش Vaso Chu-brilovic أن قلة ضئيلة من ملاك الأراضى البوسنيين القدماء أصبحوا فعلا من الفرسان (السباهية) واحتفظوا ببعض مزارعهم، ولكن كما لاحظ هو أيضا، لم يكن من المحتم عليهم أن يصبحوا مسلمين لكى يحتفظوا بتلك الأرض. وكان المسيحيون الفرسان (السباهية) موجودين بوفرة أثناء السنوات الأولى للبوسنة العثمانية، وهناك واحد شهير منهم

(١) نفس المرجع، ص ٩٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٩٩.

أصبح «جراح باشى» أى كبير الجراجين فى حاشية والى البوسنة فى سبعينات الألف وأربعمائة، كان يدعى فيلاه سفينيار يڤيتش Vlah Svinjarevic وتعنى إبن راعى الخنازير، وهو إسم غير إسلامى بشكل يلفت النظر[1].

وهناك فكرة شائعة تقول بإن بعض الأهالى اعتنقوا الإسلام رغبة فى تحسين مركزهم الاقتصادى أو الاجتماعى أمر لاسبيل إلى إنكاره، لأن هذه الاتجاهات النفعية موجودة بين كل البشر. ولا مفر من أن يكون هذا الدافع وراء اعتناق الكثيرين للإسلام. بيد أن الدافع الاقتصادى لايمكن أن يكون هو المبرر الوحيد كما تزعم إحدى النظريات التى ترى فيه محاولة لتجنب دفع الضرائب المقررة على غير المسلمين، وهى الجزية[2].

انتشار الإسلام فى الأناضول:

كان الإسلام ينتشر لاريب فى مسيحيى الأناضول فى العصر السلجوقى. ولابد أن المخالطة الطويلة بين المسلمين والمسيحيين، وما كان للمسلمين من مركز خاص فى إدارة الدولة، ورغبة غير المسلمين فى التخلص من بعض الأعباء، لاشك فى أن هذه العوامل السيكلوجية والاقتصادية قد ساعدت كلها على حركة الدخول فى الإسلام[3].

وإذا استثنينا مناطق غرب الأناضول والبلاد الساحلية، نستطيع أن نقرر أن الأناضول كان قد «تترك» إلى حد كبير فى أواخر القرن الثانى عشر، الميلادى بفضل كتل من الترك أكثف من الكتل التركية التى كانت تقطن شمالى سوريا والعراق والجزيرة وإيران وأذربيجان[4].

وإذا كان ظهور المغول قد عمل على زيادة الهجرة فى مناطق الأناضول، فإنه عمل على زيادة كثافة العنصر التركى الإسلامى فى الأناضول الذى كان قد فتح حديثا، لأن الأناضول يقع فى أقصى الغرب من العالم الإسلامى، كأنه بمنجى من الخطر المغولى[5].

---

(١) المرجع السابق، ص ٩٩ ـ ١٠٠.

(٢) المرجع السابق، ص ١٠٠.

(٣) فؤاد كوبريل: قيام الدولة العثمانية، ص ١٣٣.

(٤) المرجع السابق، ص ٧٩ ـ ٨٠.

(٥) المرجع السابق، ص ٨٠.

وقد سبق الإشارة إلى أن الرحالة ابن بطوطة الذى عبر بلاد آسيا الصغرى سنة ١٣٣٠م، رأى تلك البلاد بما فيها من مدن وقرى تحمل أسماء تركية صرفة، الأمر الذى يعطينا صورة مذهلة عن التحول الذى حدث، ونقصد بذلك «التتريك الفعال» لآسيا الصغرى ودخولها فى الإسلام(١).

وعلى الرغم من الدعاية التى كانت تزاولها المدارس الدينية والطرق الصوفية المستقرة فى مدن الأناضول، لم تقع بين المسلمين والمسيحيين ممن يعيشون تحت حكم واحد فى مناطق الحدود أية خصومة ترجع إلى سبب دينى. ونستطيع دون أدنى تردد أن نسحب هذه الحقيقة التاريخية وهى انعدام العداء الدينى بين المسلمين والمسيحيين على كل تاريخ الأناضول طوال العصور الوسطى المتأخرة(٢).

ومع أن المسلمين والمسيحيين كانوا يعيشون فى مناطق متعادية على الحدود تتجلى على جانبيها الخصومة بين الترك والبيزنطيين، فلم تقع بينهم أى عداوة دينية، حتى ليقرر المؤرخون البيزنطيون أن الروم الذين كانوا يعيشون فى جزر بحيرة يكشهرى ـ وهى يومذاك من مناطق الحدود ـ كانوا يصطنعون لقوة الأواصر بينهم وبين الترك تقاليد الترك وعاداتهم، ويعقدون معهم علاقات الصداقة، ضاربين صفحاً عن أوامر الإمبراطور البيزنطى(٣).

وعلى أية حال، يمكننا أن نقرر ببساطة أن الدخول فى الإسلام بالأناضول قد تم بالتدريج وبنسبة محدودة، وأن نسبته لم ترتفع فى عهد الإمبراطورية العثمانية إلا بعد أن رسخت قدمها فى البلقان، أى فى القرن الخامس عشر على الأكثر. ثم مازال الدخول فى الإسلام يتزايد بعد ذلك فى القرنين السادس عشر والسابع عشر(٤).

نظام الدوشرمة (ضريبة الغلمان):

هى ضريبة آدمية فرضتها الدولة على رعاياها المسيحيين الذين يعتنقون مذهب الكنيسة

---

(١) أنظر ص ٢٧ ـ ٢٨.
(٢) فؤاد كوبريلى: قيام الدولة العثمانية، ص ١٣١.
(٣) المرجع السابق، ص ١٣١ ـ ١٣٢.
(٤) المرجع السابق، ص ١٣٦.

الأرثوذكسية الشرقية، وكلمة الدوشرمة أصلا يونانية تعنى جمع الأولاد من العائلات المسيحية، وكان هؤلاء يمثلون خمس أطفال الشعوب المهزومة فى مقدونيا والصرب وبلغاريا وألبانيا والمجر وغيرها كحصة بيت مال المسلمين. وكانت الدولة العثمانية تجمع أطفال الدوشرمة، وهم صغار، وتحولهم إلى الدين الإسلامى، وتنظم لهم دراسات علمية مدنية وعسكرية، لتجعل منهم أدوات إسلامية للقتال والحكم فى خدمة الدولة(١). وقد ملأ أطفال الدوشرمة ـ بعد تعليمهم وتدريبهم ـ صفوف فرقة الإنكشارية وقوة الخيالة النظاميين، ومنهم كانت تستقى نسبة كبيرة من كبار موظفى الدولة، وباتساع الدولة كان الأتراك يشكلون الفئة المهيمنة، على حين أن أطفال الدوشرمة كانوا يشكلون قمة جهاز الحكم ويسيطرون على الأتراك ذاتهم(٢).

وكانت الحكومة العثمانية ترسل وكلاء إلى المناطق المأهولة بالعائلات المسيحية، فيجتمع كل من هؤلاء الوكلاء بقسيس القرية، ويطلب منه كشفا بأسماء الأطفال الذكور الذين قام بتعميدهم. ولم يكن هناك قانون معين أو لائحة تحدد طريقة اختيار الطفل، بل كل ما فى الأمر أن الدولة تحدد لكل وكيل عدد الأطفال الذين يتعين إحضارهم للسلطان. وكان العثمانيون يمارسون فى العادة جمع الأطفال من الريف والقرى، وكانوا يأخذون أولاد المزارعين، ومما يجدر ذكره أن العثمانيين كانوا يستجيبوا لدواعى الرحمة، فلا يأخذون الطفل وحيد والديه، ولا الأطفال الذين فى سن الرضاعة، لأن أمثالهم يشكلون عبئا ثقيلا على الموظفين المختصين بتنشئة الأطفال وتربيتهم. وكانت الحكومة العثمانية لاتأخذ الأولاد الذين تجاوزوا الحلم، لأنه يصعب فصل أمثال هؤلاء الأولاد عن ماضيهم وعن أهلهم وعن بيئتهم الأولى. ولذلك كان وكلاء الدولة العثمانية يأخذون فى معظم الأحوال الأطفال الذين تتروح أعمارهم بين سن السابعة وسن العاشرة. ومنذ أن يتحرك الوكيل بهؤلاء الأطفال إلى عاصمة الدولة تنقطع الصلة نهائياً بين هؤلاء الأطفال وذويهم(٣).

---

(١) عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية، جـ١، ص ١٢٠.

(٢) عبد الرحيم مصطفى: فى أصول التاريخ العثمانى، ص ٤١.

(3) Gilb (H.A.R.) and Bowen (H.), Islamic Society and the West, Vol. I., Islamic Society in the Eighteenth Century, pp. 56-60,

عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية، جـ ١ ص ١٢٠ ـ ١٢١.

وكان الوكيل الحكومى يخرج من القرية بحصيلة مالية وبشرية، وتتمثل الحصيلة المالية فى الرشوة التى يحصل عليها من بعض الآباء الموسرين فى سبيل التغاضى عن جمع أولادهم. وكانت هذه الحصيلة تختلف قلة وكثرة تبعا لدرجة ثراء الاباء من ناحية، ومدى جشع الوكلاء من ناحية أخرى(١). ومع ذلك فإن بعض المؤرخين يقررون أن غالبية الآباء كانوا يرحبون بتقديم أولادهم، ونظروا إلى العملية كلها على أنها امتياز لهم أكثر منها عبئا نفسيا ثقيلا. ويؤكدون هذا الرأى بقولهم إن العائلات المسلمة كانت تطلب إلى الأسر المسيحية أن تقدم أولادها المسلمين إلى وكيل الحكومة المركزية على أنهم مسيحيون بدلا من أولاد هذه الأسر المسيحية. وكانت مزايا نظام الدوشرمة واضحة أمام أعين المسلمين من البوسنة الذين رتبوا لإرسال ألف من أبنائهم فى سنة ١٥١٥ إلى مدارس التدريب الخاصة بالقصر الإمبراطورى. وكذلك عمل اليهود على حشد أولادهم ضمن حصيلة الدوشرمة على أنهم مسيحيون. وبذلك تسرى، فى غفلة من الحكومة، على أولاد المسلمين واليهود الامتيازات التى تعود على أبناء الأسر المسيحية(٢).

ومن المرجح أن تطور الدوشرمة إلى نظام يقوم على الجمع الدورى للأطفال المسيحيين لملء الوظائف فى القصر والإدارة قد تم فى عهد السلطان بايزيد الأول (١٣٨٩ ـ ١٤٠٢)، وطبق بوجه عام فى عهد مراد الثانى ومحمد الفاتح(٣).

وفى إستانبول كان يتحول أطفال الدوشرمة إلى الإسلام، وتجرى لهم جراحة الختان، ويتلقون تربية دينية، ويحضرون دراسات فى اللغة التركية والتاريخ الإسلامى العام والتاريخ العثمانى، فينشأون على التمسك بأهداب الدين الإسلامى والتعلق بالدولة العثمانية، وكانوا إلى جانب ذلك يتلقون تدريبا عسكريا خاصا(٤). وكان من تبدو عليهم صفات استثنائية من الناحيتين العقلية والجسمية، يدربون باعتبارهم غلمانا فى الخدمة الداخلية فى القصور السلطانية، وكان يطلق عليهم إيج أو غلانات (مفردها إيج أوغلان). أما الباقون فكانت

---

(١) عبد العزيز الشناوى: المرجع السابق، جـ١ ص ١٢١.

(٢) المرجع السابق، جـ١ ص ٤٨٤، بيتر شوجر: أوربا العثمانية، ص ٧٧ ـ ٧٨، مالكولم: البوسنة، ص ٨٠.

(٣) عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق، ص ١٢٢ ـ ١٢٣.

(٤) عبد العزيز الشناوى: المرجع السابق، ص ١٢٢.

الدولة تعدهم لشغل الوظائف المدنية الكبرى، ويتلقون تعليما عسكريا ومدنيا خاصا، ووصل بعضهم إلى منصب الصدارة العظمى أى رياسة الوزارة، وكان بإمكانهم الانخراط فى الخدمة العسكرية فى جيش القبوقولو (عبيد الباب العالى)(١).

وهناك ما يدل على أن الموظفين العثمانيين الذين كانوا من «الدوشرمة» أصلا، ظلوا يتذكرون طفولتهم عندما أخذوا صغاراً من ذويهم، ويحنون إلى ذوى القربى منهم. فإبراهيم باشا الصدر الأعظم فى عهد السلطان سليمان الأول، كان من أصل يونانى، وظل فى منصبه مدة ثلاثة عشر عاما قبل أن يشنق فى عام ١٥٣٦ لارتكابه أخطاء كثيرة من بينها أنه كان يحمى أقربائه اليونانيين ويرعى مصالحهم، ومحمد صوقوللو الصدر الأعظم (١٥٦٤ ـ ١٥٧٩) لم يكن يتصل فقط اتصالات خاصة بعائلته، بل ساعد أيضا أهالى الصرب من خلال محاولة إقناع السلطان بإعادة تأسيس أسقفية بيك Pec فى عام ١٥٥٧ بالاشتراك مع أخيه رئيس الأساقفة، حتى أن يتولى منصب الصدر الأعظم(٢).

الإنكشارية:

إن القوة الحقيقية للجيش العثمانى فى أواخر القرن الرابع عشر الميلادى كانت تكمن فى جماعة الإنكشارية (المشاة النظاميين) والسباهية (الخيالة). فطبقا للشريعة الإسلامية كان غير المسلمين من سكان دار الحرب هم وحدهم الذين يحل استرقاقهم، كما أن حكما أخر من أحكام الشريعة كان يخصص للإمام خمس الغنائم بما فى ذلك الأسرى من غير المسلمين. وكان السلاطين العثمانيون منذ البداية يعتبرون أئمة بالدرجة التى تؤهلهم للتمتع بهذه الميزة، ومن ثم امتلاكهم عدداً كبيراً مطرد الزيادة من الأسرى الأرقاء الذين كان بيعهم أمراً عاديا(٣).

وكان للسلطان حق الاختيار الأول فى الأسلاب والغنائم، وفضلا عن ذلك كان السلطان يشترى الأسرى الصغار الأقوياء بأرخص الأسعار، ويصنفون كأبناء بالتبنى وعبيداً له. وقد أطلق عليهم السلطان «الفرق الجديدة» التى تسمى بالتركية ينى شرى

(١) عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق، ص ١٢٢ ـ ١٢٣.
(٢) بيتر شوجر: المرجع السابق، ص ٧٧.
(٣) عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق، ص ١٢٢.

(Janissazies) Yeniceri، وبعد أن يتم ختانهم وتحويلهم للإسلام، كان السلطان يقوم بتعيينهم حراساً له، ويكافأهم بالهدايا الكثيرة، ويمنحهم المناصب العالية، ويسمح لهم السلطان بمشاركته الطعام والشراب، ويحنو عليهم كا يحنو الأب على أطفاله(١).

ويذهب المؤرخون العثمانيون إلى أن فرقة الإنكشارية يرجع إنشاؤها إلى عهد أورخان (١٣٢٦ ـ ١٣٦٢) إبن السلطان عثمان وخلفه، وإلى أخيه وكبير وزرائه علاء الدين، وإلى قره خليل چاندارلى صهر الشيخ إده بالى، وكانت الفرق الأساسية عند العثمانيين قبل هذا العصر ـ كما كانت الحال فى الجيوش الفارسية ـ هى فرق الفرسان الذين يسمون قينجى (الفرسان الخفاف) يشد أزرهم الجنود المشاة الذين يسمون بالفارسية «بيادة» وبالتركية «يايا»، ويرجع أن الذى أوحى إلى الترك أن يعززوا فرسانهم بجنود مشاة مدربين هو ما شاهدوه من فرق الجيوش البيزنطية(٢). وهنا نلاحظ أنه لايوجد دليل على أن فرقة الإنكشارية كانت أداة للتحول القسرى إلى الإسلام عن طريق إدخال أولاد المسيحيين إلى الجيش العثمانى قبل عهد السلطان مراد الأول (١٣٦٢ ـ ١٣٨٩). ولما كان المؤرخون يجمعون على أن الإنكشارية لم يجندوا إلا من مسيحيى أوربا، فلم يكن باستطاعة أورخان أن يفكر فى القيام بذلك، لأن المشكلة التى جرى حلها بهذه الكيفية لم تنشأ إلا بعد وفاته(٣).

ويقال إن مصطلح «إنكشارية ـ ينى شرى» مصدره درويش هو الحاج بكتاش الذى سنتناول الحديث عنه بعد قليل. ذلك أن السلطان أورخان قد اصطحب الطليعة الأولى من هؤلاء المجندين إلى مسكن الحاج درويش بأماسيا، ورجاه أن يباركهم ويخلع عليهم إسما، فوضع بكتاش كمه فوق رأس أحد الواقفين فى الصف الأول، ثم قال للسلطان: «إن القوات التى أنشأتها ستحمل إسم ينى شرى، وستكون وجوههم بيضاء وضاءة، وستكون

---

(1) Doukas, Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks., p. 135, lodge, The close of the Middle Ages, p. 500.

(2) Hearsey, City of Constantine, p. 185, Creasy, Turkey, p. 19. Schevill, The Hist. of the Balkans, p. 182.

دائرة المعارف الإسلامية، مادة «الإنكشارية».

(٣) عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق، ص ٤٣.

أذرعهم اليمنى قوية، وسيوفهم بتارة، وسهامهم حادة، وسيوفقون فى المعارك، ولن يبرحوا ميدان القتال إلا وقد انعقدت لهم ألوية النصر» . وتخليداً لبركة الحاج بكتاش، كان الإنكشارية يضعون على رؤوسهم قلنسوة من الصوف الأبيض، شبيهة بقلنسوة الدرويش من خلفها قطعة طويلة من القماش اسطوانية الشكل، باعتبارها رمزاً لكم الحاج بكتاش الذى بارك به رقبة زميلهم(١).

وثمة فريق من المؤرخين يتشككون فى صحة تلك الرواية بل ينفونها نفياً باتا، على أساس أن الحاج بكتاش كان قد توفى قبل إنشاء فرق الإنكشارية بقرن من الزمان. ولكن الثابت تاريخيا أن الإنكشارية كانوا ملتصقين التصاقا قوياً بالطريقة البكتاشية(٢).

وبوصفهم عبيداً للسلطان (بالتركية قول)، فإن الإنكشارية كانوا يربون فى روح ولاء وانضباط مطلقين. وكان يجرى إنزال العقاب عن المخالفات التى يرتكبها أى انكشارى عن طريق الضرب بالعصى، أو التنقل الذى ينزل بالمخالفين إلى رجال حاميات عاديين فى قلاع المقاطعات. وفى الأصل، كان يحرم على الإنشكارية الزواج طالما يقومون بالخدمة العسكرية، وألغى هذا التحريم فى عهد السلطان سليم الأول (١٥١٢ ـ ١٥٢٠)، ويشير هذا إلى مرحلة هامة فى تطور الإنكشارية. فمنذ ذلك الوقت كتب چيفرى حوالى عام ١٥٤٠ قائلاً: «يسكن المتزوجون مع زوجاتهم، ويسكن الآخرون فى بيوت معينة خاصة بهم، منظمين فى أى مكان أوحى من إستانبول، حيث يسكن كل ثمانية أو عشرة أو إثنى عشرة أو أكثر معاً»(٣).

ويتضح من السجلات العثمانية أن عدد فرقة الإنكشارية فى الأصل كان ستة آلاف إنكشارى، ثم نمت وازداد عددها سنة بعد أخرى، ففى عهد السلطان مراد الأول وصل عددها إلى عشرة آلاف انكشارى، وفى عهد محمد الفاتح ١٢٠٠٠، وفى عهد سليمان القانونى ٢٠٠٠٠، وفى عهد محمد الرابع ـ منتصف القرن السابع عشر ـ لم يزد عدد

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية، مادة «إنكشارية»، عبد الرحيم مصطفى: فى أصول التاريخ العثمانى، ص ٤٣، القرمانى: أخبار الدول وآثار الأول، ص ٢٩٩،

Creasy, Turkey, p. 4.

(٢) عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية، جـ١، ص ٤٨١.

(٣) چيل ڤينشتاين: «الإمبراطورية العثمانية فى عظمتها»، فى تاريخ الدولة العثمانية، جـ١ إشراف روبير مانتران، ترجمة بشير السباعى، ص ٢٨٩ ـ ٢٩٠.

الفرقة عن ٤٠٠٠٠، وفى خلال ٣٠٠ سنة قدر أن ما يزيد عن خمسة ملايين من الأطفال المسيحيين قد أصبحوا إنكشارية(١).

ولم يكن هناك لأحد سيادة على الإنكشارية سوى قائدهم والسلطان العثمانى. وكان معروفا عنهم شهرتهم كمحاربين مهرة وولائهم المطلق للسلطان. وحاربوا كمشاة استخدموا السهام. والإنكشارية جعلوا الجيش العثمانى من أفضل جيوش العصر، إن لم يكن أفضلها(٢)، حتى القرن السابع عشر.

ولاشك أنه لايمكن اتهام السلطان العثمانى بأنه سار على سياسة شاملة تتجه إلى التتريك أو العمل على اعتناق الإسلام بالإجبار. ومن الواضح أنه يجند الإنكشارية من الرعايا المسيحيين ويحولهم إلى عثمانيين، لكن النسبة المئوية للأولاد المجندين لتشكيل قوة الإنكشارية ضيلة جداً بالقياس إلى حجم سكان الإمبراطورية العثمانية. وفضلا عن ذلك، فإن الانضمام إلى الإنكشارية، التى تعتبر نخبة، يتيح للعناصر القادرة فرصة الوصول إلى أعلى المناصب، ولهذا لم يكن التجنيد الإجبارى للأولاد المسيحيين يقابل دائما استقبالا سيئا من جانب الرعايا المسيحيين(٣).

وفى حوالى سنة ١٥٠٠م تم تسليح الإنكشارية ببنادق يدوية، وكان رسوخ أقدامهم فى القتال، وترابطهم فى جماعات محاربة، ومهاراتهم فى استخدام هذه الأسلحة قد تسبب فى اندحار الجيوش المملوكية، وفى التعجيل بفتح العثمانيين لبلاد الشام ومصر خلال عامى ١٥١٦ و١٥١٧. كما شتت الإنكشارية آخر محاولة يائسة لسلاح الفرسان المسيحى فى معركة موهاكس الفاصلة، تلك المعركة التى انتهت بانتقال مملكة المجر لحكم السلطان سليمان القانونى فى سنة ١٥٢٦(٤).

---

(1) Derekson, The Crescent and the Crass. p. 115.

(٢) جوزيف داهموس: سبع معارك فاصلة فى تاريخ العصور الوسطى، ترجمة محمد فتحى الشاعر (القاهرة ١٩٨٧)، ص ١٩٩.

(٣) نيكورا بيلدبسينو: «تنظيم الإمبراطورية العثمانية (القرنان الرابع عشر والخامس عشر)»، فى تاريخ الدولة العثمانية، جـ١، ص ١٩٨.

(٤) كولز: العثمانيون فى أوربا، ص ٥٦.

وفى الأوقات التى لم تكن تستلزم قيام الإنكشارية بمهام الحرب كان يعهد إليهم بالمحافظة على الأمن فى أهم مواقع الإمبراطورية العثمانية. وفى إستانبول كانوا يقومون بحراسة الديوان أثناء اجتماعاته التى يرأسها السلطان، كما كانوا يقومون فى المدينة بمهام الشرطة وقوة المطافىء وبحراسة بوابات المدن الهامة والحصون، ويشكلون قوات الشرطة فى الولايات. وقد زاد محمد الفاتح رواتب الإنكشارية وامتيازاتهم إلى حد كبير بعد فتح القسطنطينية. وحين اتسع ملك العثمانيين فى أوربا جرى اختيار غلمان الإنكشارية من أوربا بدلا من آسيا، وبخاصة من بلغاريا وألبانيا والبوسنة. على أنهم مالبثوا أن شكلوا قوة سياسية فى الدولة. ففى أواخر القرن الخامس عشر قاموا بثورة أمكن إخمادها. ومنذ عهد محمد الفاتح أصبح من المعتاد أن يقوم كل سلطان جديد بتوزيع «نقود الإنكشارية» لضمان ولائهم[1].

وعلى أية حال، وجد السلاطين العثمانيون فى الإنكشارية ولاء وإخلاصا وشجاعة فى القتال، حتى صاروا مصدر رعب وفزع لأوربا المسيحية، فهم الذين اقتحموا أسوار القسطنطينية سنة ١٤٥٣[2]. وفى ذلك يقول المؤرخ لودج[3] Lodge: «ولمدة قرنين لم تستطع أية قوة حربية التغلب على الإنكشارية.. وبفضلهم ضمن العثمانيون انتصار الهلال بأطفال الصليب، ودربوا الأولاد المسيحيين على تدمير استقلال ونفوذ بلادهم وكنيستهم» .وفيما بعد تغيرت أحوال الإنكشارية، فصاروا مصدر الأذى والخراب لحياة كل سكان تركيا، بما فيهم السلطان العثمانى نفسه، الأمر الذى جعله السلطان المستنير محمود الثانى يصدر أمراً بالقضاء عليهم فى سنة ١٨٢٦ لترتاح منهم الناس[4].

السباهية:

كانت قوة الفرسان التى يكونها السباهية أكبر قوات الدولة العثمانية العسكرية، وكانوا يقومون بما يوكل إليهم من مهام عسكرية، مقابل الإقطاعات اتى منحتها لهم الدولة

---

(1) Castellan, Hist of the Balkans., p. 75,

عبد الرحيم مثطفى: المرجع السابق، ص ١٢٥.

(2) Hearsey, City of Constantine 324-1453, p. 228.

(3) The Close of the Middle Ages., p. 500.

(4) Hearsey, op. cit., p. 228, Eliot, Turkey in Europe., p. 60.

مقدما. وبعبارة أخرى كان السلطان يمنح أرضا زراعية لأفراد من الفرسان، ويستقرون فيها ويشرفون على زراعتها بمساعدة الفلاحين الذين كانوا يتولون زراعتها بصفتهم مستأجرين.وكانت هذه الأراضى تسمى إقطاعيات، وكان يطلق على الفرسان الذين يحصل عليهم الجيش العثمانى عن طريق الإقطاع الحربى إسم السباهية[١].

وينسب إلى أورخان (١٣٢٤ ـ ١٣٦٢) استخدام السباهية فى الجيش العثمانى لأول مرة، وقاموا فى بداية الأمر بمهمة الحرس الشخصى للسلطان، وبتزايد عددهم أصبحوا يشكلون قلب الجيش وعصبه، وكان القوس والسهم سلاحهم الرئيسى، أو على الأقل السلاح الذى استخدموه ضد العدو عندما كانوا يهاجمون بخيولهم السريعة. وما أن تنفذ سهامهم، ويصبحوا على مقربة من العدو، فإنهم يستخدمون الرماح والسيوف المعقوفة والوحيد الحد، وكذلك الخناجر[٢].

ومن المعروف أن العثمانيين احتفظوا بمبدأ كان متبعا أيام السلاجقة يقضى بأن تقسم الأراضى المفتوحة إلى إقطاعيات متفاوتة المساحة والقيمة، تعطى أقلها للسباهية لقاء خدماتهم العسكرية، وتعطى أحسنها وأكبرها بصفة (زعامت) للقادة الأكبر مركزاً وكفاية قتالية، بشرط أن يسلحوا عدداً من الجند يتناسب مع إقطاعياتهم. ولما كانت أراضى السباهية وراثية، فقد ولدت نوعاً من الارستقراطية الزراعية متينة الأساس، وكانت هذه الطبقة من الناس التى تتوقف مصالحها وإيراداتها على الرواج الاقتصادى فى القرى الممنوحة لها، كانت تمثل الحكومة ـ على نحو ما ـ فى مناطقها، وكان لها دور كبير فى تقدم الدولة العثمانية فى القرن الخامس عشر فى رخائها[٣].

وكان الإقطاع الذى يمنح للسباهى يطلق عليه التيمار Timar ويطلق على حائزه تيمار جى»، وكانت الأرض ملكا للسلطان، ولم يكن لورثة صاحب التيمار أى حقوق قانونية فى وراثتها (وإن كان الميراث هو العرف المرعى). وكان أصحاب هذه الإقطاعيات ملزمين أن يتجمعوا ومعهم أسلحتهم وخيولها عندما يستعدون لأداء الواجب العسكرى،

---

(١) عد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية، جـ١، ص ١٣٠.
(٢) جوزيف داهموس: سبع معارك فاصلة، ص ١٩٨.
(٣) فؤاد كوبريلى: قيام الدولة العثمانية، ص ١٧٠ ـ ١٧١.

وكان عليهم أن يحضروا معهم جنداً آخرين ويدفعوا لهم أجورهم، بما يتناسب تناسبا طردياً مع مساحة الإقطاع الحربى ومع الإيرادات التى تغلها هذه الإقطاعيات(١). وكان أصغر السباهية مركزاً يذهبون إلى الحرب دون أتباع، راكبين خيولهم، ويرتدون صديريات من الزرد ومعهم خيامهم(٢).

وهكذا كان الإقطاع أو التيمار يقوم مقام المرتب فى مقابل استمرار السباهية فى القيام بواجباتهم العسكرية وإعالتهم لأتباعهم وإمدادهم بالأسلحة والمؤن والطعام، مما تحتاج إليه الحملة العسكرية. وكان السباهية يعيشون فى القرية التى توجد بها أراضى التيمار ويقومون بجباية الضرائب من الفلاحين، وهى فى العادة ضرائب نوعية. وكان على الفلاحين أن يوفروا للسباهية نصف المحصول، بالإضافة إلى كميات من العلف والدريس والخشب. وكان بإمكان الفلاح أن يشغل الأرض طالما يقوم بزراعتها ويدفع الضرائب المقررة عليها، كما كان بإمكانه أن يورث أبناءه حق شغلها. وفضلا عن الدخول التى كان التيمارى يستقيها من الضرائب التى يدفعها الفلاحون، كان بإمكانه أن يخصص لنفسه قطعة من الأرض يقوم الفلاحون المأجورون أو فلاحو التيمار بزراعتها. وإلى جانب مسئولية التيمارى عن ضمان فلاحة الأرضى وتحصيلها، كان يضطلع بحفظ الأمن فى القرى، وفى أوقات الحروب كان عشرة بالمائة من التيماريين يبقون فى السنجق لحفظ الأمن وجباية الضرائب(٣).

وكان نظام الإقطاع العثمانى من وجهة نظر الفلاحين، ذا مزايا متعددة، ذلك أن السيد الإقطاعى غالبا مايكون غائبا فى المعارك طوال فترة الصيف منكبا على جمع الغنائم والأسلاب، يوليها اهتماماً أكثر من اهتمامه باغتصاب ما يملكه الفلاحون التابعون له(٤). ومن مزايا هذا النظام أنه ساعد على التوسع الأفقى والرأسى فى زراعة مساحات شاسعة من الأراضى داخل الأقاليم العثمانية فى أوربا وفى آسيا، واطمأنت الدولة إلى أن جهوداً صادقة تبذل للنهوض بزراعتها بدافع المصلحة المشتركة بين الأتباع الإقطاعيين وبين الفلاحين.

---

(١) مالكولم: البوسنة، ص ٨٠ ـ ٨١.
(٢) عبد العزيز الشناوى: المرجع السابق، حـ ١ ص ١٣٣.
(٣) عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق، ص ١٢٧.
(٤) كولز: العثمانيون فى أوربا، ص ١١٤.

كما أن هذا النظام كفل للدولة الحصول فى زمن الحرب على قوات من الفرسان كانت تبلغ فى بعض الأحيان مائتى ألف رجل دون تكاليف، لأن التابع الإقطاعى كان يذهب إلى الحرب ومعه جواده وسلاحه(١). وفوق كل هذه المزايا وأهمها المستوى الحربى العالى الذى كان يتمتع به الفرسان الإقطاعيون، وقد قرر المؤرخ التركى أحمد جودت «أن أقوى قوات قتالية فى الدولة العلية كانت تتكون من أصحاب التيمارات والزعامات»(٢).

وعلى أية حال، إذا أجرينا مقارنة بين حياة الفلاح فى ظل الإقطاع العثمانى وحياته فى البوسنة الإقطاعية قبل العهد العثمانى، نلاحظ أن حياته فى ظل الإقطاع العثمانى كانت بالفعل أفضل، وبخاصة فى السنوات الأخيرة السابقة على الغزو التركى، عندما كان الناس يرزحون تحت عبء الأثقال المالية الإضافية الضخمة التى تطلبها الدفاع عن البوسنة ضد العثمانيين، ودفع الجزيات اللازمة لإرضائهم. وها هو ذا الملك ستيفن توماشوفيتش يكتب فى أحد التماساته التى وجهها يطلب النجدة والمساعدة قبل الغزو: «يبدى الترك نحو الفلاحين شعوراً ملؤه الرفق. وهم يعدون كل من ينطلق إليهم بأن يكون حراً، ويرحبون بهم بمنتهى اللطف.. والناس سيخدعون بمثل هذه الحيل للتخلى عنى»، على أن هذه الحيل لم تكن من بعض النواحى خدعة(٣).

البكتاشية:

لعبت الطريقة البكتاشية دوراً هاماً فى تاريخ الدولة العثمانية فى القرن الرابع عشر الميلادى، وقد اشتهرت تلك الطريقة باسم مؤسسها الحاج بكتاش، الذى كان يعتبر قديس الأناضول فى ذلك القرن. وقد أرسل إليه ـ كما ذكرنا ـ السلطان أورخان (١٣٢٦ ـ ١٣٦٢) عدداً كبيراً من الإنكشارية ليدعوهم بالخير والتوفيق، فدعا لهم الحاج بكتاش بالنصر على الأعداء(٤). وتتفق المصادر المتأخرة على أن الحاج بكتاش لم يؤسس الطريقة البكتاشية، بل كان مؤسسها الحقيقى فارس غامض يدعى فضل الله، إذ أن التاريخ

---

(١) عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية، جـ ١ ص ١٣٨.

(٢) نفس المرجع والصفحة.

(٣) مالكولم: البوسنة، ص ٨٢ ـ ٨٣.

(4) Hasluck (F.W.), "Christianity and Islam Under the Sultans". Ed. by Margaret M. Hasluck, Vol. I (New York, 1973), p. 159.

التقليدى لوفاة الحاج بكتاش سنة ١٣٣٧ ـ ١٣٣٨ أمر يدعو إلى الشك إلى حد كبير، فى حين أن فضل الله مات فى سنة ١٣٩٣ ـ ١٣٩٣ شهيداً على أيدى أحد أبناء تيمور لنك، وبعدموته بوقت قصير قدم تلاميذه تعاليمه إلى نزلاء صومعة الحاج بكتاش نفسه[١].

ويرى محمد فؤادكوبريلى[٢] أنه ليس من التاريخ فى شيء ما يقال من أن الحاج بكتاش قد لاقى السلاطين العثمانيين أو أنه لعب دوراً فى إنشاء الجيش الإنكشارى. ومع أن الطريقة البكتاشية كانت موجودة فى القرن الرابع عشر، فإنها لم تكن أكبر أهمية من سائر الطرق الأخرى، وإنما بلغت البكتاشية أهميتها فيما بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر[٣].

ويقرر البعض أن الحاج بكتاش يعتبر مؤسس طائفة الدراويش التى تحمل إسمه، كما أنه بارك الإنكشارية، ولذلك كان داعية ومحاربا. ويقال إنه من خلال مريديه أسس سبعمائة تكية للدراويش، بمعدل واحدة فى كل المدن التى فتحها أورخان، وفى الأخيرة اشترك مع أورخان فى حصار مدينة بروسة[٤]. وأقدم كاتب أوربى تحدث عن الحاج بكتاش هو چورچ المجرى، الذى قضى فترة طويلة من الأسر فى تركيا بالقرب من إسكى شهر فى السنوات الأولى من القرن الخامس عشر، وعرفه بالقديس وراعيا للحجاج. أما عاشق باشا زادة أقدم مؤرخ تركى، والذى كانت عائلته من منطقة كيرشهر Kirshehr، حيث دفن الحاج بكتاش، فإنه ينكر ارتباط بكتاش بالسلطان أورخان، قائلا: «لم يكن للحاج بكتاش مطلقاً أى علاقة بالسلاطين العثمانيين، فقد أتى من خراسان مع أخيه منتش Mentish، واستقروا فى سيواس بالقرب من «بابا إلياس»، ثم توجها بعد ذلك إلى قيصرية. ومن هذه المدينة رجع أخوه إلى بلدهما عن طريق سيواس، بيد أنه قتل فى الطريق. أما بكتاش فبينما كان فى طريقة من قيصرية إلى كازايوك مات، ودفن هناك، حيث لازال يوجد قبره المقدس»[٥].

---

(1) Ibid., p. 160.

(٢) قيام الدولة العثمانية، ص ١٦١.

(٣) نفس المرجع والصفحة.

(4) Hasluck, op cit., Vol. II, p. 488.

(5) Ibid.,pp. 488-489.

ويقـال إن والد بكتـاش ظهـر أنه السـيـد سلطان إبراهيم، الذى كـان حـاكـمـا لولاية خراسان.وعندما ولد أطلق عليه والده إسم بكتـاش، ويعنى ذلك «الصـاحب فى الرتبة»، أو «المساوى لأمير». وعندما بلغ بكتاش سن الرابعة، عهد به والده إلى شخص يدعى لقمان بيرند لتعليمه، وهو أحد حوارى أحمد يسيفى Ahmed Yesevi الشيخ التركى الشهير فى آسيا الوسطى. ولم يكد لقمان يدخل حجرة الدراسة حتى رأى شخصين يعلمان بكتاش القرآن الكريم. وعندما سأله والده عن هذين الشخصين، أجاب أن الشخص الذى كان على يمينه هو جده «محمد المصطفى عليه الصلاة والسلام»، وأما الذى كان على يساره فهو «عمود القدسية، حامل كأس الكوثر، أسد الله، سيد العالم، قائد المؤمنين على المرتضى». وأضاف بكتاش أن أحدهما كان يعلمه العلم الخارجى والآخر العلم الباطنى، وكان الإثنان يستخدمان القرآن الكريم، ويزعم بكتاش أنه أخذ من على بن أبى طالب القوة التى تمكنه من صنع المعجزات، كما منحه على بن أبى طالب. «علامة»، وهى بقعة خضراء مضيئة فى كف يده، وبقعة مشابهة فى جبهته. ويقال إن لقمان أراد بعض الماء للوضوء، بدأت الماء تنساب من يد بكتاش وعندئذ اندهش لقمان وصاح قائلا: "Ya Hunkâr" ومعناها «آه أيها السيد». ولازال هذا اللقب يستخدم حتى الآن(١).

أما اللقب الثانى الذى عرف به بكتاش، فهو الحاج. وفى ذلك يروى أن معلمه لقمان توجه إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج،وبعد أن طاف حول الكعبة توجه إلى جبل عرفات، وهناك وقف لقمان ومعه أصحابه، ولاحظ أن اليوم الذى توجه فيه إلى عرفات هو اليوم السابق على تقديم الأضحية، وفى الحال جلب له بكتاش صينية حافلة بالطعام، وبذلك أعطى بكتاش لقب حاج(٢).

ومن المعجزات التى تروى عن الحاج بكتاش أن أحمد يسيفى أرسله إلى بلاد الروم، وهو الإسم الذى أعطاه المسلمون لآسيا الصغرى، بعد أن أعطى له إقليم سلوسا كارايوك Soluca kara Uyuk، وفى أثناء سفره حدثت معجزات، فنسب إليه أن أسدين قد هاجماه. ولكنهماسرعان ما تحولا إلى حجر. وعندما مر على نهر ملىء بالسمك، خرج

(1) Birge (John Kingsley), The Bektashi Order of Dervishes. (London, 1965), p. 36.

(2)Ibid., p 36.

السمك من الماء وحياه. وقد زار الحاج بكتاش أولا مكة المكرمة . والمدينة المنورة، ودمشق، وحلب، ثم بعد ذلك آسيا الصغرى، حيث توجه إلى عين تاب وإبلستين وقيصرية. وقد خاف الدراويش أن يأخذ الحاج بكتاش مكانتهم، فأغلقوا الحدود لمنعه، فما كان منه إلا أن قفز إلى ذروة عرش الرحمن، حيث حملته الملائكة. ثم غير شكله إلى حمامة وهبط إلى الأرض على صخرة فى سلوسا كارايوك، وهناك أتى إليه المريد يزيد البسطامى فى شكل نسر، ثم تحولت الحمامة إلى رجل وأمسك بالنسر، ثم أرسله الحاج بكتاش لدعوة الدراويش لمقابلته، وبعد أن اجتمعوا به شاهدوا معجزات حدثت على يديه[١].

ومن أشهر المعجزات التى جاءت فى التراث البكتاشى، أن السيد محمود حيران من آكشيهر AK Sehir سمع عن الحاج بكتاش، فتوجه لمقابلته، ولكى يريه مدى ما عليه من قوة امتطى ظهر أسد، واستخدم ثعبانا سوطا يلهب به ظهر الأسد، وسار ومعه ثلاثمائة من مريديه. ولكن بكتاش نشر سجادته على صخرة كبيرة، وأمر الصخرة بالتحرك. وعندما التقى الرجلان ذكر بكتاش أنه من السهولة أن تركب حيوانا وتسوقه، ولكن أن تجعل صخرة لاحياة فيها تتحرك، فتلك هى المعجزة. وتبادل الرجلان الحديث، وتركا الصخرة واقفة حيث يمكن لأى شخص أين يراها حتى الوقت الحاضر![٢].

(1) Ibid., pp. 36-37.

(2) Ibid.,p. 39.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع العربية والمعربة

إبراهيم على طرخان: (دكتور)

مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة (القاهرة ١٩٦٥).

إبن الأثير: (على بن أحمد بن أبى الكرم، ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٨م)

الكامل فى التاريخ، ٩ أجزاء (المطبعة التجارية بالقاهرة).

أحمد عبد الرحيم مصطفى: (دكتور)

فى أصول التاريخ العثمانى (القاهرة ١٩٩٣).

أحمد كمال الدين حلمى: (دكتور)

السلاجقة فى التاريخ والحضارة. (الكويت ١٩٧٥).

أحمد مختار العبادى: (دكتور)

دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس (القاهرة ١٩٦٨).

أرنولد (توماس):

الدعوة إلى الإسلام، ترجمة د. حسن إبراهيم حسن، د. عبد المجيد عابدين، إسماعيل النحراوى (القاهرة ١٩٧٠).

أومان (تشارلز):

الإمبراطورية البيزنطية. ترجمة د. مصطفى بدر (القاهرة ١٩٥٣).

إيڤانوف (نيقولاى):

الفتح العثمانى للإقطار العربية ١٥١٦ ـ ١٥٧٤م، ترجمة يوسف عطا الله، مراجعة د. مسعود ضاهر (بيروت ١٩٨٨).

بارتولد (و):

تاريخ الترك فى آسيا الوسطى، ترجمة د. أحمد السيد سليمان (القاهرة ١٩٥٨).

بروكلمان (كارل):

تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس، منير البعلبكي (بيروت ١٩٦٥).

إبن بطوطة: (أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي، ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧)

مهذب رحلة ابن بطوطة (القاهرة ١٩٣٤).

بوزورث (كليفورد. أ.):

الأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة حسين على اللبودى، مراجعة د. سليمان ابراهيم العسكرى (القاهرة ١٩٩٥).

بيلد بسينو (نيكورا):

«تنظيم الإمبراطورية العثمانية (القرنان الرابع عشر والخامس عشر)»، فى كتاب تاريخ الدولة العثمانية، جـ ١ إشراف روبير مانتران، ترجمة بشير السباعى (القاهرة ١٩٩٣).

جرامون (چان لوى باكو):

«أوج الإمبراطورية العثمانية (١٥١٢ ـ ١٥١٦)»، فى كتاب تاريخ الدولة العثمانية، جـ ١ إشراف روبير مانتران، ترجمة بشير السباعى (القاهرة ١٩٩٣).

جوزيف نسيم يوسف: (دكتور)

العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى (القاهرة ١٩٦٧).

حسن أحمد محمود: (دكتور)

الإسلام والحضارة العربية فى آسيا الصغرى بين الفتحين العربى والتركى (القاهرة ١٩٦٨م).

حسن بيرنيا:

تاريخ إيران القديم من البداية حتى نهاية العهد الساسانى (القاهرة ١٩٧٩).

حسن حبشي: (دكتور)

الحرب الصليبية الأولى (القاهرة ١٩٥٨).

حسنين محمد ربيع: (دكتور)

دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية (القاهرة ١٩٦٨).

حسين مؤنس: (دكتور)

إبن بطوطة ورحلاه (القاهرة ١٩٨٠).

حكيم أمين عبد السيد: (دكتور)

قيام دولة المماليك الثانية (القاهرة ١٩٦٧).

إبن خلدون: (عبد الرحمن بن محمد، ت ٨٠٨هـ/ ١٥٠٥م).

العبر وديوان المبتدأ والخبر، المجلد الخامس (بيروت ١٩٦٨).

خليلك إيناجيك:

«الدولة والرعايا»، ترجمة عبد اللطيف الحارس، مجلة الاجتهاد، السنة الحادية عشرة، عدد ٤١، ٤٢ سنة ١٩٩٩م.

«العثمانيون، النشأة والازدهار». ف كتاب تاريخ الدولة العثمانية، جـ١ إشراف روبير مانتران، ترجمة بشير السباعى (القاهرة ١٩٩٣).

دائرة المعارف الإسلامية

داهموس (جوزيف):

سبع معارك فاصلة فى تاريخ العصور الوسطى، ترجمة د. محمد فتحى الشاعر (القاهرة ١٩٨٧).

ديل (شارل):

البندقية جمهورية أرستقراطية، تعريب د. أحمد عزت عبد الكريم، توفيق إسكندر. (القاهرة ١٩٤٧)

ديورانت (ول):

قصة الحضارة، الجزء الخامس من المجلد السادس، ترجمة محمد على أبو درة، مراجعة على أدهم (القاهرة ١٩٧٢).

رايس (تاماراتالبوت):

السلاجقة تاريخهم وحضارتهم، ترجمة لطفى الخورى وإبراهيم الدسوقى، مراجعة عبد الحميد العلوجى (بغداد ١٩٦٨).

رنسيمان (ستيفن):

الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، مراجعة زكى على (القاهرة ١٩٦١).

تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة. د. السيد الباز العرينى، ٣ أجزاء (بيروت ١٩٦٧ ـ ١٩٦٩).

زبيدة عطا: (دكتورة)

بلاد الترك فى العصور الوسطى (القاهرة بدون تاريخ).

إبن زنبل: (أحمد الرمال، ت ٩٦٠هـ / ١٥٥٢):

آخرة المماليك، تحقيق عبد المنعم عامر (القاهرة ١٩٦٢).

سالم الرشيدى: (دكتور)

محمد الفاتح (القاهرة ١٩٥٦).

سعيد عبد الفتاح عاشور: (دكتور)

«العلاقات العربية التركية من منظور عربى»، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية (القاهرة ١٩٩١).

الحركة الصليبية، جزءان (القاهرة ١٩٧٨).

أوربا العصور الوسطى، جزءان (القاهرة ١٩٧٨).

العصر المماليكى فى مصر والشام (القاهرة ١٩٦٥).

السيد الباز العرينى: (دكتور)

الشرق الأوسط والحروب الصليبية، الجزء الأول (القاهرة ١٩٦٣).

سبولر (برتولد):

العالم الإسلامى فى العصر المغولى، ترجمة خالد أسعد عيسى، مراجعة د. سهيل زكار (دمشق ١٩٨٢).

عبد العزيز الشناوى: (دكتور)

الدولة العثمانية دولة مفترى عليها، جزءان (القاهرة ١٩٦٥).

عبد القادر أحمد اليوسف: (دكتور)

الإمبراطورية البيزنطية (بيروت ١٩٦٦).

عبد النعيم محمد حسنين: (دكتور)

دولة السلاجقة (القاهرة ١٩٥٧).

سلاجقة إيران والعراق (القاهرة ١٩٥٩).

عزيز سوريال عطية: (دكتور)

العلاقات بين الشرق والغرب. ترجمة فيليب صابر يوسف (القاهرة ١٩٧٢).

عمر كمال توفيق: (دكتور)

تاريخ الدولة البيزنطية (القاهرة ١٩٦٧).

ڤاتان (نيقولا):

«صعود العثمانيين (١٤٥١ ـ ١٥١٢)»، فى كتاب تاريخ الدولة العثمانية، جـ١ إشراف روبير مانتران، ترجمة بشير السباعى (القاهرة ١٩٩٣).

الفارقى (أحمد بن يوسف بن على بن الأزرق الفارقى، مولده سنة ٥١٠هـ/١١١٦م)

تاريخ الفارقى، تحقيق د. بدوى عبد اللطيف عوض (بيروت ١٩٧٤).

ڤامبرى (أرمينيوس):

تاريخ بخارى، ترجمة، د. أحمد محمود الساداتى، مراجعةد. يحيى الخشاب (القاهرة ١٩٦٥).

فؤاد عبد المعطى الصياد: (دكتور)

المغول فى التاريخ (القاهرة ١٩٧٥م)

فينشتاين (چيل):

«الإمبراطورية العثمانية فى عظمتها»، فى كتاب تاريخ الدولة العثمانية، جـ١ إشراف روبير مانتران، ترجمة بشير السباعى (القاهرة ١٩٩٣).

القرمانى: (أبو العباس أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقى الشهير بالقرمانى، ت ١٠١٩هـ).

أخبار الدول واثار الأول فى التاريخ (بيروت، بدون تاريخ).

إبن القلانسى: (أبو يعلى حمزة بن أسد بن على بن محمد التميمى، ت ٥٥٥هـ/ ١١٦٠).

ذيل تاريخ دمشق، ٣٦٠ ـ ٥٥٥هـ، تحقيق د. سهيل زكار (سوريا ١٩٨٣).

كواز (بول):

العثمانيون فى أوربا. ترجمة د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ (القاهرة ١٩٩٣م).

لين بول (ستانلى):

العرب فى أسبانيا، ترجمة على الجارم (القاهرة ١٩٦٤).

أبو المحاسن: (جمال الدين يوسف بن تغرى بردى، ت ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م)

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، ١٤ جزءاً (القاهرة ١٩٢٩ ـ ١٩٧١).

محمد أحمد محمد: (دكتور)

إسلام الإيلخانيين (القاهرة ١٩٨٩).

محمد حرب: (دكتور)

العثمانيون فى التاريخ والحضارة (القاهرة بدون تاريخ)

محمد عبد الله عنان:

مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام (القاهرة ١٩٦٢).

محمد فريد بك:

تاريخ الدولة العلية العثمانية (القاهرة ١٨٩٦).

محمد فؤاد كوبريلى:

قيام الدولة العثمانية. ترجمة د. أحمد السعيد سليمان (القاهرة ١٩٩٣).

محمد محمود إدريس: (دكتور)

تاريخ العراق والمشرق الإسلامى خلال العصر السلجوقى الأول (القاهرة ١٩٨٢).

محمود محمد الحويرى: (دكتور)

بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها فى التصدى للصليبيين (القاهرة ١٩٩٢).

العلاقات المبكرة بين أوربا والمغول (القاهرة ١٩٨٧).

رؤية فى سقوط الإمبراطورية الرومانية (القاهرة ١٩٩٣).

ساحل شرق أفريقية من فجر الإسلام حتى الغزو البرتغالى (القاهرة ١٩٨٦).

النويرى الإسكندرانى: (محمد بن قاسم بن محمد النويرى الإسكندرانى، ت بعد ٧٧٥هـ/ ١٣٧٢م).

الإلمام بالأعلام لما جرت به الأحكام المقضية فى واقعة الإسكندرية، تحقيق د. عزيز سوريال عطية (الهند ١٩٧٣ ـ ١٩٧٦).

هايد (ف):

تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى، أربعة أجزاء، ترجمة أحمد محمد رضا، مراجعة د. عز الدين فودة (القاهرة ١٩٨٥).

إبراهيم على طرخان: (دكتور)

مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة (القاهرة ١٩٦٥).

ويدجرى(اليان . ج):

التاريخ وكيف يفسرونه، جزآن (القاهرة ١٩٩٦).

يلماز أوزتونا:

تاريخ الدولة العثمانية. ترجمة عدنان محمود سلمان، مراجعة د. محمود الأنصارى، جـ ١ (استانبول ١٩٨٨).

ثانيا: المصادر والمراجع الأوربية:

Babinger (Franz):

Mehamed the Conqueror and His Time. Trans. from the German by Manheim. Edited by William C. Hickman. (Princeton, 1978).

Barbaro (Nicolo):

Diary of the Siege of Constantinople 1453. Trans. by Jones (J.R.). (New York, 1969).

Barker (John W.):

Manuel II Palaeologus (1391-1425): A study in late Byzatine Statesmanship. (New Jesey, 1969).

Birge (John Kingsley)

The Bektashi Order of Dervishes (London, 1965).

Brice (W.C.):

"The Colonization of Anatolia", in Bulletin of the John Rylands library. Vol. 38 (1955-1965).

Cahen (Claude):

"The Turkish Invasion: The Selchukids", in Setton (ed.), A Hist of the Crusades. Vol. I (Philadelfia, 1955).

Castellan (Georges)

Hist of the Balkans. from Mohamed the Conqueror to Stalin. Trans. by Nicholas Bradley. (New York, 1992).

Charanis (Peter):

"The Byzatine Empire in the eleventh Century", in Setton (ed.), A Hist of the Crusades. Vol. I.

The Strife among the Palaeologi and the Ottoman Turks., 1370-1402", Byzantion, 16 (1942-1943).

Clissold (Stephen)

A Short Hist of Yugoslavia. (Cambridge, 1966).

Creasy (Sir Edward):

Turkey, revised and ed. by Archibald cary coolidge and W. Harold Clafin(U.S.A., 1928).

Darby (H. C.), Seton -Watson (R.W.)., Auty (Pyyllis Laffan (R.G.D.) and clissold (Stephen). Ed. by c;issold:

A Short Hist of Yuoslavia. (Cambridge, 1966).

Derekson (David):

The Crescent and the Cross Fall of Byzantium :may, 1453. (New York, 1964).

Diehl (Charles):

Byzantium: Greatness and Decline. Trans from french by Naomi Walford. (U.S.A., 1977).

Hist. of Byzantium. (New York, 19w45).

Hist. of the Byzantine Empire. Trans - by G.B. Ives. (U.S.A., 1925).

Eliot (Sir Charles):

Turkey in Empire. (London, 1965).

Fine (John V.A.):

The Bosnian Church, A new interpretation. A Study of the Bosnian Church and Society from the 13th to the 15th Centuries (New York, 1975).

Gibb (H.A.R.) and Bowen (H.):

Islamic Society and the West. Vol I., Islamic Society in the Eighteenth Century.

Grousset (R.):

The Empire of the Steppes. Trans. form the French gy Naomi Walford. (New Jersey, 1970).

L'Empire des Steppes. (Paris, 1948).

Guerdan (Pené):

Byzatium: its triumphs and tragedy. Trans. by D. L.B. Hartley. (New York, 1957).

Hacker (Joseph R.):

Ottoman Policy towards the Jews and Jewish Attitudes towards the Ottomans during the fifteenth Century. Ed. by Benjamin Braud & bernard Lewis. (New York, 1982).

Halecki (O.):

The Crusades of varna. A Discussion of Controversial Problems. (New York, 1943)

Halil Inalcik:

The Ottoman Empire: The classical Age 1300-1600 (London & New York, 1973).

Hearsey (John E.N.):

City of Constantine. 324-1453. (Philadelphia, 1966).

Kritovoulos (Michael):

Hist of Mohamed the conquerer. Trans. from the Greek by charles T. Riggo. (New Jersey, (1945).

Langer (W.L.) and Blake (R.P.):

"The Rise of the Ottoman Turks and its Historical Backgtound", in American Historical Review, 37 (1931-1932).

Lemerle (Paul):

A Hist of Byzatium. Trans by Antony Matthew (New York, 1964).

Levtchenko (M.V.):

Byzance des origines à 1453. (paris, 1949).

Lodge (R.):

The close of the Middle Ages. (London, 1910).

Mantran (Robert):

"Foreign Merchants and the Minorties in Istanbul during the sixteenth and seventeenh centuries.", in Christians and Jews in the Ottoman Empire. Ed. by Benjamin Braude and Bernard Lewwis, Vol. I (New York, 1982).

Nicol (D.M.):

The End of the Byzantine Empire. (London, 1979).

Obolensky (Dimitri):

The Bogomils. A study in Balkam New - Manichaeism - (Cambridge, 1948).

Oliver (R.), Mathew (G.):

Hist of Africa. (Holland, 1967).

Osterhaven (M. Eugene):

Translvania (U.SA., 1968).

Ostrogorsky (G.):

History of the Byzatine State. (New Yersey, 1968).

Pears (Edwin):

The Destruction of thė Greek Empire and the Story of the capture of constantinople by the Turks. (New York, 1968).

Prestage (Edgar):

The Portuguese Pioneers. (London, 1933).

Ratchnevsky (Paul):

Genghis Khan, His life and legacy. Trans. and edited by Thomas Bivison Haining. (U.S.A., 1992).

Runciman (Steven)

The Fall of Constantinople 1453. (Cambridge, 1965).

Roth (Cecil)

The Jewish Contribution to Civilization . (U.S.A., 1940).

Schevill (Ferdinand):

The Hist of balkan Peninsula. From the earliest times to the present day. (New York York, 1933).

Schwoebel (Robert):

The Shadow of the Crescent. (New York, 1967).

Shaw (stanford J.):

Hist of the Ottoman Empire and Modern Turkey. Vol. I (Cambridge, 1977).

Spinka (Motthew):

A Hist of Christianity in the Balkans. A Study in the spread of Byzantine Culture among the slavs (London, 1968).

Stavrianos (L.S.):

The Balkans since 1453. (New York, 1958).

Stripling (George William Frederiek):

The Ottoman Empire and the Arabs. 1511-1571) U.S.A, 1977).

Vasiliev (A.A.):

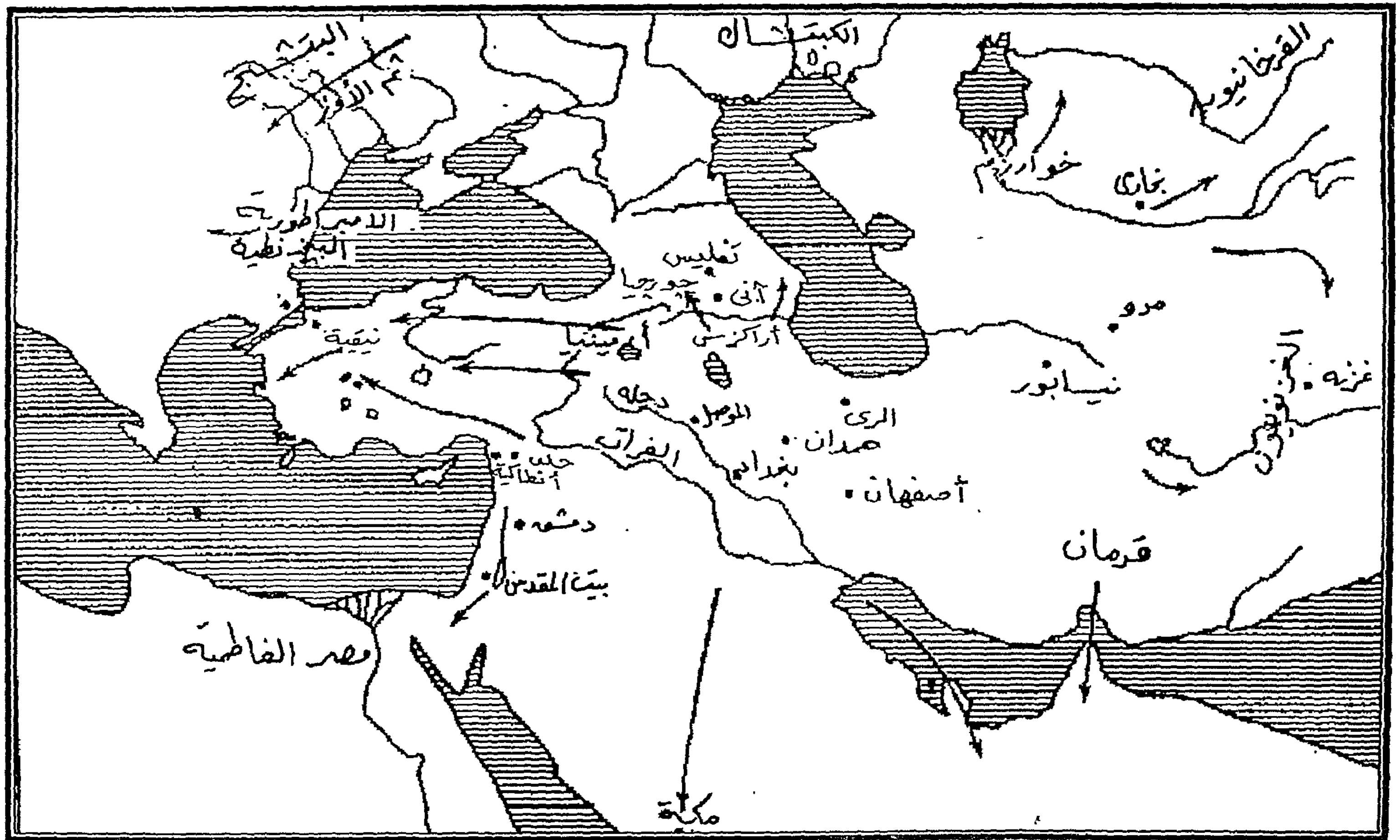
Hist of the Byzantine Empire 324-1453 Vol. II (U.S.A., 1964).

Vryonis (Speros):

The Decline of Medieval Hellenism in Asia Minor and the Process of Islamization from the Eleventh through the fifteenth Century. (London, 1971).

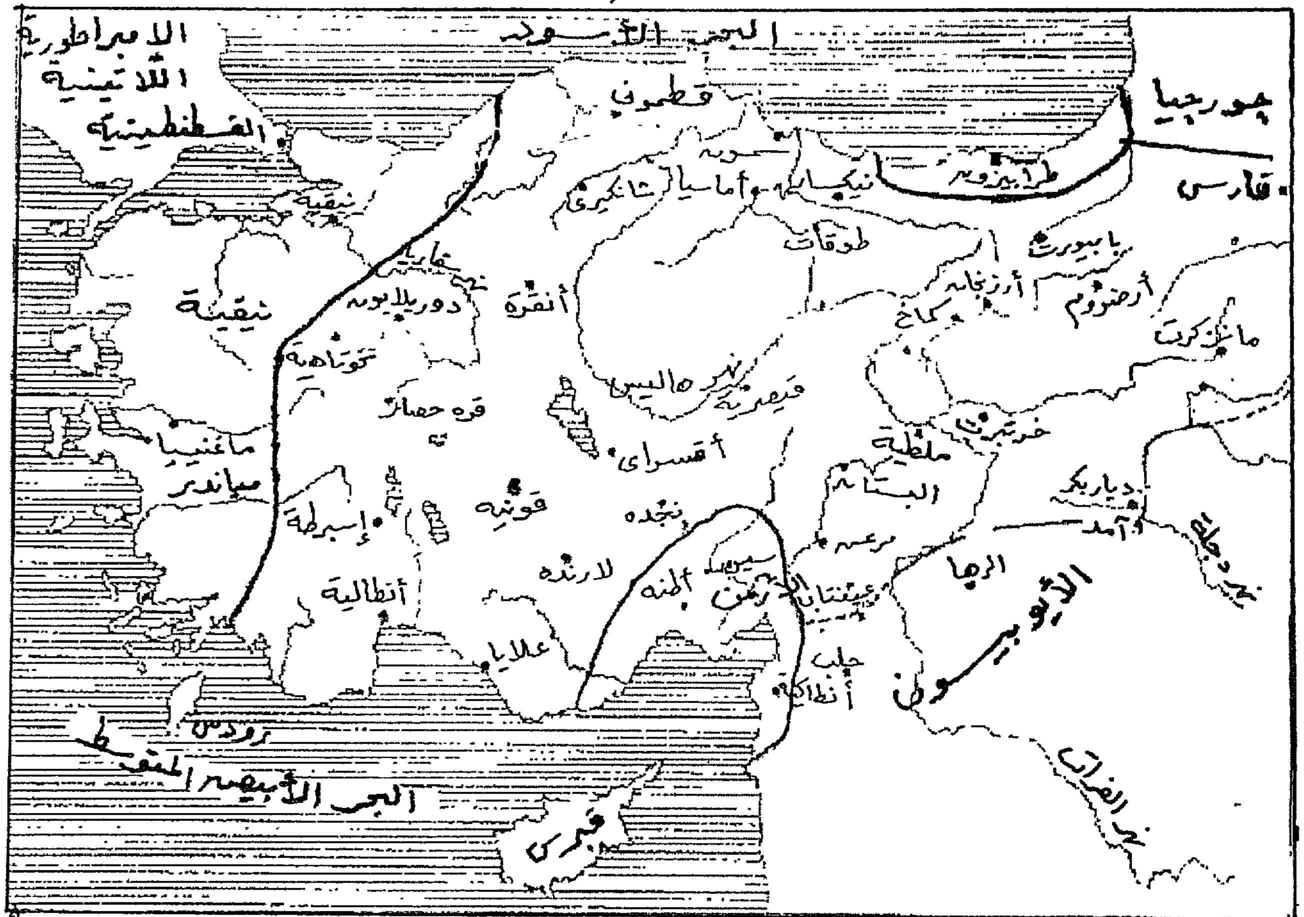
"The Ottoman Conquest of Thessaloniki in 1430", in Continuity and Charge in late Byzatntine and Early Ottoman Society. Ed. by Bruer (Anthony) and Lowery (Heath). U.S.A., 1986).

(١)



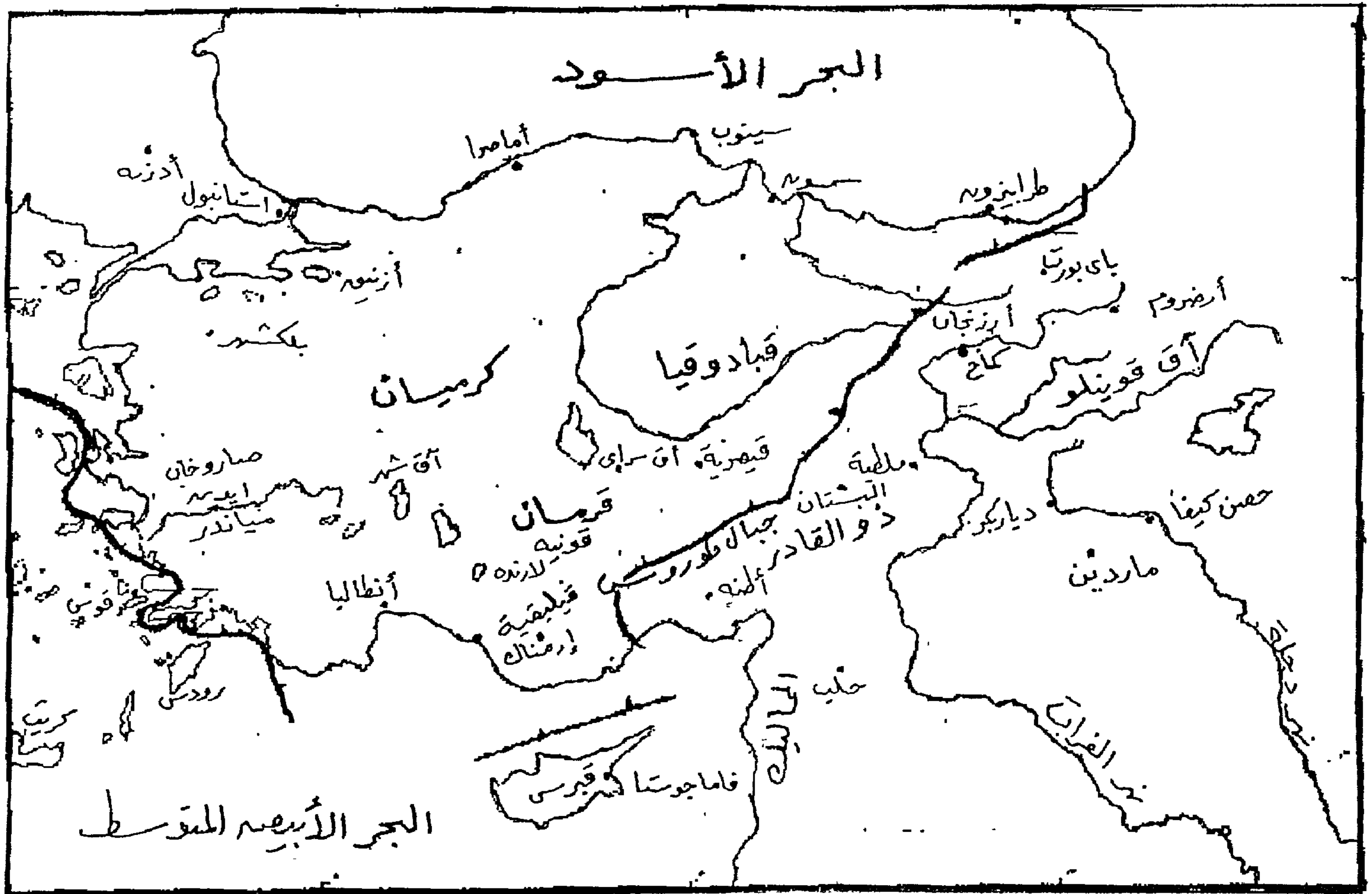
إمبراطورية السلاجقة فى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى

(٢)



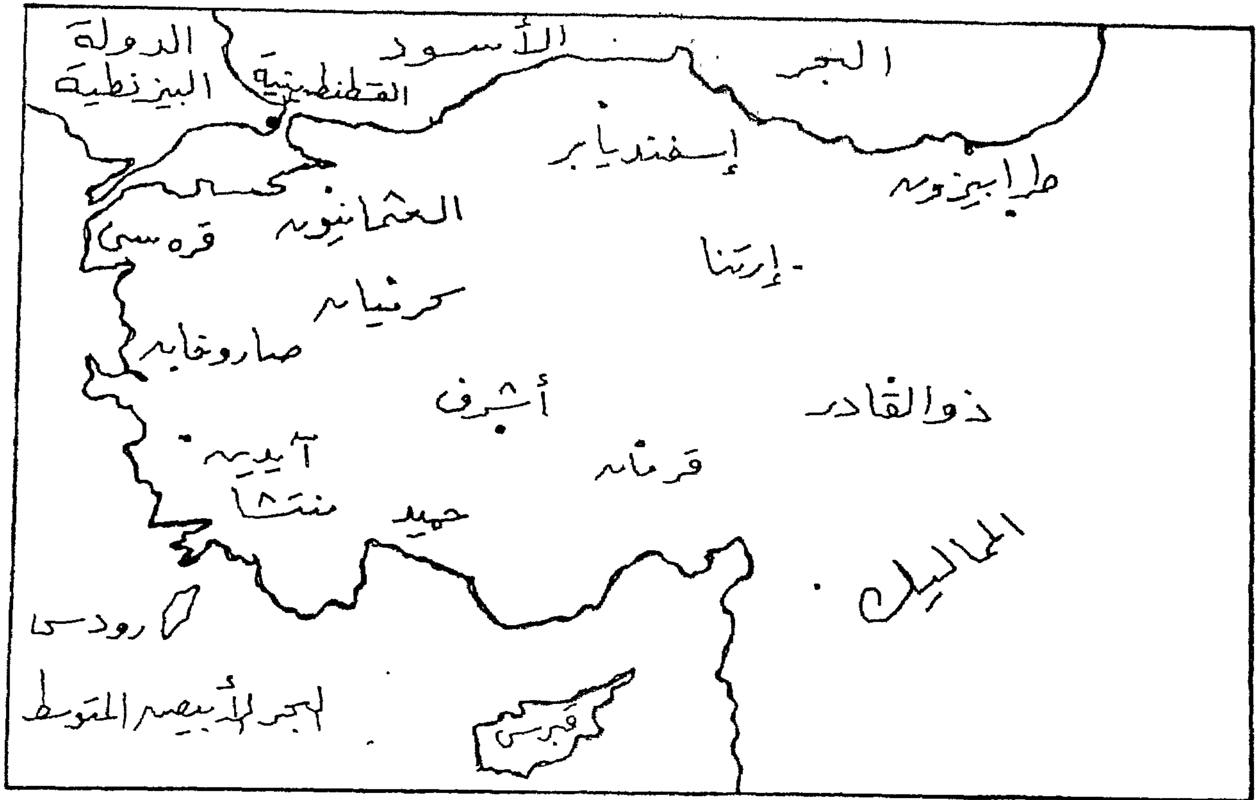
الأناضول قبيل الغزو المغولي

(٣)


البحر الأسود
سينوب
أماصرا
أدرنه
استانبول
طرابزون
باي بورت
أرضروم
أرزنجان
كماخ
آق قوينلو
أزنيق
بكشهر
كرميان
قبادوقيا
قيصرية
آق سراي
ملطية
البستان
ذو القادر
جبال طوروس
حصن كيفا
ديار بكر
ماردين
صاروخان
آق شهر
قرمان
قونيه
لارنده
أنطاليا
قيليقية
ارمناك
رودس
كريت
حلب
فاماجوستا
قبرص
البحر الأبيض المتوسط
نهر الفرات
نهر دجلة

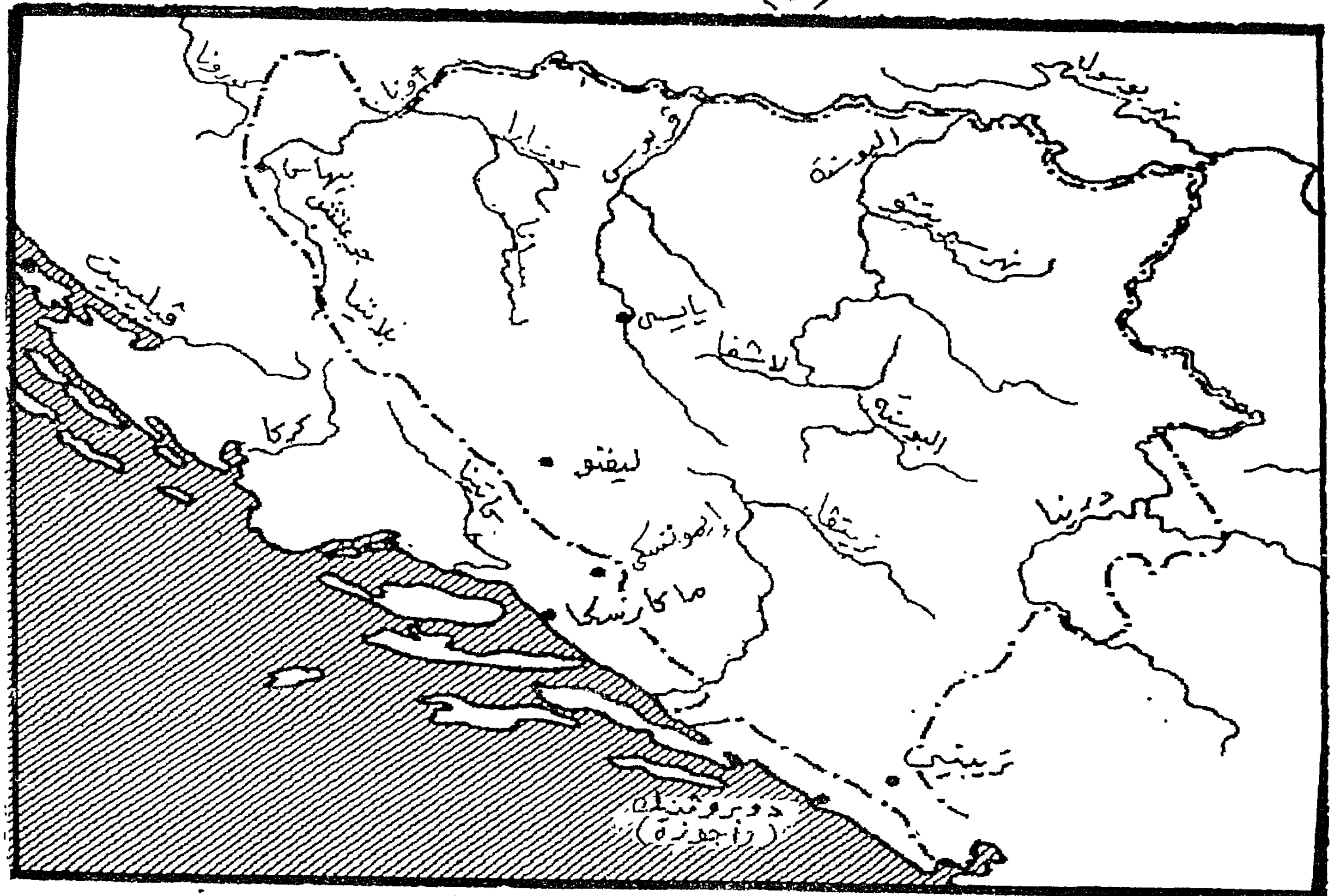
الأناضول

(خ)



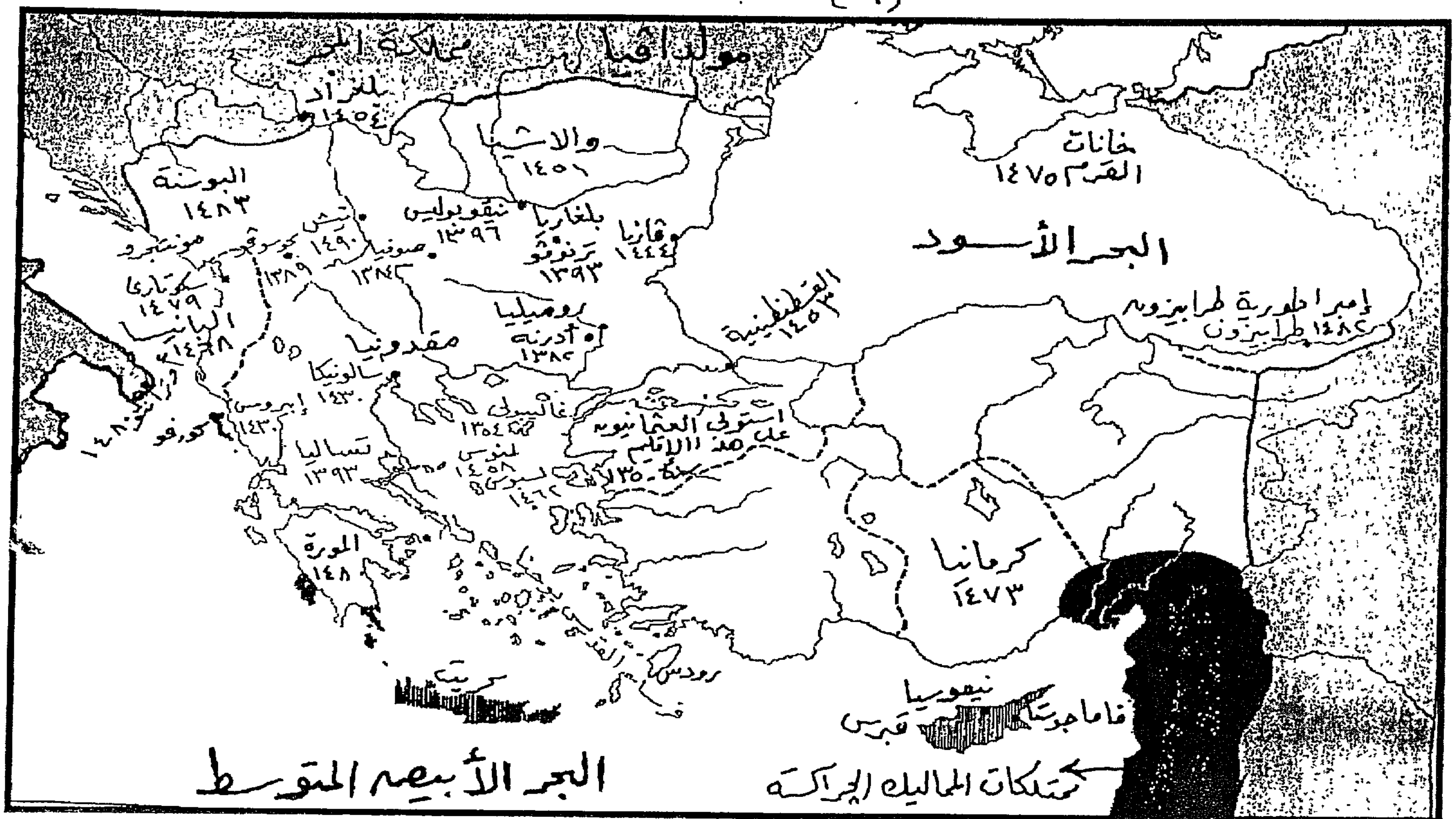
الأناضول في منتصف القرن الرابع عشر

(٥)



البوسنة وهرزيجوفينا (الهرسك) في القرن الخامس عشر

(٦)



فتوحات الدولة العثمانية حتى سنة ١٤٨٠م

الفهرس